قضايا ونظرات

تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغيير الحضاري

تقرير ربع سنوي | العدد السادس والعشرون | يوليو ٢٠٢٢

ملف العدد.. تطورات الشرق: قوى آسيا الصاعدة والدول والأقليات المسلمة

- **عن الذاكرة التاريخية الحضارية للنظام الآسيوي الدولي: تطور أنماط العلاقات بين القوى الإسلامية وأنماط التدخلات الخارجية**

  د. نادية محمود مصطفى

- **القوقاز: الصراعات الجيواستراتيجية وإشكالية الهوية**

  د. أحمد عبد الحافظ فواز

- **السياسة الإقليمية الصينية: استعادة السيادة، وبناء محور استراتيجي**

  أحمد عبد الرحمن خليفة

- **آسيا الوسطى وصراع النفوذ والموارد بين روسيا والصين**

  محمد صلاح عبد العال

- **السياسة الهندية الجديدة ضد المسلمين**

  عبد الرحمن فهيم

مركز الحضارة للدراسات والبحوث
Civilization Center for Studies and Researches

تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغيير الحضاري

قضايا ونظرات

تقرير ربع سنوي

يصدر عن مركز الحضارة للدراسات والبحوث

العدد السادس والعشرون ـ يوليو ٢٠٢٢

إشراف

أ. د/ نادية مصطفى

مدير التحرير

مدحت ماهر

سكرتير التحرير

مروة يوسف

الموقع الإلكتروني: www.hadaracenter.com

المراسلات: alhadara1997@gmail.com

محتويات العدد

مقدمة التحرير، تطورات الشرق: قوى آسيا الصاعدة والدول والأقليات المسلمة..... ٤

رؤية معرفية ٧

د. نادية محمود مصطفى، عن الذاكرة التاريخية الحضارية للنظام الآسيوي الدولي تطور أنماط العلاقات بين القوى الإسلامية وأنماط التدخلات الخارجية: من الفتوح والوحدة إلى الاستعمار والتجزئة..... ٨

ملف العدد- تطورات الشرق: قوى آسيا الصاعدة والدول والأقليات المسلمة ؟ ٢١

أ) القوى الصاعدة وتطورات استراتيجية كاشفة ٢٢

يارا عبد الجواد، التوجُّهات الاستراتيجية لروسيا الاتحادية وعلاقتها مع الغرب ٢٣

إيمان علاء الدين، الحرب الروسية الأوكرانية: أسباب، وتداعيات..... ٣٣

عبد الرحمن عادل، توجُّهات ومسارات الصعود الصيني: الاقتصاد العالمي وما وراءه ٤٧

أحمد عبد الرحمن خليفة، السياسة الإقليمية الصينية: استعادة السيادة، وبناء محور استراتيجي ٥٩

محمد علي إسماعيل، قوى الشرق والعرب: كيف يزداد نفوذ الصين وروسيا في المنطقة ٧٠

أحمد محمد، الهند المضطربة: صعود اقتصادي وأزمات دينية ٨٤

ب) دول الشرق المسلمة ٩٤

محمد صلاح عبد العال، آسيا الوسطى وصراع النفوذ والموارد بين روسيا والصين..... ٩٥

أسماء البنا، باكستان ومعضلة التنمية والتحولات الداخلية والإقليمية ١٠٥

عمر سمير، بنجلاديش والانتعاش الاقتصادي: مسارات وتحديات ١١٦

د. أحمد عبد الحافظ فواز، القوقاز: الصراعات الجيواستراتيجية وإشكالية الهوية ١٢٥

ج) أوضاع الأقليات وتطورات ما بعد جائحة كورونا ١٤١

إسراء علاء عبد الله، الإيجور والسياسة الصينية: تحديات، ومقاومة..... ١٤٢

عبد الرحمن فهيم، السياسة الهندية الجديدة ضد المسلمين..... ١٥٢

محمود مؤمن، مسلمو الروهينجا وعصر الانقلاب العسكري في ميانمار..... ١٦٧

مقدمة التحرير

تطورات الشرق: قوى آسيا الصاعدة والدول والأقليات المسلمة(*)

إعداد: مروة يوسف
مراجعة: مدحت ماهر

شهدت العديد من دول آسيا صعودًا على مستويات عدة: اقتصادية، سياسية، ثقافية؛ وعلى رأسها الصين وروسيا والهند وكوريا الجنوبية؛ بالإضافة إلى دول جنوب شرق آسيا والمنتمية إلى العالم الإسلامي وخاصة ماليزيا التي حققت نموًّا اقتصاديًا لافتًا خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي وحافظت على ذلك النمو رغم تعرضها لأزمات متتالية. ومن جانب آخر، تتزايد التوترات والصراعات في عدة دول وبقاع من آسيا تتصدرها الآن الحرب الروسية ضد أوكرانيا على حواف آسيا وأوروبا، وما سبقها من تداعيات الانسحاب الأمريكي من أفغانستان والصعود الطالباني، والانقلاب العسكري في ميانمار، والتوترات المتزايدة في كل من هونج كونج وتايوان مع الصين، والحرب الاقتصادية الصينية-الأمريكية؛ كل ذلك في ظل أزمة اقتصادية عالمية ناتجة عن جائحة كوفيد ١٩ التي ما زالت تداعياتها مستمرة للعام الثالث على التوالي.

وما بين مؤشرات الصعود ووقائع الصراع ومواطن التوتر، يتجدد الحضور الشرقي، أو الآسيوي في الشئون العالمية، وتؤثر آسيا في بقية العالم كما تتأثر بها. وعلى نحو يمثل ساحة اختبار طبيعة الوجود المسلم في هذه القارة دولًا وأقليات.

فقد كان لصعود العديد من دول آسيا في العقود الأخيرة أثره على التفاعلات العالمية سواء السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية؛ حيث راهن كثير من الخبراء على زوال الأحادية القطبية لصالح عالم متعدد الأقطاب، مما يؤثر بلا شك على القضايا العالمية، فقد شهد العقد الأول من الألفية الأولى على سبيل المثال رغبة من بعض الدول الأفريقية واللاتينية والعربية في إقامة تحالفات استراتيجية مع دول أمثال روسيا والصين والهند نتيجة لذلك البزوغ؛ ومن أبرزها تجمع "بريكس" الاقتصادي الذي يضم البرازيل وجنوب أفريقيا إلى جانب هذه الدول الثلاث.

تفصيلًا، تأتي روسيا الاتحادية في مقدمة الدول الآسيوية أو الأوراسية الصاعدة (فثمة خلاف على آسيويتها من أوروبيتها)، فعلى مدار العقدين الماضيين حاول الرئيس الروسي فلاديمير بوتين إعادة بلاده إلى مصافّ الدول الكبرى بعد تلاشي الاتحاد السوفيتي في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، فكانت التحركات الروسية خلال العقدين الأخيرين تُراكِم في هذا الاتجاه؛ ما بين استعادة القوة العسكرية وتطويرها بل وتوظيفها في الصراعات الإقليمية كما في القرم، وسوريا، وليبيا، والشيشان وعموم القوقاز من قبل، إلى جانب محاولات استعادة مناطق النفوذ السياسي والأمني السابقة في آسيا الوسطى ودول البلطيق والشرق الأوسط.

* يركز هذا العدد على الدول الآسيوية الصاعدة وملفاتها الساخنة المطروحة على الساحة، لذلك فهناك دول لم يتناولها العدد مثل أفغانستان والذي ركز عليها العدد الرابع والعشرين من قضايا ونظرات، وإيران وتركيا والتي تم تناولهما في العديد من التقارير السابقة، أما باقي الدول فقد صعدت في أوقات سابقة ولا تشهد أزمات حالية مثل اليابان وماليزيا وإندونسيا.

ولعل من أبرز التحركات الروسية الحالية غزوها أوكرانيا في ٢٤ فبراير ٢٠٢٢ من أجل التصدي _حسب تصريحات الرئيس بوتين- للتعدي الأوروبي والأمريكي على الحدود الغربية لروسيا؛ وذلك عقب الإعلان عن رغبة أوكرانيا في الانضمام لحلف شمال الأطلسي(الناتو). ولذلك الصراع أبعاد معقدة إذ يشتمل على عناصر مترابطة من المواجهة الاقتصادية والجيوسياسية، وعناصر أخرى مرتبطة بتدفقات وأسعار الطاقة لاسيما إمدادات الغاز من روسيا وأوكرانيا إلى أوروبا، وكذلك إمدادات القمح، فضلا عن تأثيرها على الممرات الاستراتيجية، بين أوراسيا وأوروبا ومن ورائهما الولايات المتحدة الأمريكية.

إذا كان الصعود الروسي يبدو صداميًا مع الغرب من الناحية العسكرية والسياسية بالأساس خاصة في الوقت الراهن، فالصعود الصيني يعد صداميًا أيضًا لكن من الناحية الاقتصادية، وإن تضَّمن الأبعاد الأخرى من السياسي والعسكري والثقافي (القنوات الإخبارية، الدراما والأفلام، الترجمات...) تنافسًا على المكانة العالمية، ما تجلى في الصراع التجاري مع الولايات المتحدة الأمريكية منذ التسعينات وإبان تأسيس منظمة التجارة العالمية، وصولًا إلى بدايات وتداعيات جائحة كوفيد ١٩. ومن جانب آخر بدأ النفوذ الصيني في التمدد سياسًيا واقتصاديًا وثقافيًا في أجزاء عديدة من العالم خاصة آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط، في منافسة مع القوى التقليدية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، تمددًا يبدو ناعمًا وهادئًا ليس فيه صدام، ولكن فيه إمارات توغل اقتصادي بشكل أساسي؛ ينذر بسياسات هيمنة مستقبلية في ظل عمليات بناء شبكات تحالف مصالح مرنة سواء مع روسيا أو أوروبا أو قوى آسيوية آخرى.

وكما هو الوضع مع روسيا، بدأت **الصين** في محاولة استعادة مناطق تعدّها جزءًا منها وبالأخص تايوان وهونج كونج (التي انفصلت عنها نتيجة للاستعمار البريطاني)، وعلى مدار العقود الماضية كانت الصين تحاول استرجاع هاتين البقعتين؛ خاصة تايوان التي عرضت عليها الصين تطبيق (نظام دولة واحدة ونظامان) كما هو مطبق في هونج كونج؛ إلا أن تايوان رفضت هذا العرض، ويتجدد التوتر بين الطرفين من حين لآخر؛ الأمر الذي تفاقم مع صعود دونالد ترامب لسدة الحكم في الولايات المتحدة والإعلان عن تواصل سياسيٍّ بين الجزيرة التايوانية والولايات المتحدة الأمريكية بشكل مباشر من جانب، ما زاد من التوتر حتى وصل إلى تهديدات صينية باجتياح تايوان، ومن جانب آخر تتجدد التوترات أيضًا بين هونج كونج والصين على خلفية ملف حقوق الإنسان والحقوق الاقتصادية.

من ناحية ثالثة، تبلور **الصعود الهندي** على المستوى الاقتصادي منذ بداية الألفية الجديدة؛ حيث أصبحت الهند تُعدّ أقوى خامس اقتصاد على مستوى العالم، متجاوزة العديد من الدول الأوروبية، إلا أنها في السنوات الأخيرة عادت تعاني مشكلات سياسية وثقافية (دينية) نتيجة لسياسات حكومة ناريندرا مودي مما يؤثر على استقرارها الداخلي وعلى وضعية حقوق الإنسان بها والثقة الخارجية في اقتصادها، لاسيما في علاقاتها مع الغرب. ولذلك تلجأ الهند إلى إقامة تحالفات مرنةوأوّلية مع قوى آسيوية أخرى خاصة روسيا مع الاحتفاظ بتحالفها القديم مع الولايات المتحدة الأمريكية، هذا بالإضافة إلى الإشكاليات الخارجية الناتجة عن وضعها الإقليمي من حيث الصراع مع باكستان ومخاوفها المعلنة من تجدد صعود طالبان.

في المجمل، تعد آسيا اليوم مسرحًا للتأثير الأبرز على مستوى العالم من حيث الوضع الاقتصادي والسياسي، حيث تنتقل موازين القوى من الغرب إلى الشرق، ليس فقط في روسيا والصين والهند، ولكن الصعود الآسيوي يشمل قوى صغيرة ومتوسطة مثل سنغافورة وكوريا الجنوبية ودول الشرق الأقصى مثل ماليزيا وإندونيسيا وفي القوقاز وفي آسيا الوسطى وفي آسيا الصغرى (تركيا) وغرب آسيا (إيران)، مما جعل بعض المتابعين يطلقون على هذا القرن **(القرن الآسيوي)**، لذلك يهدف هذا العدد لدراسة الصعود الآسيوي ومؤشراته ودلالات ذلك على النظام العالمي، وقواه الكبرى المختلفة خاصة في العقد الأخير.

ومن جانب آخر، يتجه هذا الصعود الآسيوي نحو **المنطقة العربية والعالم الإسلامي** بقوة لإقامة تحالفات واستعادة مناطق نفوذ وبسط سيطرة، فالدور الروسي في سوريا يعد من أهم أبعاد صراعها مع الانفراد الغربي بالشرق الأوسط، وبتدخلها ذلك أطالت روسيا أمد

الأزمة السورية وفاقمت من آثارها على المنطقة برمتها، في الوقت الذي تواصل الصين فيه توغلها الاقتصادي خاصة في دول الشمال الأفريقي، وتتنافس القوتان –روسياوالصين- مع أصحاب المصالح مثل فرنسا والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي بشكل عام، فما هي حركة التحالفات كل من روسيا والصين في المنطقة العربية؟

وفي القلب في هذا الصعود نجد **الدول والأقليات الإسلامية في آسيا** تتفاعل وتؤثر وتتأثر بهذا الصعود سلبًا وإيجابًا، فمن جانب تتصاعد إشكاليات العديد من الأقليات في الدول الآسيوية غير الإسلامية خاصة بعد جائحة كورونا والتي فاقمت من تلك المعاناة؛ مثل معاناة الإيجور في الصين، التي مارست سياسات العقاب الجماعي ضد أقلية الإيجور، في منطقة شينجيانغ، فتعرض ما لا يقل عن مليون من المسلمين إلى الاعتقال في المنطقة، وتم احتجازهم في معسكرات خارج نطاق القضاء أو إرسالهم إلى السجون، وقدم محتجزون سابقون وسكان شينجيانغ مزاعم بشأن تعرضهم للتعذيب والتعقيم القسري والاعتداء الجنسي، فيطرح السؤال نفسه كيف يمكن وقف ما يحدث للإيجور في ظل المنحنى الصاعد للصين؟

وليس ببعيد عن تلك الأزمة، ما يتعرض له **المسلمون في الهند** منذ عقود لأنواع من الاضطهاد، وتزداد حدة الانتهاكات الجسيمة التي أسفرت عن سقوط آلاف القتلى، يوماً بعد يوم نتيجة التحريض السياسي والإعلامي، خاصة منذ عام ٢٠١٤ وبدء فترة ولاية ناريندرا مودي، وطرح قانون تعديل المواطنة من قبل الحكومة، فما الذي يواجه المسلمون في الهند في ظل المتغيرات الداخلية والإقليمية والعالمية؟

أما فيما يتعلق **بالروهينجا في ميانمار** بالإضافة إلى تدمير قرى بأكملها وفرار نحو ٧٥٠ ألفاً منهم إلى بنجلاديش هرباً من الفظائع وجرائم الاغتصاب والقتل خارج نطاق القانون، وعدم الحصول على أي جنسية، فتواجه الأقلية المسلمة الآن الحكم العسكري بعد الانقلاب الذي وقع في مارس العام الماضي، وعادة ما يرتبط الحكم العسكري في ميانمار بمزيد من العنف نحو المسلمين في ظل غياب اهتمام أو تدخل إقليمي أو عالمي حقيقي لمواجهة هذه المأساة.

وفي هذا الإطار تشهد **منطقة القوقاز** صراعات جيو استراتيجية نتجية توازنات القوى في المنطقة، ومن جانب آخر هناك العديد من الإشكاليات التي تواجهها نتيجة لهوية بعض الدول الإسلامية.

ومن جانب آخر، تعد منطقة **آسيا الوسطى** (أوزبكستان، طاجاكستان، فيزغيزستان، كازاخستان، تركمستان) ساحة جيوسياسية تتكشف فيها منافسات كبيرة على النفوذ، حيث تعدّ روسيا لاعبًا مهمًا تقليديًا في هذه المنطقة ذات الأغلبية المسلمة، في الوقت الذي يبدو النفوذ الصيني متصاعدًا بقوة من خلال مبادرة "الحزام والطريق"، وتحاول الهند إقامة تحالفات استراتيجية في هذه المنطقة أيضًا، ما يصب في سخونة واتساع التنافس الدولي والإقليمي في المنطقة، وتتعدد أوجة التعاون والصراع مع هذه الدول ما بين الاقتصادي، والسياسي، والأمني، لاسيما ما يعرف بالحرب ضد الإرهاب.

وتواجه باكستان متغيرات إقليمية عديدة، فمن جهة عودة طالبان إلى حكم **أفغانستان** وما قد يعنيه من اضطرابات عند الحدود وتغيير في التحالفات الإقليمية، ومن جهة أخرى تواجه باكستان الحكومة الهندية المتشددة التي تؤزم الوضع في كشمير من خلال قرار الضم الأخير، وتوغل كل من روسيا والصين في سياسات وتحالفات المنطقة، كل ما يبق يضع باكستان أمام العديد من التحديات والمناورات للتعامل مع السياقات الإقليمية والعالمية المتغيرة.

إن وضع المسلمين والدول الإسلامية في آسيا يشهد نجاحات جديدة كما في **بنجلاديش** مثلا البالغ عدد سكانها ١٦٠ مليوناً، والتي ظلت لمدة عقود طويلة واحدة من أفقر دول العالم أجمع، ولكن خلال السنوات القليلة الماضية، برزت بكونها قوة آسيوية ناشئة نجحت في تحقيق معدلات نمو متميزة، حيث يتوقع لها استمرار النمو خلال العقد الحالي، وذلك على الرغم من الكوارث الطبيعية والمعوقات الاقتصادية والسياسية.

رؤية معرفية

عن الذاكرة التاريخية الحضارية للنظام الآسيوي الدولي

تطور أنماط العلاقات بين القوى الإسلامية وأنماط التدخلات الخارجية:

من الفتوح والوحدة إلى الاستعمار والتجزئة

أ.د. نادية محمود مصطفى(*)

مقدمة:

(١) **الذاكرة المعاصرة والراهنة (منذ منتصف القرن العشرين على الأقل وحتى بداية التسعينيات) محمَّلةٌ بتواريخَ وأحداثٍ** تتصل بتطور أوزان وأدوار قوى جديدة آسيوية، مثل: الصين وروسيا والهند ودورها على الساحة الإقليمية والعالمية، مقارنة بالقوى الغربية الكبرى: الثورة الصينية الشيوعية وتداعياتها، استقلال الهند وانفصال باكستان، الدور العالمي للاتحاد السوفيتي في ظل الحرب الباردة وما بعدها.

والوجُه الآخرُ لهذه الذاكرة محمَّلٌ أيضًا بتواريخ وأحداثٍ تتصل –أولًا- بالأوضاع التابعة والمستضعَفة لدولٍ إسلامية في إطار ما بعد الاستقلال عن الاستعمار الأوروبي أو في إطار الهيمنة العالمية الغربية بالقيادة الأمريكية: إندونيسيا، ماليزيا، أفغانستان، إيران، باكستان، وتركيا، ناهيك بالطبع عن الشرق الآسيوي العربي، كذلك يتصل هذا الوجه الآخر للعملة -وخاصة ومنذ نهاية الثمانينيات وخلال المرحلة الأخيرة من عملية تفكك الاتحاد السوفيتي- بصعود مجموعة أخرى من الكيانات الإسلامية. فقد قفزت إلى الاهتمام -وترددت على الأسماع وبطريقة لم تكن معهودة (إلا في دوائر متخصصي تاريخ المناطق أو الجغرافيا البشرية والأقليات)- أسماء أوزبكستان، تركستان، كازاخستان، تركمانستان، طاجكستان، قرقيزيا (جمهوريات آسيا الوسطى) وأذربيجان (جمهورية في جنوب القوقاز) والشيشان وداغستان (شمال القوقاز). بعبارة أخرى أضحى الوجود المسلم في هذه الجمهوريات السوفيتية السابقة في آسيا الوسطى والقوقاز (التاريخية) محط السمع والبصر؛ حيث أضحت من أكثر مناطق العالم -حينئذ- إثارة للتساؤلات عن مستقبلها بعد الاستقلال عن روسيا الاتحادية.

ويرجع ذلك إلى الذاكرة الحضارية المسلمة لشعوبها والتي توارت لأكثر من قرنين تحت رداء الإمبراطورية القيصرية الروسية الارثوذكسية ثم رداء الاتحاد السوفيتي الشيوعي. ومن ناحية أخرى اقترن ذلك الصعود بالتساؤل عن موضع هذه الدول من التنافس الإقليمي والعالمي بين الغرب وروسيا الاتحادية والصين والهند، أو موضعها بين الدول الإسلامية الآسيوية الكبرى مثل: تركيا وإيران وباكستان، وإلى أي حد ستؤثر الذاكرة التاريخية الإسلامية والإرث الحضاري الإسلامي لهذين الإقليمين الآسيويين الفرعيين في أنماط تفاعلاتها الإقليمية والعالمية من ناحية وفي التنافس العالمي حولها بين القوى الغربية والقوى الآسيوية الصاعدة منذ نهاية الحرب الباردة.

(٢) **إن حاضرًا غائبًا مركبًا كان يتوارى وراء هذين الوجهين لهذه العملة المعاصرة والراهنة، ألا وهي الذاكرة التاريخية لمن يمكن وصفهم -وفق د.محمد حرب- "بالمسلمين المنسيين في آسيا"**، فتلك الذاكرة تمثل دورة من دورات التداول الحضاري، والتدافع الحضاري بين قوى آسيوية مسلمة شكلت الإرث الحضاري الإسلامي لآسيا، وبين قوى آسيوية غير مسلمة وأخرى أوروبية غير

(*) أستاذ العلاقات الدولية المتفرغ، بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، مدير مركز الحضارة للدراسات والبحوث.

مسلمة تحدَّت هذا الإرثَ للدول والشعوب والثقافات المسلمة، وحملت لواء ما يسمى الاسترداد الروسي أو ما يسمى الاستعمار الأوروبي.

إن التعرف على ملامح تلك الذاكرة التاريخية لهذا الفضاء الحضاري بتحولاته الكبرى عبر العصور التاريخية الكبرى، تنبني أهميته على ثلاثة أمور أساسية: **من ناحيةٍ:** الحالة الراهنة للتنافس بين القوى الصاعدة الآسيوية: إقليميًّا وعالميًّا وأثرها على الدول والشعوب الإسلامية الآسيوية، مثلًا: وضع أفغانستان بين الصين وروسيا عقب الانسحاب الأمريكي، ووضع الأقليات المسلمة. **من ناحية ثانية:** الحالة الراهنة للقوى الإسلامية الآسيوية ونمط التفاعلات فيما بينها، صراعًا أو تعاونًا؛ مثلًا: السياسة التركية والإيرانية تجاه وسط آسيا والقوقاز وتجاه أفغانستان. **من ناحية ثالثة:** أثر التدخل الغربي بقيادة أمريكية على المجموعيتن السابقتين من التفاعلات؛ ولكل أمر من هذه الأمور إشكاليات تاريخية ذات آثار ممتدة حتى الآن؛ مثلًا: ما ذاكرة وضع سينكيانج بالنسبة للصين، ما ذاكرة علاقة آسيا الوسطى والقوقاز بروسيا؟ ما نمط العلاقة بين الدولة العثمانية والفرس والروس والاستعمار الأوروبي في آسيا...؟

وقبل التعرُّف على الملامح الكبرى لمراحل التطور التاريخي لهذه الأنماط التفاعلية الثلاثة ودلالاتها الحديثة والمعاصرة يجب الإشارة إلى الركائز التالية التي سيتم التفصيل على ضوءها لاحقًا:

أ) الوجود المسلم في آسيا ليس مثل الوجود المسلم في غرب أوروبا وبدرجة أقل في شرق أوروبا. فهم المسلمون المنسيون الذين يمثلون ركنًا ركينًا من نسيج الأمة وجزءًا من دار الإسلام، انطلاقًا من الفتوحات العربية الإسلامية، ولأكثر من اثني عشرة قرنًا حين بدأ الاستعمار الأوروبي أو الاسترداد الصيني والروسي. ومن ثم فإن خريطة تطور الدول الإسلامية الآسيوية وتعاقبها وأنماط العلاقات بينها مُهمّةٌ جدًا لبيان مراحل القوة والصعود الإسلامي في آسيا في ظل وجود دولة قائدة قوية (الغزنوية، السلجوقية، العثمانية...) ولمعرفة متى حدث التراجع والتجزئة حين ضعفت وانهارت هذه الدول أمام موجات الاسترداد الروسي والاستعمار الأوروبي.

ب) قوى الشرق الآسيوية الصاعدة، وخاصة الصين وروسيا، والمتحدية عالميًا لهيمنة الغرب، هي قوى قديمة جديدة مارست تأثيراتها الاقليمية والعالمية التاريخية الممتدة بأشكالٍ وفي أطوارٍ متعددة. فلقد لعبت قوى ودولٌ تنتمي إلى حضارات أخرى (الإمبراطورية الصينية والإمبراطورية القيصرية الروسية مثلًا...) أدوارًا عالمية متنافسة مع القوى الغربية، حتى سادت هذه القوى الغربية الاستعمارية القرنان منذ نهاية الثامن عشر حتى نهاية العشرين.

ت) بقدر ما تنافست وتصاعدت قوى الشرق الآسيوي وقوى الغرب دائمًا على العالم الإسلامي، بصفة عامة وفيه الجناح الآسيوي، ومثلت مصادر تهديد متنوعة لدوله عبر التاريخ (الصراع الروسي البريطاني على الدولة العثمانية مثلًا)، بقدر ما ظهر أيضًا بينها التنسيق لإحكام الحصار أو تقسيم العالم الإسلامي، فلقد كان العالم الإسلامي دائمًا بين فكيْ الشرقِ والغربِ غير المسلم، كما أضحت قوى شرقية مثل الصين والهند ابتداءً من نهاية القرن الخامس عشر وعبر تطور موجات الاستعمار، محلًا للأطماع الأوروبية والتدخلات الخارجية الاقتصادية والثقافية والعسكرية وحتى الاحتلال المباشر...

(٣) وعلى ضوء ما سبق، يدور مضمون الدراسة حول محورين متداخلين: المحور الأول- خريطة القوى الإسلامية الآسيوية الكبرى: أنماط ومحددات التطور التاريخي للتفاعلات فيما بينها. **المحور الثاني-** خريطة أدوار القوى غير المسلمة: أنماط ومحددات تطور تدخلاتها في آسيا المسلمة، روسيا وآسيا الوسطى والقوقاز نموذجًا، مع استدعاءٍ ضمنيّ للصين والهند.

إن آسيا المسلمة متعددةُ الأعراق والقوميات والمذاهب، والنظرَ إلى تفاعلات القوى المسلمة في إطار كلي لا يسقط هذا التنوع والتعدد، ولكن يتجاوزه ابتداءً لأن هذا النظر ينطلق من أصل وحدة تاريخ الأمة دولًا وشعوبًا، ويهدف لتوضيح كيفية انتقالها من حالة الوحدة والقوة إلى حالة التعددية والتجزئة السياسية والضعف، وعلى نحو جعل من هذا التعدد القومي والمذهبي مدخلًا رئيسًيا لاندلاع الصراعات السياسية المعاصرة على المكانة الإقليمية وحمايةً لما يسمى المصالح القومية وتحت تأثير تحالفات مع الخارج وتدخلات من قواه الكبرى.

بعبارة أخرى: إن هذا النظر وهذه القراءة في الذاكرة التاريخية لتطور خريطة التفاعلات الإسلامية-الإسلامية الآسيوية وعوامل التأثير الخارجية عليها إنما يبحث في تطور إشكالية العلاقة بين الرابطة العقدية وبين المصالح القومية من ناحية، وتطور إشكاليات التدخل الخارجي من ناحية أخرى على مدار تاريخ الأمة. سعيًا لفهم وتدبر واقع هذه القوى الراهن (فقه الواقع) استشراقًا لإمكانيات تغييره، وذلك انطلاقًا من فقه التاريخ [(١)]. ذلك لأن الوعي الجماعي والذاكرة الراهنة لشعوب الأمة قد سقطت في براثن مفردات ومفاهيم صراعات الكيانات القومية والمذهبية والقطرية (الأتراك- العرب، الفرس–العرب، الترك-الألبان، العرب-المغول، الترك-الأكراد، السنة-الشيعة) كما لو لم يكن هناك مفردات عن الكيان الحضاري الممتد المكون من شعوب وأمم وقوميات تربطها رابطة عقدية، وجمعت بينها دول الخلافة التي احترمت سُنَّة التنوع والتعدد في إطار مقاصد الشريعة ومصالح الأمة. إن كلًّا من محوريْ الدراسة ينطلق من وينبني على تحليل نظمي للتاريخ الإسلامي وخبراته من منظور حضاري مقارنة بقواعد التأصيل الفقهي حول **قضيتين أساسيتين تقعان في صميم الاهتمام بفقه العلاقات الدولية الإسلامية الراهنة**.

الأولى هي قضية العلاقة مع الآخر غير المسلم في ظل قواعد العلاقات الصراعية القتالية أو التعاونية السلمية التي يطرحها المفهوم الواسع للجهاد.

والقضية الثانية هي انتشار نموذج الدولة القومية أمام ضغوط التعددية السياسية الدولية، وصولًا إلى حالة التجزئة. والإطار العام الكلي الذي تنبثق عنه بدورهما القضيتان يتمثل في التطور التاريخي لوضع الأمة في النظام الدولي على نحو أفرز التبعية بعد الاستقلال

---

(١) انظر التفاصيل في إطار تطور عصور التاريخ الإسلامي في:

- علا أبو زيد، الدولة الأموية دولة الفتوحات، (في) نادية مصطفى (محرر)، موسوعة العلاقات الدولية في الإسلام، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٢٢)، المجلد الخامس.
- علا أبو زيد، الدولة العباسية، المرجع السابق
- د. نادية مصطفى، العصر المملوكي ، المرجع السابق.
- د.نادية مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، (في) نادية مصطفى (محرر)، موسوعة العلاقات الدولية في الإسلام، المجلد السادس، المرجع السابق.

- انظر ما يتصل بأسيا المسلمة بصفة خاصة في:

- نادية مصطفى: التدخلات الخارجية ومسيرة أزمات المنطقة التجربة التاريخية وآفاق المستقبل (في) نادية مصطفى، باكينام الشرقاوي (محرران) إيران والعرب، المصالح القومية وتدخلات الخارج رؤى مصرية وإيرانية، (القاهرة: جامعة القاهرة، برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، ٢٠٠٩).

- وانظر ما يتصل آسيا الوسطى والقوقاز وروسيا بصفة خاصة في:

- د.نادية مصطفى، آسيا الوسطى والقوقاز بين القوى الإسلامية الكبرى وروسيا: أنماط ومحددات التطور التاريخي للتفاعلات الدولية إطار مقترح للتحليل السياسي للتاريخ، (في) د.مصطفي علوي (محرر): ندوة الوطن العربي وكومنولث الدول المستقلة (القاهرة ٢٦- ٢٨ يونيو/حزيران ١٩٩٤)، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية١٩٩٤).

من ناحية، كما شهد، من ناحية أخرى، شحوب فكرة الأمة وتدهور الالتزام بمقتضياتها بالنسبة إلى العلاقة الإسلامية-الإسلامية على نحو أفرز التجزئة والقطرية بعد الوحدة والتعددية.

بعبارة أخرى فإن خبرة التاريخ الإسلامي عن نمط تطور العلاقات الإسلامية-الإسلامية بعيدًا عن الوحدة لا ينفصل عن خبرة نمط تطور العلاقة مع الآخر (نحو التبعية)، أو عن خبرة نمط التطور الداخلي في الدول الإسلامية (نحو التغريب). ولهذا فإن آفة الواقع الراهن للأمة هي أن التجزئة تقترن باختراق خارجي ضخم لشبكة العلاقات الإسلامية- الإسلامية، كما تقترن بتغريب الأمة.

هذا وتقدم آسيا المسلمة ساحة هامة؛ لاختبار هاتين القضيتين نظرًا للثراء الشديد -لدرجة التعقد أحيانًا- في التركيبة البشرية لمسلمي آسيا (مذهبيًا، وعرقيًا وقوميًا وقبليًا..) وتداخل الكيانات السياسية الممثلة لها من ناحية، وفي منظومة التهديدات لها من القوى غير المسلمة من داخل وخارج آسيا على حد سواء.

ومن ثم، فإن الدراسة عن آسيا المسلمة، بمحوريْ مضمونها، ووفقًا لمنطلقاتها، إنما تهدف إلى مواجهة كل الأفخاخ الجيو-استراتيجية ذات الدلالات الخفية والصريحة التجزيئية للأمة الإسلامية، رغم كونها كيانًا حضاريًّا اجتماعيًّا ممتدًا يجمع بين مكوناته المتعددة، عرقيًا وقوميًا ومذهبيًا وثقافيًا ولغويًّا، رابطةٌ عقديةٌ، كان لهذه الرابطة تأثيراتها الإيجابية على بناء فضاء حضاري إسلامي آسيوي قويٍّ قام على تكامل وتضافر عناصره المتنوعة والمتعددة، وذلك في مراحل القوة الحضارية والشهود، حتى أضحى هذا التنوع -بالتدريج وتحت التأثير المتزايد للمصالح القومية الضيقة وتأجيج التدخلات الخارجية- عبئًا ثقيلًا وتكلفةً بل مصدر تهديد متبادل، ومن ثم أداةَ ضربٍ لقدرة الأمة على مقاومة هجمات الهيمنة الخارجية المعاصرة: غربيةً كانت أو من القوى الآسيوية غير المسلمة.

(٤) ولدواعي التداخل بين محوري المضمون، فإن استعراض تطور المراحل التاريخية للتفاعل بينهما يمثل منهجًا ملائمًا لهذه الورقة.

فإذا كان النطاق الزمني للدراسة ممتدًا، إلا أن الهدف هو **استخلاص نماذج و أنماط** تاريخية، مما يقتضي في إطار الدراسة النظمية للتاريخ الإسلامي من منظور حضاري، التميزَ بين مراحل تاريخية كبرى وأخرى جزئية، توالت على صعيدها وتداولت القوى الإسلامية والقوى غير المسلمة الآسيوية أدوارها وتأثيراتها المتبادلة.

والنطاق الزمني الذي سنقدم من ساحته النماذج التاريخية الشارحة لتطور أنماط التفاعلات هو القرون الخمسة الهجرية الأخيرة، مع استدعاء موجزٍ لدلالات القرون العشرة الهجرية الأولى. والنماذج التاريخية المقصودة هي التي تمثل مفاصل في التحولات العالمية والتحولات في العلاقات الإسلامية-الإسلامية (انطلاقًا من معايير التقسيم الإسلامي للتاريخ، وليس تقسيم التواريخ الأوروبية والعالمية فقط)[(٢)].

إن القرون الخمسة الأخيرة تقدم دلالات نُظُميةً كليةً مهمة، مقارنة بنظائرها في القرون العشرة السابقة؛ إذ شهدت الأمة تهديدات مباشرة وشاملة من خارجها. ففيما عدا الهجمتين المغولية والصليبية لم تشهد شعوب وأراضي الأمة هجومًا مباشرًا متصاعدًا مثل الذي شهدته منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري، كما انتقلت مكانة الأمة إلى مراحل الخبوّ والدفاع والتدهور والتجزئة وفقدان البوصلة الحضارية، ولم تكن آسيا المسلمة أقل تعبيرًا عن هذه الأنماط من الدائرة الحضارية العربية، التي تزامنت معها في هذه العملية.

(٢) حول المفاصل والنماذج والأنماط أنظر: د.نادية مصطفى، الهجمات الحضارية على الأمة وأنماط المقاومة: بين الذاكرة التاريخية والجديد منذ الثورات العربية، العدد الثالث عشر من حولية أمتي في العالم "المشروع الحضاري الإسلامي: الأزمة والمخرج"، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠١٧.

بعبارة أخرى، فإن المعيار الأساسي للتقسيم المرحلي هو: "درجة الوحدة والفاعلية" لدى القوى الإسلامية مقارنة بدرجة التأثير الخارجي عليها، وتتحدد هذه الدرجة بدورها وفقًا لطبيعة ومدى تكرار مجموعةٍ من أنماط التفاعلات التي محوُرها القضايا التالية: النُّصرة/الخذلان، التحالفات البينية أو مع غير المسلم، الحروب بين المسلمين، الحروب بينهم وبين غيرهم، نمط التدخل الخارجي (تلاعبٌ بالمسلمين فيما بينهم أم تهديدٌ مباشرٌ بالاحتلال والتقسيم والتغريب)[٣].

ومن ثم، تستعرض فيما يلي أهم الأنماط والنماذج الشارحة لهذه الحقائق في عصرين كبيرين؛ لكل منهما مراحله فرعية التي شهدت التفاعلات بين أهم الفواعل المسلمة وغير المسلمة في كل مرحلة.

ويظل تحديد الفواعل الكبرى التي تنافست وتوالت عبر هذه المراحل، مسألة هامة يجدر الانتباه إليها؛ لأنها مسألة تطرح عددًا من الإشكاليات أمام الدارس غير المتخصص في تاريخ آسيا المسلمة.

■ العصر الأول- مرحلة الوحدة والفتوح والشهود الحضاري (خبرة القرون العشرة الهجرية الأولى): آسيا الوسطى والقوقاز في مواجهة المغول والروس نموذجًا.

تمتد تفاعلات هذا العصر عبر مرحلتين تنوعتا من حيث مراكز القوة الإسلامية، ومن حيث مصادر التهديد لها عبر هذا الفضاء الحضاري الفارسي التركي من دار الإسلام.

المرحلة الأولى: التفاعل الإيجابي المتبادل بين العرب وشعوب آسيا من خلال الفتوح الإسلامية والحكم العربي في ظل انعدام مصادر تهديد غير مسلمة. وشهدت هذه المرحلة دخول الإسلام وانتشاره (ولو بالتدريج وبصعوبة أحيانًا) من خلال الفتوح العربية المتوالية في ظل الخلافة الراشدة ثم الأموية والعباسية **من ناحية**، كما شهدت **من ناحية أخرى** مولد كيانات وممالك وأسر تغلب عليها العنصر التركي الفارسي، وتوالت على حكم هذه المناطق في ظل سيادة عربية كاملة حتى القرن الرابع هجريًا، العاشر ميلاديًا، حين انتقل الحكم المباشر إلى شعوب هذه المناطق في آسيا الوسطى والقوقاز، **ومن ناحية ثالثة**، أضحت آسيا الوسطى من أزهى المراكز الحضارية في دار الإسلام. ومن أقوى مراكز حماية دولة الخلافة العباسية، فلقد لعبت المدن الكبرى (بُخارىَ، سمرقند،...). في آسيا الوسطى التي تمثل الجناح التركي الإيراني من دار الإسلام دورًا بارزًا في الإنتاج الحضاري في كل مجالات العلوم الإسلامية والعمران، وبقدر هذا الإسهام في الإنجاز الحضاري الإسلامي الضخم خلال القرون الستة الهجرية الأولى، كانت بعض القوى الآسيوية المسلمة، مثل السلاجقة مصدر حركية ومبادرة عسكرية ساندت مركز الخلافة العباسية في مواجهة التهديد البيزنطي غرب آسيا، وهو الأمر الذي ساهم في إضعاف القوة البيزنطية الشرقية واستنفار مسيحيي الغرب اللاتين لبداية الحروب الصليبية[٤].

ومن ناحية رابعة: انعدام مصدر تهديد من الروس في هذه المرحلة يقارب الخطر البيزنطي أو الصليبي بعد ذلك، فلقد كان الروس في حالة هجمية بربرية وثنية حتى بدأت تتغير هذه الحالة تدريجيًا منذ نهاية القرن العاشر ميلاديًا والرابع هجريًا مع بداية اعتناق الروس المسيحية الارثوذكسية وانتشارها بينهم، وذلك في وقت كان الإسلام قد دخل إلى القوقاز. وحتى بداية القرن الثامن هجريًا/ الرابع عشر ميلاديًا؛ أي

---

(٣) انظر حول أنماط ونماذج هذه المراحل والعوامل المؤثرة عليها: د.ودودة عبد الرحمن، وضع الدول الإسلامية في النظام الدولي في أعقاب سقوط الخلافة العثمانية، (في) نادية مصطفى (محرر)، موسوعة العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، المجلد السادس.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر: د.نادية مصطفى، آسيا الوسطى والقوقاز بين القوى الإسلامية الكبرى وروسيا: أنماط ومحددات التطور التاريخي للتفاعلات الدولية إطار مقترح للتحليل السياسي للتاريخ، مرجع سابق، ص ص ٦٨- ٨٢.

حتى إسلام المغول الذي حكموا روسيا، كما سنرى في المرحلة التالية، لم يكن العامل الروسي قد أضحى ذا تأثير كبير على تفاعلات هذه المنطقة من دار الإسلام. حقيقةً أضحت روسيا منذ اعتناق المسيحية هي الشعب الأوروبي السلافي المسيحي الذي يجاور دار إسلام آسيا الوسطى والقوقاز، إلا أنه كان المسلمون -بأدوات عدة- قادرين على تحجيم هذا التهديد المحتمل(٥).

ومن ناحية خامسة: ضعف الدولة السلجوقية مع قرب نهاية القرن الخامس هجريًا/ الحادي عشر ميلاديًا، واحتدام التنافس بينها وبين الدولة الفاطمية على الشام، وذلك في وقت تداعت فيه قوة مركز الخلافة العباسية: حال ذلك دون التصدي للهجمة الصليبية؛ حيث فشلت الدولتان السلجوقية والفاطمية في التحالف ضد هذا الخطر الداهم. بل إن مثل هذا الضعف أيضًا في مركز القوة الإسلامية في آسيا الوسطى قد ساعد المغول في تحركهم غربًا نحو قلب العالم الإسلامي.

المرحلة الثانية- العصر المغولي: آسيا الوسطى والقوقازوالفولجا والقرم بين الروس والعرب والترك وبين إيلخانات المغول قبل وبعد إسلامهم (٧- ٩هـ/ ١٣-١٥م)(٦)

- بدأت هذه المرحلة مع أكثر مصادر التهديد الوثني خطورة على العالم الإسلامي برمته. وجاء هذا الخطر من تخوم العالم الإسلامي الشرقية في بداية القرن ٧هـ، وامتد العصر المغولي إلى ما يقرب من القرون الثلاثة (من السابع إلى التاسع الهجري - من الثالث عشر إلى الخامس عشر الميلادي). ومن ثم تنتهي هذه المرحلة مع بداية مصدر التهديد الروسي المسيحي القادم من تخوم العالم الإسلامي الشمالية. وخلال هذه القرون الثلاثة قدمت التفاعلات بين الروس (وبين الغرب المسيحي بصفة عامة) من ناحية، وبين المغول الوثنيين من ناحية أخرى، وبين مراكز القوة الإسلامية الكبرى في هذه المرحلة (المملوكية والعثمانية) من ناحية ثالثة، قدمت أنماطًا واضحة من التفاعلات المتداخلة، والتي تبين درجة عمق وحركية ومحورية تأثير أحداث هذه المنطقة على التفاعلات الدولية في مجموعها، وعلى تفاعلات الانساق الفرعية الإسلامية–المسيحية، والإسلامية-الإسلامية المختلفة، وهي السمات التي فقدتها المنطقة بعد ذلك منذ نهاية القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي.
- حقيقةً، جاء المغول الوثنيون من خارج دار الإسلام من الشرق، واجتاحوا آسيا الوسطى والقوقاز وإيران وروسيا وشرق أوروبا، إلا أنهم -وبعد ما يقرب من نصف القرن من بداية تحركهم (١٢١٩م) من أقصى شرق آسيا أي بعد توقف زحفهم عند القلب الإسلامي (مصر والشام)- استقروا وأسلموا -على مراحل- وامتزجوا بأهل هذه المناطق؛ مما كان له الأثر على حضارتها وثقافتها من ناحية، وعلى موازين القوة والعلاقات فيما بين كياناتها السياسية وبينها وبين الأطراف المسيحية المجاورة من ناحية أخرى؛ حيث إن هذه المرحلة هي التي خضع فيها الروس لحكم المسلمين مباشرة في مرحلة حكم التتار (المغول) المسلمين لبلاد الروس لمدة تزيد عن القرنين.

---

(٥) المرجع السابق ص ص ٧٥-٧٦.

(٦) انظر التفاصيل في الأتى:

- د. نادية مصطفى، العصر المملوكي ، (في) نادية مصطفى (محرر)، موسوعة العلاقات الدولية في الإسلام، المجلد السادس، مرجع سابق.

- د.نادية مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، (في) موسوعة العلاقات الدولية في الإسلام، المجلد الخامس، مرجع سابق

- د.نادية مصطفى، آسيا الوسطى والقوقاز بين القوى الإسلامية الكبرى وروسيا: أنماط ومحددات التطور التاريخي للتفاعلات الدولية إطار مقترح للتحليل السياسي للتاريخ، مرجع سابق، ص ص٧٦-٨٣.

- هذا، وتجدر الإشارة إلى أن هذا التأثير قد تحقق من خلال عدة أطراف مغولية وعبر موجتين: **الموجة الأولى خلال القرن السابع الهجري**؛ فبعد الهجمة الأولى بنصف قرن انقسمت الإمبراطورية العظمى التي كونها جنكيز خان إلى أربعة ممالك: مغول إيران (الإيلخانيون)، مغول القبيلة الذهبية في الشمال والتي تركزت في حوض الفولجا جنوب روسيا، مغول آسيا الوسطى (مملكة جغطاي)، ثم أخيرًا مغول الصين في أقصى الشرق. ويهمنا بصفة خاصة أمر الممالك الثلاثة الأُول، فلقد لَعِب كلٌّ منها دوره في العلاقات المملوكية-المغولية، والمملوكية-الصليبية في الشام أو المملوكية-الأفرنجية والمغولية-الروسية، ولقد تباين تأثير كل من هذه الأطراف المغولية الثلاثة على هذه العلاقات نظرًا لطبيعة العلائق فيما بينهم. وبدون الدخول في تفاصيلِ تطورِ انتشارِ الإسلام بين هذه الأجنحة الثلاثة، وهو الأمر الذي لم يكن هيّنا أو سهلًا أو سريعًا، أو في تطور العلائق بينهم، تكفي **الإشارة إلى الأمور الثلاثة التالية**: **أولها**- سبقت القبيلة الذهبية المملكتين الأُخريين في الدخول إلى الإسلام، وكان ذلك في العقد الأول والنصف الثاني من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وتلاها إيلخانية فارس في العقد الأخير من ذاك القرن. **ثانيها**- كانت القبيلة الذهبية هي التي حكمت الروس لمدة قرنين كما كانت حليفًا قويًا للمماليك ضد الصليبين وضد مغول فارس، **وثالثها**- كانت القوى المغولية الثلاث متعادية وتتنازع على حدود الأقاليم فيما بينهم، كما تبنّت سياسات خارجية متنافسة أثرت على أنماط تفاعلاهم مع المماليك والقوى المسيحية، ولقد انقسمت القبيلة الذهبية والأيلخانيون في فارس إلى إمارات متعددة ومتنافسة خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

- **أما الموجة الثانية:** فلقد كان مبعثها آسيا الوسطى التي كان مغولوها الأخيرين في الدخول للإسلام، فلقد كانت موطن تيمورلنك المغولي المسلم الذي بدأ اجتياح العالم الإسلامي مرة أخرى بعد ما يزيد عن القرن ونصف من الموجة الأولى، ولقد أعاد تيمورلنك توحيد ممالك المغول بعد تفككها لفترة قصيرة؛ حيث سرعان ما تفككت إمبراطوريته بعد موته في أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وبقدر ما كان للزحفة المغولية الأولى آثارها العميقة المباشرة وطويلة الأجل، بقدر ما كان أيضًا للزحفة المغولية الثانية آثارها أيضًا على توازن القوى الإسلامية، وعلى العلاقات الإسلامية-المسيحية وخاصة على مصير روسيا وبداية تخلصها من الحكم الإسلامي التترى.

فلقد شهدت إمارة موسكو منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري بداية صحوتها التي تجسدت نتائجها بعد قرنين تقريبًا، لقد اقترنت هذه الصحوة الروسية ببداية التفكك والضعف الذي أخذ يدبُّ في أوصال القبيلة الذهبية، وكان قضاء تيمورلنك على التنافس بين الإمارات التي انقسمت بينها من أهم العوامل التي ساعدت على نهاية الحكم المغولي الإسلامي لروسيا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وهذه الإمارات أو الخانات كانت ثلاثًا أساسية؛ وهي: القرم وقازان واستراخان. ولقد لعبت إمارة موسكو المسيحية (التي كانت تدفع الجزية) دورًا هامًا في لعبة التحالفات والتحالفات المضادة التي قامت بين هذه الإمارات المتنازعة على النفوذ. فلقد أخذت خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي تضرب خانات المغول الثلاثة بعضهم ببعض حيث كان بعضهم يلجأ للروس في مواجهة الآخر.

ومن ناحية أخرى: لقد تزامن قرنا الحكم المغولي المسلم للروس مع مرحلة نشأة إمارة عثمان وتوسعها الإقليمي في الأناضول وفي شرق أوروبا، وكان لسقوط القسطنطينية من ناحية ثم توسع الدولة العثمانية نحو القرم من ناحية أخرى انعكاساتها على العلاقات مع روسيا. اتجه محمد الفاتح شرقًا وشمالًا نحو البحر الأسود حيث اصطدم مع خانات القرم ١٤٧٤م حتى دخلت هذه المنطقة دائرة النفوذ العثماني. ولقد أدى التوسع العثماني على حساب ورثة القبيلة الذهبية إلى تضييق المسافة بين مناطق الاحتكاك مع الروس؛ وهي المسافة التي ضاقت أكثر بعد ذلك مع تطور التوسع الروسي نحو الجنوب ونحو الشرق على حساب إمارات قازان واستراخان والقرم منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

خلاصة القول: إنه في مع بداية القرن العاشر الهجري كان الفضاء الحضاري الإسلامي التركي الفارسي يفقد ذاتيته وفاعليته ومبادرته، وتصبح كياناته الضعيفة المجزأة موضعًا لتنافس متعدد الأطراف، ترتفع على صعيده مصادر التهديد غير المسلمة: المغولية والروسية، التي نالت من الهوية بقدر ما نالت من العمران الحضاري، ولكن لم تفقد الشعوبُ في هذه المناطق قدراتها على المقاومة الحضارية من أجل البقاء؛ سواء بدعم ذاتي أو من قوى مسلمة صاعدة مثل الدولة العثمانية، في وقت بدأ يظهر إلى جانب التهديدُ المغولي ثم الروسي تهديد موجات الاستعمار الأوروبي الغربي بل لقد اتجهت القوى الأوروبية، من قبل ذلك؛ للتحالف مع تيمورلنك ضد العثمانيين الصاعدين والمماليك المحتضرين، كما نسقت القوى الأوروبية تنافسيًا مع روسيا بعد ذلك –كما سنرى في العصر الثاني.

■ العصر الثاني- آسيا الوسطى والقوقاز والفولجا والقرم، بداية العزلة و انعدام المبادرة: بين تطور التوسع الروسي القيصري وبين توازنات القوى الروسية-الأوروبية وتوازنات القوى العثمانية الصفوية (والقاجارية) والمغولية الهندية (١٠-١٣هـ/ ١٦- ١٩م)[٧].

يمتد هذا العصر أربعة قرون من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. ومنطلق التغيير في التفاعلات تمثل في ثلاثة أمور أساسية شكلت حالة هذه النظم الآسيوية الإقليمية الفرعية: فمن ناحية جاءت بداية الصعود الروسي وتبلور قوى "الإمبراطورية الروسية القيصرية" وخاصة منذ القرن ١٨، كدولة أوروبية حديثة تتنافس مع الدولة العثمانية والقوى الأوروبية الكبرى على التوسع في شرق أوروبا. ومن ناحية أخرى: بدت مناوأة القوى الأوروبية الكبرى وخاصة بريطانيا للتوسع الروسي نحو شرق أوروبا ووسط وجنوب آسيا وذلك في الوقت الذي بدأت ثم تنامت الهجمة الأوروبية على استعمار العالم الإسلامي بطرق عسكرية وغير عسكرية، ومن ناحية ثالثة: تغير توازن القوى في العالم الإسلامي مع ظهور الدولة الصفوية والدولة المملوكية المغولية في الهند منذ بداية القرن السادش عشر الميلادي، وهو الأمر الذي مثَّل –وخاصة من جانب الصفويين- تحديًا أمام النمو والتوسع في القوة العثمانية شرقًا وجنوبًا، بعد أن توقف زحفها نحو قلب أوروبا عند أسوار فينيا مع بداية القرن السابع عشر الميلادي، ومن ثم بدأ تصادمُها مع الصفويين جنوبًا ومع الروس شرقًا حول القوقاز والقرم.

ولقد أثرت هذه الأمور الثلاثة المتداخلة على نمط وسرعة التوسع الروسي، نحو هذه النظم الإقليمية الآسيوية الفرعية، عبر مراحل فرعية ثلاث، بحيث أضحت روسيا عامل تأثير مباشر وعميق على العلاقات بين الكيانات الآسيوية الضعيفة والمجَّزأة في القوقاز والقرم وآسيا الوسطى، كما أضحت روسيا أيضًا عاملًا مستنزفًا للقوى العثمانية الصفوية المتنافسة أيضًا حول هذه المناطق. ورغم التنافس البريطاني الروسي أيضًا إلا أن التنسيق حول الأطماع الاستعمارية للقوتين كان حاضرًا أيضًا على حساب دار الإسلام.

والمرحلة الأولى من التوسع الروسي كانت على حساب ورثة القبيلة الذهبية (المغول الذين حكموا الروس) في الفترة من ١٥٥٢-١٦٠٥م في ظل مراقبة عثمانية وعجز الأوزبك الشيشانيين حكام آسيا الوسطى وتحالفهم مع الصفويين. فبعد تخلص إمارة موسكو ١٤٨٠م من حكم التتار المسلمين توسعت في حوض الفولجا وغرب سيبريا وشمال القوقاز، فاستولت على قازان واستراخان وداغستان ولم يبقَ إلا القرم. ومن هنا بدأت –مع استمرار التوسع الروسي حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي- مشكلة القوميات في روسيا

---

(٧) انظر التفاصيل في الآتي:

- د. نادية مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، (في) نادية مصطفى (محرر)، موسوعة العلاقات الدولية في الإسلام، المجلد السادس، مرجع سابق.

- د. نادية مصطفى، آسيا الوسطى والقوقاز بين القوى الإسلامية الكبرى وروسيا: أنماط ومحددات التطور التاريخي للتفاعلات الدولية إطار مقترح للتحليل السياسي للتاريخ، مرجع سابق، ص ص ٨٢-١٠٠.

القيصرية مع تحول المسلمين إلى رعايا من الدرجة الثانية، وهي المشكلة التي تفاقمت عبر الثلاثة قرون التالية مع استمرار التوسع الروسي شرقًا وجنوبًا، والتي واجهها الروس إما بتصفية المسلمين أو طردهم أو تنصيرهم؛ الأمر الذي أدى إلى فقدان هذه المناطق (ثم بقية القوقاز وآسيا الوسطى) كجزء من دار الإسلام.

ولم تنجح الدولة العثمانية في مواجهة هذه الموجة الأولى من التوسع الروسي لانشغالها في الصراع العثماني –الأسباني في حوض المتوسط من ناحية، والصراع مع الصفوين من ناحية أخرى؛ ولذا ترك العثمانيون لإمارة القرم مهمة التصدي للتوسع الروسي، وهو الأمر الذي لم ينجحوا في الاستمرار فيه. كما فشل الأوزبك الشيشانيون في توحيد إمارات آسيا الوسطى الضعيفة المجزأة محل التهديد من الروس والصفويين على حد سواء، وخاصة بعد أن ظهر نمط من التحالف بين الروس والصفويين ضد أعدائهم المشتركين؛ أي العثمانين والأوزبك الشيشانيين.

أما **المرحلة الثانية** (١٦٠٥-١٧٧٤م) فلقد شهدت جمود التوسع الروسي في أراضي المسلمين في القوقاز وآسيا الوسطى. ويرجع ذلك لعدة أمور: من ناحيةٍ أولى: انشغال روسيا بالتوسع غربًا فأضحت جزءًا من التوازنات الأوربية –العثمانية حول شرق أوروبا بحثًا عن تحقيق حلمها في السيطرة على هذه المنطقة. وحين تأكد فشلها تحولت إلى الشرق مرة أخرى مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي بعد أن تدعمت السيطرة الروسية على مسلمي الفولجا الأورال وغرب سيبريا حيث تبلورت أساليب روسنة هذه المناطق. كما استمرت روسيا في مواجهة تتار القرم والتوسع العثماني نحو أوكرانيا ثم بدأت تتحول إلى الهجوم على شمال القوقاز والقرم حتى احتلتها ١٧٧٤م. ولم يبقَ إلا القوقاز مقاومًا بشدة على نحو أوقف التقدم الروسي حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. ومن ناحية ثانية: استمر الصراع العثماني الصفوي الروسي على ساحة القوقاز دون حسم نهائي حتى القرن التاسع عشر الميلادي؛ وذلك بسبب التداخل الشديد بين التوازنات العثمانية-الصفوية، والتوازنات العثمانية-الروسية، والتوازنات الصفوية- الأوروبية.

المرحلة الثالثة: القفزة الروسية الكبرى في احتلال آسيا المسلمة (١٧٧٤م- ١٩٠٠م): وهكذا، وبعد أن أضحت آسيا الوسطى هامشية في التاريخ الإسلامي بعد أن فشلت دويلاتها (ورثة الشيشانيين) في توحيد أنفسها وإعادة بناء قوتها، وبعد روسنة أول مجموعة من أراضي مسلمي آسيا، وبعد استمرار مقاومة القوقاز لمدة ما يقرب من القرنين، وبعد استنزاف أكبر قوتين مسلمتين العثمانية والصفوية في الصراع بينهما، حان توقيت القفزة الروسية الكبرى.

وكان كلٌّ من سقوط القرم ١٧٧٤م أولًا ، ومعاهدة كوكينارجا ثانيًا، ذواتي مغزي كبير بالنسبة للتحول في ميزان القوى العثمانية-الأوروبية بصفة عامة، والعثمانية-الروسية بصفة خاصة. فلقد كانت أول استقطاع من الممتلكات العثمانية من أراضٍ ذات شعب مسلم. ولقد أنهت المعاهدة الحمايةَ العثمانية على القرم، وأضحت خان القرم رسميًّا دولةً مستقلة ولكن تحت حماية روسية حتى أتمت روسيا ضمها نهائيًا ١٧٨٣م ومع أساليب الروسنة المستمرة في القرم فقدت دار الإسلام للأبد هذه المنطقة كما فقدت الفولجا والأورال.

ثم بدأ الغزو الروسي لشمال القوقاز ١٧٨٣م (الداغستان والشيشان)، ولقد واجه مقاومةً عنيفة قادتها الطرق الصوفية النقشبندية؛ ولذا استغرقت روسيا ما يقرب من القرن في إتمام الاستيلاء على هذه المنطقة الصغيرة والسيطرة عليها. ولقد كان استسلام أخر قادة النقشبندية (الإمام شامل) ١٨٥٩م بمثابة انتهاء لحروب القوقاز وإحكام السيطرة الروسية.

وعندئذ اندفعت روسيا في عمليةٍ منظمةٍ للاستيلاء على آسيا الوسطى، ولكنها واجهت مقاومة ضئيلة. فلقد كانت بخارَى، كييفا، خوقند، وهي الإمارات الكبرى الباقية، قد فقدت منذ فترة قوتَها السياسية ورخاءها الاقتصادي بحيث لم يعد في مقدورها مواجهة قوات الإمبراطورية الروسية القيصرية. ولقد استغرقت عملية الاستيلاء ما يقرب من النصف قرن منذ ١٨٥٥ وحتى ١٩٠٠م ولقد سقطت المدن الكبرى على التوالي: شمكنت ١٨٥٥م، طشقند ١٨٦٥م، بخارَى ١٨٦٨م، كييفا ١٨٧٣م، خوقند ١٨٧٠م، تركستان (١٨٧٣- ١٨٨٤م)، ثم

الجزء الشرقي من جبال البايير ١٩٠٠م. ولقد حققت العملية أهدافها في ظل أوضاع عثمانية وصفوية سهلت الطريق أمامها، وكذلك في ظل توافر الدوافع الروسية للتوجُّه بعمق نحو الجنوب وصولًا إلى آسيا الوسطى.

بالنسبة للدوافع الروسية: فنجد أنه تأكد لروسيا عند منتصف الخمسينيات من القرن التاسع عشر فشل مشروعاتها الأوروبية؛ أي إسقاط الدولة العثمانية واقتسام ممتلكاتها ومن ثم توطيد النفوذ الروسي في البلقان، ولقد ساهم في هذا الفشل توازنات القوى الأوروبية المناوئة للدور الروسي الجديد؛ ومن ثم التي ساهمت في الحفاظ على تماسك كيان "رجل أوروبا المريض" ما يقرب من القرن. ولقد كانت حرب القرم (١٨٥٤- ١٨٥٦م) ثم الحرب الروسية -التركية ١٨٧٥- وما تلاهما من مؤتمرات أوروبية مثل مؤتمر باريس ١٨٥٦م، ومؤتمر برلين ١٨٧٨م الساحتين اللتين تأكَّدَ عليهما فشلُ هذه المشروعات الروسية ما دفع بروسيا نحو آسيا.

أما بالنسبة لتأثير وضع الدولتين العثمانية والقاجارية: فلقد دخلت الدولة العثمانية في هذه الفترة المرحلةَ النهائية من ضعفها والتي عُرفت بالمسألة الشرقية (١٧٧٤- ١٩٢٣م)، ولقد تركز اهتمامُها خلالها على البلقان والوطن العربي؛ أي الجناحين الأوروبي والعربي اللذين تكالبت عليهما القوى الاستعمارية المتنافسة الكبرى لاستقطاعهما، كل في توقيته وبالأسلوب الأمثل (استقلال البلقان أولًا ثم استعمار العرب). أما الدولة القاجارية (١٧٩٥- ١٩٢٥م) فلقد تكوَّنت في فارس معلنة بداية مرحلة جديدة من السياسات في ظل تكالب القوى الاستعمارية على وسط آسيا، وكان الطرفان الأساسيان المتنافسان حول وسط آسيا هما: روسيا وبريطانيا.

وإذا كان التهديد الروسيُّ لفارس قد ارتبط -كما رأينا- بالتطور في مخططات التوسع القيصري منذ بطرس الأكبر؛ بحيث ظلت روسيا طوال ما يقرب من الثلاثة قرون (ولكن بدرجة متزايدة منذ نهاية القرن ١٨م) مصدر التهديد الأساسي لإيران، فإن بريطانيا كانت في البداية مصدر مساندة لحكام فارس في مواجهة العثمانيين أحيانًا أو الأفغان والبرتغاليين في أحيان أخرى، ثم في مواجهة روسيا خوفًا من اقتراب النفوذ الروسي من الهند. بعبارة أخرى: استطاعت فارس- كما استطاع العثمانيون- توظيف التنافسات الأوروبية وخاصة البريطانية – الروسية لخدمة مصالحها، إلا أن هذا التوظيف انقلب ليصبح خطوة البداية في اختراق النفوذ الأجنبي الأوروبي، وكان لهذا الاختراق مدلولات سلبية بالنسبة لعلاقة إيران مع جيرانها من مسلمي آسيا الوسطى، فلقد كان للعامل الروسي ثم التنافس الروسي البريطاني تأثيرها على قدرة إيران على التصدي للتنافس الأوروبي حول وسط آسيا، وتعرضت هذه القدرة لتآكلٍ متزايد مع تزايد المشاكل الداخلية للدولة القاجارية. فمع التدخل الروسي العميق في الشئون الداخلية وقعت هذه الدول في أوائل القرن العشرين فريسة الاتفاق البريطاني الروسي ١٩٠٧ على اقتسام مناطق النفوذ في وسط آسيا وإيران.

■ **خاتمة القول بعد القراءة في أنماط الذاكرة التاريخية، وعلى ضوء القراءة الحضارية والجيوسياسية في أنماط هذه الذاكرة التاريخية للتفاعلات الإسلامية-الإسلامية وللتدخلات الخارجية في هذه الدائرة الآسيوية الحضارية، فإن الدلالات المعاصرة منذ نهاية القرن العشرين وعبر ثلاثة عقود حتى الآن تتلخص في الآتي:**

١- وضع الأقليات المسلمة في آسيا ليس مثل وضعه في الغرب، فلها جذور تاريخية تمتد إلى عصور كانت تمثل فيها هذه الشعوب ركنًا ركينًا من دار الإسلام الذي ساهم في إنتاج حضارة إسلامية في ثوب آسيوي[٨]. ومن ثم فإن مشاكلها المعاصرة تختلف من حيث الدرجة والنوع مع نظائرها في الغرب[٩].

---

(٨) انظر الفروق بين هذه الأنماط من الأقليات المسلمة في الشرق والغرب في: د. د.نادية محمود مصطفى، الأقليات الإسلامية في العالم، إطار مقارن للدراسة، (في): د. حسن العلكيم (محرر)، قضايا إسلامية معاصرة، (القاهرة: جامعة القاهرة، مركز البحوث والدراسات الآسيوية، ١٩٩٧).

(٩) انظر أنماط مشاكل كل من المجموعتين في: د. نادية مصطفى (إشراف عام)، أمتي فى العالم، كتاب غير دوري، (الجديد في حالة الإسلام والمسلمين في العالم (٢٠١٠-٢٠٢٠): ما بعد الإسلاموفوبيا)، (القاهرة: دار البشير للثقافة والعلوم، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، ٢٠٢١).

٢- تداولت أركان الأمة من العرب والفرس والترك أدوار القيادة للعالم الآسيوي المسلم، من خلال كيانات سياسية (إمارات، ممالك، دول، سلطنات...) تنافست أو تصارعت فيما بينها، على نحوٍ حالَ -في فترات الضعف- دون القدرة على مواجهة التهديد الخارجي الآسيوي أو الأوروبي غير المسلم.

٣- كان المتغير الخارجي، غير المسلم، حاضرًا دائمًا سواءٌ من الشرق (المغول) أو الشمال (الروس) أو الغرب (القوى الأوروبية الاستعمارية) أو الجنوب (الهندوس)، ولعِبَ دورَه **من ناحية** في التلاعب بالقوى المسلمة فيما بينها (ومع القوى غير المسلمة أيضًا). والأمثلة عديدة، كما سبق التفصيل، مثلًا: تحريض ملك أرمينيا للمغول ضد العباسيين، إلى سعي الإفرنج للتحالف مع مغول فارس ضد المماليك ثم مع تيمورلنك ضد العثمانيين إلى التلاعب الأوروبي بالصراع الصفوي- العثماني، وبالصراع العثماني- الروسي، وكان الهدف الأساسي هو الالتفاف حول القلب الإسلامي وتفريغه من فاعليته، وكذلك عزل منطقة وسط آسيا من هذا القلب؛ لأن الاتصال والتعاون بينهما سبق وأوجد (في عصر السيادة العربية) كتلة إسلامية ممتدة الأطراف كانت مبعث تهديد حضاري وعسكري يمثل خطرًا بالنسبة لعالم المسيحية، **ومن ناحية أخرى** أثر المتغير الأوروبي (بمعنى التوازنات الأوروبية - الأوروبية) على السياسات الروسية بصفة خاصة، فكان تحطيم مكانة روسيا في توازنات أوروبا وفي آسيا في حرب القرم وما بعدها حتى مؤتمر برلين ١٨٧٨م دافعًا للتوسُّع الروسي في آسيا.

٤- غياب القوة القائدة لمسلمي آسيا، مثَّلَ خطرًا على الأمن الحضاري لشعوب ودول آسيا المسلمة، بل ولأمن الأمة كله؛ وذلك في ظل عملية إعادة تشكيل النظم الإقليمية الجارية منذ نهاية الحرب الباردة والتي تتصادم حولها الأحادية الأمريكية مع تعددية القوى الصاعدة –وخاصة الآسيوية غير المسلمة والمسلمة أيضًا؛ وأقصد تركيا وإيران وماليزيا. وهي عملية إعادة التشكيل التي أخذت إسرائيل تشارك فيها بالتدريج وتصاعديًا على نحو يمد تحالفاتها الجديدة خارج النطاق العربي نحو الصين والهند بصفة خاصة. **ويزداد الوضع خطورة في ظل أمرين متقابلين: الأول** أنه لم تعد توجد قوة إقليمية عربية قادرة أو راغبة في قيادة عملية مقاومة التهديد الخارجي والإسرائيلي؛ حيث تزايدت وتيرة التطبيع مع إسرائيل من ناحية ووتيرة التحالف مع قوى الهيمنة الخارجية ضد الثورات الشعبية خلال العقد الثاني من القرن العشرين.

الأمر الثاني: هو أن إحدى القوى الصاعدة الآسيوية المسلمة -إيران- التي أخذت تقاوم باستراتيجيات متعددة منذ ١٩٧٩م، وواجهت في البداية تحالفات دول عربية مع الخارج لضرب أو احتواء نموذج المقاومة الإيراني، هذه القوة تحولت بدورها إلى مشروع تدخل شيعي فارسي في الدائرة الحضارية العربية السُّنية. وفي نفس الوقت الذي حقق النموذج التركي نجاحات اقتصادية وسياسية داخلية وخارجية طيلة العقدين الأولَيْن من القرن الحادي والعشرين كما حقق شبكة تحالفات إقليمية وخارجية مستقرة، فإنه بدأ يواجه ضغوطًا خارجية وداخلية عديدة لاحتوائه أو إجهاضه، الأمر الذي كان لابد وأن يؤثر على حركة تركيا نحو الفضاء التركماني الآسيوي.

٥- في ظل الأوضاع السابقة، كان لا بد لواقعة أفغانستان ٢٠٠١ أن تكون علامة كاشفة عما آلت إليه أوضاع آسيا الوسطى كلها ودرجة وحجم التدخلات الأمريكية-الروسية المتنافسة حولها. ومن ثم أضحى أيضًا الانسحاب الأمريكي أغسطس ٢٠٢١ بعد عقدين من الاحتلال مولدًا بدوره لموجة أخرى من التفاعلات تبرز قدر ما أضحى عليه تأثير الوجود الخارجي غير المسلم الآسيوي (روسيا – الصين – الهند) وغير الآسيوي (الأمريكي بصفة خاصة). وزاد الأمر تعقيدًا إقليميًّا -امتداد تداعيات الحرب الأوكرانية- الروسية إلى هذا الفضاء؛ حيث انعكست مواقف الدول المسلمة (باكستان مثلًا) من هذه الحرب إلى جانب روسيا على الأوضاع الداخلية (خروج عمران خان من رئاسة الوزارة).

(٥) لم تكن السيطرة الروسية القيصرية ثم السوفيتية على آسيا الوسطى والشيشان، كما لم تكن السيطرة الصينية على تركستان الشرقية، كما لم تكن سيطرة هندوس الهند عليها بعد الاستقلال (وكان لهم الأفضلية أيضًا- مقارنة بالمسلمين- خلال الاستعمار البريطاني) لم تكن كل هذه النماذج لتعبر عن سيطرة سياسية اقتصادية بحتة، ولكن كانت ذات تأثيرات سلبية على الوجود المسلم وعلى الهوية الإسلامية طيلة قرون، إلا أنها لم تقدر على القضاء على هذا الوجود أو محو هذه الهوية؛ لأن شعوب هذا الفضاء ذات قدرة كبيرة على المقاومة الذاتية ضد أساليب السيطرة. فبالرغم من كل أساليب الروسنة والسفيتة طيلة ثلاثة قرون من أجل تصفية الإسلام والمسلمين فمازال الإسلام، كما تكشَّف بعد انهيار الاتحاد السوفيتي يمثل عنصر الهوية الأساسي لشعوب هذه المنطقة. ويرجع ذلك إلى نوع من الدفاع الذاتي عن النفس من جانب هذه الشعوب أكثر منه نتاجًا عن مساعدة شعوب وحكومات ودول إسلامية كانت قد وقعت بدورها في براثن استعمار ولو من نوع آخر[١٠].

بعبارة أخرى: إن طرح قضايا الهوية والثقافة والحضارة المتصلة بالسياسات الراهنة للقوى الصاعدة الآسيوية (روسيا، الصين، الهند)، وموضع مسلمي آسيا منها، ليس ترفًا مقارنة بقضايا القوة الصلدة التي يعاني منها أيضًا هؤلاء المسلمون. فأدوات التدخل الدينية الثقافية القيمية الحضارية ليست قاصرة على القوى الغربية فقط (تحت رداء العلمنة والتمدن والتحضر) ولكن تعرفها أيضًا قوى الهيمنة الآسيوية في الفضاء العربي-التركي - الفارسي - الآسيوي على مرِّ تاريخهم.

ولعل من أهم النماذج الشارحة لهذا: اجتماع الصين وروسيا والهند في ما يعرف بمعاهدة أمن شنغهاي لمقاومة ما يسمى "الإرهاب الإسلامي" في آسيا من ناحية، واتهام كل من يقاوم التعصب القومي الصيني أو الروسي أو الهندوسي أو في جنوب شرق آسيا ضد المسلمين بالإرهاب.

وخلاصة قول الدلالات المعاصرة:

إن آسيا المسلمة المعاصرة أضحت -شعوبًا ودولًا- تحت سطوة استراتيجات التدخُّلات الخارجية متعددة الأدوات: العسكرية، الاقتصادية، وفي قلبها الدينية –المذهبية- الثقافية. ومن ثم فإن أمن مسلمي آسيا الحضاري في مهب الريح أمام جحافل قوة الصين الناعمة، وأمام هدير عسكرة بوتين للسياسات الروسية (الشيشان ثم جورجيا، ثم القرم ثم أوكرانيا كلها...)، وأمام نعيق العنصرية القومية الهندوسية الصاعدة في الهند مدمرة أركان ديموقراطيتها العلمانية... فجميع هذه المخاطر لا تضرب الأرض أو الثروة فقط، ولكن الهوية الحضارية الإسلامية لهذا الفضاء الحضاري الإسلامي الآسيوي، مثلما تضرب قوى أخرى -ولو بنماذج مختلفة- الهويات الحضارية الإسلامية لفضاءات حضارية إسلامية أخرى في أفريقيا وفي أوروبا وفي أمريكا اللاتينية، وبالطبع في القلب العربي للعالم الإسلامي.

---

(١٠) حول تفاصيل أساليب المقاومة والاتجاهات الفكرية والاجتماعية التي انقسم بينها المسلمون في ظل الحكم الروسي والسوفيتي وما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، انظر: د.نادية مصطفى، آسيا الوسطى والقوقاز بين القوى الإسلامية الكبرى وروسيا: أنماط ومحددات التطور التاريخي للتفاعلات الدولية إطار مقترح للتحليل السياسي للتاريخ، مرجع سابق، ص٩٧-٩٩.

- وحول مآلات أوضاع دول الكومنولث في منتصف القرن التاسع عشر انظر بحوث المرجع السابق.

- وحول توجهات روسيا والصين والهند نحو مسلمي هذه الدول وخاصة في المرحلة المعاصرة الراهنة انظر:

أ) ماجدة إبراهيم، الخطاب الرسمي تجاه الإسلام والمسلمين في مثلث(موسكو- بكين-دلهي)، (في) : د. نادية مصطفى (إشراف عام)، أمتي فى العالم، كتاب غير دوري، (الجديد في حالة الإسلام والمسلمين في العالم (٢٠١٠-٢٠٢٠): ما بعد الإسلاموفوبيا)، مرجع سابق.

ب) أحمد شوقي، سياسات الإسلاموفوبيا في ميانمار والصين والهند: المستجدات والدلالات، (في) المرجع السابق.

ج) د.أحمد عبد الحافظ، سياسات روسيا والكومنولث تجاه الإسلام والمسلمين، (في) المرجع السابق.

ولكن مع هذا فلا تنعدم صور المقاومة ضد هذه المخاطر، وهي تحتاج إلى إلقاء الضوء عليها بقدر التحذير والتنبيه للمخاطر. ففيها يكمن وينبعث الأمل في إمكانية التجدد الحضاري: وحدةً وقوةً ومنعةً للإسلام وشعوبه ودوله.

الحمد لله ٢٠٢٢/٦/٢٧

*****

ملف العدد

تطورات الشرق: قوى آسيا الصاعدة والدول والأقليات المسلمة ؟

أ) القوى الصاعدة

وتطورات استراتيجية كاشفة

التوجُّهات الاستراتيجية لروسيا الاتحادية وعلاقتها مع الغرب

يارا عبد الجواد(*)

مقدمة:

بعد عامين من تولّيه الرئاسة في روسيا لأول مرة عام ٢٠٠٠ أدلى الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بتصريح في وجه العالم قائلًا: "نحن قوةٌ عالمية، ليس لأنَّنا نمتلك قوة عسكرية عُظمى وقوة اقتصادية محتملة فقط، بل نحن كذلك لأسباب جغرافية، سوف نظل موجودين في أوروبا وآسيا، في الشمال والجنوب كما لنا في كل مكان بعض الاهتمامات والمخاوف"[١]، بهذه الكلمات الجامعة يُشير بوتين إلى التوجُّه الروسي نحو الصعود العالمي، فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة وبسْط الولايات المتحدة هيمنتَها على العالم في ظلِّ أُحادية قطبية، يأتي التحدي الروسي -إلى جانب مجموعة من التحديات المتمثلة في صعود قوى عالمية أخرى كالصين- ليمثِّل تهديدًا لهذه الأُحادية القطبية في محاولة لاستعادة القوة الروسية العالمية، والوقوف أمام التمدُّد الغربي وتوسُّع حلف شمال الأطلسي (الناتو) شرقًا باتجاه الحدود الروسية، وهو ما تعمل روسيا على مواجهته بطرق مختلفة، ويأتي هذا التقرير للوقوف على التوجُّهات الاستراتيجية لروسيا تجاه الغرب، في محاولة للإجابة عن مجموعة من التساؤلات التي تدور حول ملامح الاستراتيجية الروسية العالمية في ظل بوتين وكيف تنعكس على السياسة الخارجية لها، وما هي خصائص العلاقة مع الناتو والاتحاد الأوروبي ودلالة ذلك بالنسبة للتحالف الأمريكي - الأوروبي، وما الأسباب التي أدَّتْ إلى اتِّساع هذه السياسة ابتداءً من سوريا وصولًا إلى أوكرانيا.

أولًا- الاستراتيجية الروسية العالمية في ظل بوتين: ملامح وإشارات

إن إعلان الرئيس فلاديمير بوتين بأن "حدود روسيا لا تنتهي أبدًا" يشير إلى الهدف الرئيسي من سياسة بوتين الخارجية والذي يتمثل في ضرورة ترسيخ وضع الاتحاد الروسي كمركز نفوذ في العالم الراهن، حيث ترغب روسيا في استعادة مركزها كقوة عظمى، وبناء عليه؛ انصبَّ اهتمام بوتين منذ تولّيه الحكم في الكرملين عام ٢٠٠٠، على النطاق الأوراسي، فالمشروع الأوراسي -حسب الجغرافي هالفورد ماكيندر- يربط موسكو عبر دوائر متداخلة بالدول الآسيوية والأوروبية والأفريقية، وتكون أولى حلقاتها دول الاتحاد السوفيتي السابق؛ بوصفها منطقة نفوذ خالصة لروسيا أمام التمدُّد الغربي، من خلال عقد شراكات وثيقة، وفرض نفوذ اقتصادي وسياسي وأمني على الدول التي تشاركها الحدود، أو التدخُّل عسكريًّا عند اللزوم، كما حدث في جورجيا والقرم وأوكرانيا، أو أبْعد من ذلك كما في سوريا وليبيا وأفريقيا الوسطى.

تستلهم السياسة الروسية خطواتها وفق ما سُمِّيَ "العقيدة الأوراسية"، والتي ترتكز على قاعدتين أساسيَّتين: الأولى- التقارب وبناء الشراكات مع قوى مناوئة أو متوجِّسة من النُّفوذ الأمريكي. الثانية- توسيع الرقعة الجغرافية وتشكيل قوس جغرافيٍّ استراتيجي، بضمِّ أراضٍ شاسعة فيها مخزون من أكبر مخازن الثروة الباطنية في العالم[٢]، ومن هذا المنطلق تشكِّل الجغرافيا أحد المحركات الرئيسية للسياسة الخارجية

(*) باحثة في العلوم السياسية.

(١) جلال خشيب، الجيوبوليتيك في القرن الحادي والعشرين: انتصار الجغرافيا وعودة عالم ثيوسيديدس، المجلة العربية للعلوم السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٤ سنة ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/VZKc8

(٢) طالب الدغيم، بوتين نحو المجد الأوراسي والارتباك الاستراتيجي الغربي، عمران، ٥ مارس ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ba6Zf

الروسية نظرًا لمساحتها الشاسعة وحدودها مترامية الأطراف[٣]، يمكن القول بأن أهمَّ **أهداف السياسة الخارجية الروسية** تتمثل في[٤]:

١. تعزيز القدرات الروسية والمحافظة على الأمن القومي الروسي: حيث تعمل روسيا على إيجاد الوسائل اللازمة لفرض الردْع خوفًا من النزاعات التي قد تنشأ مع جيرانها بسبب الحدود، وملكية الأرض، وذلك من خلال تعزيز القدرات الروسية عبر التركيز على تطوير دور السلاح النووي وتحسين القدرات القتالية للجيش، ومنع أي اقتراب من الحدود الروسية أو إقامة قواعد عسكرية في الدول التي كانت خاضعة للنفوذ السوفيتي فذلك يمثِّل تهديدًا مباشرًا لأمنها القومي، ووفقًا لذلك، عمدت روسيا إلى المشاركة في إنشاء منظمة شنغهاي في يونيو ٢٠٠١ لإبعاد الوجود العسكري الأمريكي في بعض جمهوريات آسيا الوسطى، وذلك بالتعاون مع الصين التي تشترك مع روسيا في الرغبة في إبعاد الوجود الأمريكي بالقرب من حدودها في آسيا الوسطى.

٢. إقامة نظام دولي متعدِّد الأقطاب: حيث تسعى روسيا لرفض الهيمنة الأمريكية على العالم والتأكيد على استقلالية سياستها الخارجية.

٣. الحفاظ على محيطها الحيوي وعدم السماح لتدخُّل الولايات المتحدة الأمريكية في الجمهوريات المستقلَّة عن الاتحاد السوفيتي (دول الكومنولث): حيث تسعى روسيا إلى تشكيل اتحاد أوراسي يضم كافة دول الرابطة يتحقق من خلاله اتحاد جمركي ومعاهدة للأمن الجماعي في إطار منظمة دولية قادرة على مواجهة التحديات والتهديدات العالمية.

وقد انعكست هذه الأهداف في سياسة بوتين التي تنوَّعتْ حدَّتها على مدار ولايتيْه، حيث عمل على تنفيذها على عدَّة مستويات، ففي بداية تولّيه للسلطة عمل بوتين على تجاوز تراجع دور روسيا العالمي فسعى إلى تعزيز التقارب الروسي الغربي والدعوة إلى تفعيل دور الأمم المتحدة والتأكيد على ضرورته في حلِّ أيِّ أزمة في العالم، والتأكيد على الجهود الجماعية، كما انصبَّ اهتمامُه على تعزيز القدرات العسكرية الروسية، وزيادة التسليح العسكري الروسي، والاهتمام بشركات ومصانع السلاح الروسية، وتصدير السلاح إلى الخارج، حيث ازداد تصدير السلاح الروسي إلى مصر والهند والصين وإيران... إلخ، لتصبح روسيا ثاني أكبر مصدر للسلاح في العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية[٥].

من ناحية أخرى شهدت سياسة بوتين الخارجية توجُّهًا يمكن أن نطلق عليه سياسة روسيا الآسيوية، حيث سعى بوتين بقوة إلى تطوير علاقات الشراكة مع الصين، وكذلك مع الهند كقوة آسيوية عظمى وكشريك استراتيجي تقليدي لموسكو؛ أيضًا طوَّر علاقته مع اليابان وكوريا الجنوبية كمصادر لاستيراد التكنولوجيا والاستثمارات.

على صعيد آخر، وفي سبيل استعادة النفوذ العالمي اتجهت موسكو نحو الشرق الأوسط وأصبح لديها علاقات مثمرة مع إيران وإسرائيل خاصة منذ بدء عملياتها العسكرية في سوريا ٢٠١٥، فنظرًا للأهمية الكبيرة للشرق الأوسط، حرصت روسيا على تعزيز نفوذها في المنطقة، فالشرق الأوسط يعتبر الساحة التي تتنافس فيها القوى الدولية للتأثير على بعضها البعض، ولهذا السبب تحرص روسيا على تعزيز حضورها في

(3) Halida Maulidia, Russia Foreign Policy Under Vladimir Putin Administration, State Islamic university, October 2017, available at: https://cutt.us/fJDNH

(٤) حسني عماد، السياسة الخارجية زمن الرئيس فلاديمير بوتين، برلين: المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ٢٠١٧، ص ص ١-٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/vfwPg

(٥) المرجع سابق، ص٤.

الأحداث التي حدثت في دول المنطقة وتطوُّراتها، والتأثير على مجرى الأحداث لخدمة مصالحها[٦].

إن النُّفوذ الروسي في سوريا يُعَدُّ نواةَ النُّفوذ الروسي في منطقة الشرق الأوسط، بالإضافة إلى إيران، وهذا يعزِّز من نفوذها في تشكيل التوازنات في المنطقة، إن الدعم الروسي الكبير للنظام السوري منذ العام ٢٠١٥، يرجع الى أسباب عدَّة منها تخفيف الضغط على روسيا نتيجة السياسة الأمريكية الأوروبية التي تتمُّ من خلال الناتو للتوسُّع في الدول التي انفصلت عن الاتحاد السوفيتي وهذا سيعمل على محاصرة روسيا، ولهذا تعمل روسيا على مواجهة هذه السياسة التوسُّعية بتأكيد وجودها في مناطق أخرى كما في سوريا، كما ترى روسيا أن تدخُّل الدول الغربية لتغيير الأنظمة في عدد من الدول، كما حدث في أوكرانيا ٢٠١٤ من خلال دعم حركة التظاهرات الشعبية وغيرها في دول أخرى، يهدف إلى التخلُّص من الأنظمة الصديقة لروسيا وتنصيب نُظُمٍ موالية للغرب[٧].

وفي هذا السياق وهذا المسعى لاستعادة الهيبة والمكانة الروسية، جاء أيضًا قرار بوتين بالتدخُّل في جورجيا عام ٢٠٠٨ كأول خطوة عملية لترجمة "الفكرة الروسية" والتحوُّل لدولة عظمى واستعادة النُّفوذ وذلك بحجَّة الدفاع عن أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، وهما منطقتان سَعَتَا إلى الانفصال وتأسيس جمهوريَّتين مستقلَّتين بدعم روسيا وحمايتها، ثم جاء التدخُّل بضمِّ شبه جزيرة القرم ودعم الانفصاليِّين في شرق أوكرانيا في ٢٠١٤، وفي الحالتين حذَّرت موسكو منظمة حلف شمال الأطلسي "الناتو"، والاتحاد الأوروبي، من بسط نفوذهما في جمهوريات تعتبرها ضمن مجالها الحيوي. وصولًا إلى ٢٠٢١ وتغيُّر استراتيجية الأمن القومي الروسي لتنْبئ بتحوُّلات في الأولويات الاستراتيجية لروسيا ولتصبح أكثر حدَّة وأكثر جرأة خاصَّة نحو الغرب، فقد كانت الاستراتيجية الروسية سابقًا تعبر عن إشكالية علاقة روسيا مع الناتو ورفضها نشاطه العسكري الزائد، وتمدُّده باتجاه حدودها، لكنها كانت تظهر اهتمامها بالحوار مع الاتحاد الأوروبي، أما الآن فهي لم تعدْ مهتمَّةً بالحوار مع بروكسل، وعلى هذا الأساس جاء الغزو الروسي لأوكرانيا فبراير ٢٠٢٢، وقد جاء في إعلان بوتين وأجهزته الإعلامية بأن أهدافه الاستراتيجية التي يسْعى لها والتي عكستها الحرب الأوكرانية، ليس ضم أوكرانيا لروسيا، بل تغيير منظومة ما بعد الحرب الباردة في أوروبا، وهي المنظومة التي أقْصت روسيا عن المشاركة في اتخاذ القرارات في شؤون أوروبا، ومن هنا إذا نجح بوتين في إبقاء أوكرانيا وجورجيا ومولدوفا خارج حلف الناتو، فإن ذلك يكون بمثابة الحفاظ على حصن أخير في وجه توسُّع حلف الناتو[٨].

ثانيًا- العلاقات الروسية-الغربية ودلالاتها

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتسلُّم يلتسين السلطة، تحوَّلت السياسة الخارجية الروسية تجاه أوروبا باعتبار أن لديها إمكانات متميزة للشراكة والتعاون، ليس فقط بسبب الاعتبارات الاقتصادية والسياسية والأمنية، بل بسبب التقارب الثقافي والتاريخي. واستُخدم هذا الفهم لتحفيز التعاون المؤسَّسي الروسي مع الغرب منذ بداية التسعينيات، كما نوقشت أفكار مثل انضمام روسيا إلى الناتو والاتحاد الأوروبي ما أنتج اتفاقية الشراكة والتعاون بين روسيا والاتحاد الأوروبي الموقَّعة في عام ١٩٩٤، وانضمام روسيا إلى مجلس أوروبا في عام

(6) Dmitri Trenin, 20 years of Vladimir Putin: How Russia Foreign Policy Has Changed, Carnegie, August 2019, available at: https://cutt.us/tQYgy

(٧) زانا دلشاد، محددات الأمن القومي الروسي في ظل المتغيرات الدولية الجديدة، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاقتصادية والإدارية، جامعة الشرق الأدنى، ٢٠٢١.

(٨) عزمي بشارة، روسيا وأوكرانيا وحلف الناتو: تأملات في الإصرار العجيب على عدم تجنب المسار المؤدي إلى الحرب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، فبراير ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/uBO9P

١٩٩٦، واتفاقيات العلاقات المتبادلة والتعاون والأمن مع الناتو ١٩٩٧[٩].

بوصول بوتين إلى السلطة عام ٢٠٠٠ بدأت روسيا مرحلة وعهدًا مختلفًا في تاريخ سياستها الخارجية حيث عمل بوتين على تحقيق مصالح روسيا الاستراتيجية، وإعادتها إلى مكانتها العالمية، مما تتطلَّب ضرورة تحقيق الاستقرار الداخلي ابتداءً، فبدأ بخوض حرب ضد الفساد المالى، وإعادة بناء اقتصاد قوي واستقرار سياسي واجتماعي وتحقيق انسجام داخلي واسع يساند السياسة الخارجية الجديدة، ووضع خطة استراتيجية لعلاقات روسيا الخارجية وبخاصة مع الولايات المتحده الأمريكية، ونجح في ذلك بسبب الدعم القوي من الشعب الروسي له، وتميَّزت السياسة الخارجية الروسية الجديدة بالبراجماتية، أي إعطاء أولوية للمصالح القومية وتغليب النظرة الواقعية، ولقد مرَّت هذه السياسة بمرحلتين:

١- المرحلة الأولى: مرحلة الانفتاح والتعاون مع الغرب

سَعَى بوتين ابتداءً إلى خلق تأثير روسي في المجال الإقليمي السوفيتي السابق، بهدف تحسين المكانة الروسية عالميًّا والعمل على استعادة دورها في آسيا والشرق الأوسط ومناطق أخرى مع عدم السماح للغرب بتهميش هذا الدور[١٠]، ثم جاءت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لتدعم هذا التعاون الروسي الغربى وتنقل روسيا والولايات المتحدة إلى مستوى التعاون الثنائي، حيث محاربة الإرهاب وتحقيق الأمن العالمي اللذان أصبحا من المسائل ذات الاهتمام المشترك بينهما، وكان بوتين أول رئيس يتَّصل بجورج بوش معربًا عن استعداد موسكو لتقديم كل المساعدات الممكنة خاصة أن لديها الكثير من المعلومات حول أفغانستان، وفي نوفمبر من العام نفسه، الْتقى بوتين وبوش وصدر بيان مشترك عنهما جاء فيه "لقد تغلَّبت الولايات المتحدة وروسيا على إرث الحرب الباردة، وسخَّرت موسكو مجالها الجوي وقواعدها في آسيا الوسطى لخدمة واشنطن، وعُقدت خمسُ اجتماعات قمة أمريكية-روسية في عام ٢٠٠٢ ناقش خلالها الجانبان قضايا الأمن والاستقرار الإقليمي والدولي[١١].

وعلى صعيد العلاقة بين روسيا والاتحاد الأوروبي، سَعَتْ روسيا أيضًا للتقارب مع أوروبا والاندماج في الهياكل والمؤسسات الغربية، وفي هذا السياق انضمَّت إلى مجموعة الدول الصناعية الكبرى لتتحوَّل إلى مجموعة الثمانية في يونيو ٢٠٠٢، واستضافت وترأَّست قمة المجموعة عام ٢٠٠٦. كما أصبحت عضوًا في منظمة التجارة العالمية في أغسطس ٢٠١٢ بعد مفاوضات استمرَّت ١٨ عامًا، كما تمَّ تأسيس مجلس "روسيا - الناتو" كمنتدى لتطوير التعاون والتنسيق السياسي والعسكري بين روسيا والدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي (الناتو) في ٢٨ مايو ٢٠٠٢[١٢].

إلا أن هذا التوجُّه التعاوني شَهِدَ عدَّة تحوُّلات ابتداءً بتنديد روسيا بالقرار الأمريكي بغزو العراق، مرورًا بأزمة الانتخابات الأوكرانية عام ٢٠٠٤ ودعم الولايات المتحدة للثورة البرتقالية ومن ثم فوز السياسي القريب من الغرب، فيكتور يوتشينكو، وفي ٢٠٠٧ عندما قرَّرت واشنطن نشر درع صاروخي في بولندا وجمهورية التشيك هدَّدت روسيا بنشر قواتها في منطقة كالينينجراد[١٣]، وفي خطاب مؤتمر ميونخ للأمن من نفس العام أعلن بوتين صراحة رفضه للأحادية القطبية، موجِّهًا انتقادات شديدة إلى الغرب، مؤكِّدًا أن نموذج الأحادية القطبية

(٩) فراس بورزان، السياسة الخارجية الروسية في عقدين: نهاية أوروبا الكبرى، إضاءات، ٣٠ أبريل ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/6GX65

(١٠) حسني عماد، السياسة الخارجية زمن الرئيس فلاديمير بوتين، مرجع سابق، ص ص ٢٣-٢٤.

(١١) زانا دلشاد، محددات الأمن القومي الروسي في ظل المتغيرات الدولية الجديدة، مرجع سابق.

(١٢) نورهان الشيخ، مستقبل العلاقات الروسية-الأوروبية: الفرص والتحديات، تريندز للبحوث والاستشارات، مارس ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي:https://cutt.us/aTdhp

(١٣) زانا دلشاد، محددات الأمن القومي الروسي في ظلِّ المتغيرات الدولية الجديدة، مرجع سابق.

لم يعد ممكنًا في العالم المعاصر، وحمَّل الدول الغربية وفي مقدِّمتها الولايات المتحدة المسؤولية عن محاولة فرض معايير خاصة بها على دول أخرى، وحذَّر من استمرار تمدُّد حلف الناتو صوْب حدود روسيا[١٤].

وفي هذا السياق شَنَّ بوتين حربًا شاملة على مستوى الفكر والثقافة والاقتصاد والتقنيات الحديثة، فلم يقْتصر الأمر على استعراض عضلات روسيا النووية والصاروخية العابرة للقارات والمقاتلات والغوَّاصات الاستراتيجية؛ وممَّا حفَّز هذا التغيُّر في التوجُّه الروسي الاستراتيجي نحو الغرب هو الأزمة الاقتصادية العالمية التي ضربت الاقتصاد الروسي عام ٢٠٠٨، والحرب التي شنَّتها روسيا على جورجيا منعًا لانضمامها إلى الناتو واحتلَّت فيها خُمس أراضيها لتدعم بعدها استقلال إقليمي أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، ورسَّخت تلك الأحداث اعتقادًا في أوساط النخبة السياسية الروسية بأن الغرب يريد السيطرة على روسيا وإخضاعها له[١٥].

٢- المرحلة الثانية: الصدام والمواجهة مع الغرب

مع عودة بوتين إلى الرئاسة عام ٢٠١٢ بدأت صياغة رؤية جديدة للسياسة الخارجية الروسية مختلفة عن سابقاتها، تتَّسم بانفتاحية أقل تجاه الغرب، خلال هذه الفترة ضمَّت روسيا شبهَ جزيرة القرم وانخرطت في القتال في الساحة السورية وأزمة أوكرانيا ٢٠١٤، كأن روسيا تشنُّ حربًا غير معلنة على الغرب وعلى حلف الناتو.

خلقت هذه التحولات ديناميات جديدة للسياسة الخارجية الروسية. أحد جوانب محركاتها الطموحُ في إعادة توزيع النفوذ الجيوسياسي في العالم مستندًا إلى وعي بقدرات روسيا التي كانت في حقيقتها بعيدةً عمَّا يلزم لتحقيق هذا الطموح، وفي جانب آخر عمَّقت هذه التحولات لدى النخبة الروسية شعورًا بأن الصراع مع الولايات المتحدة أمرٌ لا مفرَّ منه للحفاظ على روسيا، ولقد دفع ذلك روسيا إلى إعادة ترتيب أولوياتها، ونتج عن ذلك تخفيض التوقُّعات بشأن نتائج التعاون الروسي الأوروبي، والذي اقتصر في تلك المرحلة على محادثات حول التبادل الاقتصادي ومشاريع الطاقة التي سَعَتْ روسيا من خلالها إلى تكثيف تواجدها الأوروبي في مجال إمدادات الطاقة لاستخدامها كورقة مؤثِّرة في إدارة علاقاتها مع أوروبا، ممَّا أثار انتباه خبراء أوروبيّين حذَّروا من أن الغرق في مشاريع الطاقة الروسية مثل مشروع "السيل الشمالي" سيمنح روسيا نفوذًا كبيرًا في أوروبا[١٦]. وبناءً على هذه التحولات التي مرَّت بها العلاقة الروسية-الغربية شهدت العلاقة بين روسيا وكل من الناتو والاتحاد الأوروبي على وجْه الخصوص تحولات عديدة.

١. روسيا و حلف شمال الأطلسي

لقد مرَّت علاقة روسيا بالناتو في ظلِّ بوتين بعدَّة تحولات بين التعاون والاضطراب وصولًا إلى ما عبَّر عنه وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف في وصفه للعلاقات بين روسيا وحلف الناتو بأنه: "لا يمكن وصف العلاقات بين روسيا وحلف الناتو بأنها سيئة، لأنه لا توجد علاقات أصلًا بينهما في الوقت الراهن"[١٧].

لقد بدأ التعاون بين الناتو وروسيا بشكل واضح في عام ٢٠٠٢، وظهر ذلك في مجلس الناتو وروسيا (NRC)[١٨]، والذي يعمل كآلية للتعاون وبناء التوافق واتخاذ القرارات المشتركة، حيث يقول راسموسن رئيس الوزراء الدنماركي السابق الذي

---

(١٤) منذ خطاب بوتين في مؤتمر ميونخ.. أهم مراحل وتطورات المواجهة بين روسيا والغرب، روسيا اليوم، ١٥ فبراير ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/FqkJD

(١٥) فراس بورزان، السياسة الخارجية الروسية في عقدين: نهاية أوروبا الكبرى، مرجع سابق.

(١٦) المرجع السابق.

(17) Madelline Roach, Breaking Down the Complicated Relationship Between Russia and NATO, TIME, 4 April 2019, available at: https://cutt.us/RLAv8

(18) Elena Temelkovska, The Relationship Between NATO and Russia Through the Prism of Mutual Cooperation and Confrontation, European Scientific Journal, Vol. 13, No. 13, May 2017, p. 156.

شغل منصب الأمين العام لحلف الناتو في الفترة من ٢٠٠٩ إلى ٢٠١٤: "لقد تعاونَّا في مكافحة الإرهاب في أفغانستان، ومكافحة المخدرات والقرصنة"، إلا أن هناك اختلافات جوهرية في الرؤى الاستراتيجية لم يتمَّ تجاوزُها بين الطرفين، فلم يتمكَّنا من تجاوز اختلاف وجهات النظر بينهما حول مستقبل جمهوريات ما بعد الاتحاد السوفيتي ورفض روسيا لتوسُّع حلف الناتو وضمِّه هذه الجمهوريات واعتبارها هذه التحرُّكات تحديًا أمنيًّا لها. ومع مرور السنوات أصبح الحنينُ إلى الاتحاد السوفيتي من قبل روسيا أكثر وضوحًا، وفي هذا السياق قال بوتين عام ٢٠٠٥ إن تفكُّك الاتحاد السوفيتي "كان أعظم كارثة جيوسياسية في القرن"[١٩].

في أبريل ٢٠٠٨، وعد الناتو بمنح جورجيا وأوكرانيا عضوية الحلف في قمة بوخارست إلَّا أن قادة الحلف قرَّروا تأجيل قبول عضويتهما في ذلك الحين، في المقابل قامت روسيا بشنِّ غزوٍ لمدَّة خمسة أيام على جورجيا بحجَّة الدفاع عن المنطقتين الانفصاليَّتين في أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، وأعلنت أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا فيما بعد استقلالهما، إلا أن روسيا واحدة من الدول القليلة في العالم التي تعترف بذلك، وقرَّر الناتو عدم دعوة كلٍّ من جورجيا وأوكرانيا للانضمام إلى حلف الناتو[٢٠].

وزاد التوتُّر بشكلٍ حادٍّ منذ عام ٢٠١٤ وذلك على وقْع ضمِّ روسيا شبه جزيرة القرم من أوكرانيا، وفي ظلِّ تصاعد التطوُّرات بين الطرفين جاء قرار الناتو في أكتوبر ٢٠٢١ بطرد ثمانية دبلوماسيِّين روس بحجَّة أنهم عملاء للاستخبارات الروسية ليزيد الوضع سوءًا، وردَّت موسكو حينها بإغلاق مكاتب الحلف في موسكو، ووقْف مهمَّة الاتصال الخاصَّة بالحلف في السفارة البلجيكية في موسكو[٢١].

هذا فضلًا عن سباق التسلُّح بين الطرفين، فمنذ انسحاب واشنطن وموسكو من اتفاقية منع إنتاج ونشر الصواريخ القصيرة والمتوسطة التي تحمل رؤوسًا نووية في أغسطس عام ٢٠١٩، بات المجال مفتوحًا لسباق التسلُّح بين دول الحلف وروسيا، بعد أن كشفت وثائق مسرَّبة على موقع الجمعية البرلمانية لحلف الأطلسي، أن الولايات المتحدة نشرت ١٥٠ قنبلة نووية في ٥ دول تابعة للحلف في أوروبا، كما بدأ الناتو لأول مرة إعادة تشغيل مطارات عسكرية في دول البلطيق الثلاث التي كان يستخدمها حلف وارسو والاتحاد السوفييتي السابق، وتتحدَّث روسيا عن وجود عسكري للناتو في أوكرانيا رغم أن كييف ليست عضوًا في الحلف. وما يزيد من التوتُّر بين روسيا والناتو أن وزارة الدفاع الأمريكية نصحتْ حلفاءَها في الحلْف ببيع الأسلحة الفتَّاكة لأوكرانيا، وهي نصيحة تراها موسكو بأنها تهديد مباشر للأراضي الروسية التي تُتاخم إقليم دونباس الأوكراني الذي يشهد صراعًا بين الموالين لروسيا والحكومة الأوكرانية منذ عام ٢٠١٤[٢٢].

بصرْف النظر عن مظاهر التعاون بين الطرفين فيما يخصُّ أفغانستان ومحاربة الإرهاب، يظل الخلاف حادًّا في عددٍ من القضايا يختلف فيها موقف الناتو وروسيا، الأمر الذي يرتبط بالمصالح الاستراتيجية للجانبيْن، من بينها قضايا الحرب في جورجيا والاعتراف بأبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، وسياسة توسيع الناتو، وبشكل أساسي إمكانية عضوية أوكرانيا وجورجيا وتوسُّع حلف الناتو شرقًا، فضلًا عن الأزمة السورية، حيث اختلفت المصالح الجيوسياسية للطرفين بسبب اختلاف مصالحهما الاستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط[٢٣].

٢. روسيا والاتحاد الأوروبي

(19) Madelline Roach, Breaking Down the Complicated Relationship Between Russia and NATO, Op. cit.

(20) Ibid.

(٢١) زينب مصطفى، روسيا والناتو.. محددات الأزمة ومستقبل صراع الأقطاب، مدى مصر، ٢٩ أكتوبر ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/WN1ZS

(٢٢) أيمن سمير، روسيا والناتو.. الصراع الخشن، البيان، ١ نوفمبر ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/dTqen

(23) Elena Temelkovska, The Relationship Between NATO and Russia Through the Prism of Mutual Cooperation and Confrontation, Op. cit, pp. 160-169.

روسيا هي الجار الأكبر للاتحاد الأوروبي، حيث يشتركان في روابط تاريخية وثقافية وعلمية واقتصادية طويلة الأمد، ومع ذلك، فإن الخيارات السياسية المتعمَّدة للقيادة الروسية على مدى السنوات الماضية، ولا سيما ضمها لشبه جزيرة القرم في عام ٢٠١٤ وأعمالها المستمرَّة المزعزِعة للاستقرار في أوكرانيا، وتصرُّفاتها في الجوار الشرقي للاتحاد الأوروبي وسوريا وليبيا وما وراءها، والأنشطة والهجمات السيبرانية المتكرِّرة ضدَّ الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي قد خلقت دوامة سلبية في علاقة الاتحاد الأوروبي بروسيا، مما دفع إلى فرض الاتحاد الأوروبي عقوبات على روسيا[٢٤].

ومع تزايد تأزُّم العلاقات الروسية الغربية بصفة عامة تفاوتت مواقف الدول الأوروبية الكبرى تجاه روسيا كما تعرضت العلاقات الأوروبية الأمريكية لاختبارٍ هام، فقد دعا الرئيس الفرنسي، إيمانويل ماكرون خلال مؤتمر ميونخ للأمن في فبراير ٢٠٢١، إلى الحوار مع روسيا وبناء هيكل جديد للأمن الدولي، معتبرًا أن هذا الحوار ضروري للسلام الأوروبي، وهذه ليست المرة الأولى التي يدعو فيها ماكرون لإعادة النظر في العلاقات الأوروبية-الروسية، فقد سبق وأن دعا إلى ذلك خلال مؤتمر ميونخ ٢٠٢٠، وكذلك في كلمة ألقاها في افتتاح مؤتمر الدبلوماسيين الفرنسيين في ٢٧ أغسطس عام ٢٠١٩، حيث ذكر رؤيته بأن العالم يعيش نهاية عصر الهيمنة الغربية وأن هناك دولًا أخرى بينها روسيا، تعمل لتغيير النظام العالمي، وأكَّد ضرورة إعادة النظر في العلاقة مع روسيا لأن دفعَها بعيدًا عن أوروبا خطأ كبير[٢٥].

إلا أن دعوة ماكرون هذه أعقبها فرض عقوبات أوروبية جديدة على روسيا على خلفية قضية المعارض الروسي ألكسي نافالني، كما أنها جاءت مخالفة للتوجُّه الأمريكي المعادِي لروسيا، بالإضافة إلى أنها جاءت في سياق أوروبي مضطرب ومنقسِم حول رؤيته لروسيا، حيث نجد فرنسا وألمانيا ترفضان تصعيد العداء مع روسيا، وقد ظهر هذا الانقسام بوضوح في الغزو الروسي الأخير لأوكرانيا في فبراير ٢٠٢٢، فبينما تُصِرُّ فرنسا على الحلول الدبلوماسية وضرورة الحوار مع روسيا وكذلك برلين ترفض فرض عقوبات على قطاع الغاز والنفط الروسي -الذي تعتمد عليه بنسبة كبيرة- حيث قال وزير المالية الألماني كريستيان ليندنر: " إن ألمانيا لا يمكنها الاستغناء عن إمدادات الغاز الروسي في الوقت الراهن"، وأن قطعها "سيضرُّنا أكثر من روسيا"[٢٦]، في المقابل نجد بريطانيا في طليعة الدول التي تمدُّ أوكرانيا بالأسلحة وكذلك دول شرق أوروبا التي تضغط بشدَّة لفرضِ أقْسى العقوبات على روسيا[٢٧].

ومن أهم العوامل المؤثرة على علاقة روسيا بالاتحاد الأوروبي أن هناك مصالح مشتركة وتكامل في قطاع الطاقة بين روسيا والاتحاد الأوروبي، فروسيا أكبر مصدر للطاقة لأوروبا، حيث جاءت في المرتبة الأولى بين مصدِّري النفط لأوروبا، واستأثرت بحوالي ٣٠٪ من واردات الاتحاد الأوروبي من النفط و٣٩٪ من إجمالي واردات الغاز له عام ٢٠١٨، ومن ثم فإن أمن الطاقة الأوروبي يرتبط عضويًّا بروسيا لا سيما ألمانيا التي تُعَدُّ أكبرَ مستهلكي الغاز الروسي.

ومن ناحية أخرى، يعتبر الاتحاد الأوروبي السوق الرئيسي للطاقة الروسية، حيث تمدُّ عوائد صادرات النفط والغاز الموازنة الروسية بنحو ٥٥٪ من مداخيلها، وتسهم بأكثر من ٦٠٪ من حصيلة روسيا من العملة الصعبة، وتقوم روسيا بنقل الغاز الروسي مباشرة إلى أوروبا عبر شبكة من الخطوط التي تقوم بتلبية احتياجات الأخيرة المتزايدة من الطاقة، من بينها "خط يامال" الذي يربط "يامال" أبرز أقاليم الغاز الروسية الشمالية

(24) Facts and figures about EU-RUSSIA Relations, European Union External action, February 2021, available at: https://cutt.us/jvJ6z

(٢٥) نورهان الشيخ، مستقبل العلاقات الروسية-الأوروبية: الفرص والتحديات، مرجع سابق.

(٢٦) مراقبون: شبح الانقسام يخيِّم مجددًا على السياسة الأوروبية تجاه روسيا، DW، ٨ أبريل ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/9UVCx

(٢٧) الحرب الأوكرانية تفضح حجم الاختلاف بين شطري أوروبا، سكاي نيوز، ١١ أبريل ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/tb2oG

بأوروبا عبر بيلاروسيا، وخط "نورد ستريم ١" أو"السيل الشمالي ١" الذي ينقل الغاز الروسي إلى ألمانيا عبر بحر البلطيق. هذا إلى جانب مشروع "نورد ستريم ٢" أو "السيل الشمالي ٢" الذي أكَّد نائب رئيس الوزراء الروسي، ألكسندر نوفاك، في ١٤ فبراير ٢٠٢١، أنه تمَّ بالفعل إنجاز أكثر من ٩٥٪ منه. ويتضمَّن مدَّ خطَّين لنقل الغاز الروسي إلى ألمانيا مباشرة عبر قاع بحر البلطيق، وتَعتبر أوروبا "السيل الشمالي ٢" شريانَ حياةٍ جديدٍ لها، وتعوِّل عليه ألمانيا كثيرًا في تنفيذ خططها الرامية لتقليل الاعتماد على الطاقة النووية والفحم[٢٨].

وفي هذا السياق كانت هناك دعاوى قبل الحرب على أوكرانيا يقودها سياسيون وبرلمانيون أوروبيون لاستئناف التعاون الروسي الأوروبي بعد العقوبات الأوروبية التي فُرِضَتْ على روسيا بشأن المعارض الروسي نافالني تلبيةً للمصالح الأوروبية، ومن ذلك مطالبة المتحدث باسم كتلة "البديل من أجل ألمانيا" في البرلمان، ستيفن كوتريتس، في ١٧ فبراير ٢٠٢١، لواشنطن بتسديد تكاليف تأخير إنجاز مشروع "السيل الشمالي ٢" ممَّا تسبَّب في دفع المستهلك الألماني قيمة أعلى لقاء الغاز، وانتقدت عضو البرلمان الأوروبي الأيرلندية كلير دالي، في ١٢ فبراير ٢٠٢١، تعامل الاتحاد مع روسيا، معتبرةً أنه يستخدم قضية نافالني لتأجيج المواجهة الجيوسياسية مع موسكو، وأكَّدت دالي دعمَها لزيارة الممثِّل الأعلى للاتحاد الأوروبي للشؤون الخارجية جوزيب بوريل إلى موسكو بالقول: "أنتم على حق، علينا أن نتعاون مع روسيا ونشارك في الحوار معها لا أن نقرع طبول الحرب"، وفي ١٣ فبراير انتقد النائب الفرنسي في البرلمان الأوروبي، وممثل كتلة الهوية والديمقراطية اليمينية في البرلمان الأوروبي، نيكولا باي، بشدَّة ما وصفه بـ"سخافة موقف الاتحاد الأوروبي إزاء روسيا"، وشدَّد على أن أوروبا تفرض عقوبات على روسيا على مدى نحو سبع سنوات، لكن الاتحاد نفسه بالدرجة الأولى يعاني من عواقب هذه الإجراءات العقابية[٢٩].

وعلى الرغم من هذه المصالح المشتركة بين روسيا الاتحادية والاتحاد الأوروبي ودعاوى التعاون إلا أن روسيا بالنسبة لحلف شمال الأطلسي تُعَدُّ التهديدَ الأولَ للأمن الأوروبي، فمع ميلاد الحلف حدَّدَ اللورد إسماي، أول أمين عام للحلف، أهدافه في ثلاثة مرتكزات أساسية كان أهمُّها "إبعاد الروس عن أوروبا"، باعتبار موسكو التهديد الرئيسي للحلف. ورغم مرور سبعة عقود على ذلك وتفكُّك الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، فإن عقيدة الحلف لم تشْهد تغيُّرًا في هذا الخصوص. ففي الأول من ديسمبر ٢٠٢٠ قدَّم الأمين العام للحلف، يانس ستولتنبرج، في المؤتمر الافتراضي لوزراء خارجية الحلف تقريرًا بعنوان "الناتو - ٢٠٣٠: الوحدة في عصر جديد"، اعتبر فيه روسيا التهديد العسكري الرئيسي للحلف، مستندًا في ذلك إلى استمرار "سياساتها العنيدة وأعمالها العدوانية" ومشيرًا إلى ما اعتبره "عدوان موسكو" على أوكرانيا وجورجيا، كما أشار التقريرُ إلى التأثير السلبي على أمن المنطقة الأوروبية الأطلسية من أعمال روسيا النشطة في البحر الأسود وبحر البلطيق، وفي القطب الشمالي وشرق البحر المتوسط[٣٠].

وتعتبر أوكرانيا أحد قضايا الخلاف الجوهرية بين موسكو وبروكسل، ونموذجًا لتنافر المصالح بين الجانبين وذلك منذ تفجُّر الأزمة أواخر عام ٢٠١٣. ففي الوقت الذي سَعَى فيه الاتحادُ الأوروبي لدمْج أوكرانيا ضمن هياكِله الاقتصادية والأمنية من خلال اتفاقية "الشراكة الشرقية" التي طرحها عام ٢٠٠٩ بهدف تعزيز العلاقات مع ستٍّ من دول الاتحاد السوفيتي السابق منها أوكرانيا والتي تتضمَّن اتفاقيةً طويلةَ المدى مع كلٍّ منها على حدة، بالإضافة إلى اتفاق تجارة حرة وتخفيف قواعد منح تأشيرات الدخول، في المقابل طرح الرئيس الروسي فلاديمير بوتين مشروعَه "الاتحاد الأوراسي" الذي يتضمَّن بناءَ اتحاد اقتصادي بين روسيا ودول الاتحاد السوفيتي السابق وفي مقدِّمتهم أوكرانيا، لتتصادم المصالح بين موسكو وبروكسل. وصعَّد من هذا الصدام طرح الناتو ضم أوكرانيا لعضويته في

(٢٨) نورهان الشيخ، مستقبل العلاقات الروسية-الأوروبية: الفرص والتحديات، مرجع سابق.

(٢٩) المرجع السابق.

(٣٠) المرجع السابق.

قمة بوخارست عام ٢٠٠٨ ليقف الحلف بذلك على الحدود الروسية مباشرة وهو ما اعتبرته موسكو تهديدًا مباشرًا لها لا يمكن قبوله. ومن ثم كانت إدارة الأزمة الأوكرانية أشبه بساحة مواجهة بين موسكو من ناحية والاتحاد الأوروبي وواشنطن من ناحية أخرى، وفي هذا الصدد، وعقب ضم شبه جزيرة القرم لروسيا في مارس ٢٠١٤، وفي خضمّ عددٍ من الإجراءات التصعيدية والعقابية التي قادتها واشنطن لمواجهة موسكو، فرضَ الاتحادُ الأوروبيُّ ثلاث حزم من العقوبات على روسيا تتضمَّن حظر سفر مواطنين روس، وفرض عقوبات اقتصادية ضد عددٍ من مؤسسات النفط التابعة للدولة وشركات الصناعات العسكرية والشركات المالية، أما الحزمة الثالثة فتمثَّلت في عقوبات مرتبطة بالقرم.

وفي المقابل أصدر الرئيس بوتين في ٦ أغسطس ٢٠١٥ مرسومًا يتضمَّن حظر استيراد المنتجات الزراعية والمواد الخام والأغذية من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وكندا والنرويج وأية دولة قرَّرت فرضَ عقوبات ضدَّ هيئات أو شخصيات روسية. والاستعاضة عنها ببدائل من دول آسيا الوسطى وأذربيجان وصربيا ومصر والمغرب وتركيا وإيران ودول أمريكا اللاتينية، إلى جانب تشجيع المنتجين المحليّين في روسيا للتوسُّع في إنتاج المواد التي تمَّ حظر استيرادها[٣١].

والواقع أن العقوبات والعقوبات المضادَّة من جانب روسيا والاتحاد الأوروبي منذ ٢٠١٤ لم تؤثِّر فقط على روسيا، ولكن كان لها تأثير واضح على اقتصادات بعض الدول الأوروبية والاقتصاد الأوروبي عامة؛ حيث تُعَدُّ روسيا سوقًا رئيسية للمنتجات الأوروبية، وتستوعب ١٠٪ من صادرات المنتجات الزراعية للاتحاد الأوروبي، وهي الشريك التجاري الثالث للاتحاد الأوروبي، بينما يشكِّل الاتحاد الأوروبي الشريك الأول لموسكو، الأمر الذي ألْقى بظلالٍ واضحةٍ على التوافق الأوروبي حول استمرار العقوبات المفروضة على روسيا[٣٢].

ولقد جاءت أزمة أوكرانيا الأخيرة ٢٠٢٢ لتزيد الوضع سوءًا حيث يدلُّ الغزو الروسي لأوكرانيا على زهد روسيا في الحوار مع الاتحاد الأوروبي[٣٣]، هذا فضلًا عن العقوبات التي فرضها الاتحاد الأوروبي على روسيا، ولكن مما تجدر الإشارة له أن الاتحاد الأوروبي ذاته منقسمٌ حول هذه العقوبات خاصة ما يخصُّ مجال الطاقة نظرًا لاعتماد أوروبا بشكل كبير على الصادرات الروسية للطاقة وهذا مما يؤثِّر على أمن الطاقة في أوروبا[٣٤].

ثالثًا- العلاقات الروسية-الغربية وأثرها على التحالف الأمريكي-الأوروبي

تضمَّنت استراتيجية الأمن القومي الأمريكي الصادرة في ديسمبر ٢٠١٧ تأكيدًا واضحًا على أن دور روسيا الدولي يمثِّل تهديدًا للولايات المتحدة، مستخدمة مصطلح "الدول التحريفية" للإشارة إلى روسيا والصين اللتين تحاولان تغيير الوضع الراهن، أي تريدان خلق عالم لا يتوافق بالضرورة مع المصالح والقيم الأمريكية، وفي خطابه الذي ألقاه بوزارة الخارجية الأمريكية، يوم ٤ فبراير ٢٠٢١، شدَّد الرئيس الأمريكي جو بايدن على ما تمثِّله روسيا ومعها الصين من تحدٍّ وتهديدٍ للأمن القومي الأمريكي والمصالح الأمريكية، وأن المواجهة الأمريكية-الروسية مستمرَّة وستزداد حدَّة في المستقبل، أو على حدِّ تعبير بايدن "أن أيام تراجع الولايات المتحدة أمام روسيا انتهت"، وفي هذا السياق، تستمرُّ الضغوط الأمريكية المعرقلة التعاون الروسي-الأوروبي خاصة في مجال الطاقة، فلقد فرضت واشنطن سلسلة من العقوبات بهدف عرقلة مشروع "السيل الشمالي ٢"، كان آخرها تلك التي أقرَّها الرئيس الأمريكي دونالد ترامب يوم ١٩ يناير ٢٠٢١، وتحاول الولايات المتحدة تبرير

(٣١) المرجع السابق.

(٣٢) المرجع سابق.

(٣٣) عزمي بشارة، روسيا وأوكرانيا وحلف الناتو: تأملات في الإصرار العجيب على عدم تجنب المسار المؤدي إلى الحرب، مرجع سابق.

(٣٤) مايكل ريس، روسيا وأوكرانيا: الاتحاد الأوروبي منقسم بشأن كيفية الابتعاد عن الطاقة الروسية، بي بي سي، مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/jFeKl

العقوبات المفروضة من جانبها باعتبارات تتضمَّن حماية أوروبا من الهيمنة الروسية، وأن تبعية الاتحاد الأوروبي للغاز الروسي تنطوي على مخاطر لأوروبا والغرب بشكلٍ عامٍ، وأن خط "السيل الشمالي ٢" سيسْمح بنشر قوة روسيا وتأثيرها عبر بحر البلطيق، وسوف يُمكِّن روسيا من مواصلة تقْويض سيادة أوكرانيا واستقرارها، كما ستمكِّن إيراداتُه روسيا من تمويل تقْويض المؤسسات الديمقراطية في أوروبا والولايات المتحدة[٣٥].

ولقد جاءت أزمة الغزو الروسي لأوكرانيا في فبراير ٢٠٢٢ لتزيد الأمرَ تعقيدًا؛ حيث كشفت الأزمة منذ أيامها الأولى أن العلاقات الأوروبية مع الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد كما كانت طوال العقود الماضية، فرغم ما أفرزته الأزمة من فجوة في الموقف وتوتر بين الجانبين الأوروبي والروسي، فإنها في الوقت ذاته رفعت الغطاء عن جوانب ارتباط أوروبية-روسية، خاصة مع ألمانيا والمجر، التي صرَّح رئيس وزرائها قبل فترة أن أوروبا تدفع ثمن العقوبات على روسيا، وفي المقابل، وَضَحَ بما لا يدع مجالًا للشك أن العلاقات الأمريكية-الأوروبية فقدتْ مصادر التماسك والاتِّساق في تقديرات كلِّ جانبٍ لمصالحه وتهديداته، فأوروبا خلال الأسابيع الأولى من الأزمة كانت متأخِّرة عن واشنطن بخطوات، بل بدا واضحًا من خطاب ومواقف بعض الدول الأوروبية عدم اكتراثها، بالتحذيرات الأمريكية ممَّا أسْمته "استهداف روسيا لأوكرانيا"، أو ما يعنيه ذلك من تهديدات ومخاطر على الأمن الأوروبي. كما أن هناك انقسام داخل أوروبا ذاتها حول العقوبات المفروضة على روسيا ومدى إضرارها بمصالحها، فبعض الدول -مثل ألمانيا وفرنسا- أعلنت مخاوفها من ارتداد العقوبات على روسيا بمردود سلبي عليها[٣٦].

خاتمة:

بناء على ما سبق بيانه، يتبيَّن أن العداء الذي خلَّفته الحرب الباردة لم ينتهِ بعد، بل إن الصعود الروسي في ظل بوتين والحنين إلى إحياء نفوذ الاتحاد السوفيتي من جديد والرفض الروسي للهيمنة الأمريكية العالمية والأحادية القطبية والغطْرسة الغربية والرغبة في إحداث تغيير عالمي يعدِّد الأقطاب ويعيد تشكيل التوازنات؛ ينبئ بأن المستقبل يحمل تغيرات كبيرة على المستوى الدولي، وأن العلاقات الروسية-الغربية ستشهد تغيرات يعود بعضها للخيارات السياسية الروسية وردود الأفعال الغربية تجاهها والبعض الآخر يعود إلى الانقسام داخل الغرب ذاته سواء داخل أوروبا أو بين أوروبا والولايات المتحدة، فالحرب الروسية-الأوكرانية ما هي إلا ساحة عاكسة للحرب الروسية-الغربية وصراع للأقطاب مما يفتح تساؤلات حول مستقبل الساحة الدولية في ظلِّ قوى صاعدة وهيمنة غربية أمريكية تتزعزع، كما يطرح كل ذلك التساؤلات حول التداعيات على حالة العالم الإسلامي في عالم يتغيَّر بسرعة.

*****

(٣٥) نورهان الشيخ، مستقبل العلاقات الروسية-الأوروبية: الفرص والتحديات، مرجع سابق.

(٣٦) محمد خلفان، الأوروبيون بين الولايات المتحدة وروسيا، العين، ٢٧ أبريل ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/lQCUw

الحرب الروسية الأوكرانية: أسباب، وتداعيات

إيمان علاء الدين(*)

مقدمة:

في الرابع والعشرين من فبراير ٢٠٢٢ بدأت روسيا غزوًا عسكريًا واسعًا لأوكرانيا، وشنت هجمات تسببت في مقتل وإصابة مدنيين، كما ألحقت أضرارًا بالمباني المدنية، بما فيها المستشفيات، والمدارس، والمنازل. لتندلع بذلك حرب في أوروبا لم تشهد مثلها منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، ربما تتسبب في زعزعة الهيكل الأمني الأوروبي المستقر منذ التسعينيات، مع زيادة اشتعال منطقة ما بعد الاتحاد السوفيتي التي لم ينقطع اضطرابها.

حيث تمكن مكتب المفوض السامي للأمم المتحدة لحقوق الإنسان (OHCHR)، حتى يوم الثامن من يونيو ٢٠٢٢، من تسجيل مقتل ٤٣٠٢ مدنيًا خلال الهجوم العسكري الروسي على أوكرانيا، من بينهم ٢٧٢ طفلًا، وإصابة ٥٢١٧ مدنيًا من بينهم ٤٣٩ طفلًا. وترجح المفوضية أن الحصيلة الفعلية ربما تتخطى ذلك بكثير(١). ولا توجد حتى لحظة كتابة هذا التقرير أي إحصائية عن الخسائر البشرية في صفوف الجنود من الطرفين، اللهم إلا بعض التصريحات السياسية. فقد صرح الرئيس الأوكراني، "فلاديمير زيلينسكي"، في مقابلة تليفزيونية في الأول من يونيو ٢٠٢٢، إن ٦٠ إلى ١٠٠ جندي أوكراني يلقون حتفهم يوميًا ويُصاب ٥٠٠ آخرون. على الجانب المقابل، أعلنت موسكو رسميًا عن مقتل ١٣٥١ جنديًا روسيًا، وهو أقل من نصف الحصيلة التي قال موقع "آي ستوريز" الروسي الاستقصائي إنه تحقّق منها، بواقع ٣ آلاف و٤٣ قتيلًا بصفوف القوات الروسية، بينما تُقدر وزارة الدفاع البريطانية خسائر الجيش الروسي بـ١٥ ألفًا، ويردد مسؤولون أوكرانيون أن الحصيلة تقترب من ٣٠ ألف(٢).

كما تسببت المعارك الدائرة بين الجيش الروسي والجيش الأوكراني على الأراضي الأوكرانية في تحويل مساحات شاسعة من مدن وبلدات أوكرانية إلى أنقاض، مدمرةً بنية تحتية بمليارات الدولارات. وصرحت اللجنة البرلمانية الأوكرانية لحقوق الإنسان، أن الجيش الروسي دمّر ٣٨ ألف مبنى سكني، بجانب ألف و٩٠٠ منشأةً تعليمية، فضلا عن تضرر ٢٤ ألف كيلومترًا من الطرق(٣).

وقد فشلت العديد من الجولات الدبلوماسية بين روسيا وأوكرانيا في وقف الحرب. وعلى الرغم من تحرك الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي لفرض مجموعة من أشد العقوبات الاقتصادية على الإطلاق على حكومة "بوتين"، بالإضافة إلى قرار المئات من الشركات الغربية -كالشركات المصنعة، وشركات النفط، وتجار التجزئة، وسلاسل الوجبات السريعة -مثل ماكدونالدز- إيقاف تعاملاتها في روسيا(٤)، إلا أن كل هذا لم يفلح في كبح جماح الرئيس الروسي.

(*) باحثة دكتوراه في النظرية السياسية بجامعة القاهرة.

(1) Ukraine: civilian casualty update 9 June 202 2,The UN Human Rights Monitoring Mission in Ukraine, the Office of the UN High Commissioner for Human Rights, date of access: 9 June 2022. available at: https://bit.ly/3O7UIPR

(٢) رنا آسامة، ١٠٠ يوم على الحرب الروسية الأوكرانية في أرقام «رسم بياني» ، رؤية الإخبارية، ٣ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٩ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3tIB7Od

(٣) المرجع السابق.

(4) Dan Bilefsky, Richard Pérez-Peña and Eric Nagourney, The Roots of the Ukraine War: How the Crisis Developed, the New York Times, 21 April 2022, date of access: 8 June 2022. available at: https://nyti.ms/3xWXaTI

وبالرغم من عدم دقة الأرقام التي تتحدث عن ضحايا الحرب، إلا أنها معبرة عن حجم المعارك المستمرة لأكثر من ١٠٠ يوم. ما يدفع للبحث في أسباب اندلاع هذه الحرب، وكيفية تأثير تطوراتها على مجريات الأمور في العديد من دول العالم على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية (والتي حازت الجانب الأكبر من الاهتمام).

أولًا- لماذا شنَّت روسيا حربًا على أوكرانيا؟

أعلن "بوتين" للشعب الروسي أن هدفه هو "نزع السلاح من أوكرانيا، واجتثاث النازية منها"، لحماية أولئك الذين تعرضوا لما وصفه بثمان سنوات من التنمر والإبادة الجماعية من قبل الحكومة الأوكرانية. وشدد على أن "احتلال الأراضي الأوكرانية ليس خطتنا، لا ننوي فرض أي شيء على أحدٍ بالقوة". وفي الوقت ذاته زعم "بوتين" أن الروس والأوكرانيين شعب واحد، مؤكدًا "لم يكن لأوكرانيا أبدًا تقليد إقامة دولة حقيقية"(٥).

ويحاول التقرير في هذا الجزء تتبع التاريخ المشترك بين أوكرانيا وروسيا؛ لتفنيد ادعاءات "بوتين" حول أحقية بلاده في أوكرانيا، ويتتبع كذلك تطور الأزمات بين البلدين في العقد الأخير والتي أدت في نهاية المطاف إلى اندلاع الحرب. فعلى الرغم من تشابك تاريخ البلدين إلا أنه يمكن النظر إليه باعتباره تاريخ احتلال ومحاولات مستمرة للهيمنة من قبل روسيا تجاه أوكرانيا، وهجمات مضادة من الأخيرة سواء سياسية (داخليًا، وخارجيًا) أو دبلوماسية أو عسكرية في بعض الأحيان.

١- ماض العلاقة بين أوكرانيا وروسيا:

يعود تاريخ العلاقة بين أوكرانيا وروسيا إلي زمنٍ بعيد، إذ يرجع إلى أكثر من ألف عام حيث تأسيس الدولة السلافية الأولى "كييف روس"، في أجزاء مما يعرف اليوم بـ "روسيا، وأوكرانيا، وبيلاروسيا"، منذ أواخر القرن التاسع وحتى منتصف القرن الثالث عشر. ثم أصبحت أراضي أوكرانيا المعاصرة جزءً من الإمبراطورية الروسية في أواخر القرن الثامن عشر بعد فترات تحت حكم المغول أو التتار والبولنديين والليتوانيين.

وفي عام ١٩١٨، بعد عامٍ من الثورة الشيوعية الروسية، أعلنت أوكرانيا استقلالها، ولكن في عام ١٩٢١ احتل الجيش الأحمر معظمها وأصبحت أوكرانيا جمهورية داخل الاتحاد السوفيتي. تم شُحذ الإحساس الأوكراني بالهوية الوطنية في ثلاثينيات القرن الماضي عندما أدت السياسات السوفيتية التي عاقبت المزارعين في الجمهورية الذين قاوموا قرارات التنظيم الجماعي للمجال الزراعي (التي اتخذها "جوزيف ستالين" عام ١٩٢٩ بالتحول إلى الزراعة المشتركة)، إلى مجاعة من صنع الإنسان تُعرف باسم "هولودومور"، والتي قتلت ما يقدر بنحو ٧ ملايين شخص هناك. وقد استعادت أوكرانيا استقلالها في عام ١٩٩١ مع انهيار الاتحاد السوفيتي.

وربما بسبب هذا الماضي بين الدولتين، لطالما كانت الفكرة المفضلة لـ "بوتين" هي أن أوكرانيا ليست دولة شرعية، وأن الروس والأوكرانيين شعب واحد.

ويفهم الجميع في أوكرانيا اللغة الروسية، ويمكنهم التحدث بها. كما يمثل الروس العرقيون أكبر أقلية هناك، حيث يشكلون ١٧٪ من السكان في آخر تعداد سكاني يرصد العرقيات، في عام ٢٠٠١. وتقع النسبة الأعلى من الروس في شبه جزيرة القرم، وفي بعض أجزاء من الشرق. كما يحتفظ بعض المواطنين الأوكرانيين بالتعاطف مع الكرملين، إلا أن الحرب الجارية تسببت في تآكل صفوف هؤلاء. وحتى قبل الحرب، فقد أيدت أغلبية كبيرة من الشعب الأوكراني البالغ عدده ٤١ مليون نسمة الاندماج مع الاتحاد الأوروبي(٦).

(٥) بول كيربي، روسيا وأوكرانيا: ماذا يريد بوتين وهل ستنهي روسيا حربها، بي بي سي نيوز، ٢١ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ٢ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3xZgQGs

(6) Patrick Donahue and Daryna Krasnolutska، Understanding the Roots of Russia's War in Ukraine, Bloomberg, 2 March 2022, accessed on: 8 june 2022. available at: https://bloom.bg/3zOyoGC

٢-أزمات العقد الأخير:

شهدت موسكو وكييف أول أزمة دبلوماسية كبيرة بينهما في عهد "فلاديمير بوتين"، ففي خريف عام ٢٠٠٣ بدأت روسيا بشكلٍ مفاجئ في بناء سد في مضيق "كريتش" باتجاه جزيرة "كوسا توسلا" الأوكرانية، واعتبرت كييف ذلك محاولة لإعادة ترسيم حدود جديدة بين البلدين، وازدادت حدة الصراع، ولم يتم وضع حد له إلا بعد لقاء ثنائي بين الرئيسين الروسي والأوكراني. عقب ذلك أوقف بناء السد، لكن الصداقة المعلنة بين البلدين بدأت تشهد تشققات[٧].

وأثناء الانتخابات الرئاسية في أوكرانيا عام ٢٠٠٤ دعمت روسيا بشكل كبير المرشح المقرب منها، "فيكتور يانوكوفيتش"، إلا أن "الثورة البرتقالية" حالت دون فوزه، وفاز بدلاً منه السياسي القريب من الغرب، "فيكتور يوشتشينكو"، وخلال فترته الرئاسية قطعت روسيا إمدادات الغاز عن البلاد مرتين، في عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٩، كما قُطعت أيضًا إمدادات الغاز إلى أوروبا المارة عبر أوكرانيا[٨]، لتتوالى عقب ذلك الأزمات، خاصةً خلال العقد الأخير، كما سنرى:

- **الناتو وبداية التوغل الروسي:**

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، توسع الناتو شرقًا واستولى في النهاية على معظم الدول الأوروبية التي كانت في المجال الشيوعي؛ جمهوريات البلطيق مثل ليتوانيا ولاتفيا وإستونيا، وكذلك بولندا ورومانيا وغيرها. نتيجة لذلك، اقترب الناتو مئات الأميال من موسكو. وفي عام ٢٠٠٨، ارتفعت أصوات داخل الناتو تدعم انضمام أوكرانيا، على الرغم من أن هذا لا يزال يُنظر إليه على أنه احتمال بعيد المنال[٩].

بالنسبة للكرملين، كانت الفكرة القائلة بأن أوكرانيا، ستنضم إلى الناتو خطًا أحمر،"لا يمكن لأي زعيم روسي أن يقف مكتوف الأيدي في مواجهة الخطوات نحو عضوية الناتو لأوكرانيا"، هكذا صرح وكيل وزارة الخارجية الأمريكية للشؤون السياسية، "ويليام ج. بيرنز"، الذي يشغل الآن منصب مدير وكالة المخابرات المركزية، خلال الأسابيع التي سبقت قمة الناتو في بوخارست عام ٢٠٠٨، التي قدم فيها الرئيس الأمريكي الأسبق "جورج بوش" اقتراح انضمام أوكرانيا[١٠].

ولأن مسألة الانضمام للناتو لم تنجح سريعًا، حاولت أوكرانيا الارتباط بالغرب من خلال اتفاقية تعاون مع الاتحاد الأوروبي، في صيف عام ٢٠١٣ لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من التأزم. فبعد أشهر قليلة من توقيع الاتفاقية، مارست موسكو ضغوطًا اقتصادية هائلة على كييف وضيقت على الواردات إلى أوكرانيا. وعلى خلفية ذلك، جُمدت الاتفاقية من قبل حكومة الرئيس الأسبق "يانوكوفيتش"، الذي فاز بالانتخابات عام ٢٠١٠، والحليف القوي لـ "بوتين". وانطلقت بسبب ذلك احتجاجات معارضة للقرار، أدت لفراره إلى روسيا في فبراير عام ٢٠١٤. فاندفعت روسيا إلى اقتحام الأراضي الأوكرانية، وضمت شبه جزيرة القرم. كما أشعلت موسكو تمردًا انفصاليًا سيطر على جزء من منطقة "دونباس" في أوكرانيا، في حرب لا تزال مستمرة، وقتلت أكثر من ١٣٠٠٠ شخص[١١].

وقبل غزوه أوكرانيا بفترة وجيزة، مزق الرئيس "بوتين" اتفاقية السلام، واعترف بدولتين صغيرتين تدعمهما روسيا على أنهما مستقلتان عن أوكرانيا. وعندما أرسل قواته إلى أوكرانيا،

(٧) أسباب الحرب بين روسيا وأوكرانيا .. جذور الصراع وتطوراته، بوابة الأهرام، ٢٤ فبراير ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٢ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/j28fr

(٨) المرجع السابق.

(٩) المرجع السابق.

(10) Jonathan Masters, Why NATO Has Become a Flash Point With Russia in Ukraine, Council on Forign Relations, 20 january 2022, accessed on: 8 june 2022, available at: https://on.cfr.org/3HAwJ9n

(11) Dan Bilefsky, Richard Pérez-Peña and Eric Nagourney, Op. cit.

اتهم "بوتين" الناتو بتهديد "مستقبلنا التاريخي كأمة"، زاعمًا، دون أساس، أن دول الناتو تريد نقل الحرب إلى القرم[١٢].

وردَّت الولايات المتحدة وحلف الناتو بأنهما ما زالا ملتزمين باستعادة وحدة أراضي أوكرانيا وسيادتها. وإنهم لا يعترفون بمطالب روسيا بشبه جزيرة القرم، وقد شجعوا روسيا وأوكرانيا على حل النزاع في منطقة "دونباس" الشرقية من البلاد عبر اتفاقيات "مينسك". حيث تم التوقيع على هذه الاتفاقيات في عامي ٢٠١٤ و٢٠١٥ بوساطة من فرنسا وألمانيا، وهي تدعو إلى وقف إطلاق النار، وسحب الأسلحة الثقيلة، وسيطرة أوكرانيا على حدودها مع روسيا، وإجراء انتخابات محلية ووضع سياسي خاص لأجزاء معينة من المنطقة[١٣].

وقد انتظرت كييف حتى انتهاء الانتخابات الرئاسية في مايو ٢٠١٤ لتطلق عملية عسكرية كبرى أسمتها "حربًا على الإرهاب". وفي مطلع عام ٢٠١٥ شن الانفصاليون هجومًا، زعمت كييف أنه كان مدعومًا بقوات روسية لا تحمل شارات تعريف، وهو ما نفته موسكو، ومنيت القوات الأوكرانية بهزيمة ثانية جراء الهجوم، وذلك في مدينة "ديبالتسيفي" الاستراتيجية، والتي اضطر الجيش الأوكراني للتخلي عنها. وبرعاية غربية، تم الاتفاق على "مينسك ٢"، وهي اتفاقية تشكل إلى اليوم أساس محاولات إحلال السلام، وما تزال بنودها لم تُنفذ بالكامل بعد.

وفي خريف عام ٢٠١٩ تم إحراز نجاح في سحب جنود من الجهتين المتحاربتين من بعض مناطق المواجهة، لكن منذ "قمة النورماندي" التي عُقدت في باريس في ديسمبر عام ٢٠١٩ لم تحصل أي لقاءات، خاصةً أن "بوتين" لا يرغب في لقاء شخصي مع الرئيس الأوكراني الحالي، "فلاديمير زيلينسكي"، لأنه –من وجهة نظر موسكو– لا يلتزم باتفاق "مينسك"[١٤].

ومنذ ديسمبر عام ٢٠٢١ يطلب الرئيس الروسي بشكل علني من الولايات المتحدة ألا تسمح بانضمام أوكرانيا إلى حلف الناتو أو تتلقى مساعدات عسكرية منه، لكن الحلف لم يرضخ لهذه المطالب[١٥]. كما أن كييف أكدت هدفها المتمثل في الحصول على عضوية الناتو في نهاية المطاف، وهي تجري تدريبات عسكرية سنوية مع الحلف. كما زود الجيش الأمريكي القوات الأوكرانية بالتدريب والمعدات، بما في ذلك بنادق القنص وقاذفات القنابل اليدوية ومعدات الرؤية الليلية والرادارات وصواريخ جافلين المضادة للدبابات وسفن الدوريات. وتجدر الإشارة إلى أنه في عام ٢٠٢٠، أصبحت أوكرانيا واحدة من ستة دول فقط ممن يُطلق عليهم شركاء "الفرصة المعززة"، وهو وضع خاص مُنح لحلفاء حلف الناتو، مثل أستراليا[١٦].

- **التبرير المعلن للحرب:**

اتهم "بوتين" وحلفاؤه الحكومة الأوكرانية بارتكاب "إبادة جماعية" ضد الروس الأصليين والمتحدثين الأصليين للروسية في دونباس، وهو ادعاء رفضته أوكرانيا والولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي.

وقبل أيام من الغزو، اعترف "بوتين" بجمهوريات الانفصاليين، وأبطل اتفاقيات "مينسك"، وصفقات السلام التي توسطت فيها ألمانيا وفرنسا. وقال إن هدف الغزو كان "نزع السلاح" من أوكرانيا –كما سبقت الإشارة. ومن ثم، هذا سيجعلها غير قادرة على الانضمام إلى حلف الناتو[١٧].

ثانيًا- التداعيات الاقتصادية

بمجرد أن بدأت روسيا هجومها على أوكرانيا قفزت أسعار النفط متجاوزة ١٠٠ دولار للبرميل لتصل إلى أعلى مستوى لها منذ أكثر من سبع سنوات. كما تراجعت أيضًا الأسهم العالمية خاصةً الأوروبية؛ إذ انخفض مؤشر "فوتسي ١٠٠" البريطاني

(١٢) بول كيربي، مرجع سابق.

(13) Jonathan Masters, Op. cit.

(١٤) أسباب الحرب بين روسيا وأوكرانيا .. جذور الصراع وتطوراته، مرجع سابق.

(١٥) المرجع السابق.

(16) Jonathan Masters, Op. cit.

(17) Patrick Donahue and Daryna Krasnolutska, Op. cit.

بأكثر من ٣ في المئة، وهبط مؤشر "داكس" الألماني بأكثر من ٥,٥ في المئة. وكذلك انخفض الروبل إلى مستوى قياسي مقابل الدولار الأمريكي، وقد ارتفع سعر الذهب في اليوم نفسه[١٨]. أما مع استمرار الحرب، وفرض عقوبات على روسيا، فقد تفاقمت الآثار الاقتصادية في أغلب أنحاء العالم. ويمكن تتبُّع التداعيات الاقتصادية لتلك الحرب على صعيد المحاور الآتية:

١- العقوبات المفروضة على روسيا:

فرض قادة الدول الغربية (بريطانيا، والولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي) مجموعة كبيرة من العقوبات على روسيا، تستهدف الاقتصاد الروسي بشكلٍ كبير. تضمنت هذه العقوبات:

- تجميد أصول البنك المركزي الروسي، مما حد من قدرته على الوصول إلى ٦٣٠ مليار دولار من احتياطاته.
- منعت بريطانيا والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة المواطنين والشركات لديها من إجراء أي تعاملات مالية مع البنك المركزي الروسي، أو وزارة المالية الروسية، أو صندوق الثروة السيادي الروسي.
- إبعاد بعض البنوك الروسية من "نظام سويفت" الذي يسمح بتحويل الأموال بشكلٍ يسير بين الدول المختلفة، وهو الأمر الذي يُعيق قدرة روسيا على الحصول على عائدات بيع نفطها وغازها.
- فرض قيود على المنتجات التي يمكن إرسالها إلى روسيا من قبل بريطانيا، والاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة وغيرها. ويشمل هذا السلع ذات الاستخدام المزدوج (وهي المواد التي يمكن استخدامها للأغراض المدنية والعسكرية على حدٍّ سواء)، مثل المواد الكيميائية أو الليزر.
- حظر بيع الطائرات ومعداتها لشركات الطيران الروسية.
- حظر جميع الرحلات الجوية الروسية من مجال الدول الغربية الجوي[١٩].

كما فرضت بريطانيا عدة عقوبات إضافية على موسكو، من بينها:

- استبعاد كبرى البنوك الروسية من النظام المالي البريطاني.
- تجميد أصول كافة البنوك الروسية.
- إصدار قوانين لمنع الشركات والحكومة الروسية من الحصول على أموال من الأسواق البريطانية.
- وضع حد أقصى للمبالغ المالية التي يمكن للروس إيداعها في البنوك البريطانية[٢٠].

هناك عقوبات أخرى استهدفت عددًا من الأشخاص البارزين في روسيا، على رأسهم الرئيس "فلاديمير بوتين" ووزير خارجيته "سيرجي لافروف"، الذي تم تجميد أصوله في الولايات المتحدة، وكندا، والاتحاد الأوروبي، وبريطانيا، علاوة على حظر سفرهما إلى الولايات المتحدة. كما استهدفت الولايات المتحدة أصول ثمانية آخرين من الأوليغارش والمسؤولين الروس، بما في ذلك رجل الأعمال "أليشر عثمانوف". وفرضت أستراليا عقوبات على الأثرياء الروس، وأكثر من ٣٠٠ من البرلمانيين الروس، الذين صوتوا بالسماح بإرسال الجيش إلى أوكرانيا. وفرضت اليابان عقوبات على مؤسسات وشخصيات روسية، وعلقت صادرات عدة سلع إلى روسيا، منها صادرات أشباه الموصلات. كما أعلنت

(١٨) روسيا وأوكرانيا: قفزة في أسعار النفط وتراجع حاد في أسواق الأسهم عقب الهجوم الروسي، بي بي سي نيوز، ٢٤ فبراير ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ١٣ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر هذا الرابط التالي: https://bbc.in/3Quu0SX

(١٩) "روسيا وأوكرانيا: ما هي العقوبات المفروضة على موسكو؟"، بي بي سي نيوز، ٢٨ فبراير ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ٢٠ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/kerO9

(٢٠) المرجع السابق.

بريطانيا عزمها فرض قيود على منح "التأشيرات الذهبية"، التي سمحت للأثرياء الروس بالحصول على حقوق الإقامة في بريطانيا، ومن المقرر أن يناقش النواب البريطانيون مشروع قانون الجرائم الاقتصادية، الذي يهدف إلى تجميد أصول "حلفاء بوتين" في المملكة المتحدة.

كما أوقف عدد متزايد من الشركات العالمية بما في ذلك ماكدونالدز وكوكا كولا وستاربكس خدماتها في روسيا. أيضًا أوقفت مجموعة يونفيرسال للموسيقى عملياتها وأغلقت مكاتبها في روسيا. وكذلك أعلنت كل من أبل ونتفليكس وزارا ومذركير واتش آند إم وجاغوار ولاندروفر تعليق أنشطتها في روسيا. وأعلنت ثلاث من أكبر أربع شركات محاسبة في العالم إنه لن يكون لها بعد الآن شركاء في روسيا، في حين أعلنت شركة المحاماة الرائدة فريش فيلدز أنها لن تعمل بعد الآن مع أي عملاء مرتبطين بالدولة الروسية.

وبالطبع لم تترك روسيا هذه العقوبات دون رد، فرفعت روسيا سعر الفائدة الرئيسية بأكثر من الضعف في محاولة لوقف تراجع الروبل، الذي انخفضت قيمته مقابل الدولار بنسبة ٣٠ في المئة بعد فرض العقوبات. كما قامت بمنع مدفوعات الفوائد للمستثمرين الأجانب الذين يحملون سندات حكومية، وحظرت على الشركات الروسية دفع أموال للمساهمين الأجانب. وفي الوقت ذاته، منعت روسيا المستثمرين الأجانب الذين يمتلكون عشرات المليارات من الدولارات من الأسهم والسندات الروسية من بيع تلك الأصول. وفي المقابل، غالبًا يلجأ العديد من الأثرياء الروس إلى تحويل مدخراتهم من الروبل إلى عملات مشفرة -مثل البيتكوين- للالتفاف على العقوبات.

وقد هدَّدت وزارة الخارجية الروسية بفرض عقوبات على الغرب، قد تشمل تقليل أو إيقاف إمدادات الغاز إلى أوروبا. كما لا تستطيع شركات الطيران البريطانية دخول المجال الجوي الروسي أو الهبوط في المطارات الروسية[٢١]. كما قامت روسيا بإيقاف صادراتها إلى دول الاتحاد الأوروبي من ٢٠٠ سلعة حتى نهاية عام ٢٠٢٢، تضم سلعًا أساسية، بالإضافة إلى منتجات مُصنعة، كما علقت صادرات القمح والشعير والذرة وعددًا من السلع الزراعية إلى بلدان الاتحاد الأوراسي حتى أغسطس القادم، لتأمين احتياجات السوق المحلي من الغذاء. وتهدف هذه الخطوة إلى زيادة أسعار هذه السلع والمنتجات في السوق العالمي[٢٢].

٢-تراجع النمو العالمي وزيادة التضخم:

نشر صندوق النقد الدولي تقريرًا بعد مرور أسابيع على بداية الحرب يحلل الآثار الاقتصادية التي ستحل بالعالم نتيجة استمرارها. ولعل أبرز هذه الآثار هو تباطؤ معدلات النمو، وزيادة سرعة التضخم على مستوى العالم. وقد حدد التقرير ثلاث قنوات أساسية لتمكن هذه الآثار؛ أولا، ارتفاع أسعار السلع الأولية كالغذاء والطاقة سيدفع التضخم نحو مزيد من الارتفاع، مما يؤدي بدوره إلى تآكل قيمة الدخول وإضعاف الطلب. وثانيا، الاقتصادات المجاورة بصفةٍ خاصة سوف تصارع الانقطاعات في التجارة وسلاسل الإمداد وتحويلات العاملين في الخارج كما ستشهد طفرة تاريخية في تدفقات اللاجئين. وثالثًا، تراجع ثقة مجتمع الأعمال وزيادة شعور المستثمرين بعدم اليقين يُفضيان إلى إضعاف أسعار الأصول، وتشديد الأوضاع المالية، وربما الحفز على خروج التدفقات الرأسمالية من الأسواق الصاعدة[٢٣].

(٢١) المرجع السابق.

(٢٢) حسين سليمان، العقوبات الاقتصادية على روسيا ومخاطر التصعيد المتبادل، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٦ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ٢٠ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/IWSLM

(٢٣) ألفريد كامر، وجهاد أزعور، وأبيبيه آمرو سيلاسي، وآخرين، الحرب في أوكرانيا وأصداؤها عبر مختلف مناطق العالم، موقع صندوق النقد الدولي،١٧ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ١١ يونيو ٢٠٢٢. متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3N9yxHW

ومع إسهام روسيا وأوكرانيا بنسبة ٣٠٪ من صادرات القمح العالمية، ارتفعت تكاليف الغذاء بعد بلوغ سعر القمح مستوى تاريخي. وتخوف صندوق النقد من احتمال أن يؤدي ارتفاع أسعار الغذاء والوقود "إلى مخاطر أكبر من حدوث قلاقل في بعض المناطق، من أفريقيا جنوب الصحراء وأمريكا اللاتينية إلى القوقاز وآسيا الوسطى، بينما من المرجح زيادة انعدام الأمن الغذائي في بعض أنحاء أفريقيا والشرق الأوسط"[٢٤]. فسوريا تستورد نحو ثلثي احتياجاتها من المواد الغذائية والنفط، ويأتي معظم وارداتها من القمح من روسيا. ولبنان يستورد من أوكرانيا وروسيا أكثر من ٩٠٪ من احتياجاته من الحبوب. ويستورد اليمن الذي يعاني بالفعل نقصًا حادًا في الأمن الغذائي نحو ٤٠٪ من احتياجاته من القمح من هذين البلدين[٢٥]. أما مصر، فتأتي ٨٠٪ من وارداتها من القمح من روسيا وأوكرانيا، كما أنها مقصد سياحي يحظى بإقبال كبير من كلا البلدين، ومن ثم سوف تشهد كذلك انكماشًا في نفقات زائريها[٢٦].

وبالنسبة لزيادة معدلات التضخم، فإنها كانت مستمرة بالفعل طوال عام ٢٠٢١ نتيجة لزيادة الطلب بسبب الانتعاش الاقتصادي والاضطراب المستمر للعديد من سلاسل القيمة، لكن الحرب سرعت من وتيرة ذلك. وقد كانت هذه الحركة أكثر وضوحًا في البلدان الناشئة والنامية. وبحسب "جوزيب بوريل"، الممثل السامي للاتحاد الأوروبي للشؤون الخارجية والسياسة الأمنية ونائب رئيس المفوضية الأوروبية، فإن هذا الارتفاع في التضخم يؤدي إلى زيادات كبيرة في أسعار الفائدة من قبل البنوك المركزية وتشديد الأوضاع النقدية. وذلك في سياق تضاعف فيه الدين الخارجي لهذه البلدان في السنوات الأخيرة بسبب الوباء. فالبلدان الصاعدة والنامية لديها حيز مالي أقل لمكافحة الأزمات، والتخفيف من تأثيرها على مواطنيها من الدول المتقدمة. وفي الأسابيع الأخيرة من الحرب، حدث انخفاض سريع في أسعار الأسهم في الأسواق المالية وخسارة هائلة في قيمة العملات المشفرة. ما قد يؤدي إلى أزمة مالية جديدة، مصحوبة بهروب رأس المال الدولي إلى الولايات المتحدة. ويرى "بوريل" أن هذا الخطر قد بدأ في الظهور بالفعل مع الارتفاع الحاد في سعر صرف العملة الأمريكية؛ وهي حركة تغذي التضخم في البلدان التي تنخفض قيمة عملتها. وقد أدى هذا السياق إلى قيام صندوق النقد الدولي بتخفيض توقعاته الاقتصادية بشكلٍ كبير مقارنةً بشهر يناير الماضي، وخاصة بالنسبة للبلدان الناشئة، مما أدى إلى تفاقم خسارة النمو التي عانت منها هذه البلدان بسبب الوباء[٢٧].

٣-تحديات وفرص سوق الطاقة:

رفضت السعودية ودول خليجية أخرى دعوات أمريكية لضخ مزيد من النفط لخفض أسعار الوقود العالمية، خاصة قبل بدء الغزو الروسي في الوقت الذي اقترب فيه سعر البرميل من ١٠٠ دولار لأول مرة منذ ثماني سنوات[٢٨].

هذا وتعتمد أوروبا على ما يقرب من ٤٠٪ من طاقتها على روسيا، وهذا ما جعل المستشار الألماني "أولاف شولتز" يصرح عقب قمة فرساي في مارس ٢٠٢٢: "تعمدت أوروبا استثناء إمدادات الطاقة الروسية من العقوبات؛ لأن ذلك سينعكس

(٢٤) المرجع السابق.

(٢٥) فريد بلحاج، ضغوط متفاقمة: الحرب في أوكرانيا وتداعياتها على منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، موقع مدونات البنك الدولي، ٧ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ١١ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3xD2RVk

(٢٦) ألفريد كامر، وجهاد أزعور، وأبيبيه آمرو سيلاسي، وآخرين، مرجع سابق.

(27) Josep Borrell، Russia's invasion of Ukraine puts the global economy at risk، European Union External Action, 16 May 2022, accessed on: 15 June 2022. available at: https://bit.ly/3mVNdiS

(٢٨) محمود حسين، الخليج والغزو الروسي لأوكرانيا.. "صفقة قذرة" أم حسابات سياسية؟، دويتشه فيله، ١ مارس ٢٠٢، تاريخ الاطلاع ٢٥ يونيو ٢٠٢٢. متاح عبر هذا الرابط: https://bit.ly/3btb33g

بشدة على اقتصاد الدول الأوروبية"، في إشارة إلى العقوبات الأمريكية التي فُرضت على روسيا بسبب حربها مع أوكرانيا[٢٩].

ومع تصريحات عدد من مسؤولي دول الاتحاد الأوروبى حول العزم على البحث عن مصادر بديلة للطاقة الروسية ومحاولة الاستغناء عنها في عام ٢٠٢٧، إلا إنه لا توجد مؤشرات توحي بأن هناك بدائل حقيقية وكافية متاحة، بما فيها البدائل الخليجية[٣٠].

إلا أن "جوزيب بوريل" يرى قدرة الخليج على المساهمة بفاعلية في استراتيجية البحث عن بدائل للطاقة الروسية، والتنويع في إمدادات الغاز وإمدادات مصادر الطاقة الأخرى مثل الهيدروجين الأخضر ومصادر الطاقة المتجددة.. فقد صرح بأن كل من الأمير القطري "تميم بن حمد آل ثاني" ونائب رئيس الوزراء وزير الخارجية الشيخ "محمد بن عبد الرحمن آل ثاني" أكدا في اجتماعاتهم اهتمام دولة قطر ببناء شراكة طاقة استراتيجية طويلة الأمد مع الاتحاد الأوروبي. وفي حين أن القدرة على توصيل غاز طبيعي مسال إضافي إلى أوروبا محدودة على المدى القصير، يبدو" بوريل" واثقًا من أن قطر مستعدة للاحتفاظ بإنتاج متزايد للاتحاد الأوروبي اعتبارًا من عام ٢٠٢٥[٣١].

ثالثًا- التداعيات السياسية

تأثرت العديد من دول العالم بحرب روسيا على أوكرانيا، ابتداءً بالجوار الأوروبي والأسيوي لساحة القتال، حتى تلك البعيدة جغرافيًا ولكنها تقترب من خلال تعقد شبكة المصالح الاقتصادية والسياسية. ولن يسع هذا التقرير رصد التداعيات السياسية للحرب على كل دول ومختلف مناطق العالم، فسيتناول على وجه الخصوص التغيرات البارزة التي يشهدها الاتحاد الأوروبي الجار الأقرب للحرب، والمرتبط بروسيا عبر ملفات شديدة الأهمية بالنسبة لدول الاتحاد واقتصادها وأمنها العسكري. كذلك يتناول وضع الملف النووي الإيراني كواحد من أبرز الملفات العالمية التي تضطلع فيها موسكو بدورٍ محوري. ثم يعرج التقرير على المنطقة العربية التي تضم سوريا حيث تقاتل روسيا بشكلٍ مباشر على أرضها، ثم ليبيا ومصر، ذلك بالطبع إلى جانب الخليج. كما لا يمكن إغفال إسرائيل التي تنسق مع روسيا في سوريا وفي غيرها من الملفات.

١-الاتحاد الأوروبي:

تفاجأت أوروبا باندلاع حرب في عقر دارها، بعد توالي وعود وتطمينات من المسؤولين الروس إلى نظرائهم الفرنسيين والألمان بعدم نية روسيا غزو أوكرانيا. وتعالت بعض المخاوف حول احتمال اتساع الغزو إلى ضرب منشأت نووية في أوكرانيا أو الاستخدام المباشر لأسلحة نووية، على الرغم من الضعف الشديد لهذا الاحتمال. كما تأثرت المصالح الاقتصادية المباشرة لدول أوروبا شديدة الارتباط بروسيا خاصةٍ في مجال الطاقة – على نحو ما أُشير. وربما يكون التغير الأبرز الذي شهدته الساحة الأوروبية هو دعوات الحكومات الأوروبية لحث مواطنيها على الاشتراك في الدفاع عن أوكرانيا، وزيادة التسليح للجيوش النظامية بشكلٍ غير مسبوق منذ الحرب الباردة. هذا إلى جانب فتح أوروبا ذراعيها لاستقبال ملايين اللاجئين الأوكرانيين. كل هذا ربما يدفع إلى تغيرات جوهرية في تكوين الاتحاد الأوروبي، وليس فقط توجهاته السياسية والاقتصادية.

يعتبر التطور الأبرز الذي لحق بالهجوم الروسي على أوكرانيا، هو التحول في السياسة السلمية والاعتماد على الدبلوماسية التي دأب الاتحاد الأوروبي على انتهاجها منذ تأسيسه. ويرى المحلل السياسي الهولندي "لوك فان ميدلار" أن الاتحاد الأوروبي "تجاوز نقطة اللاعودة" عندما قرر تمويل

(٢٩) عمرو الشوبكي، الاتحاد الأوروبي والحرب في أوكرانيا، مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية، ١٦ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Z7cYL

(٣٠) المرجع السابق.

(٣١) جوزيب بوريل، وجهات نظر مختلفة حول حرب العدوان الروسية وتعزيز شراكتنا مع الخليج، مدونة الاتحاد الأوروبي الشئون الخارجية، ٣١ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ٢٥ يونيو ٢٠٢٢. متاح عبر هذا الرابط: https://bit.ly/3NjRpUn

عمليات تسليم أسلحة إلى أوكرانيا، في تحول "صارخ" مقارنةً بتاريخه السلمي[٣٢].

كما رفعت العديد من الدول ميزانية الإنفاق العسكري، حيث جاءت ألمانيا في الصدارة ورفعت إنفاقها العسكري من ٥٦ مليار دولار سنويًا إلى ١٠٠ مليار دولار، كما قررت لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية تزويد دولة في منطقة نزاع بالأسلحة. أما بريطانيا، فقد أقرت زيادة في ميزانية الدفاع بأكثر من ١٦,٥ مليار دولار. كما أعلنت فرنسا أنها ستزيد من ميزانية الدفاع لهذا العام بأكثر من ملياري دولار. وزادت كل من هولندا وإيطاليا نسب إنفاقها العسكري، وكذلك فعلت بلدان كانت تطالب بتخفيض الإنفاق على الجيوش مثل السويد والدنمارك[٣٣]. ولهذا قالت رئيسة المفوضية الأوروبية "أورسولا فون دير لايين" أن "حرب الرئيس الروسي "فلاديمير بوتين" في أوكرانيا تثير تساؤلات جوهرية حول هندسة السلام الأوروبية"[٣٤].

وبالرغم من هذه التغيرات في السياسة العسكرية لدول الاتحاد الأوروبي وخاصة ألمانيا، تم توجيه عدد من الانتقادات إلى سياسة الاتحاد تجاه الأزمة الروسية الأوكرانية؛ أبرزها الانتقاد بالضعف في مواجهة روسيا. ففي الوقت الذي أقدمت فيه ألمانيا على السياسات السابق ذكرها، أُتهمت بأنها لم تتخذ خطوة فعلية على الأرض ما أعطى الانطباع أنها، متقاعسة، ومتراجعة إلى الصفوف الخلفية، عندما آن الأوان لتشكيل تحالف لمواجهة روسيا. ويقول عضو البرلمان الألماني، عن حزب "التحالف الديمقراطي المسيحي"، "بيتر بير": "يجب أن نوجه رسالة تنم عن القوة، لا الضعف، لأن ذلك يشجع الرئيس الروسي، للإقدام على ما يفعله". كما أن الكثير من المنتقدين، الذين كما يعتقد تدفعهم المصالح الاقتصادية، بدأ صبرهم ينفد من انفتاح الرئيس الفرنسي "إيمانويل ماكرون" الدبلوماسي نحو "بوتين"؛ على الرغم من استيائهم المتنامي، من كون ألمانيا، ضعيفة أكثر مما ينبغي، في مواجهة روسيا. فلقد تقدمت بولندا، ودول البلطيق، مع دول سابقة في التكتل السابق التابع للاتحاد السوفيتي، مثل التشيك، لتقود الناتو، والاتحاد الأوروبي، في القرارات الدفاعية، والعسكرية، خلال الحرب الروسية الأوكرانية. في المقابل، نهضت المجر، كمعارض غير متوقع للعقوبات التي يفرضها الاتحاد ضد روسيا. حيث يعرقل رئيس الوزراء المجري، "فيكتور أوربان"، المعروف بعلاقاته الجيدة بـ"بوتين"، جهود الاتحاد بخصوص التمكن من فرض حظر على النفط الروسي، ويرفض التوقيع، حتى يضمن حصول بلاده على الطاقة الروسية. وحاليًا، تكتسب فكرة تشكيل جهة غربية، موحدة، وقوية، لمواجهة "بوتين"، أهمية بالغة بالنسبة للاتحاد الأوروبي، لكن لا برلين، ولا باريس، تمتلك القوة لإقناع "أوربان"[٣٥].

وبطبيعة الحال، من الصعب أن يُجمِع تكتل مكون من ٢٧ دولة، على فرض حظر وعقوبات على روسيا تؤثر بشكلٍ مختلف على كل منهم، ما يعد تحديًا كبيرًا، وهو الأمر الذي يدرك "بوتين"، أنه نقطة ضعف. ونتيجة لهذا بدأت الشكوك تساور بروكسل حول جدوى مبدأ الالتزام بضرورة إصدار القرارات المتعلقة بالسياسات الخارجية، ومنها العقوبات، التي يفرضها الاتحاد الأوروبي، بإجماع الأعضاء. وفي ظل الظروف الخطيرة، وغير المتوقعة التي يواجهها التكتل حاليًا، ينظر البعض إلى هذا المبدأ، على أنه أصبح من الماضي[٣٦]. وكذلك أكد رئيس الوزراء الإيطالي "ماريو دراغي" أن الاتحاد الأوروبي يحتاج إلى "فيدرالية براجماتية" تخسر من خلالها الدول الأعضاء حق الفيتو. وقال "إنها بداية طريق سيؤدي إلى مراجعة معاهدات، وإذا حدث

(٣٢) الاتحاد الأوروبي أمام مفترق طرق بسبب الحرب الأوكرانية، الشرق الأوسط، ٧ مايو ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3xAUyth

(٣٣) عمرو الشوبكي، مرجع سابق.

(٣٤) الاتحاد الأوروبي أمام مفترق طرق بسبب الحرب الأوكرانية، مرجع سابق.

(٣٥) كاتيا أدلر، روسيا وأوكرانيا: الحرب التي ضربت توازن القوى في أوروبا، بي بي سي نيوز، ١٠ مايو ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ١٧ يونيو ٢٠٢٢. متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/2wIfe

(٣٦) المرجع السابق.

ذلك، فعلينا أن نتعامل مع الأمر بشجاعة وثقة". وأشار إلى أن الهيئات الأوروبية والآليات الحالية للتكتل "غير ملائمة" لمواجهة تداعيات الحرب على أوكرانيا[٣٧].

٢- الملف النووي الإيراني:

فجَّر الرئيس الروسي "بوتين"، حربه مع أوكرانيا، تزامنًا مع توقيتٍ حرج تمرُّ به مفاوضات الملف النووي الإيراني. فبعد أن اقتربت المفاوضات من نهايتها توقَّفت تمامًا منذ أوائل مارس ٢٠٢٢. وتنبع أهمية الدور الروسي في تلك المرحلة من أنه عقب منع المرشد الأعلى الإيراني "آية الله علي خامنئي" الدبلوماسيين الإيرانيين من التفاوض مباشرةً مع الولايات المتحدة، كانت موسكو خلال العام المنصرم وسيطًا أساسيًا بين واشنطن وطهران. ولكن في خضم حملة الضغوط العالمية المفاجئة والشديدة التي تتعرّض لها روسيا، أعادت موسكو تقييم دورها التيسيري، وهدّدت ضمنًا بضرب الاتفاق النووي الإيراني تحقيقًا لمصالحها الخاصة. وإن كان الأمر أيضًا ربما يشمل تضافر تعقيدات من مختلف أطراف المفاوضات بسبب الحرب الجارية، فضلا عن قرب اضطرار حسم النقاط الخلافية في المفاوضات مثل وضع الحرس الثوري الإيراني من قائمة الإرهاب الأمريكية.

فسبب توقف المحادثات غير واضح تمامًا، وإن كان أشار كبار المفاوضين من فرنسا وألمانيا وبريطانيا إلى أن العقبة الأساسية هي مطالبة روسيا بألا تخضع تجارتها مع إيران للعقوبات الجديدة المفروضة عليها بسبب غزوها لأوكرانيا. لكن المسؤولين الإيرانيين يُصرون على أن سبب التأخير هو عدم رغبة الولايات المتحدة في رفع العقوبات. وفي هذا الإطار، غرد أمين المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني، "علي شمخاني"، في ١٠ مارس ٢٠٢٢ بأن "احتمالية التوصل إلى اتفاق في محادثات فيينا لا تزال غير واضحة بسبب تأخر واشنطن في اتخاذ [قرار] سياسي". ولكن يبقى الاحتمال الأكبر أن تكون روسيا هي السبب الرئيسي للتأخير، وأن المسؤولين الإيرانيين غير مستعدين لإلقاء اللوم عليها علنًا. إذا كان الأمر كذلك، فمن المرجح أن تتجاهل إيران في النهاية مطالب روسيا، وتتوصل إلى اتفاق مع الأطراف الأخرى في المحادثات النووية الإيرانية بهدف تخفيف العقوبات لمواجهة التحديات الاقتصادية[٣٨]. خصوصًا وأن الدول الأوروبية، وفي مقدمتها فرنسا، لن تنتظر طويلًا إبرام اتفاق يُنهي أزمة الملف النووي الإيراني. حيث صرحت وزارة الخارجية الفرنسية، في ٢٦ مايو ٢٠٢٢، بأنه "سيكون خطأ جسيمًا وخطيرًا اعتبار أنّ (الاتفاق) يمكن أن يبقى على الطاولة إلى الأبد، في وقتٍ يستمر فيه تقدّم البرنامج (النووي الإيراني) بنفس الوتيرة السريعة، الأمر الذي يهدد بتجريد الاتفاق من ميزاته في منع الانتشار النووي"[٣٩].

ويرى "كريم سجادبور" الباحث في مركز كارنيجي للشرق الأوسط أن روسيا، "التي حلَّت الآن مكان إيران في موقع الدولة الأكثر خضوعًا للعقوبات في العالم، ربما تريد أن تُشعِر المجتمع الدولي بالوطأة الاقتصادية التي تترتّب على فرض حظر على النفط الروسي. لكن في حال التوصل إلى اتفاق نووي يُنهي الحظر المفروض على النفط الإيراني، فمن شأن ذلك أن يخفف من حدّة التداعيات المالية العالمية الناجمة عن عزل روسيا". كما يرجح "سجادبور" إدراك "بوتين" أن إعادة إحياء الاتفاق النووي الإيراني تهمّ الرئيس الأمريكي "جو بايدن" أكثر مما تهمّه. فالعقوبات المفروضة على إيران تسببت في عزلة، استفادت روسيا كثيرًا منها. حيث تعتمد إيران على التكنولوجيا الروسية من الدرجة الثانية، وتناصب العداء للولايات المتحدة، وهي عاجزة عن استثمار مواردها الطائلة في مجال الطاقة، ولا تكترث

---

(٣٧) الاتحاد الأوروبي أمام مفترق طرق بسبب الحرب الأوكرانية، مرجع سابق.

(38) Ray Takeyh، The Ukraine Crisis Could Sideline the Iran Nuclear Deal، Council on Forign Relations, published on: 14 March 2022, accessed on: 15 june 2022, available at: https://on.cfr.org/3bekm7a

(٣٩) باريس: مشروع الاتفاق حول النووي الإيراني "لن يظل للأبد على الطاولة"، فرانس ٢٤، ٢٦ مايو ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ١٥ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/39uH5ve

للمنافسة التاريخية بينها وبين موسكو في آسيا الوسطى. وينقل "سجادبور" عن "رجب سافاروف"، أحد كبار الباحثين الروس المتخصّصين في الشأن الإيراني، في مقابلة معه مؤخَّرًا إن "إيران الموجَّهة نحو الغرب ستكون أسوأ لروسيا من إيران المسلَّحة نوويًا، وستقود إلى انهيار روسيا"(٤٠).

ويرى "جودت بهجت" المحاضر بمركز الشرق الأدنى وجنوب آسيا بجامعة الدفاع الوطني التابعة للبنتاجون، أن للحرب في أوكرانيا تأثيرًا مركبًا على مفاوضات الملف النووي. فقد حدث تغيرًا في وجهة التركيز داخل واشنطن من الاهتمام بملف التفاوض مع إيران إلى التركيز بالأساس على ما يحدث في أوكرانيا. كما أظهرت الحرب احتياج العالم إلى النفط والغاز الإيراني بصورة أكثر مما كان عليه قبل الحرب، وتمتلك إيران مئات الملايين من براميل النفط على ناقلات ومنشآت عائمة، ما يقوي الموقف التفاوضي لإيران بشكلٍ كبير. وأشار "بهجت" إلى أنه في نفس الوقت دفعت الحرب الولايات المتحدة للتقرب من السعودية، وبالطبع فإن توثيق العلاقات بين واشنطن والرياض أمر سيء بالنسبة لإيران(٤١).

أما بالنسبة للداخل الإيراني، فقد ساهم الغزو في تعزيز الانقسامات السياسية، حيث ألقى المرشد الأعلى "علي خامنئي" باللوم القاطع على الولايات المتحدة في العدوان الروسي. وقال في خطاب له في الأول من مارس ٢٠٢٢: "من خلال التدخل في شؤون أوكرانيا، وإحداث ثورات ملونة وإسقاط حكومة، ووضع أخرى في السلطة، جرَّت الولايات المتحدة أوكرانيا إلى هذا الوضع". كما أُفتتحت صحيفة "كيهان" اليمينية في إيران، بقولها: "أوكرانيا قفزت إلى البئر من خلال الوثوق بالحبل الأمريكي الفاسد". بينما قدم اللاعبون السياسيون المعتدلون خارج السلطة رأي مختلف. فكتب البرلماني السابق "علي مطهري" على تويتر أن "إيران يجب أن تظهر استقلالها من خلال إدانة هجوم روسيا على أوكرانيا". وقد رأى الإصلاحيون عامةً أن على إيران محاولة اقتناص كل ما يمكن كسبه، مستغلة نسج نظريات المؤامرة لمعاقبة الغزو الروسي(٤٢).

٣-المنطقة العربية:

- **سوريا**

من المهم أن نركز على سوريا عند النظر في تداعيات الحرب الروسية على أوكرانيا عالميًا، لأن سوريا هي الساحة الأخرى التي تقاتل فيها روسيا بشكلٍ مباشر. حيث يمكن للحرب في أوكرانيا أن تعود بالمشاكل على اتفاق وقف إطلاق النار في محافظة إدلب شمال غرب البلاد التي تسيطر عليها المعارضة المسلحة، والمبرم في الخامس من مارس ٢٠٢٠، والصامد حتى الآن بشكلٍ رئيسي لأن موسكو فهمت أنها إذا ساعدت قوات النظام السوري على الاندفاع أكثر إلى إدلب فإنها ستواجه تكاليف عسكرية وسياسية كبيرة، بما في ذلك تعريض علاقاتها مع أنقرة للخطر. ويساور السوريين القلق من احتمال توتر العلاقات بين موسكو وأنقرة بسبب مبيعات الطائرات المسيرة التركية لأوكرانيا وانتقادها للغزو، الأمر الذي قد يدفع روسيا للرد بتصعيد أعمالها ضد الوجود العسكري التركي في سوريا، رغم أنه لم تظهر أي علامة حتى الآن على أنها تعتزم فعل ذلك.

كما يمكن أن تستقدم روسيا بعض قواتها من سوريا أو بعض المقاتلين السوريين الذين تدعمهم إلى أوكرانيا، الأمر الذي سيؤدي إلى حدوث هشاشة أمنية في بعض المناطق التي يسيطر عليها نظام "بشار الأسد"، حيث يبقى تنظيم الدولة الإسلامية نشطًا. وفي حين لم يحدث أي تغيير في الموقف العسكري الروسي في سوريا حتى الآن، فإن موسكو أعلنت تطوع آلاف المقاتلين من

(٤٠) عمرو حمزاوي وكريم سجادبور وآخرون، ما تعنيه الحرب الروسية في أوكرانيا لمنطقة الشرق الأوسط، مركز مالكوم كير- كارنيغي للشرق الأوسط، ١ إبريل ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ٢ يونيو ٢٠٢٢. متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3O4WJw9

(٤١) محمد المنشاوي، وسط تصلب طهران وانشغال واشنطن.. كيف أثرت حرب أوكرانيا على مفاوضات إحياء النووي الإيراني؟، الجزيرة نت، ١٣ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ١٥ يونيو ٢٠٢٢. متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/39AIHDC

(42) Ray Takeyh، Op. cit.

الشرق الأوسط للمشاركة في حرب أوكرانيا، وبالطبع من ضمنهم سوريين.

كما يُحتمل أن يحدث نقصًا في إمداد الذخيرة إلى القوات السورية والقوات الجوية الروسية في المدى المتوسط والطويل، بالنظر إلى أنه يتم إمدادها عبر الأسطول الروسي في البحر الأسود، المنشغل حاليًا بأمورٍ أخرى. علاوة على ذلك، لم يعد بإمكان السفن الحربية الروسية المرور عبر مضيقي البوسفور والدردنيل، لأن تركيا استحضرت بنود معاهدة "مونترو". إلا أنه يظل السيناريو السيء والأسهل بالنسبة لروسيا إذا ما أرادت استخدام بطاقة سوريا في حربها الدبلوماسية مع الغرب وإذا ما احتاجت للضغط على تركيا، هو لعب دور المفسد دبلوماسيًا، الأمر الذي سيوجه ضربة لجهود الإغاثة الإنسانية. فقد استعملت موسكو حق الفيتو لمنع قرارات مجلس الأمن الدولي بشأن سوريا في الماضي. وسينتهي مفعول قرار الأمم المتحدة في المحافظة على المعبر الأخير من تركيا إلى شمال غرب سوريا مفتوحًا في يوليو ٢٠٢٢. وبالنظر إلى التوترات بشأن أوكرانيا، يبدو من المرجح على نحوٍ متزايد أن تعيق موسكو محاولات غربية لتجديد القرار، مع تداعيات كارثية على السكان المحليين[٤٣].

- **ليبيا**

عمقت الحرب في أوكرانيا التنافس بين الجهتين اللتين تدعيان حقهما بالحكم في ليبيا. فروسيا هي الدولة الوحيدة التي تعترف رسميًا بالحكومة التي يرأسها "باشاغا". لكن، وعلى حد تعبير دبلوماسي غربي، فإن اعتراف روسيا السريع كان بمثابة "قبلة الموت"؛ إذ يبدو أن ما من عاصمة أخرى ترغب بالظهور وكأنها تقف مع موسكو في هذا النزاع الليبي خشية إثارة غضب واشنطن. حتى القاهرة، المتعاطفة مع "باشاغا"، لم تحذُ حذو موسكو. وفي هذا الإطار، تحاول الأطراف الخارجية إيجاد تسوية جزئيًا، لضمان عدم اقتراب حكومة "باشاغا" أكثر مما ينبغي من روسيا. وحتى "باشاغا" نفسه حريص على الاحتفاظ بمسافة عن الكرملين، إذ إنه في ٢٦ مارس، قد اجتمع مع سفير أوكرانيا في ليبيا، وأكد دعمه للشعب الأوكراني قائلاً إن الليبيين يقفون إلى جانبهم "بقدر ما نستطيع". أما الحكومة التي يرأسها "الدبيبة"، والتي أدانت منذ البداية العدوان الروسي على أوكرانيا، صوتت في السابع من أبريل ٢٠٢٢ لصالح طرد روسيا من مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، وهو الوفد العربي الوحيد الذي فعل ذلك. وقد عبر دبلوماسيون أوروبيون عن قلقهم حيال التداعيات العسكرية المحتملة لهذا الاصطفاف السياسي الجديد. فمجموعة "فاغنر" من المتعاقدين العسكريين المدعومة من الكرملين تعمل في ليبيا منذ حرب عام ٢٠١٩، إلى جانب قوى يقودها المشير "خليفة حفتر"، المتحالف حاليًا مع حكومة "باشاغا". كما يحتفظ مقاتلو "فاغنر" بإمكانية الوصول، وإن لم يكن السيطرة المباشرة، إلى قاعدتين عسكريتين مهمتين على الأقل في وسط البلاد، حيث يقال إنهم يشغلون عدة طائرات مقاتلة أرسلتها روسيا إلى ليبيا عام ٢٠٢٠. علمًا أنه تم انسحاب بعض وحدات "فاغنر" ومقاتلين سوريين موالين لموسكو من ليبيا تجاه أوكرانيا، ويمكن لرحيلهم أن يشكل تطورًا له ما بعده[٤٤].

- **مصر**

تعتبر مصر مثالًا على العديد من دول العالم التي تتمتع بعلاقات قوية مع مختلف أطراف الحرب في أوكرانيا، ولا تود خسارتها. وقد تعرضت مصر لضغوط أمريكية وأوروبية متزايدة بسبب موقفها الحيادي في الحرب الأوكرانية. ففي مطلع مارس ٢٠٢٢، أصدر سفراء مجموعة السبع في القاهرة بيانًا مشتركًا يطالبون فيه الحكومة بالتصويت لصالح القرار الذي يدين الغزو الروسي في الجمعية العامة للأمم المتحدة. وقد لبّت مصر الطلب، لكن في الأسبوع الذي تلا ذلك، ناقش "السيسي"

(٤٣) جوست هيلترمان وآخرين، أثر الغزو الروسي لأوكرانيا على الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، مجموعة الأزمات الدولية، ١٤ إبريل ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ١٧ يونيو ٢٠٢٢. متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3zF2CMi

(٤٤) المرجع السابق.

و"بوتين" استمرار التعاون الثنائي بشأن عدد من المشاريع، في إشارة إلى أن القاهرة ليست مستعدة لقطع علاقاتها مع موسكو[٤٥]. أيضًا انتقدت مصر العقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة وأوروبا على موسكو، مُعتبرةً أنها غير قانونية من منظور القانون الدولي. وفي حال استمر التصعيد في المواجهة بين روسيا والغرب، ستتراجع على الأرجح قدرة الحكومة المصرية على المناورة بين الطرفَين[٤٦].

- **الخليج**

ألقت الحرب الروسية الأوكرانية ظلالها في صورة توتر ملحوظ في العلاقات بين الولايات المتحدة وبين السعودية والإمارات ومن خلفهما باقي دول الخليج. فبينما سارع العالم لإدانة روسيا، التزمت دول مجلس التعاون الخليجي الصمت إلى حدٍ كبير. وفي اليوم الذي بدأت فيه روسيا هجومها البري والجوي ضد أوكرانيا، امتنعت الكويت وقطر عن انتقاد موسكو مباشرةً واكتفتا بإدانة العنف، بينما لم تعلّق السعودية وعُمان والبحرين. وقد تجلت معالم ذلك التوتر مع موقف الإمارات من الامتناع عن التصويت في مجلس الأمن (إلى جانب الهند، والصين) لإدانة روسيا[٤٧].

ورأى دبلوماسي غربي -تحدث لوكالة "فرانس برس" واشترط عدم الكشف عن هويته- تعليقًا على الموقف الخليجي أن الهدف منه "كان تجنُّب استخدام روسيا حق النقض" خلال تبني القرار الذي يمدِّد حظر الأسلحة المفروض على جميع الحوثيين في اليمن، وأضاف قائلاً" "نحن مستاؤون جدًّا من الإمارات، ومقتنعون بأنها أبرمت صفقة قذرة مع روسيا" مرتبطة بالحوثيين وأوكرانيا[٤٨].

وعلى غرار دول الخليج الأخرى، تقيم الإمارات علاقات أمنية واقتصادية وعسكرية مهمة مع واشنطن، ولطالما كان يُنظر إلى الإمارات، ولا سيما إمارة دبي، على أنَّها نقطة جذب للاستثمارات الروسية، ووجهة النخب الروسية لقضاء الإجازات. لكن الروابط المتنامية مع موسكو باتت تجبر هذه الدول على السعي لتحقيق توازن صعب في مواقفها. وفي هذا السياق، تُشكل العملية العسكرية الروسية في أوكرانيا اختبارًا للتحالف السعودي -الروسي، ما يضع المملكة في موقف حرج ما بين حليفها الرئيسي الولايات المتحدة وبين تحالفها الجديد مع روسيا.

وعلى صعيد العلاقات الاقتصادية، قفزت التجارة بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي من حوالي ٣ مليارات دولار في عام ٢٠١٦، إلى أكثر من ٥ مليارات دولار في عام ٢٠٢١، غالبيتها مع الإمارات والسعودية، وفقًا لإحصائيات رسمية. وبصفتها لاعبًا رئيسيًا في أسواق الطاقة، تقيم كل دول مجلس التعاون الخليجي علاقة مع روسيا في مجال الطاقة، كما تقود الرياض وموسكو منذ سنوات تحالف "أوبك بلس"، حيث تتحكّمان معًا في الإنتاج لتحقيق استقرار في سوق الأسعار، وهو الأمر الذي سبق تفصيله في جزء سابق من هذا التقرير[٤٩].

٤- إسرائيل:

توخَّت إسرائيل الحذر منذ بداية الحرب بألا تستعدي موسكو؛ خشية أن فعل ذلك سيقوض حريتها في مهاجمة الأصول الإيرانية في سوريا، وخشية منها على اليهود في أوكرانيا وروسيا. كما أن إسرائيل حريصة على حماية علاقاتها بالأوليغارك اليهود الروس الذين لديهم استثمارات في إسرائيل. ولهذا امتنع رئيس الوزراء الإسرائيلي "نفتالي بينيت" عن إدانة روسيا علنًا، رغم أن وزير خارجيته "يائير لابيد"، أدان الغزو ووصف بعض ضربات روسيا في أوكرانيا بأنها جريمة حرب.

وبينما صوتت إسرائيل على إدانة الغزو الروسي في الجمعية العامة للأمم المتحدة وانضمت إلى كتلة الدول التي علقت عضوية روسيا في مجلس حقوق الإنسان، فإنها لم تحذُ حذو

(٤٥) المرجع السابق.
(٤٦) عمرو حمزاوي وكريم سجادبور وأخرون، ما تعنيه الحرب الروسية في أوكرانيا لمنطقة الشرق الأوسط، مرجع سابق.
(٤٧) محمود حسين، مرجع سابق.
(٤٨) المرجع السابق.
(٤٩) المرجع السابق.

الغرب في فرض عقوبات. وقد رفضت تقديم أي شيء يتجاوز المساعدات الإنسانية لأوكرانيا. وواجهت انتقادات أمريكية على هذا النهج، وعبر "زيلينسكي" عن استيائه من رفض إسرائيل فرض عقوبات أو تقديم أسلحة عندما خاطب الكنيست عبر تطبيق زووم في ٢٠ مارس ٢٠٢٢. كما تبين أن إسرائيل رفضت بيع أوكرانيا برمجيات بيغاسوس للتجسس التي طلبتها في عام ٢٠١٩ خشية أن تستعمل ضد روسيا، وبالتالي تضر علاقة إسرائيل بالكرملين[٥٠]. وبهذا تسعى إسرائيل إلى القيام بدور الوسيط في تسوية الصراع، بحكم علاقاتها القوية بالدولتين؛ لتسليط الأضواء على تسوية هذا الصراع في مقابل تجاهل القضية الفلسطينية وإرجاء تسويتها إلى أجل غير مسمى، ومن ثم "التشويش" عليها، وإسكات الأصوات الحقوقية الداعمة للقضية الفلسطينية، والتي باتت تعقد مقارنات بين الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين والغزو الروسي لأوكرانيا، وتطالب بإنفاذ القانون الدولي على إسرائيل مثلما يحدث مع روسيا[٥١]. وفي إطار السعي لهذه الوساطة، قام "بينيت" بزيارة موسكو، ومهاتفة الرئيس الأوكراني أيضًا، في مارس ٢٠٢٢، وإن لم تسفر هذه اللقاءات عن نجاحٍ يُذكر[٥٢]

خاتمة:

ربما لن تسفر الحرب الروسية في أوكرانيا عن تغيرات في شبكة التحالفات العالمية، إلا أنها ولا شك تعيد تقييم سياسات قد استقرت الأوضاع عليها منذ مدة طويلة قد تصل إلى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي. لكن على الجانب الآخر، فإن ما تسببت فيه الحرب حتى لحظة كتابة هذه الأسطر من تأثيرات بالغة على نمو الاقتصاد العالمي وزيادة معدلات التضخم وتهديد سلاسل توريد السلع الأساسية ولا سيما الطاقة، يدفع أغلب الدول إلى مراجعة أولوياتها الاقتصادية والبحث عن بدائل محلية وخارجية لما تعتمد عليه، ما قد يحرك المشهد المحلي للعديد من الدول خاصةً النامية اقتصاديًا وسياسيًا، والتي تعتمد بشكلٍ كبير على استيراد سلع استراتيجية كالقمح (وذلك كمصر، ولبنان، واليمن). وكذلك تقدم تلك الحرب فرصًا لتقوية العلاقات الخليجية -وقد تكون الإيرانية أيضًا- بأوروبا كموردين للطاقة التي تحتاجها القارة؛ كي تكتسب مزيدًا من حرية الحركة في مواجهاتها مع روسيا، رغم الخلافات السياسية.

*****

(٥٠) جوست هيلترمان، وأخرين، مرجع سابق.

(٥١) شيماء منير، كيف تنعكس الحرب الروسية - الأوكرانية على القضية الفلسطينية، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٦ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ١٧ يونيو ٢٠٢٢. متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/euLVW

(٥٢) بنيت: إسرائيل ستواصل مساعي الوساطة بين روسيا وأوكرانيا، الشرق الأوسط، ٦ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع ٢٥ يونيو ٢٠٢٢. متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3QGP74R

توجُّهات ومسارات الصعود الصيني: الاقتصاد العالمي وما وراءه

عبد الرحمن عادل(*)

مقدمة:

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وبروز نظام الأحادية القطبية الذي هيمنت عليه الولايات المتحدة كقوة عظمى وقطب أوحد، يفوق غيره من القوى على كافة المستويات العسكرية والاقتصادية، عملت الدول التي تختلف مع الولايات المتحدة في التوجهات والرؤى على تفادي خوض أي مواجهات عسكرية مباشرة معها. وفي هذا الإطار انشغلت القيادة الصينية طيلة فترة التسعينيات من القرن الماضي بالبحث عن وسيلة لتحييد نفسها عن الرادار الأمريكي خاصة في الفترة بين حرب الخليج الثانية وحرب يوغوسلافيا. وتوصل الصينيون فيما بعد الحرب التي شنتها أمريكا على أفغانستان (٢٠٠١) والعراق (٢٠٠٣) إلى مفهوم "الصعود السلمي".

ظهرت نظرية الصعود السلمي للصين في عام ٢٠٠٣، وصاغها آنذاك الاستراتيجي الصيني المستشار السياسي "زينغ بيجيان"، والذي حاول عبر طرحه هذا المفهوم تطمين المجتمع الدولي إلى أن عودة الصين إلى الساحة العالمية كلاعب أساسي لن تغير من هيكل النظام الدولي أو تهدد أمنه واستقراره، كما يحصل في العادة عند بروز قوى دولية جديدة أو عودة قوى قديمة. ثم جرى استخدام المفهوم نفسه من قِبل كلٍ من الأمين العام للحزب للشيوعي الصيني "هو جينتاو" ونائبه رئيس الوزراء "وين جياباو" في عام ٢٠٠٤، مقترحين أن يكون مفهوم "الصعود السلمي" مكونًا أساسيًا ورسميًا في السياسة الخارجية الصينية، على أن يشير المفهوم إلى خمسة عناصر رئيسية، هي[١]:

١- أن تستفيد الصين من السلام العالمي لتعزيز التنمية في البلاد، في مقابل أن تساعد هي على تحصين السلام العالمي من خلال ما تحققه من تنمية.

٢- الاعتماد على قدرات الصين الذاتية فقط وعلى الجهد الكبير والمستقل المبذول من قِبلها.

٣- الاستمرار في سياسة الانفتاح والقواعد الفاعلة للتجارة الدولية والتبادل التجاري كضمان لتحقيق هذا الهدف.

٤- الأخذ بعين الاعتبار أن تحقيق مفهوم "الصعود السلمي" سيتطلب أجيالًا وسنين عديدة.

٥- أثناء السعي لتحقيق هذا الهدف، لن يتم الوقوف بطريق أي دولة أو تعريض أي دولة أخرى للخطر، كما أنه لن ينجَز على حساب أي أمة.

وفي هذا الإطار تحددت الاستراتيجية الصينية الموجهة لتفاعلاتها في النظام الدولي، فقسمت الصين العالم إلى ثلاث مناطق: دول جوارها في جنوب شرق آسيا (دول المحيط)، والدول الكبرى والمتقدمة، ثم العالم النامي بتفريعاته المختلفة. وأثناء إدارة هوجينتاو (٢٠٠٣ - ٢٠١٢) تبنت الصين مبدأ السياسة الخارجية "شاملة الاتجاهات" التي لا تفرق نظريًا بين المناطق الجغرافية أو البلدان، وترى أن "القوى العظمى هي المفتاح، ومحيط الصين هو الأولوية، والبلدان النامية هي الأساس، والمنصات متعددة الأطراف هي المسرح". وتقسيم "المفتاح، والأولية، والقاعدة" لا يعني بالضرورة -وفق منطق صناع القرار

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) على حسين باكير، مفهوم "الصعود السلمي" في سياسة الصين الخارجية، مركز الجزيرة للدراسات، ٢١ أبريل ٢٠١١، تاريخ الاطلاع: ١٥ يونيو ٢٠٢٢، متاح على الرابط: https://2u.pw/uP9pt

في الصين- الأهمية والاستمرارية، ولكنه يعكس ترتيبًا معينًا في سُلم أولويات صناع السياسات.

وإذا كانت العلاقات مع العالم النامي هي الأساس ومحور التركيز طويل الأمد، فماذا عن أولويات الصين الحالية: دول المحيط، والدول الكبرى؟ فيما يخص دول المحيط، فللصين نظرةٌ تاريخية خاصة لهذه المنطقة مفادها أن الصين هي محورها، وأنها دائمًا ما كانت سيدة آسيا التي يطوف بها كل من حولها. وعليه، يمثل هدف منع سيطرة قوة أجنبية أخرى على آسيا والمحيط الهادئ أحد ثوابت السياسة الصينية. أما عن الدول الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة؛ ترفض الصين كافة صور وممارسات الهيمنة وسياسات القوة، وتسعى في كل حركة إلى مناوئة الهيمنة الأمريكية، وتؤكد على أن الصين قد استخلصت دروس وعبر التاريخ عن مصير القوى الكبرى، وأهمية سلوك طريق التنمية السلمية. ولذلك، فهي لن تسعى أبدًا للهيمنة على غيرها من الدول، وتشدد على أن سوء الفهم والتحيز المعرفي هما ما قادا من أطلقوا نظرية "التهديد الصيني" نحو صياغتها، وترى على العكس من ذلك أن صعودها فرصة لدول العالم أجمع[٢].

وقد شهدت الصين في عصر الرئيس الحالي شي جين بينغ استراتيجية جديدة تحمل تصورًا جديدًا لدور الصين العالمي، عُرفت بـ"دبلوماسية القوى الكبرى" في "العصر الجديد". تعبر هذه الاستراتيجية عن هوية الصين الجديدة، فهي بجانب كونها دولة نامية، فهي قوة كبرى. والعصر الجديد هو عصر تنافس استراتيجي، كما أن التنافس الدولي أضحى حقيقةً إقليمية وعالمية، وأن عقلية الحرب الباردة بدت في الظهور على سلوك الفاعلين. وعليه فإننا نتناول بشيء من التفصيل استراتيجية الرئيس الصيني شي جين بينغ وموقع "طريق الحرير" الجديد من هذه الاستراتيجية وتفاعلاتها مع القوى الكبرى المنافِسة في النظام الدولي.

أولًا- استراتيجية شي جين بينغ للعصر الجديد:

قدم الرئيس شي جين بينغ في ١٨ أكتوبر عام ٢٠١٧ تقريرًا للمؤتمر الوطني التاسع عشر للحزب الشيوعي الصيني، تضمن أفكاره حول دور الصين ومكانتها في "العصر الجديد"، وقد أقر المؤتمر أفكاره وقام بتضمينها في دستور الحزب بعنوان "فكر شي جين بينغ حول الاشتراكية ذات الخصائص الصينية لعصر جديد"، وهذا ما يعني اعتمادها استراتيجية للحزب والصين في المرحلة الحالية والقادمة، ولعل أهم ملامح هذه الاستراتيجية وفق ما جاء في التقرير هو الآتي[٣]:

١- أهم ما يميز هذه الاستراتيجية يكمن في المنطلق والأبعاد، فهي في المنطلق استراتيجية للصين، وهي فخورة بمنشئها وعلى إحساس عالٍ بالتاريخ ودور الصين المستمر في الحضارة الإنسانية، وتتطلع إلى إعلاء مكانة بلادها مستقبلًا. وفي الأبعاد، ليست منغلقة على الصين، بل هي استراتيجية عالمية، مستوعبة للعولمة، شاملة ومتكاملة، تقوم على رؤية إيجابية تفاؤلية، وتعبر عن توجه انفتاحي تشاركي. فهي استراتيجية تقوم على أساس التعاون، وتدعو إلى الانسجام، وليست تصادمية يحركها الصراع. والمبدأ المحرك لها هو: "الحوار لا المجابهة، والشراكة لا الانحياز"، وفكرة العمل الأساسية فيها هي: "إحراز التقدم من خلال الحفاظ على الاستقرار".

٢- تحدد استراتيجية بينغ في "العصر الجديد" هدفها بأنه: "تحقيق انتصار حاسم في إنجاز مجتمع رغيد الحياة"، تكون فيه الصين "دولة اشتراكية حديثة قوية ومزدهرة وديمقراطية

(٢) أحمد عبدالرحمن خليفة، التنافس الأمريكي الصيني في غرب أفريقيا خلال الفترة- ٢٠٠٩ – ٢٠٢٠، رسالة ماجستير، جامعة الاسكندرية، كلية الدراسات الاقتصادية والعلوم السياسية، ٢٠٢٢، ص ص ١٠٠-١٠١.

(٣) انظر الآتي:

- النص الكامل لتقرير شي جين بينغ في المؤتمر الوطني التاسع عشر للحزب الشيوعي الصيني، صحيفة الشعب اليومية أونلاين، ١٤ نوفمبر ٢٠١٧، تاريخ الاطلاع: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح على الرابط: https://cutt.us/YrtJK

- علي الجرباوي، الرؤى الاستراتيجية لثلاثي القطبية الدولية: تحليل مضمون مقارن، مجلة سياسات عربية، العدد ٣١، مارس ٢٠١٨، ص ص ١٤-١٦.

ومتحضرة ومتناغمة وجميلة". وهذا ما يحقق سعادة الشعب الصيني، ويوطد دعائم النهضة العظيمة للأمة الصينية في العصر الجديد الذي تقترب فيه الصين من صدارة المسرح الدولي يومًا بعد يوم، مواصلة تقديم إسهامات أكبر للبشرية.

٣- لتحقيق التحول الصيني في "العصر الجديد"، والذي يرى بينغ قمة بلوغه في منتصف القرن الحالي، فإن رؤيته الاستراتيجية تقوم على إنهاء مرحلة التطور في الصين في عام ٢٠٢٠، والانطلاق في البناء عليها في مرحلتين: الأولى تستمر حتى عام ٢٠٣٥، والثانية تكلل التحول بالنجاح التام بحلول عام ٢٠٥٠. وفي المرحلة الأولى يتم إجراء "التحديثات الاشتراكية" الضرورية التي سينتج منها توطيد دعائم النمو الصيني في مختلف المجالات، وتشهد الصين خلالها حدوث "طفرة كبرى في قوتها الاقتصادية وقوتها العلمية والتكنولوجية، وتكون في مقدمة الدول المبتكِرة، وسيتم خلال هذه المرحلة "إنجاز بناء الدولة والحكومة والمجتمع الخاضعة جميعًا لحكم القانون"، وستصبح "معيشة الشعب أيسر"، ويتقدم جميع أبناء الشعب بخطوات ثابتة نحو الرخاء المشترك. أما المرحلة الثانية، وهي التي تستمر خلال الفترة ٢٠٣٥-٢٠٥٠، فيسكتمل فيها الإنجاز لتصبح الصين "دولة اشتراكية حديثة قوية ومزدهرة وديمقراطية ومتحضرة ومتناغمة وجميلة"، وتكون الصين كذلك "من الدول الرائدة من حيث القوة الوطنية الشاملة والتأثير الدولي".

٤- تُشدد الإستراتيجية الصينية، كما هو وارد في وثيقة التقرير، أكثر على أهمية العامل الأيديولوجي، فهي تعتبره الركيزة الأساسية لتماسك الصين أولًا، ولتحولها إلى دولة عظمى ثانيًا. لذلك فهي تدعو إلى ضرورة الالتزام بمفهوم "الاشتراكية ذات الخصائص الصينية ومنهجها". وترى هذه الأيديولوجيا أن سر نجاح الصين في "العصر الجديد" هو اتباعها هذا النهج من الاشتراكية، لأنه نهج مرن وقادر على التحول والتطور باستمرار، إذ يتفاعل مع الظروف المتغيرة، ويعبر عنها وينتج منها ويقود التغيير فيها. وهكذا لا تقتصر "الاشتراكية ذات الخصائص الصينية" على الالتزام بالماركسية اللينينة الكلاسيكية، ولكنها تضيف أفكار ماو تسي تونغ، ونظرية دينغ شياو بينغ، والتمثيلات الثلاثة لجيانغ زيمين، ونظرية هو جين تاو عن التنمية العلمية. هذا المزيج المتسلسل الذي أضيفت إليه رؤية الرئيس الحالي شي جين بينغ، هو الذي يمد هذه الأيديولوجيا بالحيوية والحياة. ولعل أهم ما يميز الأيديولوجيا الصينية، قدرتها على المواءمة بين النظام السياسي الاشتراكي القائم على أسس النظرية الماركسية المحدثة وحكم الحزب الواحد، من جهة، والنظام الاقتصادي القائم على أساس السوق المفتوحة، ودعم القطاع الخاص وتشجيع المنافسة العادلة، ومنع الاحتكار، وتعزيز الاستهلاك لدفع عجلة التنمية في البلاد من جهة أخرى.

٥- تعمل الاستراتيجية الجديدة أيضًا على تعزيز بنية نظام اقتصادي صناعي تكنولوجي يكون رائدًا على الصعيد العالمي، ويدعم حيوية السوق. وهكذا نجد أن هذه الاستراتيجية الصينية تتميز في رؤيتها للعلاقات الدولية، وفي الطريقة التي تطرحها لمعالجة الشؤون الدولية؛ بكونها تنطلق من منطلقات النظرية الليبرالية التي تتبناها اقتصاديًا، وليس من خلال استخدام القوة وتعظيمها وفقًا للنظرية الواقعية التي يُتوقع من نظام شمولي أن يتبناها. وترى الصين أن من واجبها الدفع في اتجاه "بناء علاقات دولية حديثة النمط قائمة على الاحترام المتبادل والإنصاف والعدالة والتعاون والفوز المشترك". أما الهدف من ذلك فهو تعزيز "حماية السلام العالمي ودعم التنمية المشتركة".

٦- تنطلق الصين في نظرتها للعلاقات الدولية وفقًا لهذه الاستراتيجية من تأكيد المساواة بين الدول، وتؤكد احترامها لسيادة كل دولة، ومعارضتها فرض إرادة أي دولة على غيرها، وتدخلها في شئون غيرها، واستغلال القوة للاضطهاد والعنف. ومن هذا المنطلق تعلن الاستراتيجية الصينية أنه لا وجود لأي أهداف توسعية عند الصين، وأن بلادها لا تريد الهيمنة ولن تقوم بالتوسع الخارجي أبدًا مهما بلغ مستواها في التنمية. ولطمأنة جيرانها، أكدت الاستراتيجية أن الصين ستتبع "دبلوماسية الجوار" القائمة على اتخاذ الجيران أصدقاء

وشركاء. وتعهدت كذلك بزيادة مساعداتها للدول النامية، من أجل تقليص الفجوة التنموية بين الشمال والجنوب.

٧- وبالرغم مما تبديه الصين من نوايا حسنة وتوجهات إيجابية في رسم ملامح النظام الدولي الذي تود الإسهام في تشكيله في الحاضر والمستقبل، وتؤكد ضرورة توظيف القوة الصينية الناعمة لتحقيقها، فإنها تؤكد أنها لا تسمح للآخرين بتعريض حقوقها ومصالحها الشرعية، وخصوصًا الحفاظ على وحدة البلاد، للخطر. ولذلك فإنها تعلن أن سياستها الدفاعية وتوجهاتها الإيجابية ستسند بجيش سيكون بحلول منتصف القرن الحالي "من الدرجة الأولى في العالم".

وبجانب تناول التقرير لمبادئ وأهدف الاستراتيجية الصينية للعصر الجديد، تناول أيضًا ما تم إنجازه من أعمال ومبادرات لتقوية الاقتصاد الصيني ليصبح ثاني أكبر اقتصاد في العالم؛ من تعديل للهيكلية الاقتصادية وتعزيز لاقتصاد السوق، وتطوير للبنية التحتية في البلاد، وإطلاق لمبادرات تنموية عديدة ومشاريع مثل "الحزام والطريق"، وتطوير للعلوم والتكنولوجيا، وتشجيع للابتكارات، وزيادة في معدلات الإنتاج والتصدير. وقد وظّف هذا التطور الاقتصادي، ومَكَّن من تحقيق إنجازات مستمرة ومتصاعدة، في مجال تحسين حياة الشعب؛ في محاربة الفقر، ورفع معدل دخل الفرد، وتحسين الوضع التوظيفي، والارتقاء بمستوى التعليم والخدمات الصحية والضمان الاجتماعي في البلاد. كل هذه الإنجازات كانت ممكنة من جراء سيل من المبادرات وأعمال الإصلاح ومحاربة الفساد التي شملت جوانب متعددة، داخل الحزب والدولة، وفي سياقات حياة المجتمع عمومًا. ضمن هذه الإصلاحات، تم تثبيت المبدأ القاضي بأن "الشعب هو سيد الدولة"، وأن الحزب هو الذي يمثل "قيادة أبناء الشعب بمختلف قومياتهم في كل البلاد"[٤].

ثانيًا- مبادرة "الحزام والطريق" في الاستراتيجية الصينية:

منذ أن أطلق الرئيس الصيني شي جين بينغ خلال زيارته إلى كازاخستان عام ٢٠١٣ مبادرته "البناء المشترك للحزام الاقتصادي لطريق الحرير وطريق الحرير البحري للقرن الواحد والعشرين" المعروفة اختصارًا باسم "حزام واحد وطريق واحد"، باتت هذه المبادرة تشكل المحرك الأساس للسياسة الصينية داخليًا والدبلوماسية الصينية خارجيًا. وأدرجت رسميًا عام ٢٠١٤ ضمن خطة أعمال الحكومة. ويهدف طريق الحرير الجديد إلى إحياء وتطوير طريق الحرير التاريخي من خلال مد أنابيب للغاز الطبيعي والنفط وتشييد شبكات من الطرق وسكك الحديد ومد خطوط للطاقة الكهربائية والانترنت. ويتكون طريق الحرير الجديد من طريق بري وآخر بحري، فضلاً عن الطريق الرقمي، وخطوط أنابيب النفط والغاز الطبيعي.

وترتكز المبادئ الحاكمة لتطبيق المبادرة على التنسيق السياسي بين الدول وتعزيز التواصل والحوار والتجارة دون عوائق لتهيئة الظروف اللازمة للتنمية الاقتصادية. وتتضمن المبادرة نحو ألف مشروع ستنفذ تدريجيًا، تسعى إلى ربط دول آسيا وأفريقيا وأوروبا عبر شبكة مواصلات معقدة من الجسور والطرقات والسكك الحديدية والطائرات والبواخر، وكذلك بناء موانئ ومطارات وإنشاء مناطق تجارة حرة. إلى جانب أنابيب النفط والغاز وخطوط الطاقة الكهربائية وشبكات الانترنت والبنية التحتية. وقد لاقت المبادرة تجاوبًا ومشاركة نشطة من نحو سبعين دولة مطلة على هذا الخط بما فيها دول عربية وشرق أوسطية. ويغطي نطاق المبادرة نحو ٧٠ دولة في القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا، وينقسم إلى ثلاثة مستويات[٥]:

- المناطق المركزية: تضم كلًّا من الصين وروسيا ودول آسيا الوسطى الخمس.

(٤) المصدر السابق، ص١٤.

(٥) عزت شحرور، مبادرة الحزام والطريق: رؤية نقدية، مركز الجزيرة للدراسات، ١١مايو ٢٠١٧، تاريخ الاطلاع: ٢٠ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/ZQPIt

- المناطق المحاذية: تشمل الدول الأعضاء الدائمين والمراقبين في منظمة تعاون شنغهاي والدول التسع للاتحاد الاقتصادي (الهند، باكستان، إيران، أفغانستان، منغوليا، روسيا البيضاء، أرمينيا، أوكرانيا ومولدافيا).

- المناطق التشعبية: تشمل دول غرب آسيا (الدول العربية) ودول الاتحاد الأوروبي، وتمتد أيضًا إلى اليابان وكوريا الجنوبية وغيرها من دول شرق آسيا.

كما تشمل المبادرة ستة ممرات اقتصادية أساسية تشكل أعصاب شبكة التجارة والنقل والتنمية الإقليمية والدولية القادمة وهي:

- الجسر القاري الأوراسي الجديد.
- ممر الصين- منغوليا- روسيا.
- ممر الصين -آسيا الوسطى -غرب آسيا.
- ممر الصين -شبه الجزيرة الهندية.
- ممر الصين- باكستان.
- ممر بنغلاديش الصين -الهند -ميانمار.

أما الأهداف التي تبتغي الصين تحقيقها من وراء المبادرة، فيمكن إجمالها في الآتي[٦]:

١- الاستفادة من نمو التجارة العالمية: فمن المتوقع أن تزيد التجارة العالمية في السنوات المقبلة، من خلال عدة عوامل من بينها الزيادة المتوقعة في حجم الطبقة الوسطى في العديد من دول العالم، من بينها منطقتي آسيا والمحيط الهادي والشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وبنمو التجارة العالمية تصل الصين لتصريف منتجاتها إلى العالم.

٢- تعزيز مكانة العملة الصينية (اليوان) عالميًا: تهدف الصين عبر مشروعها إلى توسيع نطاق تداول عملتها الوطنية اليوان وجعلها عملة رئيسية في التبادل التجاري العالمي، خاصة بعدما تمكن اليوان عام ٢٠١٦ من الانضمام إلى سلة حقوق السحب الخاصة "التابعة إلى سلة النقد الدولي إلى جانب أربع عملات أخرى مدرجة وهي الدولار الأمريكي، اليورو الأوروبي، والين الياباني والجنيه الإسترليني"، و يمثل استخدام اليوان في تسوية التعاملات التجارية الصينية مع الدول الأعضاء في المبادرة خطوة كبيرة تسعى إليها الصين لتداول عملتها الوطنية.

٣- تطوير الاقتصاد الصيني: تسعى الحكومة الصينية إلى تبني العديد من المبادرات لتطوير المناطق الغربية في البلاد والتي تعاني من ضعف اقتصادي، وعليه أطلقت الصين في عام ٢٠٠٠ حملة في هذا الإطار تحت شعار "الاتجاه غربًا" لتحفيز النمو الاقتصادي هناك، وقامت باستثمار مليارات الدولارات لاستكشاف النفط والغاز الطبيعي في تلك المناطق، ومن المتوقع أن تسهم مبادرة الحزام و الطريق، وبالتحديد الحزام البري في تطوير إقليمي سينغيانغ وقانسو اقتصاديًا وغيرهما من الأقاليم الغربية، ومن ثم تمثل المبادرة في جانبها محاولة لإحداث توازن في التنمية الاقتصادية بين مختلف مناطق الدولة.

ومن جهة ثانية، تهدف "مبادرة الحزام والطريق" إلى مساعدة الصين على إنفاذ خطتها الاقتصادية التي تحمل شعار "صنع في الصين ٢٠٢٥"، والتي تهدف إلى تحويل الصين إلى اقتصاد متقدم ذي قيمة مضافة عالية، مع نقل الشركات ذات التصنيع منخفض التكلفة إلى الدول الأخرى في منطقة جنوب شرق آسيا، وهذا سيسهم على المدى طويل في جعل الاقتصاد الصيني ينمو بوتيرة أسرع من الاقتصاد العالمي بحيث أن المبادرة الصينية تجعل الاقتصاد الصيني يصبح محرك الاقتصاد العالمي بإعادة المكانة للاقتصادات الكبرى الصاعدة. وعليه فإن هذه المبادرة تحقق للصين هذه

(٦) أميرة أحمد حرزلي، مبادرة الحزام والطريق الصينية: الخلفية- الأهداف- المكاسب، في: مجموعة مؤلفين، مبادرة الحزام والطريق الصينية: مشروع القرن الاقتصادي في العالم، (برلين: المركز الديمقراطي العربي، ٢٠١٩)، ص٧٩.

الميزة بتحقيقها ما يلي من أهداف استراتيجية على المستوى العالمي[٧]:

١- تعزيز مكانة شركات تكنولوجيا الاتصالات الصينية: تسعى الحكومة الصينية إلى تشجيع شركاتها العاملة في مجال تكنولوجيا الاتصالات إلى الاستفادة من المبادرة، من أجل لعب دور حيوي في إنشاء البنية التحتية لقطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في عدد كبير من دول المبادرة، بما يساهم في تعزيز نشاط الشركات الصينية، خاصة شركة هواوي فضلًا عن زيادة حصتها السوقية من التجارة الإلكترونية العالمية.

٢- تعزيز الوجود الصيني في منطقة أوراسيا: يرى محللون أن الصين تهدف من خلال مشروعها إلى تعزيز وجودها في منطقة أوراسيا ذات الأهمية الجيواستراتيجية الكبيرة والتي تمتاز بإمكانيات اقتصادية هائلة بسبب غناها بالموارد الطبيعية، كما تمثل أوراسيا للصين عمقًا استراتيجيًا تستثمر فيه الأخيرة عبر مشروعها الحزام والطريق، بحيث توفر لها هدف الحماية الأمنية، وقوة جغرافية واقتصادية لما تمتلكه المنطقة من موارد.

٣- توسيع الدور الخارجي للصين: تشمل المبادرة دولًا ومناطق تعاني صراعات واضطرابات داخلية، وهو الأمر الذي يتطلب حماية المشروعات الضخمة التي يتم إنشاؤها ضمن المبادرة، وهو ما يتطلب توفير قوات عسكرية لحمايتها، ونظرًا إلى أن العديد من الدول التي تشملها المبادرة تعاني ضعفًا في القدرات الأمنية، كماهي الحال في بعض الدول الأفريقية، فقد بدأت العديد من الشركات الأمنية الصينية الخاصة بالعمل هناك، كقيامها بتأمين السفن التجارية وناقلات النفط التي تمر بالقرب من السواحل الصومالية لحمايتها من القرصنة، ويأتي في هذا السياق أيضًا قيام شركة "مجموعة ديوي الأمنية المحدودة" الصينية بحماية الشركات الصينية العاملة في بناء الطرق في كينيا.

٤- تأمين استقرار إمدادات الطاقة: تسعى الصين إلى تجنب أزمة حادة تترتب عليها إعاقة وصول إمدادات الطاقة ما يهدد استقرار الاقتصاد الصيني. وتتعاظم هذه المخاوف نظرًا لأن ٨٠٪ من احتياجات بكين من الطاقة تمر عبر مضيق ملقا، وذلك على الرغم من تزايد وارداتها من الطاقة من كل من روسيا وكازاخستان. وقد عبر الرئيس الصيني "هو جينتاو" في عام ٢٠٠٣ عن هذه المخاوف، إذ أكد ضرورة التخفيف من حدة ما أسماه "معضلة ملقا". ولذلك تهدف الصين من خلال مشروع الحزام والطريق إلى تطوير عدد من الممرات التجارية البديلة للمضيق، مثل خط أنابيب النفط بين الصين وميانمار وكذلك "الممر الاقتصادي الباكستاني–الصيني"، والذي يهدف إلى ربط ميناء "جوادر" جنوب باكستان بمنطقة "شينغيانغ" شمال غرب الصين، عبر مجموعة من الطرق والسكك الحديدية وأنابيب النفط. ومع اكتمال المشروع، يتوقع أن يستخدم الممر لاستيراد احتياجاتها من الطاقة من منطقة الخليج العربي.

وهكذا تعتبر مبادرة الحزام والطريق إحدى الاستراتيجيات التي تعتمدها الصين في سياستها الخارجية لزيادة نفوذها على المستوى الإقليمي والدولي، فرغم أنها مبادرة اقتصادية إلا أن أبعادها السياسية والأمنية والثقافية تبرز مع التقدم في المشاريع المبرمجة وتفاعل الدول معها. فالمبادرة هي مشروع طموح يتكون من طريق بري يربط الصين بامتداداتها القارية في جنوب ووسط آسيا وصولاً إلى أوروبا الغربية، بالإضافة للطريق البحري الذي يمر عبر دول الخليج وأفريقيا وجنوب شرق آسيا، وسيكلف الصين ١٢ ضعف ما أنفقته الولايات المتحدة الأمريكية في مشروع مارشال لإعادة إعمار أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، ويشمل ربط خطوط نقل وتشييد بنى تحتية في منطقة جغرافية

(٧) علي صلاح، مشروع الحزام والطريق: كيف تربط الصين اقتصادها بالعالم الخارجي؟، مركز المستقبل للأحداث والدراسات المتقدمة، تقرير المستقبل في دورية اتجاهات الأحداث، العدد ٢٦، ٢٠١٨، ص ص ٤-٥.

واسعة تضم قرابة ٧٠ دولة في آسيا وأوروبا وأفريقيا، وسيؤثر في ٦٠ ٪ من سكان العالم[٨]. وقد أسست الصين عدة جهات لتمويل المشروع، منها "صندوق طريق الحرير" الذي أنشئ في عام ٢٠١٤ برأسمال قدره ٤٠ مليار دولار، و"البنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية" برأسمال قدره ١٥ مليار دولار سنويًا[٩].

يضاف إلى هذا أن هذا المشروع يعكس أبعادًا جيواستراتيجية تعبر عن موقع الصين كقوة كبرى في العالم، وصولًا إلى تأثيراتها المتوقعة على بنية النظام الدولي، ونذكر منها[١٠]:

١- موقع الصين كقوة كبرى في ظل المبادرة: تهدف مبادرة "الحزام والطريق" وفق العديد من الآراء إلى جعل آسيا وأوروبا فضاءً مشتركًا، حيث تكون الصين بدلًا من الولايات المتحدة هي محوره، من خلال مجموعة من المؤسسات المالية الدولية التي أسستها الصين، والتي تهدف من خلالها إلى تقديمها كبديل لنظام "بريتون وودز"، ومن ثم فهي تهدف إلى بناء عولمة جديدة محورها بكين، أو إلى وضع أسس ما يسمى بـ"العولمة الصينية". ومن ثم تهدف المبادرة إلى تحدي النظام الدولي الذي أرست أركانه الولايات المتحدة، عبر إرساء مؤسسات اقتصادية بديلة للمؤسسات القائمة على نظام بريتون وودز كما سبقت الإشارة، ولأن الاستثمارات الصينية الهائلة عبر أقاليم العالم المختلفة سوف تحتاج إلى بيئة مستقرة، ونظرًا لغياب مثل هذه البيئة، فإنه من المتوقع أن تتحول بكين تدريجياً إلى مزود رئيسي للأمن في هذه الدول، مع الأخذ في الاعتبار أن المسؤولين الصينيين يؤكدون على غياب البعد العسكري لهذه المبادرة.

٢- بنية النظام الدولي في ظل المبادرة: تؤثر المبادرة الصينية على بنية النظام الدولي، باتجاه التأكيد على الطابع متعدد الأقطاب، والذي كان أحد التطورات التي ساهمت في تأكيده هو الأزمة المالية العالمية في عام ٢٠٠٨، والتي أضعفت مركز الولايات المتحدة باعتبارها مركز النظام الاقتصادي العالمي. وقد انعكس ذلك بصورة مباشرة في صعود أهمية "مجموعة العشرين"، لاسيما قمتها التي انعقدت في واشنطن في شهر نوفمبر من عام ٢٠٠٨ في أعقاب انهيار بنك ليمان براذرز.

وبجانب هذه التوجهات الاقتصادية المتضمنة في مشروع الحزام والطريق، عملت الصين على تعزيز حضورها العسكري في محيطها الحيوي في جنوب شرق آسيا ليمتد إلى القارة الإفريقية والمحيط الهادئ والشرق المتوسط، واعتمدت الصين استراتيجية قائمة على السيطرة والاستحواذ على سلسلة من الموانئ في المحيط الهندي خاصة في دول مثل كمبوديا، لاوس وتايلاند، والتي بدأت الصين فيها بنشر سلسلة من القواعد العسكرية الخاصة بها في المياه الإقليمية لهذه الدول عبر استراتيجية عرفت بإسم اللآلئ الصينية أو استراتيجية "عقد الؤلؤ" لحماية خطوط التجارة الصينية، إذ قامت الصين وفي إطار هذه الاستراتيجية عام ٢٠١٧ بافتتاح قاعدة عسكرية لها في جيبوتي، وهي أول قاعدة عسكرية خارج حدودها، كما قامت عام ٢٠١٨ ببناء قاعدة "جيواني" العكسرية لها في باكستان على بعد ٥٠٠ كم من مضيق هرمز لتأمين وارداتها من الغاز والنفط القادمة من الخليج العربي، فضلًا عن الاستحواذ على ميناء "هامبانتوتا" في سيريلانكا، كما تعتمد استراتيجية الصين هذه في تأمين ساحلها الشرقي من خلال بناء عدة جزر صناعية في بحر

(٨) ويكن فايزة، مبادرة الحزام والطريق: ين إعادة تموقع الصين ومواجهة التحديات، في: مجموعة مؤلفين، مبادرة الحزام والطريق الصينية: مشروع القرن الاقتصادي في العالم، مرجع سابق، ص١٣١.

(٩) شريفة كلاع، جيوسياسية الصين ومكانتها من خلال استراتيجية عقد الؤلؤ: هل تخلق لها رهانات وتحديات؟، المجلة الجزائرية للأمن والتنمية، المجلد ١٠، العدد ١، يناير ٢٠٢١، ص٥٤٥.

(١٠) علي صلاح، مشروع الحزام والطريق: كيف تربط الصين اقتصادها بالعالم الخارجي؟، مصدر سابق، ص١١.

الصين الجنوبي، وبناء دفاعات عليها كمراكز متقدمة للدفاع عن الساحل الحيوي[١١].

أي أن هذا المشروع بالإضافة إلى كونه اقتصاديا له أهداف سياسية واستراتيجية وسيؤدي إلى فرض المزيد من الهيمنة الصينية على المناطق التي يمر بها المشروع والدول الأوروبية على حد السواء وإلى المزيد من هيمنة المنتجات الصينية على الأسواق العالمية، أي أنه ذات أبعاد سياسية واستراتيجية؛ فالصين تسعى من خلال تنفيذ المشروع إلى الظهور بمظهر الدولة العظمى واستخدم الوفرة في الإمكانيات العسكرية والاقتصادية والاستراتيجية الصينية لفرض نفسها على العالم كقوة مؤثرة وفاعلة في العالم.

ثالثًا- ردود الفعل الدولية على الاستراتيجية الصينية الجديدة:

تباينت ردود الأفعال العالمية على استراتيجية الصين الجديدة في النظام العالمي، فجاءت بين ردود فعل رافضة ومناوئة للدور الصيني الجديد وتحاول التصدي له أو موازنته، وأخرى حاولت الاستفادة منه، وهذا ما نعرضه بشيء من التفصيل فيما يلي:

أ- الولايات المتحدة:

ليس التنافس الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والصين بخافٍ، فالأولى تصنِّف الثانية في وثائقها الرسمية وخطاباتها على أنها من المصادر التي تهدد مصالحها وأمنها القومي. والثانية تشكك في كل ما تطرحه واشنطن، وتؤكد أنها تعتمد نهج التنمية السلمية الذي يعود بالفائدة ليس فقط على الصين وإنما على باقي دول العالم بما في ذلك الولايات المتحدة. وفي الوقت نفسه، تقول بكين إنه بينما تبحث واشنطن عن الهيمنة، والعودة إلى التصرف بعقلية الحرب الباردة، والاهتمام بمصالحها الأمنية فقط دون أي اعتبار لمصالح الآخرين، فإنها (بكين) تطرح منظورًا شاملاً ومستدامًا للأمن، وتؤكد في الوقت نفسه أنها لا تتدخل في الشئون الداخلية للدول كما تفعل واشنطن.

وبالرغم من أن الولايات المتحدة في عهد دونالد ترامب لم تقدم موقفًا رسميًا من مبادرة الحزام والطريق، إلا أن خلافاتها مع الصين قد زادت في تلك الفترة. وجاء في استراتيجية الأمن القومي التي تم الإعلان عنها في ديسمبر ٢٠١٧ أن الصين منافس استراتيجي لأمريكا، واعتبرت أن الوسائل التي تستعملها الصين حاليًا تعمل على زيادة نفوذها في العالم، و تبنى الرئيس (دونالد ترامب) في نوفمبر ٢٠١٧ ما يسمى (استراتيجية من أجل هند باسفيكي حر ومفتوح)؛ حيث يدعو إلى تقوية التعاون بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان واستراليا والهند[١٢].

وفي عهد الرئيس الحالي جو بايدن أطلقت الولايات المتحدة استراتيجية جديدة بهدف احتواء الصين؛ فقد اختتم الرئيس الأميركي جو بايدن في ٢٤ مايو ٢٠٢٢، جولة آسيوية هي الأولى له في المنطقة منذ أن تولى الرئاسة في مطلع عام ٢٠٢١ ، وقادته إلى كوريا الجنوبية واليابان. وأعلن عزمه تركيز السياسة الخارجية الأميركية نحو منطقة المحيط الهادئ بهدف احتواء الصين الصاعدة في المنطقة وعالميًا. وقد جاءت هذه الجولة ضمن هذا السياق؛ إذ حرص على توظيف الحرب الروسية في أوكرانيا ليوجه رسالة إلى الصين مفادها أن الولايات المتحدة الأميركية ستعمل مع حلفائها للحفاظ على مبادئ النظام الدولي في منطقة المحيطين الهندي والهادئ "الاندو- باسيفيك". وتسعى واشنطن لاحتواء الصين عبر ما أسماه وزير الخارجية الأميركي، أنتوني بلينكين: "تشكيل البيئة الاستراتيجية" حولها. ويشمل ذلك الإعلان عن إطلاق "الإطار الاقتصادي لمنطقة المحيطين الهندي والهادئ"، الذي يضم، إضافة إلى الولايات المتحدة ١٢ دولة آسيوية، مع استثناء الصين تحديدًا، فضلًا عن تعزيز التنسيق والتعاون في المنطقة بين دول ما يُعرف بـ "الحوار الأمني الرباعي"

(١١) المصدر السابق، ص٥٤٥.

(١٢) شناز بن قانة، الرهانات الاستراتيجية لمبادرة الحزام والطريق الصينية، في: مجموعة مؤلفين، مبادرة الحزام والطريق الصينية: مشروع القرن الاقتصادي في العالم، مرجع سابق، ص١١٦١.

أو "الرباعية"، المكوَّنة من الولايات المتحدة واستراليا واليابان والهند[١٣].

تقوم الاستراتيجية الأميركية الجديدة نحو الصين، وفق خطاب لوزير الخارجية أنتوني بلينكن ألقاه في ٢٦ مايو ٢٠٢٢ على ثلاثة قوائم: استثمار، تحالف، نافس. وبحسب هذه المقاربة، يقود القائمان الأول والثاني إلى الثالث[١٤]:

• الاستثمار: يحيل مصطلح "الاستثمار" على ضخ المزيد من الموارد في الاقتصاد الأميركي، وهنا يشير مسؤولو إدارة بايدن إلى تمرير قانون البنية التحتية في نوفمبر ٢٠٢١، بقيمة ١,٢ تريليون دولار. وحض بلينكين الكونغرس على التصديق على تشريع يزيد من تمويل البحث والتطوير في مجالات الذكاء الاصطناعي والتكنولوجيا الحيوية والحوسبة الكمومية، محذرًا من أن الصين تسعى للهيمنة على صناعات المستقبل، وأنها تريد أن تجعل من نفسها "مركز الابتكار العالمي والتصنيع، وزيادة الاعتماد التكنولوجي للدول الأخرى عليها، ثمَّ استخدام هذا الاعتماد لفرض تفضيلاتها في السياسة الخارجية"، ولن يكون الحل إلا عبر تعزيز الاستثمار في الداخل، لتبقى واشنطن قادرة على المنافسة. وفعلًا، يعكف الكونغرس حاليًا على تشريع "قانون المنافسة والابتكار الأميركي"، الهادف إلى زيادة الاستثمار الأميركي محليًا للتغلب على الصين عالميًا.

• التحالفات: أما مصطلح التحالف، في تقدير بلينكين، فيهدف إلى التعاون الوثيق مع الحلفاء، ولا سيما في منطقة المحيطين الهندي والهادئ لضمان أسس تنافس سليمة مع الصين، قائمة على "تكافؤ الفرص"، فضلًا عن توحيد حلفاء الولايات المتحدة وشركائها للدفاع عن مبادئ ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مثل حق تقرير المصير والسيادة والتسوية السلمية للنزاعات. وتُقسم التحالفات الأميركية لاحتواء الصين نوعين: اقتصادية وعسكرية:

أ- الاقتصادية: تعمل فيها الولايات المتحدة وحلفاؤها على مقاومة الانتهاكات الاقتصادية الصينية، وإلزام بكين بوقف الممارسات الاحتكارية، وإخضاعها للمعايير الدولية. وكذلك ستعمل واشنطن وحلفاؤها على تشكيل سلاسل توريد بعيدة عن الصين، خاصة بعدما خلقت الحرب التجارية التي خاضها ترامب ضد الصين، وتأثيرات كورونا بعد ذلك، أزمات في سلاسل الإمداد العالمية المعتمدة على الصين، ما دفع الشركات الغربية لإدراك خطورة الاعتماد المتزايد على بكين، الذي قد توظفه لممارسة ضغوط اقتصادية. وقد وضعت استراتيجية الولايات المتحدة خطة لمواجهة مبادرة الحزام والطريق، أسمتها "إعادة بناء عالم أفضل" هدفها تطوير البنى التحتية في الدول النامية عبر "بنك البنية التحتية" الذي سيعمل على دعم المشروعات الكبرى في الدول النامية[١٥].

ب- أمنيًا وعسكريًا: تعمل الولايات المتحدة وحلفاؤها على تحديد أفضل السبل للتعامل مع المخاطر العسكرية التي يطرحها الصعود الصيني ومخاطر العدوان البحري في منطقة "الإندو- باسيفيك"، الذي لا يشمل فقط تهديد بحرية جيش التحرير الشعبي لدول الجوار، أو ضم مناطق متنازع عليها، بل كذلك تعمل واشنطن على ردع الاعتداءات الاقتصادية، مثل أسطول الصيد المسلح الصيني، وأعمال التنقيب والسيطرة على الموارد التي تستند إلى قوة عسكرية. وفي ذلك قامت الولايات المتحدة بإنشاء عدة اتفاقيات أمنية، منها، الاتفاق الأمني الثلاثي (AUKUS) والحوار الرباعي (Quad)، الأول يضم كلاً من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة واستراليا، والثاني يضم الأولى والأخيرة إضافة إلى كل من الهند واليابان[١٦].

---

(١٣) أسامة أبو ارشيد، جولة بايدن الآسيوية:احتواء الصين بوصفه هدفًا استراتيجيًا، تقييم حالة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٥ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٢٧ يونيه ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/xQP1J

(١٤) المصدر السابق.

(١٥) عبدالمجيد أبو العلا، ردع الصين: التحالفات الأمريكية الجديدة في عهد إدارة بايدن، كراسات استراتيجية، مركز الأهرام للدرسات السياسية والاستراتيجية، المجلد ٣١، العدد ٣٣٥، أبريل ٢٠٢٢، ص٣١.

(١٦) المصدر السابق، ص ٢٧.

• التنافس: أما القائم الثالث، المتمثل في ما تصفه إدارة بايدن بـ"المنافسة الاستراتيجية"، فسيكون نتيجة نجاح القائمَيْن الأول والثاني. ويشدد بايدن على أن الولايات المتحدة لا تملك خيارًا غير الظفر في هذه المنافسة، اقتصاديًا وعسكريًا، أو أن الصين "ستأكل غذاءنا"[١٧].

ب- أوروبا:

لا تتعامل أوروبا مع الصين بنفس منطق الولايات المتحدة، بل وفق منطق: "الصين شريك متعاون مع الاتحاد الأوروبي، لدى الاتحاد الأوروبي أهداف منسقة معها، وشريك مفاوض؛ يحتاج الاتحاد الأوروبي معها لإيجاد توازن في المصالح، ومنافس اقتصادي في السعي وراء الريادة التكنولوجية، ومنافسًا منهاجيًا؛ يروج لنماذج بديلة للحوكمة". وكل نمط من هذه المستويات يرتبط بحزمة معينة من القضايا، فالتعاون يفرض نفسه في مجالات المناخ والبيئة؛ إذ الصين شريك أساسي في تحقيق أهداف اتفاقية باريس بشأن تغير المناخ، ومن دون الشراكة مع الصين في هذه المجالات، فإن التغيير لن يحدث، فالصين مسؤولة عن حوالي ٣٠ ٪ من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون العالمية سنويًا، وكذلك الحال في القضايا التي تكون فيها الصين طرفًا في المشكلة وفي الوقت نفسه جزءًا من الحل، كمسائل انتشار التسلح النووي، وقضايا الإرهاب والقرصنة، والطاقة النظيفة[١٨].

وأما مجال الاقتصاد فيحكمه التفاوض، ففيما يعد أكثر محاولات الصين والاتحاد الأوروبي شمولاً حتى الآن لوضع العلاقات الاقتصادية بينهما على أرضية صلبة، أعلن الجانبان، في ٣٠ ديسمبر ٢٠٢٠، عن التوصل إلى اتفاقية استثمار "تاريخية" بينهما. وجاء هذا الإعلان عن الاتفاقية الشاملة للاستثمار بين الاتحاد الأوروبي والصين (CAI) بعد اجتماع عبر الفيديو بين الرئيس الصيني تشي جين بينغ والمستشارة الألمانية السابقة أنجيلا ميركل والرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون ورئيس المجلس الأوروبي شارل ميشيل ورئيسة المفوضية الأوروبية أورسولا فون دير لاين. وتهدف الاتفاقية إلى استبدال أكثر من عشرين معاهدة استثمار ثنائية بين الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي البالغ عددها ٢٧ والصين.

ومن المتوقع أن تفتح هذه الاتفاقية مساحة أكبر بكثير للشركات الأوروبية والصينية لتوسيع أعمالها في أسواق بعضها البعض، حيث من المنتظر أن توفر هذه الاتفاقية للشركات الأوروبية فرصا استثمارية ضخمة في الصين، خاصة في مجالات: خدمات النقل البحري والجوي، والتمويل، والكومبيوتر، والأبحاث والتطوير، والسيارات ذات المحركات البديلة، والاتصالات، وخدمات الحوسبة السحابية، وكذلك في مجال تشغيل المستشفيات الخاصة. كما أنه من المرجح أن تزيل الاتفاقية كثيرا من القيود أمام الشركات الأوروبية للوصول إلى السوق الصينية، بما في ذلك متطلبات الترخيص الصينية وحدود الملكية الأجنبية في قطاعات معينة. هذا فضلاً عن أن الاتفاقية سوف تضمن احترام الملكية الفكرية للشركات الأوروبية، وتحظر عمليات النقل القسري للتكنولوجيا، وتفرض قواعد شفافية على المساعدات التي تتلقاها الشركات العامة الصينية، وتحظر العمل القسري. ومن جهة أخرى، من المنتظر أن تستفيد الشركات الصينية من هذه الاتفاقية في تخفيف القيود المشددة المفروضة أوروبيًا على قيام الشركات الصينية بشراء ما تعتبره أوروبا "قطاعات استراتيجية"، مثل الاتصالات والبنية التحتية للطاقة[١٩].

وأما عن موقف أوروبا من مبادرة الحزام والطريق، فقد استعملت أوروبا أسلوب الموازنة أيضًا؛ حيث إنها ستستفيد من

(١٧) أسامة أبو ارشيد، جولة بايدن الآسيوية:احتواء الصين بوصفه هدفًا استراتيجيًا، مصدر سابق.

(١٨) أحمد عبدالرحمن خليفة، أولويات أوروبا عند التعامل مع الصعود الصيني، فصلية قضايا ونظرات، مركز الحضارة للبحوث والدراسات، العدد ٢٥، أبريل ٢٠٢٢، ص٦٢.

(١٩) أحمد قنديل، اتفاقية الاستثمار "التاريخية" بين الصين والاتحاد الأوروبي والتوازنات الدولية، مركز الأهرام للدرسات السياسية والاستراتيجية، ١٠ يناير ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٢٨ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ZMIFH

المشروع بشكل كبير، وفي المقابل حاولت أن تتغلب على مخاوفها من التغلل الصيني في أراضيها بعد أن دخلت فيها دول أوروبية أساسية، كاليونان (٢٠١٨)، والبرتغال (٢٠١٨)، وإيطاليا (٢٠١٩)، وهي واحدة من ضمن مجموعة دول السبعة الكبرى في العالم. فاتجه الاتحاد الأوروبي إلى تنسيق جهوده، وإطلاق شراكات ومبادرات موازنة (وموازية) للحزام والطريق؛ منها مثلا إطلاق سياسته للربط بين آسيا وأوروبا Connecting Europe and Asia Policy، كما أقرض بنك الاستثمار الأوروبي مبلغ ٢,٧ مليار دولار أمريكي لمشاريع البنية التحتية الآسيوية، وخاصة في الهند. بعدها أعلن الاتحاد الأوروبي في سبتمبر ٢٠٢١ عن مبادرته "البوابة العالمية Global Gateway Initiative"، والتي تطمح لأن تقدم البنية التحتية التي تحتاجها الدول وفقًا للمعايير الأوروبية، كما رُصد لها ما يقرب من ٣٠٠ مليار يورو خلال الفترة من ٢٠٢١ حتى ٢٠٢٧، وذلك لدعم الدور الأوروبي عالميًا[٢٠].

ج- روسيا:

بالرغم من أن روسيا تعتبر آسيا الوسطي "فناءها الخلفي"، وهو ما قد يبدو غير مواتٍ لمبادرات من قبيل الحزام والطريق، وكان ينظر للمشروع في البداية على أنه منافس للاتحاد الاقتصادي الأوراسي (EEU)، إلا أن روسيا أعربت رسميًا عن دعمها للمشروع وتهدف إلى العمل مع الصين بشأن مقترحات ملموسة، إذ تعد الشراكة الصينية- الروسية أساسية لتحقيق أهداف السياسة الخارجية الصينية الأساسية، مثل مبادرة الحزام والطريق، وفي هذا الصدد أثبتت الاتفاقية الموقعة بين الحزام الاقتصادي لطريق الحرير (SREB) والاتحاد الاقتصادي الأوراسي، المؤسَّس من قبل الرئيس الروسي بوتين عام ٢٠١٥ أنه إجراء لا غنى عنه لبناء الثقة؛ مما يساعد على تحييد المخاوف الروسية من النزوح الاستراتيجي من قبل الصين[٢١].

كما أعلنت الصين وروسيا في ٤ فبراير ٢٠٢٢، مولد شراكة استراتيجية عميقة، هدفها تحقيق التوازن مع ما وصفته الدولتان بالتأثير "الخبيث" للولايات المتحدة في العالم. وجاء هذا الإعلان وسط مشهد انطلاق الألعاب الأولمبية الشتوية في بكين، الذي استضاف فيه الرئيس الصيني شي جينبينج نظيره الروسي فلاديمير بوتين. ويمثل إعلان الشراكة الصينية-الروسية بداية "حقبة جديدة" في العلاقات الدولية، حسبما ورد في البيان المشترك الصادر عن قمة شي-بوتين. إذ أكد هذا البيان على تجديد دعم الصين للمطالب الأمنية الروسية، من أجل حل الأزمة الأوكرانية، مشددًا على انضمام بكين إلى موسكو في معارضة توسع الناتو مستقبلاً. ومن ناحية أخرى، اتهم البيان الولايات المتحدة بإشعال الاحتجاجات في هونج كونج، وتشجيع الاستقلال في تايوان، منددًا بـ"التأثير السلبي لاستراتيجية واشنطن في منطقة المحيطين الهندي والهادئ على السلام والاستقرار في هذه المنطقة"، لإنشاء تحالف "أوكوس" العسكري بين الولايات المتحدة وبريطانيا وأستراليا، كونه يزيد من خطر سباق التسلح بالمنطقة ويخلق مخاطر انتشار الأسلحة النووية[٢٢].

وإلى جانب التوافق السياسي التام لمواجهة أنشطة واشنطن "الخبيثة"، كشفت القمة الصينية-الروسية عن ميلاد تحالف استراتيجي غير مسبوق في مجال الطاقة. إذ اتفق الرئيسان الصيني والروسي على صفقات بمئات المليارات من الدولارات في مجالي الغاز والبترول، قدَّرها البعض بقيمة ١١٧,٥ مليار دولار. فمن ناحية، وقعت شركة "روسنفت" الروسية صفقة مدتها ١٠ سنوات مع مؤسسة البترول الوطنية الصينية

(٢٠) أحمد عبدالرحمن خليفة، أولويات أوروبا عند التعامل مع الصعود الصيني، مصدر سابق، ص٦٥.

(٢١) صفاء خليفة، الصين نحو تنافسية قطبية متعددة في القرن الحادي والعشرين: مبادرة الحزام والطريق أنموذجًا (٢٠١٣-٢٠٢١)، مجلة كلية السياسة والاقتصاد، العدد ١٣، يناير ٢٠٢٢، ص١٨٠.

(٢٢) أحمد قنديل، الصين وروسيا: هل هي "شراكة بلا حدود" في مواجهة الولايات المتحدة؟، مركز الأهرام للدرسات السياسية والاستراتيجية، ٩ فبراير ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٢٧ يونيو ٢٠٢٢، متاح على الرابط: https://cutt.us/98Hqx

(CNPC) لتوريد ١٠٠ مليون طن من النفط الخام، عبر كازاخستان على مدار عشر سنوات. ومن ناحية ثانية، أبرمت شركة "غازبروم" الروسية صفقة مدتها ٢٥ عاما لتسليم ١٠ مليارات متر مكعب سنويا، بإجمالي ٤٨ مليار متر مكعب من الإمدادات عبر خط أنابيب غاز سيبيريا الذي تم إطلاقه في عام٢٠١٩[٢٣].

خاتمة:

صعود الصين في السياسة العالمية يطرح تساؤلات حول مستقبل العلاقات الدولية وطبيعة النظام الدولي الذي سينتج، وهل سيؤدي هذا الصعود إلى تغير في موازين القوى، وإن حدث ذلك فالتساؤل الأكبر هو كيف سيحدث هذا التغيير؛ هل سيكون بشكل سلمي أم عنيف؟ وإن كانت كل المؤشرات الراهنة ترجح الطريق الأول.

فالصين كغيرها من القوى العظمى تتحرك في محيطها الإقليمي والدولي لتحقيق مصالحها العليا وضمان أمنها القومي، ويظهر ذلك في شكل تفاعلاتها مع هذه القوى والتنافس معها على مصادر الطاقة، التي تعتبر المحرك الأساسي لمبادرة الحزام والطريق التي أطلقتها منذ ٢٠١٣. فهي تهدف إلى تأمين إمدادات الطاقة للصناعة الصينية ومواجهة تحدي سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا على أهم الممرات البرية والمنافذ البحرية في آسيا الوسطى، جنوب شرق آسيا، أفريقيا، والشرق الأوسط، من خلال بناء شراكات مع الدول المعنية بالمبادرة لأجل هذا الغرض وإن كان ما تعلنه هو تحقيق التنمية الاقتصادية في هذه الدول.

كما تعتبر الاستراتيجية الصينية لعصر جديد، والمرتكزة على مبادئ اقتصادية أهمها مبادرة "الحزام والطريق"، مفتاح التحول للدور الصيني في النظام العالمي، فالاستراتيجية تعمد إلى إعادة تموضع الصين في هرم القوة العالمية، متحدية بذلك الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها.

*****

(٢٣) المصدر السابق.

السياسة الإقليمية الصينية: استعادة السيادة، وبناء محور استراتيجي(*)

أحمد عبد الرحمن خليفة(**)

مقدمة:

تبدو الصين في إقليمها كعملاقٍ بين أقزام، ولكن كثرة هؤلاء الأقزام وخوفهم من العملاق قد يدفعهم إلى تقييده بخيوطٍ رفيعة كما حدث في قصة "رحلات جليفر" Gulliver's Travels حينما زار جزيرة الأقزام. بالمثل تنظر الدول المحيطة بالصين إليها، وتتشكك دومًا في نواياها الإقليمية، وهذا ليس وليد الصدفة، وإنما مبني على قراءة للفكر الصيني ولتاريخ الصين، التي دائمًا ما ترى نفسها مملكة وسطى على الجميع أن يطوف بها إن أراد البقاء. كما يتأكد ذلك من دروس الواقع بشكلٍ عام، التي تشير إلى أن أي قوة دولية في مرحلة بناء عظمتها إنما تبدأ من السيطرة على إقليمها. وهو ما جعل كافة هذه الدول المحيطة بالصين تسعى لا لتجاوزها، ولكن لتوسيع شراكاتها مع كافة القوى الدولية خارج القارة وداخلها في محاولة منها لتقييد سلوك الصين الإقليمي(١).

ولكن العملاق لكونه عملاق، لن يقبل بذلك بسهولة، وإنما دفع نحو تغيير هذه المعادلة تارةً بإطلاق التطمينات المختلفة في محيطه الإقليمي وعالميًا عبر عدة مقولات بدأت من "إخفاء الصعود، وتغذية الغموض" في التسعينيات، فمقولة "الصعود السلمي" في بداية الألفينيات، ثمّ مقولة "الحلم الصيني"(٢)، ومجتمع المصير المشترك مع "شي جين بينج" في بداية العقد الثاني من الألفية الحالية. وتارةً أخرى عبر تأكيد الصين صعودها بإطلاق دعوات لبناء عالم متعدد الأقطاب، وإصلاح مجلس الأمن، وبناء أنظمة اقتصادية وسياسية وإعلامية عالمية جديدة، فضلا عن بناء نمط جديد من علاقات القوى الكبرى يقوم على أساس الاحترام المتبادل وعدم التصادم والربح المشترك(٣).

يقف هذا التقرير على أهم معالم السياسة الإقليمية للصين مقدمًا قراءة لمستجدات هذه السياسة في ضوء القضايا الساخنة في آسيا: تايوان، وميانمار، وكوريا الشمالية، وذلك في ثلاثة محاور؛ يتناول **الأول**: المقصود بالسياسة الإقليمية للصين، وأهم أهداف ومصالح الصين في نطاق الإقليم وعالميًا. أما **المحور الثاني**، فتحت عنوان: استعادة السيادة الصينية، يشرح مبدأ "صين واحدة ونظامان"، وتطبيقاته على حالة تايوان

(*) يتقدم الباحث بخالص الشكر والتقدير إلى الزميل/ أحمد بسيوني على قيامه بجمع جزء كبير من مادة هذا البحث.

(**) باحث في العلوم السياسية.

(١) مارك ليونارد، فيمَ تفكر الصين؟، ترجمة: هبة عكام، (المملكة العربية السعويدة: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٨)، ص ١٢٠.

(٢) لكل رئيس صيني مفهوم مظلة يضعه ليكون موجه لسياسة دولته ودعايتها في الدخل والخارج، فمثلا: هو جيتناو سلف شي اختار مفهوم العالم المتناغم سياسيًا واقتصاديًا وأمنيا ليكون مظلة لسياساتها، في حين عمد شي إلى الحلم الصيني في إشارة إلى طموح الصين في أن تكون قوة عالمية كبرى، وأن تبني أنظمة دولية جديدة ملائمة لطبيعة صعودها من جانب، وتسريع التغيير في نمط الهيمنة الغربية من جانب آخر. وتسعى الصين لربط حلمها بالعالم عبر التأكيد على مفهوم مجتمع المصير المشترك، الذي على الدول أن تُعامل فيه بالاحترام المتبادل والربح المشترك على أساس السيادة والمساواة. وللمزيد بشأن معالم هذا الحلم وتأثيره على السياسة الخارجية الصينية راجع:

- Carolina Ribeiro De Sousa, The Chinese Dream: Challenges and Impacts for China's Foreign Policy, Master thesis, (University Institute of Lisbon, 2021), pp 31-43.

(٣) للمزيد بشأن تفاصيل هذه الأطروحة والمقصود منها يراجع:

- Suisheng Zhao, A New Model of Big Power Relations? China–Us Strategic Rivalry and Balance of Power in the Asia–Pacific, Journal of Contemporary China, Vol. 24, No. 93, 2015, p 380-381.

في الوقت الراهن، وكذا مسائل السيادة الإقليمية في بحري الصين الجنوبي والشرقي، وضمان استقرار الحدود الصينية. أما **محور الثالث** فتحت عنوان: بناء الشراكات الاستراتيجية ويحلل موقع مبادرة الحزام والطريق وتنويع مصادر الطاقة من بناء محور استراتيجي مع ميانمار، وكذا يدرس الحالة الكورية في إطار مكون البراجماتية والتعددية في السياسة الإقليمية الصينية، وبناء المؤسسات الدولية البديلة.

المحور الأول: في معنى السياسة الإقليمية وأهداف الصين

يتعين علينا قبل البدء في تناول مسائل السياسة الإقليمية الصينية، أولًا: تحديد النطاق الإقليمي لهذا التقرير، أو بمعنى آخر الإجابة عن سؤال مفاده إلى أي إقليم تنتمي الصين، أو ما حدود السياسة الإقليمية للصين؟ ثم بيان أهم مصالح الصين وأهدافها في هذا الإقليم تاليًا.

بدايةً **يتنازع الصين الانتماء إلى عدة فضاءات جغرافية**، بعضها طبيعية بحكم الجبال والهضاب والأنهار، وبعضها سياسية ترتبط بالحدود السياسية، وبعضها مُتخيلة تتحدد على أساس نظرة القوى الأخرى للصين وموقعهم منها. فلكون الصين ثاني أكبر دولة عملاقة في آسيا من حيث المساحة، والأولى من حيث السكان، أضحت قلب آسيا، وتُحسب فيه قوة كبرى أساسية، ولذلك نجد الصين جغرافيًا تقع في شرق، وجنوب، وجنوب شرق آسيا، وتتشارك الحدود السياسية مع 14 دولة، لديها نزاعات حدودية مع 11 دولة منها اليابان والهند وكوريا الجنوبية وتايوان والفلبين وفيتنام، وحتى روسيا وكوريا الشمالية. أما وفقًا للفضاءات المتخيلة، أي تلك التي رسمها المنظرون والاستراتيجيون في العالم، فتنتمي الصين إلى ما يعرف بمنطقة **المحيطين الهادي والهندي (الهندو باسيفيك)** Indo-Pacific، وهو فضاء رسمته الولايات المتحدة لحلفائها لزيادة تعقيد الفضاء الذي تنتمي إليها الصين جغرافيًا، وتوسيع دائرة الاهتمام بالصعود الصيني والقوى الصاعدة في آسيا، ويضم الدول المطلة على المحيطين، ومنهم الولايات المتحدة، وأستراليا ونيوزيلندا[٤].

هيأت هذه الجغرافيات للصين –إن صح التعبير– إلى تشكل قناعة لدى القادة الصينيين، أن تحقيق القوة الصينية، بل وبنائها، ينطلق من أن تكون الصين قوة كبرى في الإقليم (مرجعية)، ولا بد أن تكون قوية لكي تستطيع أن تجاري هذه القوى الإقليمية، وأن تحتفظ بحقوقها المختلفة في آسيا خاصةً في ظل تعدد نزاعاتها الحدودية والبرية. كما تشكل لدى الباحثين قناعة مبنية على هذه الفكرة سواء للصين – أو لأي قوة صاعدة- حيث إن تحولها لقوة عالمية (عظمى) إنما يبدأ من إقليمها وتحديدًا من السيطرة والهيمنة عليه[٥]، تُعد أطروحة "جون ميرشايمر" حول "المُهيمن الإقليمي"[٦]، هي الأبرز في هذا الصدد.

وعلى هذا الأساس تراكمت للصين في إطار جغرافيتها، مجموعة من المصالح الجوهرية Core Interests تمثلت في ثلاث كلمات هي: الأمن، والسيادة، والتنمية[٧].

(٤) عبد القادر دندن، التحول في تشكيل التوازنات الاستراتيجية: آسيا الباسيفيك إلى الهندوباسيفيك "دراسة حالة"، السياسة الدولية، مؤسسة الاهرام، المجلد ٥٥، العدد ٢٢٢، أكتوبر ٢٠٢٠، ص ١٤-١٥.

(٥)عبد القادر دندن، الأدوار الأقليمية للقوى الصاعدة: الصين - دراسة ميدانية، (عمان: مركز الكتاب الأكاديمي، ٢٠١٥)، ص ٩-١٠.

(٦) يشير ميرشايمر إلى أن الدول تسعى إلى القوة بشكلٍ لا نهائي، كما أنها تهدف في الأخير إلى تحقيق البقاء من خلال "الهيمنة"؛ فلا أمان للدولة إلا أن تكون هي الدولة الوحيدة المهيمنة. ولما كانت الهيمنة العالمية مستحيلة، فإن عليها أن تبقى الدولة الوحيدة "المهيمنة في إقليمها"، وتمنع أي دولة أخرى من الهيمنة في أقاليم أخرى حتى تصبح هي "المهيمن الإقليمي الوحيد"، للمزيد انظر:

- جون ميرشايمر، مأساة سياسة القوى العظمى، ترجمة: مصطفى محمد قاسم، (الرياض: قسم النشر العلمي، جامعة الملك سعود، ٢٠١٢)، ص ٥٠-٥١.

(٧) طُرح مفهوم المصالح الجوهرية للصين بصورة أكثر وضوحًا عام ٢٠١٠، ثمّ تأكد في عهد شي جين بينج. ويرى الكثير من المتابعين أن فيه تغيير في خطاب ونهج الصين في التأكيد على مصالحها؛ ليصبح أكثر حزمًا تجاه بعض المسائل وعلى رأسها قضية تايوان. للمزيد بشأن تفصيل هذه المصالح، يُراجع:

١) **الأمن**: يرتبط الأمن في المخيلة الصينية بأمن النظام السياسي والاجتماعي للصين، ومن ثمّ يجب حماية الحزب الشيوعي الصيني وضمان سيطرته على النظام السياسي ضد أي ثورات أو عمليات تغيير سياسية ناحية الديمقراطية الغربية.

٢) **السيادة**: تتجسد في ضرورة حماية السيادة الإقليمية للصين، والحفاظ على وحدة وسلامة الأراضي الصينية، والتصدي لأي محاولات انفصالية، وقمع أي حركات تنادي بالاستقلال عن الصين سواء في هونج كونج أو شينجيانج أو التبت أو تايوان.

٣) **التنمية**: لازالت تطمح الصين إلى استمرار تنميتها، وتهيئة كافة الظروف الدولية الموائمة لذلك، إذ تعمل على منع نشوب أي حروب في جوارها الإقليمي، وضمان استقرار تدفقات الطاقة لها من الأقاليم المختلفة، وكذا حرية الملاحة في الممرات والمضائق الدولية.

ومن هذه المصالح الجوهرية تفرع للصين مجموعة من الأهداف الإقليمية، وفقًا للخريطة الجيو-سياسية للمنطقة، تتمثل في:

أولًا: استعادة السيادة على تايوان، وتأكيدها على كافة المقاطعات الصينية، والمناطق المتنازع عليها في بحري الصين الجنوبي والشرقي.

ثانيًا: حفظ الاستقرار والأمن في المناطق (الأقاليم) الحدودية، والأقاليم المجاورة للصين، ومنها إقليمي كاشين وشان القريبين من مقاطعة يونان الصينية.

ثالثًا: التحول لقوة بحرية عظمى، والسيطرة على كافة المضائق والممرات الدولية (في نطاق إقليمها)، ومنها مضيق ملقا، وبحرا الصين الجنوبي والشرقي..

رابعًا: حل المشكلات الإقليمية بعيدًا عن تداخلات القوى الدولية (الغرب، وخاصة الولايات المتحدة).

ويمكن القول إن هذه الأهداف تتمحور حول ضرورة الحد من التواجد العسكري للولايات المتحدة في الإقليم خاصةً في كوريا الجنوبية واليابان، والحد من "تحكمها" في مضيق ملقا، والتقليل من نفوذها السياسي، بل وإخراجها من المنطقة، ومن ثمّ أضحى هناك هدف رئيس للصين –ليس فقط في إقليم جنوب شرق آسيا– ولكن عالميًا ألا وهو مناهضة الهيمنة الأمريكية وإقامة عصر التعددية القطبية[٨].

ومما سبق نستنتج أن السياسة الإقليمية الصينية محكومة بمجموعة من العوامل الداخلية والخارجية، يأتي **على رأسها نفوذ القوى الدولية في الإقليم وأهمها: الولايات المتحدة** والقوى المتحالفة معها: كوريا الجنوبية واليابان وتايوان، ثمّ نيوزيلندا، وأستراليا. وكذا نمط التحالفات القائمة بينهم، وطبيعة التواجد العسكري في المنطقة، وبقرب المضائق والممرات البحرية كمضيق ملقا. أما **ثانيها**: فيتمثل في **أمن الطاقة** الذي يعتبر مكون أساس في الفكر الاستراتيجي الصين لضمان استمرار نموها واستدامة صعودها. أما **ثالثها**: فيتعلق **بضمان الوحدة الصينية** وتحقيق الاستقرار داخل حدود الصين وخارجها مع الدول المحيطة، ومناهضة كافة صور النزعات الانفصالية أو الاستقلالية، ومن هنا تنبع أهمية تايوان، وهونج كونج، والتبت، وشينجيانج، ويونان وغيرها. أما

- Andrew Scobell and others, China's Grand Strategy: Trends, Trajectories, and Long-Term Competition, Santa Monica, CA: RAND Corporation, 2020, p 12, available at: https://cutt.us/vkkp2

- Michael J. Mazarr, Timothy R. Heath, and Astrid Stuth Cevallos, China and the International Order, Santa Monica, CA: RAND Corporation, 2018, p 14, available at: https://cutt.us/FggqH

- China's National Defense in the New Era, The State Council Information Office of the People's Republic of China, July 2019, available at: https://cutt.us/QUIvn

(8) China and the World in the New Era, The State Council Information Office of the People's Republic of China, September 2019, available at: https://cutt.us/d1o4B

رابعها: فيتمثل في رغبة الصين أن تكون **قوة بحرية كبرى**، وهو ما يدفعها إلى النظر إلى بحري الصين الشرقي والجنوبي على أنه بحيرة صينية. أما **خامسها**: فيتمثل في **عامل الفكر والإدراك**، الذي يظهر من خلال "وضوح عناصر الاستراتيجية" و"المرونة" و"البراجماتية" في التفكير في التعامل مع القضايا المختلفة، ووزنها من المنظار الاستراتيجي الصيني، فضلا عن رؤى **القيادة الصينية تحت قيادة شي جين بينج** الذي يبدو أن لديه شخصية وطموح مختلف عن سابقيه[٩].

ولأن تحقيق هذه المصالح، وهذه الأهداف يدور حول محورين رئيسين؛ الأول يتمثل في استعادة السيادة، والثاني يرتبط ببناء محور استراتيجي مع دول المنطقة، فإن هذه الدراسة فيما يلي تستعرض هاتين النقطتين من خلال دراسة ثلاث حالات هي: تايوان، وكوريا الشمالية، وميانمار، في محاولة لإبراز معالم الاستراتيجية الصينية عالميًا وإقليميًا لتحقيق أهدافها في الإقليم وفي هذه الدول.

المحور الثاني- استعادة السيادة: تايوان نموذجًا

أولًا- الوحدة الصينية: مبدأ "صين واحدة ونظامان":

تُعد مسألة تحقيق السيادة الصينية على أقاليمها من أهم المسائل المرتبطة بعملية بناء القوة والتأثير للصين، ويُعتقد أن تحقيق هذه السيادة إنما يتعلق أساسًا باستعادة تايوان[١٠]، ثمّ تحقيق السيادة على بحري الصين الجنوبي والشرقي. وتنظر الصين إلى تايوان على أنها جزء لا يتجزأ منها، وأنها في وضعها الحالي مقاطعة "منشقة"! وتدعو قادتها إلى الدخول تحت مظلة سياسة "صين واحدة ونظامان"[١١]، التي دخلت بموجبها هونج كونج إلى السيادة الصينية، مع تمتعها بقدر كبير من الاستقلالية في الإدارة. وتدعو الصين تايوان إلى ذلك، بالإضافة إلى أنها ستسمح لقادة تايوان لأن يكونوا من القيادات العليا في الحزب الشيوعي والسلطات السياسية.

إزاء ذلك تقف الأحزاب السياسية في تايوان موقفًا منقسمًا تجاه الوحدة مع الصين، فمنهم من يعتقد بأن الأمر في النهاية سيصل إلى الوحدة مع الصين، مثل **حزب الكومينتانغ** وقد سعى الرئيس السابق منهم **ما ينغ-جئو** إلى تعميق العلاقات الاقتصادية والثقافية بين (البلدين). ومنهم من ينادي بضرورة إعلان الاستقلال عن الصين، وعلى رأسهم **الحزب الديمقراطي التقدمي (DPP)** والذي منهم الرئيسة الحالية **تساي إنج ون**، التي ما فتئت تؤكد على أن تايوان دولة ذات سيادة، وتتبع نهج ديمقراطي خاص بها، وانضمامها للصين لا يضمن لها ذلك[١٢].

وتصريحات القيادات من "البلدين" تجاه بعضهم البعض، ومناوراتهما لا تنقطع بشأن هذه القضية، فعلى سبيل المثال كثفت الصين الدوريات الاستطلاعية العسكرية فوق منطقة الدفاعات الجوية التايوانية قبيل الذكرى الأربعين لاستقلال تايوان في يوليو ٢٠٢١[١٣] كما تجري الصين باستمرار تدريبات

(9) Marcin Przychodniak, A New Strategy or Just a Change of Tactics? The Main Elements of China's Foreign Policy During Xi Jinping's First Term, The Polish Quarterly of International Affairs, Vol. 26, No. 3, 2017, pp 8-9.

(10) Yu-Hua Chen, 'Bringing Geography Back In: Buffer Thinking in Chinese Foreign Policy', Ph.D. Thesis, The Australian National University, 2019, p 53.

(١١) للمزيد بصدد تفاصيل المقترح الصين لحل أزمة تايوان، انظر:
- عدنان البدراني، أثر التوتر المقيد في السياسة الخارجية الصينية تجاه تايوان، مجلة جيل الدراسات السياسية والعلاقات الدولية، مركز جيل البحث العلمي، المجلد العدد الخامس، ٢٠١٦، ص ص ١٢٤- ١٢٠.
- متروك بن هايس الفالح، النموذج الصيني للتوحيد الدولة الواحدة ذات النظامين: دراسة في الأصول والعوامل والدلالات، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، المجلد ١٤، العدد ١٥٢، أكتوبر ١٩٩١، ص ص ١٧-٢٣.

(١٢) الصين وتايوان: رئيسة الجزيرة تؤكد أنها لن ترضخ لضغوط بكين، بي بي سي عربي، ١٠ اكتوبر ٢٠٢١، تاريخ الإطلاع: ٢٣ مايو ٢٠٢٢، الساعة ١٢:١٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc/.in/3lzNis2

(١٣) الصين وتايوان: الرئيس الصيني يتعهد بـ"إعادة التوحيد" مع الجزيرة، بي بي سي عربي، ٩ أكتوبر ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٢٣ مايو ٢٠٢٢، الساعة ١٢:١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/9kClE

قريبة من تايوان، آخرها كان في منتصف أبريل ٢٠٢٢. وهو ما كان له أصداء مباشرة في الجزيرة، التي أعلنت تأهبها لأي تحركات صينية عسكرية ضدها، فقاموا بعمل محاكاة للكيفية التي سيتحرك بها القوات والناس حال حدوث غزو، وأصدر الجيش كتيبًا ليكون بمثابة دليل يُمكن للناس استخدامه في حالات الطوارئ(١٤).

كما تجعل الصين الالتزام بمبدأ صين واحدة (قضية تايوان) شرطًا سياسيًا، ومتغيرًا أساسًا لإقامة أي علاقات مع الدول الأخرى، وتصرح بأن هذه القضية هي مفتاح تحسن العلاقات مع الولايات المتحدة والقوى الغربية، كما تتابع عن كثب أي تحركات لهذه القوى في تلك القضية، إذ أدانت تغيير في موقع وزارة الخارجية الأمريكية حول توصيف العلاقات الأمريكية مع تايوان، التي حذفت فيها جملة "عدم استقلال تايوان"، وأضافت كلمة "بلد" وصفًا لتايوان.(١٥) فضلًا عن شن حملة هجوم ضد دولة ليتوانيا بعد أن أطلقت اسم تايوان على المكتب المُمثل للجزيرة.(١٦) بالإضافة إلى أن تمتع الدول بأي مزايا تجارية أو منافع اقتصادية أو انضمام للآليات الدبلوماسية والمبادرات التي تنشئها الصين هي رهن الإقرار بهذا المبدأ، وسحب الاعتراف بتايوان (انظر بشأن هذه الآليات المحور الثالث). ومن أحدث مظاهر هذا الالتزام الصيني بمبدأ صين واحدة رفض الصين القاطع بشأن دعوة تايوان إلى جمعية منظمة الصحة العالمية، التي تُعقد في ٢٢ من مايو لهذا العام، بصفة عضو مراقب بناءً على طلب الولايات المتحدة(١٧).

ثانيًا- استعادة السيادة البحرية: خريطة الخطوط التسعة:

يُعد الصراع حول أحقية جزر بحري الصين الجنوبي والشرقي من أهم الصراعات المستعرة في شرق، وجنوب شرق آسيا، وتدعي الصين أن هذا البحر هو بحيرة صينية. ولذا رسمت عام ٢٠٠٩ خريطة موضح فيها تسعة خطوط Nine-Dash line تحاوط فيها بحر الصين بالكامل، مدعيةً امتلاك ما يقرب من ٩٠٪ منه! (انظر خريطة رقم ١ توضح النزاعات في بحر الصين الجنوبي)

خريطة (١): خريطة الإدعاءات والنزاعات الحدودية في بحر الصين الجنوبي(١٨).

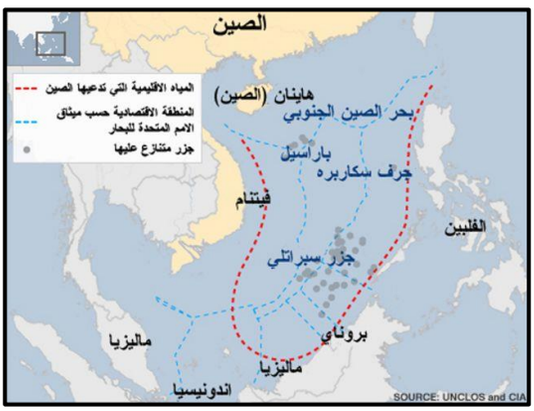

وتعود أهمية هذا البحر بالنسبة للصين إلى **أولًا**: أهمية موقعه، الذي يجعله قناة الربط بين المحيطين الهادي والهندي، ومن ثمّ التحكم في المضائق والممرات البحرية الموجودة في المنطقة، **وثانيًا**: تأمين تدفقات النفط إلى الصين، التي يأتي معظمها عن طريق هذه المنطقة، واستغلال الثروات النفطية الكامنة فيه، **وثالثًا**: محوريته في بناء قوة عسكرية بحرية تمكنها من مراقبة جيرانها، وتتبع القوات العسكرية الموجودة في

(١٤)لأول مرة.. تحرك أميركي بريطاني وخطط طوارئ حول ملف تايوان، سكاي نيوز عربية، ١ مايو ٢٠٢٢، تاريخ الإطلاع: ٢٣ مايو ٢٠٢٢، الساعة ١٢:٠٠، متاح عبر الرابط التالي https://bit.ly/3yWeUiT.

(١٥) المرجع السابق.

(١٦) أحمد عبد الرحمن خليفة، أولويات أوروبا عند التعامل مع الصعود الصيني، فصلية قضايا ونظرات، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، العدد ٢٥، أبريل ٢٠٢٢، ص٥٩.

(١٧) رفض الصين مشاركة منطقة تايوان في جمعية الصحة العالمية يحظى بدعم المجتمع الدولي، صحيفة الشعب اليومية أون لاين، ٢٣ مايو ٢٠٢٢، تاريخ الإطلاع: ٢٤ مايو ٢٠٢٢، الساعة ١٢:٤٠، متاح عبر الرابط التالي https://cutt.ly/SHXUhyu

(١٨) ما هو أساس الخلاف حول بحر الصين الجنوبي؟، بي بي سي عربي، ١٢ يوليو ٢٠١٦، تاريخ الاطلاع: ٢٣ مايو ٢٠٢٢، الساعة ١٠:١١، متاح عبر الرابط التالي https://cutt.ly/aHC8PjJ

المنطقة، فضلًا عن ضمان سيادتها على البحر.[١٩] وذلك من خلال سيطرتها على الجزر الواقعة على هذا البحر، التي ستكثف اكتشافاتها للاحتياطات النفطية الكامنة فيه، وبناء قواعد عسكرية وجزر صناعية لذات الأغراض، ومن هذه الجزر بارسيل، وسبراتلي موضع النزاع بين الصين والفلبين وفيتنام وماليزيا وبروناي.[٢٠] كما تتنازع كوريا الشمالية والصين على سيادة بعض الجزر في نهري يالو وتومين؛ وبالمثل بالنسبة لجزيرة لينكورت روكس (التسمية اليابانية) مع الصين واليابان وكوريا الجنوبية، في حين يتنازع ثلاثتهم بالإضافة إلى تايوان حول جزيرة دياويو (التسمية الصينية)، ولكل منهم تسمية خاصة لها.[٢١] وأساس التنازع بين هذه الدول هو تقسيم المناطق الاقتصادية الخالصة بينها. ويسهم ذلك فيما يعرف بأمننة بحر الصين؛ إذ تسعى كل دولة لحشد قواتها إلى المنطقة أو بقرب المناطق المتنازع عليها فضلا عن سعيها لبناء ترسانة أسلحة قوية لحماية ادعاءاتها بشأن ملكية الجزر، فضلًا عن قيام القوى المتحالفة بمناورات وتدريبات مشتركة في المنطقة بحيث تكون بين الولايات المتحدة واليابان وتايوان من جانب، والصين من جانب آخر[٢٢].

ولذلك تتقاطع طموحات الصين حول السيادة البحرية مع خططها للتحديث العسكري، وأهداف بناء جيش قوي عصري بحلول عام ٢٠٤٩، وزيادة إنفاقها العسكري لتحتل المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة، وإن كان بفارق كبير، مع سعيها لنشر أسطولها البحري في محيط بحر الصين. كما تضع الصين أهدافًا مرحلية لها، إذ تطمح أن يكون لديها ٦٧ سفينة سطحية رئيسية جديدة و١٢ غواصة نووية بقدوم ٢٠٣٠، وهو ما يكفي للسيطرة على المحيط الهندي. ومن ثمّ تطمح لأن تكون أقوى قوة بحرية في العالم مع عام ٢٠٤٩[٢٣]، ومن هنا يتفق الجميع على سمة التفكير الاستراتيجي بعيد المدى للقادة الصينيين.

ثالثًا: ضمان الاستقرار على الحدود:

نظرًا لكون عدد من الأقاليم (المقاطعات) الصينية ذات الأهمية الاستراتيجية حدودية، وتضم أقليات عرقية، ويرتبط بها نزاعات مع دول مجاورة، وبعضها مُحاط بدول غير مستقرة كميانمار أو تعاني من ضغوط اقتصادية دولية ككوريا الشمالية تتبع الصين سياسة حازمة بشأن ضمان استقرار هذه الحدود. **فإقليم شينجيانج** يضم ثلث الاحتياطي الصيني من النفط، ويساهم في إنتاج ٤٠٪ من الحجر الجيري، ويضم أقلية الإيجور تركية الأصل، التي لا تتقبل الحضارة الصينية، وينشأ فيها العديد من الحركات الانفصالية التي تقمعها الصين، وتمثل ما يقرب من نصف سكان الإقليم. أما **التبت** فغنية أرضها بخام الحديد والنحاس،[٢٤] ويسكنها أغلبية بوذية، وتقع أقصى غرب الصين، وهي الأقرب لدول جنوب آسيا. وتسعى القيادة في بكين إلى تصيين هذه الأقليات، بقهر هويتهم العرقية، وتعليمهم اللغة الصينية بعيدًا عن لغاتهم القومية، وفرض قيود على ممارسة الأديان، وذلك عن طريق **القوانين** أولًا، التي تمنع تولي غير أعضاء الحزب الشيوعي الصيني المناصب السياسية في

(١٩) عبد القادر دندن، العامل الطاقوي في علاقات الصين ببنغلاديش وميانمار: الوجه الآخر للتنافس الصيني-الهندي في جنوب آسيا، شؤون الأوسط، مركز الدراسات الاستراتيجية، العدد ١٦٦، شتاء ٢٠٢٢، ص ٨٤-٨٥.

(٢٠) إيمان فخري، بحر الصين الجنوبي.. صدام محتمل بين واشنطن وبكين، السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام، المجلد ٥٦، العدد ٢٢٣، يناير ٢٠٢١، ص ١٨٢.

(٢١) عبد القادر دندن، الاستراتيجية الصينية لأمن الطاقة وتأثيرها على الاستقرار في محيطه الإقليمي: آسيا الوسطى - حنوب آسيا - شرق وجنوب شرق آسيا، (الجزائر: رسالة دكتوراة، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة الحاج لخضر – باتنة، ٢٠١٣)، ص ٢٩٦.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٣٠٤.

(٢٣) للمزيد راجع:

- Korea, North, CIA.gov, 15 May 2022, Accessed: 24 May 2022, 12:57, available at: https://bit.ly/3PuXlfE

- عبد القادر دندن، الاستراتيجية الصينية لأمن الطاقة وتأثيرها على الاستقرار في محيطه الإقليمي: آسيا الوسطى - حنوب آسيا - شرق وجنوب شرق آسيا، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٢٤) عبد الأمير محسن الأسدي، أمبر نجم عبود، السياسة الصينية اتجاه دول جنوب شرق آسيا في القرن الحادي والعشرين: دراسة في أبعادها الاقتصادية والأمنية، المجلة السياسية والدولية، الجامعة المستنصرية كلية العلوم السياسية، العدد ٤١-٤٢، ديسمبر ٢٠١٩، ص ١٩.

الأقاليم[٢٥]، و**المعسكرات الثقافية** ثانيًا.[٢٦] وتكرر الصين دائمًا دعوتها "للولايات المتحدة تحديدًا" والقوى الغربية بعدم التدخل في شؤونها الداخلية، أو الحض على استقلال أي من أقاليمها ومنهم شينجيانج (تركستان الشرقية) والتبت[٢٧].

ويظهر من بين هذه الأقاليم، إقليم **"يونان الصيني"**، الذي يقع على الحدود مع ميانمار (بورما)، وتخشى الصين انتقال حالة عدم الاستقرار والاضطراب في هذه المنطقة إلى الإقليم الصيني، أو نزوح عدد من اللاجئين إلى داخل الحدود الصينية.[٢٨] وذلك، **أولًا**: خوفًا من انتقال أي عدوى أو أمراض بسبب ارتفاع معدلات الإصابة بمرض نقص المناعة البشرية (الإيدز) في ميانمار، **وثانيًا**: انتقال المخدرات (الأفيون والهيروين) عن طريق التجارة غير المشروعة على حدود الصين[٢٩].

ويكتسب هذا الإقليم أهمية إضافية من كونه يقع ضمن **استراتيجية المحيطين للصين**، حيث يمكنها عبره الوصول إلى المحيط الهندي عبر النفاذ من خلاله إلى ميانمار (انظر خريطة ٢) بما يضمن لها تنمية المنطقة من ناحية، وبناء ممرات اقتصادية بينها وبين ميانمار من ناحية أخرى.[٣٠] ونعود لهذا الموضوع في المحور التالي.

خريطة (١): النفاذ إلى المحيط الهندي عبر الممر الاقتصادي بين ميانمار والصين[٣١]

المحور الثالث: بناء محور استراتيجي

أولًا: الحزام والطريق والسيطرة على مصادر الطاقة وممراتها:

يُعد أمن الطاقة من الهواجس الرئيسة للصين، ومدار أساس في نهج الاستراتيجيات، وبناء الشراكات الإقليمية والدولية. وطرحت الصين في عام ٢٠٢٠ استراتيجية تتمحور حول عمل عدة إصلاحات في مركب الطاقة واستهلاكها داخل الصين، وتنويع الشراكات مع الدول المختلفة.[٣٢] ومن هنا يأتي الاهتمام الإقليمي الصيني بدولة مثل ميانمار تحديدًا، إذ تُقدر

(٢٥) بشأن الوقوف على الوضع الحقوقي في الصين راجع:
- China: Events on 2021, (in): Word report 2022, (New York: Human Rights Watch, 2022), pp 159- 178.

(٢٦) الصين "ترغم" الآلاف من سكان التبت على الالتحاق بمعسكرات العمل الجماعية، بي بي سي عربي، ٢٣ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الإطلاع: ٢٣ مايو ٢٠٢٢، الساعة ١٨:١٠، متاح عبر الرابط التالي https://bbc.in/3wFpcBn.

(٢٧) الصين تحث الولايات المتحدة على عدم دعم "استقلال التبت"، صحيفة الشعب اليومية أون لاين، ٢٠ مايو ٢٠٢٢، تاريخ الإطلاع: ٢٣ مايو ٢٠٢٢، الساعة ١٢:٣٠، متاح عبر الرابط التالي https://bit.ly/3wIvQH5.

(28) Akkas Ahamed, Md Sayedur Rahman, and Nur Hossain, China-Myanmar Bilateral Relations: An Analytical Study of Some Geostrategic and Economic Issues, Journal of Public Administration and Governance, Vol. 10, No. 3, 2020. p 339-340.

(29) Shan State Exemplifies China's Tangled Myanmar Ties, The Diplomat, 4 May 2022, Accessed: 12:40 2022, 23 May, available at: https://bit.ly/38K2XSL

(30) John Nielsen, Myanmar - China´S West Coast Dream, Copenhagen: Danish Inistitute for International Studies (DIIS), May 2022, available at: https://bit.ly/3ySm1ZH

(31) Ibid.

(32) Energy in China's New Era, The State Council Information Office of the People's Republic of China, December 2020, available at: https://cutt.us/FgxkF

احتياطات النفط الكامنة فيها بأكثر من ٩٠ تريليون قدم مكعب. ويهدف الممر الاقتصادي بين الصين وميانمار إلى مد خطوط أنابيب بطول 800 كيلو متر من ميانمار إلى كون منغ عاصمة مقاطعة يونان التي تقع على حدود الصين[٣٣]، وتتمتع الصين بفضل دعمها لنظامها العسكري مؤخرًا بمزايا كبرى في عقد الصفقات واستغلال موارد الطاقة.

وفي ذلك تفصيل مهم، تقع معظم اكتشافات ميانمار في محيط **إقليم راخين** (أراكان سابقًا)، الذي يضم أقلية الروهينجا المسلمة، ويتعرض لعمليات عنف وتغيير ديمغرافي، ولم تعارض الصين تحركات النظام تجاه الروهينجا، بل وفرت دعمًا عسكريًا للجيش في ميانمار، كما اعتبرت أن هذه المسائل بمثابة شؤون داخلية على الدول الأخرى ألا تتدخل فيها، وفي ذلك إشارة ضمنية للنهج الذي ترغب في تعامل العالم مع قضايا الأقليات فيها. كما يبدو من سلوكها ترحيبًا بإخلاء الإقليم من الأقليات المعارضة للسلطات السياسية.[٣٤] وكذلك يمكن للصين عبر هذا الإقليم الولوج إلى المحيط الهندي في صورة تشبه الفرعين (بالإضافة إلى ولاية شان). (انظر الخريطة ٢)

وفي هذا الإطار، تدخل ميانمار ضمن مبادرة الحزام والطريق الصينية (عقد اللؤلؤ)، التي تهدف إلى تعزيز ربط الصين بآسيا أولًا، ثمّ باقي قارات العالم تاليًا.[٣٥] ومن هنا نجد أن موانئ جوادر (باكتسان)، وهامبانتوتا (سيرلانكا)، وتشاوبيو (راخين – ميانمار) ويانغون (ميانمار) تسهم في تعزيز السيطرة الصينية على المحيط الهندي.[٣٦] وذلك فضلًا عن مشاريع البنية التحتية التي تقوم بها داخل معظم دول جنوب شرق آسيا. وتركز الشركات الصينية استثماراتها في قطاع الطاقة لدى هذه الدول، إذ تبلغ الاستثمارات الصينية ٢٧٪ من إجمالي الاستثمارات الأجنبية في قطاع الطاقة في ميانمار.[٣٧] كما تستثمر في كوريا الشمالية في مجالات البنية التحتية، وفي قطاعات الصناعة والطاقة، خاصةً في ميادين التعدين: كالذهب، والنحاس، والزنك، والرصاص، والتيتانيوم، والفحم والحديد. وتُعد الصين المستثمر الأجنبي الوحيد في كوريا الشمالية، الذي يوفر فرص عمل للمواطنين هناك.[٣٨]

ثانيًا: البراجماتية: الدعم المزدوج واستراتيجيات التوازن:

تتسم السياسة الصينية في كثير من الملفات الإقليمية بالبراجماتية والمرونة.[٣٩] فإذ هي الشريك الوحيد لكوريا الشمالية، فإنها في الوقت نفسه تضع كوريا الجنوبية ومنذ عام 2013 ضمن ما تطلق عليه "استراتيجية التعاون الشاملة"،

(٣٣) عبد القادر دندن، العامل الطاقوي في علاقات الصين ببنغلاديش وميانمار: الوجه الآخر للتنافس الصيني-الهندي في جنوب آسيا، مرجع سابق، ص ٨٩-٩١.

(34) Yun Sun, China's Role in Myanmar's Internal Conflicts, US Institute of Peace—USIP Senior Study Group Report, no. 1, 2018, p 33.

(٣٥) أسماء بن مشيرح، التغلغل الصيني في جنوب آسيا بين المكاسب الجيواستراتيجية والمعضلة الأمنية، دفاتر السياسة والقانون، جامعة قاصدي مرباح ورقلة - كلية الحقوق والعلوم السياسية، المجلد ١٣، العدد الثاني، ٢٠٢١، ص ٣٨٩.

(36) China Seeks to Dominate Bay of Bengal through Myanmar Ports, Op. cit.

(37) Foreign Energy Giants Leave Myanmar, Chinese Companies to Likely Replace Them, Thai PBS World, 13 May 2022, Accessed: 23 May 2022, 21:30, available at: https://cutt.ly/zHXzI3Z

(38) Riccardo Rossi, North Korea-China Economic Relations and the United Nations Sanctions, SpecialEurasia, 16 May 2022, Accessed: 23 May 2022, 21: 40, avilable at: https://cutt.ly/aHXxHwo

(٣٩) محمد غروي، عام على الانقلاب في ميانمار... عنف يتأجج ومأساة إنسانية تتجدد، إندبندنت عربية، ١ فبراير ٢٠٢٢، تاريخ الإطلاع: ٢٣ مايو ٢٠٢٢، الساعة ٢٢:١٠، متاح عبر الرابط التالي https://cutt.ly/2HXn60C.

وتتعمق علاقتها الاقتصادية معها في كل الميادين والمجالات.[٤٠] ويتبين النهج الصيني المزدوج في قضية الكوريتين في أنها وإذ ترغب في إخلاء شبه الجزيرة الكورية من السلاح النووي، وعدم تملك أي من الشطرين لهذا السلاح، تقف حائلًا أمام انهيار نظام كوريا الشمالية، وتستخدم علاقتها معه للضغط على الولايات المتحدة، والقوى الدولية، وترفض امتلاك كوريا الجنوبية واليابان لنظام الدفاع الصاروخي النووي ثاد (Thad)[٤١]. فهي تنظر إلى كوريا الشمالية على أنها حاجز (عازل) مع كوريا الجنوبية، حيث القوات الأمريكية، وأن انهيارها قد يعني إما تدفق الآلاف كلاجئين إلى أراضيها، أو تحولها لنظام ديمقراطي حليف للولايات المتحدة والغرب، أو كلاهما معًا، وهو أسوأ سيناريو تخشى بكين حدوثه[٤٢].

تؤول براجماتية الصين في علاقاتها مع الكوريتين على أنها سياسة الإبقاء على الأنظمة السياسية للدول، ورفض التدخل في تغييرها، فهي حتى وإن كانت تخشى من النظم الديمقراطية، فإنها ترى أن تكلفة تغييرها، وانتظار نظام جديد موالي أمر لا يمكن توقعه، وهو ما يدفعها للتكيف مع الوضع الراهن، واستغلاله لصالحها[٤٣].

ومن هنا يمكن النظر إلى سياسات الصين الإقليمية على أنها إما سياسات لتحقيق التوازن بين القوى المختلفة، أو سياسات لتحقيق الهيمنة، حسب زاوية النظر وموقع الناظر. فانخراطها مع القوى المتنوعة في آسيا "اقتصاديًا" رغم الخلافات (النزاعات الحدودية) بينها وبينهم، وبين هؤلاء الشركاء أنفسهم (كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية نموذجًا)، وكذا دخولها شريك أساسي في ميانمار ورغبتها في الوصول إلى المحيط الهندي، هو منافسة لمناطق النفوذ التقليدي الهندي، أو موازنة القوة الهندية التقليدية في المنطقة، ومحاولة لتقليل نفوذ القوى المتحالفة مع الولايات المتحدة في آسيا. وبالمثل مهادنتها للنظام الجديد في أفغانستان، وسعيها للحوار مع طالبان، رغم ما بينهم من خلافات سياسية[٤٤]. ومن ناحية أخرى، يمكن تأويل سلوكها على أنه سعي للهيمنة على إقليمها، للتحول من مكانة المُهيمن الكامن إلى المُهيمن الفعلي بلغة الواقعية الهجومية، أي أنها تسعى لأن تضع مبدأ "منرو الآسيوي"؛ وإجمالًا يمكن النظر إلى ذلك على أنه تقليص للنفوذ الأمريكي في المنطقة والعالم، سعيًا لبناء عالم التعددية القطبية الذي تطمح إليه الصين.

ثالثًا: بناء المؤسسات البديلة والانخراط في المؤسسات العالمية:

تربط الصين بين رغبتها في تغيير العالم أو التحول لعالم التعددية القطبية، بسعيها لتعزيز فاعليتها في المؤسسات الدولية المختلفة: البنك الدولي، مجلس الأمن، صندوق النقد الدولي، وغيرها. كما تسعى لعقد شراكات مع الدول المختلفة في العالم النامي لتقوية موقفها في هذه المؤسسات، ومنع استخدام القوى الكبرى كالولايات المتحدة هذه المؤسسات ضدها. فضلًا عن أن انخراط الصين في هذه المؤسسات يهدف من جانب آخر إلى منع تمثيل تايوان فيها، وليس رفضها لعضوية تايوان في منظمة الصحة العالمية إلا مثال واحد على ذلك.

(40) China and Republic of Korea, Minstery of Foreign Affairs of People's Republic of China, Accessed: 24 May 2022, 3:30, available at: https://cutt.ly/yHXvqjG

(41) Scott Snyder, China-South Korea Relations under South Korea's New Yoon Administration: The Challenge of Defining 'Mutual Respect', Forbes, 11 May 2022, Accessed: 23 May 2022, 3:45, available at: https://cutt.ly/tHXnJri

(٤٢) ناصر التميمي، صعود الصين: المصالح الجوهرية لبكين والتداعيات المحتملة عربيًا، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، المجلد ٤٠، العدد ٤٦١، يوليو ٢٠١٧، ص ص ٧٢-٧٤.

(43) Andrew J Nathan, China's Challenge, Journal of Democracy, Vol. 26, No. 1, 2015, p 156.

(٤٤) للمزيد بشأن موقف الصين من الانسحاب الأمريكي من أفغانستان راجع:

- أحمد عبد الرحمن خليفة، أفغانستان بين باكستان وإيران: المواقف والتداعيات بعد الانسحاب الأمريكي، فصلية قضايا ونظرت، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، العدد ٢٤، يناير ٢٠٢٢، ص ١١٢.
- أحمد عبد الحافظ فواز، مواقف قوى شرقية كبرى من الانسحاب الأمريكي من أفغانستان، فصلية قضايا ونظرات، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، العدد ٢٤، يناير ٢٠٢٢، ص ٩٦-١٠٠.

كما تسعى هي الأخرى إلى بناء المؤسسات البديلة، ومنها البريكس، والبنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية، الذي يضم معظم دول الإقليم ومنهم: كوريا الجنوبية، وميانمار، وأفغانستان، وباكستان. وهذه المؤسسات هدفها تعزيز اتجاه بديل للعولمة، والتأسيس لنماذج جديدة في ممارسة الحوكمة العالمية. وعلى هذا قدمت الصين نماذجًا جديدة تتمحور حول إجماع بكين Beijing Consensus، الذي يؤمن بدور أكبر للدولة والحكومة في رسم وتنفيذ السياسات العامة، وتوجيه عملية التنمية داخلها، بما يضمن الحد من تأثير تطبيق الرأسمالية الشاملة، وبرامج الإصلاح الاقتصادي.

بالإضافة إلى ذلك، أقامت بكين عددًا من الآليات الدبلوماسية الجديدة، التي هدفها تعزيز التبادل الدبلوماسي، وتوسيع التشاور في المجالات المختلفة: الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والأمنية. ومنها منتدى التعاون الصيني الأفريقي FOCAC، والعربي الصيني، وآلية الصين ودول وسط وشرق أوروبا CEES +1. ويُعد منتدى BOAO Forum for Asia أحد هذه الآليات الدبلوماسية الإقليمية التي تجمع الصين مع ٢٩ دولة من محيط آسيا. ويقع مقرها الرئيس في مدينة بواو بمقاطعة هاينان الصينية. وقد تمت الدعوة لها في عهد هو جينتاو عام ١٩٩٩، وكان أول اجتماع لها في فبراير عام ٢٠٠١، ومن وقتها وهي تعُقد سنويًا بانتظام.[٤٥] وتسعى من خلال هذه الآليات إلى تأكيد مبادئها الأساسية وعلى رأسها مبدأ صين واحدة.

وهكذا نرى أن الاستراتيجية الصينية لتحقيق أهدافها الإقليمية الأساسية تجمع بين كافة أدوات السياسة الخارجية المتاحة لها، وذلك بدءً من استعمال الأدوات الخطابية للتأكيد عليها، مرورًا باللقاءات الدبلوماسية الثنائية، والآليات الجماعية، والمبادرات الاقتصادية، والمؤسسات البديلة، وليس انتهاءً بالأدوات العسكرية بما تتضمنه من تحديث للجيش، وتعزيز تواجده في آسيا. إذ لم تتوقف الصين على ذلك بل حاولت تقديم مفاهيم جديدة، تدعّم موقع بكين في منظومة الأفكار العالمية.

خاتمة- المسلمون في السياسة الإقليمية الصينية:

طوعًا أو كرهًا وجد المسلمون أنفسهم جزءً من السياسة الإقليمية للصين، فكان قدر مسلمي الإيجور أنهم ضمن الأقليات العرقية داخلها، التي تقف لها الصين بالمرصاد، وتستدعي ضدها أشد الأدوات قسوة لصهر هذه الاختلافات في النسيج القومي الصيني. وكذلك كان قدر مسلمي الروهينجا أنهم لا يواجهون فقط النظام العسكري في بلدهم، ولكنهم يواجهونه ومعه الدعم العسكري والاقتصادي الصيني، الذي عينه على أقليات شنجيانج والتبت داخله، ما لا يجعله يدعو إلى معاملتهم بغير ما يعامل به هذه الأقليات.

ولكون الصين واحدة من أهم الدول الصاعدة في آسيا (إن لم تكن أهمها) فإن تغيير وضع المسلمين في القارة بكاملها يرتبط بسياسات الصين الإقليمية. فمع تشعب التواجد الصيني في آسيا، وتنوع أدوات سياستها الإقليمية، أضحت الصين جزءً من معادلات القوة داخل الدول القريبة منها، بل مرجحًا لقوة جماعات في مقابل أخرى، ومنها ميانمار على سبيل المثال، إذ رأينا كيف أن مشروعات الصين في إقليم راخين (أراكان) أثرت في موقف النظام منهم، وجعلت ميزان القوى يميل بصورة مطلقة لنظام ميانمار، فضلا عن إفقادهم لظهير دولي حقيقي رغم عنف تعامل النظام البين معهم.

ومن ثمّ، فالتركيز في الحوار السياسي والحقوقي مع الصين على هذا الملف يُعد مهمة كافة الدول الإسلامية عند التعامل مع الصين. ولكن صعود الصين الشامل، وتغلغلها الاقتصادي في كافة الدول الإسلامية، وتفضيل كثير منها لها كشريك اقتصادي، يصعّب من اللجوء إلى ورقة الديمقراطية وحقوق الإنسان (أو مناقشتها مع الصين)، إذ يبادلونها المعاملة بالمثل. وعليه، وبكلمات مختصرة: **لن تتغير سياسات الصين تجاه المسلمين، ما لم تتغير سياسات الدول الإسلامية تجاه**

(٤٥) للمزيد بشأن هذا المنتدى، انظر: https://cutt.ly/rH8Ewin

المسلمين داخلها (شعوبها) أولًا! ولن يتغير الداخل الإسلامي إلا ببناء المشروع الوطني المستقل، والتخلي عن عقلية الصفقة، وإزاحة الاستبداد منه، وتفعيل أدوار دول أركان الأمة، خاصةً الآسيوية منها: ماليزيا، وإندونيسيا، وباكستان، وإيران، وتركيا.

*****

قوى الشرق والعرب: كيف يزداد نفوذ الصين وروسيا في المنطقة

محمد علي إسماعيل(*)

مقدمة:

وقف الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب أمام الكونجرس، في عام ١٩٩٠، معلنًا بدء النظام العالمي الجديد. في العام التالي، سقط الاتحاد السوفيتي، وانفردت الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم فارضةً تصوراتها وإرادتها على القرار الدولي خاصةً في منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي عبر عدد من التدخلات العسكرية بدءًا بحرب تحرير الكويت ومرورًا بغزو أفغانستان واحتلال العراق وحصار ليبيا بعد واقعة لوكيربي وليس انتهاءً بتشكيل وقيادة التحالف الدولي لقتال داعش في ٢٠١٤. لم تمر على الهيمنة الأمريكية تلك سوى عقدين ونصف من الزمان حتى أصبح الصعود الروسي – الصيني يهدد ريادة الولايات المتحدة التي سعت إلى تحجيم دور موسكو – بيجين باستراتيجيات مختلفة.

تزايد الحضور الروسي – الصيني في المنطقة العربية نتيجة عدد من العوامل، من بينها: **أولا، تراجع أهمية المنطقة في الاستراتيجية الأمريكية**، ففي إحْدى وثائق الأمن القومي الصادرة في ١٠ يونيو ٢٠٢٠، عن ١٣ نائبًا جمهوريًا من أعضاء لجنة الأمن القومي والشؤون الخارجية بالكونجرس، نجد أن مُحدّد علاقة الولايات المتحدة بالمنطقة أضحى بما تمثله من تهديدات للأمن القومي الأمريكي وليس لأهميتها الاستراتيجية للمصالح الأمريكية والتي كانت تتمثل في أمن الطاقة وتأمين الممرات المائية وأمن إسرائيل[١]. **ثانيًا**، على الصعيد الإقليمي، فإن **التوترات بين عددٍ من الدول العربية وبعض الإدارات الأمريكية** خاصةً الديمقراطية عقب أحداث الربيع العربي، قد كشفت عن نقاط تقارب بين بعض الدول العربية وكل من روسيا والصين؛ الأمر الذي يفسر اتجاه الدول العربية للانفتاح على علاقات اقتصادية وسياسية وعسكرية أكبر، بعيدًا عن الشركاء الغربيين التقليديين الذين يولون قدرًا من الأهمية لمسائل الإصلاح الديمقراطي وحقوق الإنسان، والتي وإن كانت شكلية في بعض الأحيان فإنها تؤرق صناع القرار في العالم العربي. وهو ما دأب المحللون على تسميته التحول شرقًا نحو شراكة أكبر مع الصين وروسيا أو تنويع العلاقات مع القوى العالمية الصاعدة.

عقب أحداث الربيع العربي انتهجت بعض الأنظمة العربية سياسات خارجية أكثر عدوانية خوفًا على عروشها من السقوط، وسعت إلى تنويع تحالفاتها الاستراتيجية للخروج من أسر مطالب الإصلاحات الديمقراطية ومراعاة حقوق الإنسان حسب الأجندة الأمريكية والغربية. ومع ذلك، وبهدف مواجهة النفوذ الصيني والروسي في المنطقة، تقوم الولايات المتحدة بإعادة تكييف استراتيجياتها للأمن القومي سواء في عهد ترامب أو بايدن حتى لا تترك المنطقة بشكل شبه كامل لمنافسيها[٢]. ومن جانب آخر، يتجه هذا الصعود الآسيوي نحو المنطقة العربية والعالم الإسلامي بقوة لإقامة **تحالفات واستعادة مناطق نفوذ وبسط سيطرة**، فالدور الروسي في سورية وليبيا يعد من أهم

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) وثيقة "تقوية أمريكا ومواجهة التحديات العالمية"، د.ت، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/hIjYn

(٢) طرح بعض النواب الجمهوريين في عهد ترامب وثيقة "تقوية أمريكا ومواجهة التحديات العالمية"، بهدف تجاوز المأزق الذي وقعت فيه استراتيجية ترامب للأمن القومي "أمريكا أولا" الصادرة عام ٢٠١٧، وذلك بإعادة تفسير هذه الاستراتيجية "أمريكا أولا" بأنها لا تعني وفق التفسير الجديد الانعزال أو الانسحاب من المسرح الدولي، بل تعني تقوية أمريكا حتى تتمكن من قيادة النظام الدولي. أما في عهد بايدن فقد طرح "معهد بروكينغز" (Brookings Institution) كتاب "إعادة الانخراط في الشرق الأوسط: رؤية جديدة لسياسة الولايات المتحدة"، لمناقشة حجج أطروحتي "الانسحاب والهيمنة" تمهيدًا لتقديم طرح يتجاوز تلك الثنائية المتعارضة.

أبعاد صراعها مع الانفراد الغربي بالعالم العربي، وبتدخلها ذلك أطالت روسيا أمد الأزمتين السورية والليبية وفاقمت من آثارهما على المنطقة برمتها، في الوقت الذي تواصل الصين فيه توغلها الاقتصادي وشراكاتها الأمنية مع دول الشمال الأفريقي والخليج العربي.

نسعى في هذه الورقة للإجابة عن عدد من الأسئلة مثل: لماذا تتجه كل من الصين وروسيا إلى المنطقة العربية؟ وما هي أهم الدول ذات الاهتمام؟ وما هي أهم الأدوات الصينية والروسية في المنطقة العربية؟ وما هي حركة تحالفات كل من روسيا والصين في المنطقة العربية؟ أو كيف تتحرك وتتحالف كل من الصين وروسيا في المنطقة؟ وما هو أثر البعد الثقافي (القنوات الإخبارية، الدراما والأفلام، الترجمات...) في السياسات الصينية والروسية على المنطقة العربية؟

أولًا – النفوذ الروسي في المنطقة العربية: حدود الدور

على عكس التعاون الذي أبداه فلاديمير بوتين مع الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عقب هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١[٣]، فإنه ومنذ فترته الرئاسية الثالثة بدايةً من عام ٢٠١٢، قد تبنى سياسات صدامية مع الغرب والولايات المتحدة الأمريكية بدأت بضم موسكو لشبة جزيرة القرم من أوكرانيا نهاية فبراير ٢٠١٤[٤]. ترافقت هذه السياسة التوسعية الجديدة لبوتين مع الموجة الأولى للربيع العربي، والتي مثلت تهديدًا مباشرًا للنفوذ الروسي خاصةً في كل من ليبيا وسورية، الدولتين الأقرب لموسكو في العالم العربي واللتين شهدتا حربًا أهلية وتدخلات إقليمية ودولية عقب الاستخدام الوحشي للقوة ضد الشعبين الليبي والسوري والمعارضين لنظامي القذافي والأسد.

ظهرت الخلافات الروسية – الصينية مع الغرب والولايات المتحدة حول المنطقة العربية منذ إصدار مجلس الأمن الدولي قراره حول الوضع في ليبيا في ١٧ مارس ٢٠١١[٥]، وهو القرار الذي تضمن إغلاق المجال الجوي الليبي وقصف مواقع الجيش الحكومي لحماية السكان المدنيين. لقد لاقى هذا القرار امتناع كل من موسكو وبيجين عن التصويت عليه حيث رفضت الدولتان التدخل العسكري في ليبيا بدون تنسيق، مثّل هذا القرار تحولا في سياسة الدولتين الخارجية ولو أنه لم يكن بحدة المواقف التي أعقبته من كلتا الدولتين إلا أنه كان مؤشرًا على تحول في السياسة الخارجية وصياغة جديدة لمفاهيم الأمن القومي[٦].

استمرت موسكو في عرقلة المحاولات الغربية لفرض عقوبات على سورية، وواصلت تقديم الدعم لقوات الأسد بالأسلحة والمعدات والمعلومات الاستخبارية والمستشارين العسكريين حتى عام ٢٠١٥[٧]، وفي سبتمبر من نفس العام بدأت روسيا تدخلها المباشر بنشر قوات عسكرية في قاعدة حميميم العسكرية بهدف مُعلن هو القتال ضد المجموعات الإرهابية؛ حيث شنت موسكو ضربات جوية على آلاف الأهداف المدنية والعسكرية، ونشرت قوات خاصة ومستشارين عسكريين في سورية؛ أدى هذا التدخل العنيف لصالح الأسد إضافة إلى التناحر بين الجماعات المسلحة المعارِضة للأسد إلى تغيير الوضع العسكري لصالح الأسد وقواته وهزيمة كافة خصومه، والأهم أن موسكو بعثت رسالة قوية إلى دول المنطقة بأنها لا

(٣) توفيق المديني، التوليتارية الليبرالية الجديدة والحرب على الإرهاب، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٣)، ص ٢٠٧ وما بعدها.

(4) John Simpson, Russia's Crimea plan detailed, secret and successful, BBC News, 19 March 2014, Accessed at: 13 May 2022, 03:00, available at: https://cutt.us/0zGAh

(٥) نص القرار مجلس الأمن الدولي حول الوضع في ليبيا في ١٧ مارس ٢٠١١، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/R8pU0

(٦) مجلس الأمن يتبنى قرارا بفرض حظر جوي فوق ليبيا، بي بي سي عربي، ١٧ مارس ٢٠١١، تاريخ الاطلاع: ١٥ مايو ٢٠٢٢، الساعة ٠٥:١٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/RsMBV

(7) Jonathan Saul, Exclusive: Russia steps up military lifeline to Syria's Assad – sources, Reuters, 17 January 2014, Accessed at: 13 May 2022, 04:00, available at: https://cutt.us/nJMDe

تترك أصدقاءها من الحكام الذين لا يحظون بشرعية في بلدانهم[٨].

سمح هذا التدخل لروسيا بالظهور كلاعب رئيسي في العالم العربي، ويرجع الفضل في ذلك إلى الاستخدام الصارم للقوة الذي أبدته موسكو في دعم حلفائها عسكريًا ودبلوماسيًا. لقد تشكل النهج الجديد لسياسة روسيا الخارجية عبر عدد من وثائق السياسة الخارجية، التي أخذت في حسبانها الثورات العربية في عام ٢٠١١ وما نتج عنها من عدم استقرار إقليمي ومن خطورة على عروش حلفاء موسكو في المنطقة، الأمر الذي يزعزع مصالح موسكو في المنطقة. فبدءًا بالوثيقة المتعلقة بـ"**مفهوم السياسة الخارجية للاتحاد الروسي**" التي صدرت في ١٢ فبراير ٢٠١٣[٩]، ومرورًا بوثيقة "**العقيدة العسكرية للاتحاد الروسي**" الصادرة في ٢٥ ديسمبر ٢٠١٤[١٠]؛ عملت الوثيقتان على صياغة سياسة خارجية جديدة تستند إلى حماية المصالح الوطنية الروسية في الخارج، بما في ذلك عسكريًا إذا لزم الأمر، وزيادة دور موسكو في الحفاظ على الأمن العالمي.

واصلت موسكو تحديث استراتيجيتها للتكيف مع المتغيرات الدولية والإقليمية بما يسمح لها من تعظيم مكاسبها وحماية أمنها القومي، وفي الحادي والثلاثين من ديسمبر ٢٠١٥ وقَّع الرئيس بوتين "**وثيقة استراتيجية الأمن القومي الروسية ٢٠١٥**"[١١]، تلك الوثيقة توضح مُحدِّد التعاطي الروسي مع بلدان الربيع العربي، حيث تشير إلى مخاوف القادة الروس من تشابه تلك الثورات مع "**الثورات الملونة**" في الدول السوفيتية السابقة، وهو ما يجعلها ترفض هذا التغيير وتدعم هياكل الدولة القديمة والحكومات العربية الاستبدادية ضد ما تعتبره تدخلا خارجيًا وتمردًا داخليًا، وذلك من منطلق أن التغيير يجب أن يحدث فقط من خلال الوسائل الدستورية وأجهزة الدولة، وليس من خلال انتفاضات شعبية، يرجع ذلك إلى أن روسيا تُحمِّل الغرب المسؤولية عن الوضع الحالي واصفة التدخلات الغربية في العراق وليبيا وسورية بالكارثية[١٢]. في المقابل، تؤكد روسيا أنها تدعم مبدأ سيادة الدولة وفقا للقانون الدولي وتعارض التدخل الخارجي.

أعقب ذلك قيام موسكو، في نوفمبر ٢٠١٦، بتحديث وثيقة "**مفهوم السياسة الخارجية للاتحاد الروسي**" التي كانت أصدرتها في ٢٠١٣، ويركز ذلك التحديث بشكل خاص على الشرق الأوسط، واصفًا التدخل الأجنبي فيها باعتباره أحد أسباب عدم الاستقرار والتطرف في المنطقة التي تؤثر بشكل مباشر على روسيا[١٣]. يُعتبر ذلك التحديث بمثابة أول وثيقة رسمية توضح طموح موسكو للعب دور أكبر في منطقة الشرق

(8) Russia joins war in Syria: Five key points, BBC News, 1 October 2015, , Accessed at: 13 May 2022, 05:00, available at: https://cutt.us/1eZ1r.

(9) The Foreign Policy Concept of the Russian Federation, The Embassy of The Russian federation to The united kingdom of great Britain and North Ireland, 12 February 2013, Accessed at: 16 May 2022, 9:00, available at: https://cutt.us/sLXIz

(10) Military Doctrine of the Russian Federation, The Embassy of The Russian federation to The united kingdom of great Britain and North Ireland, 29 June 2015, Accessed at: 16 May 2022, 9:30, available at: https://cutt.us/kx2Cf

(١١) تعتبر بمثابة وثيقة التخطيط الاستراتيجي الأساسية التي تحدد المصالح الوطنية لروسيا الاتحادية والأولويات الوطنية الاستراتيجية والأهداف والمهام والتدابير في مجال السياسة الداخلية والخارجية التي تهدف إلى تعزيز الأمن القومي لروسيا الاتحادية وضمان التنمية المستدامة للبلاد على المدى الطويل. راجع: سيد غنيم، الأصابع على الزناد، استراتيجيات الأمن القومي للدول الكبرى وتأثيراتها على الشرق الأوسط، (الجيزة: دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠٢١)، ص ٦٠.

(12) Vladimir Putin, speech delivered to the 70th session of the united nations, Official Internet Resources of the President of Russia, 28 September 2015, Accessed at: 16 May 2022, 07:30, available at: https://cutt.us/2ltOT

(13) Foreign Policy Concept of the Russian Federation, Approved by the President of the Russian Federation Vladimir Putin, The Ministry of Foreign Affairs of the Russian Federation, 1 December 2016, Accessed at: 16 May 2022, 09:30, available at: https://cutt.us/RVWaA

الأوسط وشمال إفريقيا؛ حيث أظهرت السنوات الثلاث التي تفصل بين المفهومين نهج فلاديمير بوتين في السياسة الخارجية الآخذ نحو مزيد من الأمننة[١٤]، كما يوضح مفهوم السياسة الخارجية أيضًا الطموح المتزايد للرئيس الروسي للتعامل مع عدم الاستقرار من حيث نشأ قبل أن يصل إلى الحدود الروسية.

في مقالة ثاقبة، ولكنها تجريدية نوعا ما، يذهب الباحث **هشام جعفر** إلى "**إن انخراط موسكو في المنطقة العربية تحركه أهداف جيو-استراتيجية و اقتصادية وسياسية عالمية وحتى دينية**"، مُرجِعًا ذلك إلى الجغرافيا الروسية، التي تدفع قادة الكرملين إلى النظر دائمًا إلى البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي على أنهما مهمان لمصالح روسيا الأمنية، كذلك إلى الأرثوذكسية الروسية التي كان لديها تطلع دائم للمنطقة باعتبارها مسقط المسيح. مضيفًا أن "**المنطقة مهمة لصناعات النفط والغاز الروسية ومبيعات الأسلحة، وحققت روسيا نجاحات اقتصادية أخرى في المنطقة حيث أوجدت لها منافذ أخرى للتحايل على العقوبات الغربية عليها**"[١٥].

ثانيًا- حركة التحالفات الروسية في المنطقة العربية

كانت موسكو ولا تزال تنظر إلى الشرق الأوسط على العموم والعالم العربي على وجه الخصوص على أنه جار جنوبي مهم، يؤثر استقراره على استقرار روسيا، وتنعكس الاضطرابات والحروب فيه عليها حتمًا. وقد طبعت أهمية الشرق الأوسط تلك لدى صانعي القرار الروسي معظم اتفاقياتهم مع دول المنطقة، التجارية منها والعسكرية، أو تلك التي تحمل عنوان الصداقة أو تؤسس لأحلاف ثابتة لاحقًا.

لذا تعاطت موسكو في المنطقة مع ثلاث دوائر عربية (المشرق العربي، والخليج وشمال أفريقيا) عبر نهج مختلف يتوافق والمصالح والأدوات الروسية، الأمر الذي يجعلنا بحاجه إلى إبراز نهج موسكو في التعاطي مع الدوائر الثلاث السابقة، مع إبراز العلاقات مع أكثر من فاعل في أي من الدوائر الثلاث.

١) الدائرة الأولى (المشرق العربي)

سبق أن ذكرنا النهج الروسي في التعاطي مع سورية خاصةً عقب التدخل الغربي فيها أعقاب ثورات الربيع العربي وانتهاج نظام الأسد لسياسات وحشية لقمع التظاهرات السلمية، والتي حولتها إلى حرب أهلية دامية. إلا أن هذا النهج الروسي لابد من توسعته ورؤية مثال آخر قريب منه في الشبه، من حيث التحديات وبيئة النظام السياسي، وأقرب حالة في المشرق العربي قريبة الشبة بالحالة السورية هي الحالة العراقية عقب اجتياح تنظيم "داعش" في ٢٠١٤.

في مواجهة هذا التهديد الوجودي من داعش، وبعد أن لم يستطع الحصول على مقاتلات F-16 من الولايات المتحدة الأمريكية التي طلبها في سبتمبر ٢٠١١، اتصل رئيس الوزراء العراقي حينها "**نوري المالكي**" بروسيا للحصول على إمداد سريع بالمقاتلات النفاثة[١٦]. سارعت موسكو إلى تقديم الدعم بالعتاد العسكري إلى العراق لمحاربة تنظيم داعش، مستغلةً إبطاء واشنطن في توريد صفقات الأسلحة، وبلغت قيمة الواردات العسكرية الروسية إلى العراق حوالي ٧,١ مليار دولار، شملت طائرات ومنظومات قاذفة ومروحيات عسكرية متنوعة، إضافة إلى منظومات دفاع جوي أرض–جو[١٧].

---

(١٤) كلمة "الإرهاب" تظهر ١٦ مرة في مفهوم ٢٠١٣ مقابل ٣٦ مرة في تحديث ٢٠١٦.

(١٥) هشام جعفر، سردية الربيع العربي ورهانات الواقع، (القاهرة: دار المرايا للإنتاج الثقافي، الطبعة الأولى، ٢٠٢١)، ص ١١٥.

(16) Chris Pocock, Frustrated Iraqi PM Buys Russian Fighters, AINOnline, 27 June 2014, Accessed at: 16 May 2022, 09:30, available at: https://cutt.us/gaqnQ

(١٧) معمر فيصل خولي، العراق في الاستراتيجية الروسية: تحديات تواجه استعادة النفوذ، مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية، ٢٣ مارس ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ١٨ مايو ٢٠٢٢، الساعة ٠٣:٣٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/2tBX5

تجسد التعاون العراقي – الروسي في مجال مكافحة الإرهاب وعناصر تنظيم (داعش) بتشكيل التحالف الرباعي الذي ضم كلا من: العراق وروسيا الاتحادية وسورية وإيران، إذ كان المقر الرئيس لهذا التحالف في بغداد وله مكاتب أخرى في دول التحالف المذكورة، وكان هذا التحالف يهدف إلى تبادل المعلومات الاستخباراتية بين وزارات الدفاع والأجهزة الأمنية لهذه الدول. علمًا بأن هذا التحالف الرباعي كان قد تشكَّل عقب الإعلان الصادر من قيادة العمليات المُشتركة في العراق والتي أفصحت عن وجود تعاون أمني واستخباراتي مفيد قائم بين العراق وروسيا الاتحادية وسوريا وإيران في بغداد للقضاء على تنظيم داعش الإرهابي ولكنه لم يصل إلى حد التعاون العسكري؛ فضلا عن أن معالم التعاون الثنائي بين العراق وروسيا الاتحادية قد ظهرت من خلال مساعي رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي للاستعانة بالطيران الروسي لتوجيه ضربات مباشرة ضد مقرات وعناصر التنظيم المتواجدين على الأراضي العراقية[١٨].

ولم يقتصر الطموح الروسي في بناء العلاقات الثنائية مع العراق على التفكير بالمكاسب السياسية والأمنية والعسكرية فحسب، بل يتعدى ذلك إلى السعي من أجل خلق شراكة استراتيجية اقتصادية وتقنية تجلب عائدًا اقتصاديا مباشرًا لموسكو، حيث يوجد ما يقارب ٣٠٠ شركة روسية عاملة في العراق ولها اتفاقيات ضخمة مع العراق في مختلف المجالات خاصة في مجال النفط والغاز، ويبلغ حجم التبادل التجاري بين البلدين عام ٢٠١٥، نحو ٢ مليار دولار، فيما سجل في عام ٢٠١٦ (٧٦٥) مليون دولار[١٩]. هذا التراجع يرجع إلى المعوقات والعراقيل الأمريكية التي تضعها أمام أي تحركات اقتصادية روسية في العراق سواء عن طريق العقوبات أو الضغط على الحكومة العراقية لكي تخفض من شراكتها الاقتصادية مع الحكومة الروسية.

خلاصة الأمر أن علاقات العراق التقليدية مع روسيا ستستمر في الازدهار ليس فقط في قطاع الطاقة، ولكن في العديد من القطاعات الاقتصادية والبنية التحتية الأخرى أيضًا؛ حيث إن موسكو تدرك جيدًا بأن التحرك صوب العراق سيحقق أهدافًا مرحلية ومستقبلية في عموم المنطقة، إذ أن تقاربًا مع العراق سيمكنها من الترابط مع المنطقة الممتدة من آسيا الوسطى إلى الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. وفي المُقابل يسعى العراق إلى الاستفادة من العودة الروسية القوية للساحة الدولية لتوسيع مساحة التحرك الخارجي بما قد يسهم في تغيير مسار الأزمات الداخلية الأمنية والاقتصادية[٢٠].

٢) الدائرة الثانية (الخليج العربي)

أدت نهاية الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي إلى تقليص أهمية منطقة الخليج بشكل كبير بالنسبة للمصالح الروسية، الأمر الذي أدى بدوره إلى تقليص علاقة روسيا بدول مجلس التعاون الخليجي لعدة سنوات، حيث كانت موسكو تشتبه في قيام دول الخليج بتقديم الدعم المالي والأسلحة للشيشان، الأمر الذي أدى إلى تخفيض العلاقات الدبلوماسية الروسية في المنطقة إلى الحد الأدنى[٢١]. تغيرت تلك العلاقات عقب مجيء فلاديمير بوتين رئيسًا، والذي قام بتحويل مسار السياسة الخارجية للاتحاد الروسي ببدء اتصالات مكثفة مع كل من دول مجلس التعاون الخليجي. عادت روسيا، وفق منظور بوتين لـ **"مفهوم السياسة الخارجية للاتحاد الروسي"** الصادر

(١٨) حسام محمد خضير، العلاقات العراقية – الروسية (٢٠١٤ – ٢٠١٨)، مجلة مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية – جامعة بغداد، العدد ٨٢، ٢٠٢٠، ص ٥٢١.

(١٩) فاطمة حسين فاضل المفرجي، تطور العلاقات الروسية – العراقية للمدة (٢٠١١ – ٢٠١٩)، مجلة العلوم السياسية، العدد ٦٢، ديسمبر ٢٠٢١، ص ٣٣٨–٣٣٩.

(20) Abbas Kadhim, Iraqi-Russian Relations amidst US Security-Focused Engagement, (in): Karim Mezran and Arturo Varvelli (eds.), The MENA region: A great power competition, (Milan: ISPI and The Atlantic Council, First edition, October 2019), P. 91.

(21) Nicola Pedde, Russia's Strategy Toward Iran and the Gulf, (in): Karim Mezran and Arturo Varvelli (eds.), The MENA region: A great power competition, op. cit., P. 136.

في يونيو عام ٢٠٠٠، لتلعب دورًا نشطًا في جميع أنحاء الشرق الأوسط من خلال اتباع سياسة استقرار على عكس سياسة الولايات المتحدة وأوروبا. ومن ثم، فقد حددت موسكو أولوياتها ومشاريعها السياسية، وكانت تهدف إلى استعادة دورها في المنطقة وتعزيز مواقفها، وخاصة الاقتصادية[٢٢].

على هذا النحو قامت موسكو بتكثيف علاقاتها مع دول مجلس التعاون الخليجي، من خلال تعزيز الشراكات في قطاع الطاقة وتعزيز الصناعة الدفاعية، وشهد العقد الأول من القرن الحادي والعشرين زيادة مطردة في كثافة واتساع العلاقات بين روسيا ودول الخليج، التي وقعت معها موسكو العديد من اتفاقيات التعاون لبدء سلسلة مربحة من الإجراءات التجارية الثنائية ومتعددة الأطراف من خلال دول مجلس التعاون الخليجي[٢٣].

شكلت الأزمة السورية منعطفًا جديدًا في علاقات موسكو بدول الخليج العربي؛ حيث بدأت موسكو في إلقاء اللوم على كل من المملكة العربية السعودية وقطر لدعم الميليشيات الجهادية داخل المعارضة السورية المسلحة، وعقب التدخل العسكري الروسي في سبتمبر ٢٠١٥ لدعم نظام الأسد. أدت مشاركة موسكو في الحرب الأهلية السورية إلى فتور علاقات روسيا مع قطر بشكل كبير، في حين احتفظت العلاقات مع المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة بمسار طبيعي.

شهد العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، تغييرًا جديدًا في قدرة روسيا على إدارة علاقاتها مع منطقة الخليج، بالانتقال من مرحلة العلاقات التعاونية والإيجابية في العقد الماضي إلى حالة من الجمود الخطير القائم حول دعم بشار الأسد والتحالف مع إيران. إلا أن العلاقات الروسية الخليجية شهدت تطورًا جديدًا في عام ٢٠١٩، بالتوقيع على ميثاق التعاون داخل (**أوبك بلس**)، الذي نص على إطلاق شراكة نفطية واسعة النطاق بهدف ربط استراتيجيات الإنتاج بتحقيق أهداف مشتركة على رأسها الأهداف الاقتصادية. تم التوصل إلى هذا الاتفاق من خلال مفاوضات سياسية طويلة ومعقدة بدأتها الزيارة التاريخية للملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود إلى روسيا في سبتمبر ٢٠١٧[٢٤].

كما أن العلاقات الروسية الإماراتية تعتبر في أوج قوتها، حيث كُلِّل التواصل الدبلوماسي بين موسكو وأبو ظبي بمصادقة الجانبين في يونيو ٢٠١٨ على اتفاقية شراكة استراتيجية؛ حيث غالبًا ما توصف الإمارات بأنها الشريك الأمني للولايات المتحدة الأكثر ثقة في العالم العربي[٢٥]. تؤشر هذه الشراكة على التلاقي الفكري الذي يجمع بين قيادة البلدين، حيث تشترك قيادت البلدين في النفور من الثورات الشعبية والعداء تجاه الحركات الإسلامية الشعبية في بلدان الربيع العربي. الأمر الذي أدى إلى قيام الإمارات في ديسمبر ٢٠١٨، باستئناف العلاقات الدبلوماسية مع سورية والاعتراف بشرعية الأسد، كما تعاونت الدولتان في تقديم الدعم المالي والعسكري للهجوم الذي يشنه زعيم الجيش الوطني الليبي خليفة حفتر على طرابلس، كما

(22) The Foreign Policy Concept of the Russian Federation, Approved by the President of the Russian Federation Vladimir Putin, 28 June 2000, Accessed at: 19 May 2022, 02:30, available at: https://cutt.us/eHisX

(23) Nicola Pedde, Russia's Strategy Toward Iran and the Gulf, Op. cit., p. 136.

(24) Marc Bennetts, Saudi king to make historic visit to Russia, The National, 30 September 2017, Accessed at: 19 May 2022, 05:00, available at: https://cutt.us/fvh4X

(25) UAE, Russia forge strategic partnership, Gulf News, 1 June 2018, Accessed at: 20 May 2022, 02:00, available at: https://cutt.us/bpHyS

انخرطت روسيا دبلوماسيًا مع المجلس الانتقالي الجنوبي المتحالف مع الإمارات العربية المتحدة في اليمن[٢٦].

هذا التلاقي في الملفات الإقليمية مهَّد بدوره الأساس لزيارة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين إلى أبو ظبي في أكتوبر ٢٠١٩، وأسفرت رحلة بوتين عن عقد عدد من الصفقات التجارية الثنائية بقيمة ١,٣ مليار دولار، ودفعت المسؤولين الروس والإماراتيين إلى التفاؤل بشأن المسار المستقبلي للشراكة الاستراتيجية[٢٧].

٣) الدائرة الثالثة (الشمال الأفريقي)

في دراسة شديدة الأهمية بعنوان "**روسيا والولايات المتحدة في حالتي مصر وليبيا**" يعرض أندري **تشوبريجين** (Andrey Chuprygin) الخبير الروسي في مجلس الشؤون الدولية الروسي (RIAC)، للعلاقات بين موسكو والقاهرة في حقبتين، الأولى عقب الحرب الباردة وحتى ثورة ٢٥ يناير، والثانية بعد ثورة يناير ٢٠١١ حتى اعتلاء الرئيس السيسي سدة الحكم. يرى **تشوبريجين** أن العلاقات المصرية الروسية بعد الحرب الباردة وحتى سقوط مبارك اتسمت بعدم الثقة واستخدمتها القاهرة كورقة تفاوضية مع الغرب، أي أن موسكو زودت القاهرة بأداة "***للابتزاز السياسي***" في المحادثات مع نظرائها الغربيين، إضافة إلى عوائد السياحة والتي بدورها كانت توظفها القاهرة في شراء البضائع والسلع التي كانت تزودها بها الولايات المتحدة[٢٨].

أما عقب ثورة يناير، فيري **تشوبريجين** أن العلاقات المصرية الروسية تم تعزيزها نتيجة الأخطاء الأمريكية في التعاطي مع الاحتجاجات خلال هذه الفترة. والتي يراها **تشوبريجين** تتمثل في: **أولا**، سوء تفسير طبيعة الاحتجاجات والتي يرى أنها كانت اقتصادية بالأساس وليست منديةً بتغييرات ديمقراطية. **ثانيًا**، سوء فهم دور جماعة الإخوان المسلمين. **ثالثًا**، استهانة واشنطن بنفوذ الجيش. **رابعًا**، تخلي الولايات المتحدة المفاجئ عن مبارك[٢٩]. إلى جانب هذه الأخطاء بدأ النهج الروسي في التعاطي مع الربيع العربي بحسبانه مؤامرة غربية يؤتي ثماره خاصةً في ظل تطابق رواية النظام المصري مع النظام الروسي بخصوص أحداث المنطقة.

في سبتمبر ٢٠١٤، أبرمت مصر وروسيا صفقة بقيمة ٣,٥ مليار دولار لشراء طائرات مقاتلة ومروحيات وأنظمة مضادة للصواريخ الباليستية[٣٠]، وذلك في الوقت الذي قامت فيه إدارة أوباما بتجميد نقل بعض المعدات إلى القاهرة، وفرض الاتحاد الأوروبي حظرًا على تصدير الأسلحة إلى مصر. وكدليل على تعميق العلاقات بين مصر وروسيا، وقع السيسي وبوتين في أكتوبر ٢٠١٨ اتفاقية شراكة شاملة خلال زيارة إلى موسكو[٣١]، تغطي الاتفاقية الجوانب العسكرية والأمنية والتجارية والتعاون الاقتصادي.

وبدأت القاهرة، في ٢٠١٨، بشراء ٣١ طائرة مقاتلة من طراز Su-35 في صفقة قيمتها ٢ مليار دولار، وتشترك شركة روساتوم المملوكة للدولة الروسية في مشروع بناء أول محطة للطاقة النووية في مصر بالضبعة، وذلك بموجب عقد تم

(26) Samuel Ramani, Russia and the UAE: An Ideational Partnership, Middle East Policy, Vol. 27, NO. 1, Spring 2020, pp. 125–126.

(27) Russia's Putin signs deals worth $1.3bn during UAE visit, Al Jazeera English, 15 October 2019, Accessed at: 20 May 2022, 02:30, available at: https://cutt.us/aikGa

(28) Andrey Chuprygin, Russia and the United States in the Cases of Egypt and Libya, (in): Karim Mezran and Arturo Varvelli (eds.), The MENA region: A great power competition, op. cit., P. 99.

(28) Ibid., p. 100.

(29) Ibid., p. 100.

(30) Russia, Egypt seal preliminary arms deal worth $3.5 billion: agency, Reuters, 12 August 2014, Accessed at: 21 May 2022, 01:00, available at: https://cutt.us/w81ID

(31) VLADIMIR ISACHENKOV, Russian and Egyptian presidents sign partnership treaty, AP News, 17 October 2018, Accessed at: 21 May 2022, 12:00, available at: https://cutt.us/fR8BQ

توقيعه في ديسمبر ٢٠١٧[٣٢]. كما صادق البرلمان المصري، في ديسمبر ٢٠٢٠، على اتفاقية شاملة أخرى بين مصر وروسيا، وبموجب الاتفاقية، اتفقت الدولتان على تبادل الزيارات الدورية على مستوى الرئاسة ووزراء الخارجية والدفاع .كما تضمنت بنودًا حول مكافحة الإرهاب والتعاون في المجالات العسكرية والاقتصادية والتجارية والعلمية والتقنية والسياحة والشباب[٣٣]. وبلغ حجم التبادل التجاري بين القاهرة وموسكو ٦,٢ مليار دولار في عام ٢٠١٩، بما في ذلك ٥,٧ مليار دولار من الصادرات الروسية إلى مصر، مما يجعلها أكبر شريك تجاري لروسيا في الشرق الأوسط وأفريقيا، ويضع روسيا في المرتبة الثالثة كأهم شريك لمصر بعد الاتحاد الأوروبي والصين[٣٤].

أما سياسات موسكو في الجار الغربي لمصر، ليبيا، فجاءت متوافقةً مع السياسات الروسية في دعم الأنظمة الاستبدادية وهياكل النظم القديمة، لذا قامت بدعم اللواء المتقاعد خليفة حفتر في حملته العسكرية على طرابلس، وفي أواخر ٢٠١٩ وحتى أوائل ٢٠٢٠، تزعم الهجوم على طرابلس مرتزقة شركة "فاغنر" الروسية بقيادة رجل الأعمال التابع للكرملين يفغيني بريغوزين[٣٥]. إلا أنه ومنذ فشل هجوم حفتر على طرابلس، فإن موسكو نأت بنفسها عن حفتر، وأقبلت على التعامل مع حكومة الوحدة الوطنية الليبية والتي شُكلت كنتيجة للحوار الذي رعته الأمم المتحدة برئاسة عبد الحميد الدبيبة[٣٦].

خلاصة الأمر؛ عادت موسكو تدريجيًا للمنطقة العربية لتلعب دورًا مركزيًا في التعاون الإقليمي، منذ منتصف العقد الأول من الألفية الثانية، بعد توقف استمر لعقود طويلة. لقد عزز التدخل الروسي في سورية لدعم نظام الأسد منذ نهاية ٢٠١٥ وحتى الآن دورها كقوة فاعلة في المنطقة، وعملت موسكو منذ ذلك الوقت على توسيع وجودها السياسي والدبلوماسي بالإضافة إلى تأسيس وترسيخ علاقاتها مع كل تكتلات وأطراف القوة الرئيسية، بما فيها الأطراف الإقليمية المتصارعة، حيث أظهرت روسيا مرونة في التعامل مع صراعات القوى في المنطقة.

ثالثًا– الاستراتيجية الصينية في المنطقة العربية:

لا يعتبر العالم العربي ومنطقة الشرق الأوسط مجال التأثير الجيوسياسي الأساسي للصين، لكن على الرغم من ذلك فإن أهمية المنطقة لبيجين تأتي من كونها مورِّدا رئيسيا للطاقة وسوق كبير للمنتجات الصينية وللاستثمارات خاصةً في مجال البنية التحتية والموانئ والطرق التي تخدم مشروع الحزام والطريق، كذلك ظهرت بوادر لأهمية الجانب الأمني في تعاطي الصين داخل المنطقة تمثلت في التأثير على الحكومات العربية للتضييق على الأقلية الإيجورية. لقد توسع الحضور الصيني في العالم العربي بشكل كبير مع إعلان الرئيس الصيني **شي جين بينج**، في عام ٢٠١٣، عن **مبادرة الحزام والطريق** (BRI)، والتي تعد بمثابة حجر الزاوية في استراتيجية الصين الخارجية.

إن الاستراتيجية الصينية في العالم العربي على وجه الخصوص وفي الشرق الأوسط في العموم، ترتكز على التعاون الاقتصادي، فالرئيس الصيني يعتبر أن تعزيز النمو الاقتصادي هو أفضل نهج في التعامل مع المشاكل التي تُلمُ بالمنطقة، حيث

(32) Russia, Egypt sign deal to construct nuclear power plant, DW English, 11 December 2017, Accessed at: 21 May 2022, 01:30, available at: https://cutt.us/RjAJP

(33) Egypt's parliament ratifies deal on strategic cooperation with Russia, Russian News Agency, 16 December 2020, Accessed at: 21 May 2022, 01:00, available at: https://cutt.us/E2Drw

(٣٤) بالأرقام.. العلاقات التجارية والاقتصادية بين روسيا ومصر، روسيا اليوم أونلاين، ١١ يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢١ مايو ٢٠٢٢، الساعة ٠٣:٠٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/IE9X0

(35) Ilya Barabanov & Nader Ibrahim, Wagner: Scale of Russian mercenary mission in Libya exposed, BBC News, 11 August 2021, Accessed at: 21 May 2022, 04:00, available at: https://cutt.us/OOo0i

(٣٦) الحرب في ليبيا: انتخاب حكومة وحدة وطنية ليبية مؤقتة برئاسة عبد الحميد دبيبه، بي بي سي عربي، ٥ فبراير ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٢١ مايو ٢٠٢٢، الساعة ٠٥:٠٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/kZH91

"إن التنمية قضية الحياة وكرامة الشعوب، وهي سباق مع الزمان وصراع بين الأمل واليأس. وإن تحقيق كرامة الحياة للشباب من خلال تطويرهم وتنميتهم هو الطريق الوحيد لأن ينتصر الأمل على اليأس في عقولهم، وأن يستبعدوا طوعا عن أعمال العنف وموجات التطرف والإرهاب في سلوكهم"[٣٧].

لقد تشكل نهج السياسة الصينية تجاه الدول العربية عقب الاضطرابات التي أعقبت الربيع العربي عبر وثيقتين؛ **الأولى هي "الرؤية والتحرك للدفع بالتشارك في بناء الحزام الاقتصادي لطريق الحرير وطريق الحرير البحري للقرن الحادي والعشرين"** التي صدرت في عام ٢٠١٥[٣٨]، والثانية هي وثيقة **"سياسة الصين تجاه الدول العربية"** الصادرة عام ٢٠١٦[٣٩]، يركز إطار التعاون الذي تم تحديده في هاتين الوثيقتين على المجالات الاقتصادية بالدرجة الأولى كالطاقة والبنية التحتية والتجارة والاستثمار؛ حتى تبرهن بيجين على أن نهجها ليس استعمارًا ولا يصبو إلى الهيمنة على دول المنطقة فجعلت الوزن الأكبر في وثيقتها لمسألة التعاون الاقتصادي والتنمية في الشراكة الصينية مع دول العالم العربي.

تعتبر الوثيقة الأولى **"الرؤية والتحرك"** أن هناك خمس أولويات للتعاون بين الدول الواقعة في إطار مبادرة الحزام والطريق حتى تطور العلاقات فيما بينها، هي: **التنسيق السياسي، وتوصيل المرافق، والتجارة غير المعوقة، والتكامل المالي، والتبادل الثقافي**[٤٠]. إن غياب الحديث عن المجالات الأمنية والعسكرية في تلك الوثيقة يدعم الرواية الصينية القائلة بأن مبادرة الحزام والطريق هي مبادرة تتمحور حول التنمية وليست جزءًا من استراتيجية جيوسياسية. أما الوثيقة الثانية المتعلقة بـ **"سياسة الصين تجاه الدول العربية"** فحددت رؤية الصين للتعاون مع العالم العربي حيث ترغب الصين في تنسيق استراتيجيات التنمية مع الدول العربية، والاستفادة من مزايا وإمكانيات بعضها البعض، وتعزيز التعاون الدولي في مجال القدرة الإنتاجية وتعزيز التعاون، ومن الأمور المركزية في هذا الإطار معادلة التعاون "١ + ٢ + ٣"، المتمثلة في اعتماد مجال الطاقة محورًا رئيسيًا، ومجالَيْ البنية التحتية وتسهيل التجارة والاستثمار كجناحَين و٣ مجالات ذات تقنية متقدمة وحديثة تشمل الطاقة النووية والفضاء والأقمار الاصطناعية والطاقات الجديدة كنقاط اختراق في التعاون، وتعزيز التعاون في الطاقة الإنتاجية[٤١].

عززت الصين تواجدها في المنطقة العربية من خلال شبكة من **"الأطر الاقتصادية"** التي شملت شراكات استراتيجية مع بعض من دول المنطقة (**مصر، المملكة العربية السعودية، الإمارات العربية المتحدة، السودان، المغرب والجزائر**)، والمنتدى الاقتصادي والتجاري بين الصين والدول العربية (**CASET**)، الذي يعتبر ثمرة لمنتدى التعاون العربي الصيني الأساسي الذي أطلق عام ٢٠٠٤[٤٢]، ومن المرجح أن تزداد تلك الروابط الاقتصادية وتعزز من خلال اتفاقية التجارة الحرة مع دول مجلس التعاون الخليجي الذي تم إرجاؤها أكثر من مرة نظرًا لاختلاف وجهات النظر حول فرض الصين لتعريفات جمركية مرتفعة على واردات الخليج من النفط ومصادر توليد الطاقة وكذلك لاختلاف الجانبين حول الصراع في سورية[٤٣].

(٣٧) كلمة رئيس جمهورية الصين الشعبية شي جينبينغ في جامعة الدول العربية، سفارة جمهورية الصين الشعبية لدى جمهورية العراق، ٢٢ يناير ٢٠١٦، تاريخ الاطلاع: ١٠ يونيو ٢٠٢٢، الساعة ١٣:٠٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/1ZKWa

(٣٨) وثيقة الرؤية والتحرك للدفع بالتشارك في بناء الحزام الاقتصادي لطريق الحرير وطريق الحرير البحري للقرن الحادي والعشرين، صفحة سفارة جمهورية الصين الشعبية لدى جمهورية مصر العربية، ٢٨ مارس ٢٠١٥، تاريخ الاطلاع: ١٠ يونيو ٢٠٢٢، الساعة ١٣:٣٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/smURC

(٣٩) وثيقة سياسة الصين تجاه الدول العربية، سفارة جمهورية الصين الشعبية لدى جمهورية العراق، ١٤ يناير ٢٠١٦، تاريخ الاطلاع: ١٠ يونيو ٢٠٢٢، الساعة ١٤:٠٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Bx0LL

(٤٠) وثيقة الرؤية والتحرك، مرجع سابق.

(٤١) وثيقة سياسة الصين تجاه الدول العربية، مرجع سابق.

(٤٢) سياسة الصين الخارجية، مجلة مسارات التابعة لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، العدد ١١، فبراير ٢٠١٤، ص ٤.

(٤٣) مفاوضات اتفاقية التجارة الحرة بين الصين ودول الخليج العربية: التحديات والفُرَص، مركز الإمارات للسياسات، ٢٥ فبراير ٢٠٢٢، تاريخ

رابعًا- من المصالح الاقتصادية إلى بوادر شراكة سياسية وأمنية:

تُعبِّر وثيقة "**سياسة الصين تجاه الدول العربية**" عن رغبة بكين في بلورة سياسة أكثر شمولا إزاء العالم العربي ومنطقة الشرق الأوسط، ومع أن هذه الوثيقة لا تغطي التفصيلات، وتركز بشكل رئيسي على "**معادلة التعاون ١+٢+٣**"، إلَّا إنها تدعو بصورة عامة إلى تعميق التعاون السياسي والتنسيق الأمني مع الدول العربية. حاليًا، تستمر بكين علنًا في التقليل من دور الحسابات العسكرية أو الجيوسياسية الكبرى في تحريك علاقاتها في الشرق الأوسط، غير أن نشاطها الاقتصادي ما انفك يقترن بالجوانب السياسية والأمنية "التي تشكل جزءًا من استراتيجية أعمق وأوسع وأكبر ممّا قد تبدو عليه للوهلة الأولى"[٤٤]. وعلى الرغم من كون ذلك بوادر أولية، فإنه قد يصبح خلال الأعوام المقبلة واقعًا ماديًا يشهد استراتيجية سياسية وأمنية صينية.

لقد مثَّلت ثورات الربيع العربي في عام ٢٠١١، نقطة تحوُّل بالنسبة إلى الصين في العالم العربي والشرق الأوسط، عندما أُجبرت على إجلاء ٣٦,٠٠٠ عامل صيني بعد إخطارهم بالخروج من ليبيا جرَّاء تصاعُد أعمال العنف بسبب الحرب الأهلية؛ حيث شكَّل هذا الإجلاء تحديًا كبيرًا للصين نظرًا إلى عدم وجود قوات عسكرية أو بنى تحتية قريبة، الأمر الذي اضطرها عمليًا إلى تنفيذ مهمة إنقاذ بعيدة المدى شملت نشر أربع طائرات وفرقاطة، علاوة على استخدامها بُنى تحتية سياحية في الدول المجاورة لإيواء رعاياها موقتًا[٤٥]. وجاءت تلك الحادثة لتسلط الضوء على هشاشة المصالح الاقتصادية الصينية، واقترن ذلك بغياب استراتيجية سياسية وأمنية. نتيجة ذلك، سعت الصين لإنشاء بنية تحتية بحرية خاصة بها، وخصوصًا في موانئ البحر الأحمر التي يمكنها أن تشكل نقاط ارتكاز مهمة لتنفيذ عمليات أمنية وخطط إنقاذ في المستقبل، الأمر الذي طوَّر التعاطي الصيني مع الاضطرابات في العالم العربي وساهم بشكل إيجابي في مساهمة الصين في جهود إجلاء ٦٠٠ من رعاياها[٤٦] و٢٢٥ من رعايا عشر دول أخرى من اليمن في عام ٢٠١٥[٤٧].

إلى جانب جهودها في إجلاء المواطنين من دول الصراع في العالم العربي، شاركت بكين في مهام مكافحة القرصنة والأمن البحري في بحر العرب وخليج عدن، وزادت جهود الوساطة التي تبذلها في أزمات سورية واليمن -وإن كان ذلك بحذر- كما عينت الصين مبعوثين خاصين لدول الشرق الأوسط المتنازع عليها. علاوة على ذلك، فإن إنشاء الصين لأول قاعدة عسكرية خارجية لها، في جيبوتي، فضلا عن احتمال عسكرة ميناء جوادر الباكستاني، يسهمان في نمو الوجود العسكري للبلاد بالقرب من الممرات البحرية الخانقة الحاسمة في مضيق هرمز وباب المندب[٤٨].

زوَّدت الصين العديد من دول المنطقة مثل مصر والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة والعراق والأردن بالأسلحة خاصة المسيرات من نوع (Wing Loong)،

الاطلاع: ١١ يونيو ٢٠٢٢، الساعة ١٤:٠٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ioH0p

(44) Jonathan Fulton, China's challenge to US dominance in the Middle East, (in): Camille Lons (ed.), China's Great Game in the Middle East, European Council on Foreign Relations/ ECFR, October 2019, p. 15.

(45) Royston Chan, Tom Miles, CORRECTED - China evacuates 12,000 from Libya, sends frigate to help, Reuters, 25 February 2011, Accessed at: 15 June 2022, 07:00, available at: https://cutt.us/NPWQD

(46) Yemen crisis: China evacuates citizens and foreigners from Aden, BBC NEWS, 03 April 2015, Accessed at: 15 June 2022, 07:30, available at: https://cutt.us/1drPg

(47) Adam Taylor, What Yemen's crisis reveals about China's growing global power, The Washington post, 31 March 2015, Accessed at: 15 June 2022, 08:30, available at: https://cutt.us/RHBM6

(48) Camille Lons, China's evolving role in the Middle East, (in): Camille Lons (ed.), China's Great Game in the Middle East, op. cit., p. 2.

وكانت مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتكنولوجيا والمؤسسة الصينية لعلوم وتكنولوجيا الفضاء الجوي وقعت اتفاقية شراكة لإنتاج الطائرات بدون طيار CH-4 الصينية في مارس ٢٠١٧[٤٩]. هذا الإقبال العربي المتزايد على المسيرات الصينية أرجعه مساعد وزير الدفاع الأمريكي لشؤون الأمن في منطقتي المحيط الهندي والهادئ راندال شرايفر، إلى حظر الولايات المتحدة تصدير تلك المعدات باعتبارها من الدول الموقعة على المعاهدات الدولية للحد من التسلُّح[٥٠]. تجدر الإشارة هنا إلى أن تلك الأسلحة يُعاد توريدها داخل المنطقة في مناطق الصراع حيث ظهرت تلك الطائرات مع قوات الجيش الوطني الليبي الذي يقوده حفتر في هجومه على طرابلس في عام ٢٠١٩[٥١].

ملمح آخر من التعاطي الأمني الصيني داخل العالم العربي، يتضح في التعاون الصيني مع الأجهزة الأمنية العربية في ملاحقة الأقلية الإيجورية؛ تلك الإجراءات التي تزعم الحكومة الصينية بأنها تأتي لمكافحة التطرف الجماعي والحدِّ من الإرهاب تلقى ترحيبًا من كثير من الأنظمة في العالم العربي خاصةً في ظل عداء تلك الأنظمة للحركات السياسية الإسلامية، المفارقة التي نجدها هنا أن الضغوط الصينية تتجاوز المؤسسات الأمنية التي قد تتوافق مع السياسات الصينية، بل تنصب على مؤسسات إسلامية عالمية ومحلية تجعلها تلك الضغوط تحجم عن التعاطي مع قضايا الأقليات المسلمة والاضطهاد الصيني لهم[٥٢].

خامسًا – البعد الثقافي في السياسات الروسية الصينية تجاه المنطقة العربية

لا تقل الأبعاد الثقافية في سياسة القوتين الصاعدتين على المسرح الدولي عن الأبعاد الاقتصادية والأمنية والعسكرية، بل أننا نجد أن قواهم الناعمة تلعب دورًا كبيرًا في حشد التأييد ومجابهة النفوذ الغربي داخل العالم العربي، حيث تسعى كل من روسيا والصين إلى تقديم نموذج مضاد أو بديل للنموذج الأمريكي والغربي الذي يؤكد على القيم الليبرالية والساعي إلى تطبيق الديمقراطية الغربية ولو بالقوة المسلحة كما حدث في أفغانستان والعراق.

تلقفت كل من موسكو وبيجين هذه النزعة الغربية الإمبريالية وعملتا على التأكيد من خلال الوثائق الصادرة عنهما أو في تصريحات المسؤولين الروس والصينيين، على أن سياساتهما لا تسعى إلى فرض النموذج الروسي/ الصيني بالقوة على دول المنطقة وأنهما تحرصان على الشراكة البناءة من دون التدخل في سياسات الدول، مشددتين على مبدأ سيادة الدولة وفقًا للقانون الدولي، واصفتين التدخل الأجنبي فيها باعتباره أحد أسباب عدم الاستقرار والتطرف في المنطقة[٥٣]. تلك هي القيم الحاكمة التي تؤكد عليها موسكو وبيجين، وتتوافق بشدة مع الأنظمة في العالم العربي: تنمية بدون إصلاح ديمقراطي أو مساءلة.

(49) Christopher Diamond, China to open a drone factory in Saudi Arabia, defense news, 28 March 2017, Accessed at: 15 June 2022, 11:00, available at: https://cutt.us/9ZeOJ

(50) Jack Detsch, Pentagon fears China's growth in Middle East arms market, al-monitor, 29 May 2019, Accessed at: 15 June 2022, 11:30, available at: https://cutt.us/GIkcS

(51) David Axe, Welcome to Libya's War of Drones (Courtesy of China?), 1 May 2019, Accessed at: 15 June 2022, 12:00, available at: https://cutt.us/f53GI

(٥٢) في أثناء إعدادي لدراسة عن جهود المؤسسات الإسلامية في مكافحة ظاهرة الإسلاموفوبيا كنت قد التقيت بأحد المسؤولين عن المراكز البحثية في إحدى المؤسسات الإسلامية الرسمية، وذكر لي أنهم لا يجرؤون على إدانة الانتهاكات الصينية ضد الأقليات المسلمة في شينجيانج، وعلل ذلك بالدور النشط للسفارة الصينية بالقاهرة التي لن تجعل الإدانة تمر. لمزيد عن تعاطي المؤسسات الإسلامية مع السياسيات الصينية راجع: محمد علي إسماعيل، جهود مؤسسات إسلامية رسمية في مقاومة الإسلاموفوبيا: الأزهر الشريف نموذجا، (في) حولية أمتي في العالم: الجديد في حالة الإسلام والمسلمين في العالم (٢٠١٠-٢٠٢٠): ما بعد الإسلاموفوبيا؟، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، ٢٠٢١)، ص ٥١٤ وما يليها.

(٥٣) كاظم هاشم نعمه، القوة الناعمة الصينية والعرب، مجلة سياسات عربية، العدد ٢٦، مايو ٢٠١٧، ص ٣٠.

على صعيد متصل استخدمت القوتان عدد من الأدوات في تأكيد قيمهما، وتنوعت تلك الأدوات بين القنوات الإعلامية والمعاهد العلمية والمراكز الثقافية، وذلك على النحو التالي:

١- صناعة الإعلام:

تشكّل هذه الصناعة جزءًا مهمًّا من الصناعة الثقافية، وتشمل صناعة الكُتب، والأفلام، والمحطات الإخبارية والإذاعة. وتهتم بيجين بتلك الأدوات؛ حيث قامت الحكومة الصينية بتوقيع مذكرة تفاهم في مجال ترجمة الكتب ونشرها وتأسيس عدد من المبادرات والمشاريع في مجال الترجمة، مثل: مشروع ترجمة "**حضارة واحدة**" بين مؤسّسة الفكر العربي والمجموعة الصينية للنشر الدولي الذي أطلق في ديسمبر ٢٠٠٩[٥٤]، ومشروع "الترجمة المُتبادَلة لأمّهات الكُتب الصينية والعربية" في مايو ٢٠١٠، ومركز تبادُل الترجمة وحقوق النشر بين الصين والدول العربية في العام ٢٠١٦، وتهدف هذه المشروعات إلى ترجمة أهمّ المؤلّفات والكُتب الصينية في مجالات الفكر والتنمية والتعليم والتكنولوجيا، وتجربة الصين الناجحة في مجالات أخرى[٥٥].

كما دخلت وسائل الإعلام الصينية الرئيسة إلى الدول العربية أيضًا، ومن ذلك على سبيل المثال، القناة العربية لشبكة تلفزيون الصين الدولية التابعة لتلفزيون الصين المركزي (CGTN)[٥٦]، والقسم العربي في إذاعة الصين الدولية، فضلا عن "**وكالة أنباء شينخوا**" الذي يوجد فرعها الرئيس في الشرق الأوسط في القاهرة، وأنشأت القسم العربي في العام ٢٠١١[٥٧]. بالإضافة إلى هذه القنوات والوكالات، عمل الصينيون على إهداء المسلسلات التلفزيونية الصينية لشبكات التلفزيون العربية، وعرض الفن الصيني في المتاحف المحلية[٥٨].

أما موسكو فقامت بتطوير القناة التلفزيونية الدولية "**روسيا اليوم RT**"[٥٩]، ووجهت نسخة منها إلى العالم العربي، كما أنشأت وكالة أنباء وإذاعة "**سبوتنيك**"[٦٠]، وأضحت تلك الوسائل بمثابة "بوق دعائي" لموسكو في العالم العربي، وتعمل في كل برامجها على تقديم رؤية مضادة للولايات المتحدة الأمريكية والغرب. وتحاول قناة روسيا اليوم التلفزيونية الناطقة باللغة العربية، التي تعمل منذ مايو ٢٠٠٧، تقديم روسيا في صورة دولة حديثة وديناميكية، واكتساب القناة شعبية وتجاوزت القنوات المماثلة الأوروبية والأمريكية الناطقة بالعربية من حيث التصنيف، ووفقا لدراسة تم إجراؤها في عام ٢٠١٠، فإن أكثر من خمسة ملايين شخص يشاهدون القناة في سبع دول عربية (سورية ولبنان والكويت والإمارات العربية المتحدة والأردن ومصر والمملكة العربية السعودية)[٦١].

٢- المعاهد والمراكز الثقافية:

اعتبارًا من عام ٢٠٠٦، بدأت مراكز **معهد كونفوشيوس** في الظهور في البلدان الناطقة باللغة العربية، وبحلول عام ٢٠٢٠ أنشأت الصين ١٥ معهدًا في ثمان دول عربية (لبنان،

---

(٥٤) مؤسسة الفكر العربي تطلق مشروع ترجمة "حضارة واحدة"، بوابة الرأي، ١٧ ديسمبر ٢٠٠٩، تاريخ الاطلاع: ١٧ يونيو ٢٠٢٢، الساعة ٠٠:٠٧، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/92ZiO

(٥٥) القوّة الناعمة الصينيّة في العالَم العربيّ، بوابة الشروق، ١٢ سبتمبر ٢٠١٧، تاريخ الاطلاع: ١٧ يونيو ٢٠٢٢، الساعة ٠٠:٠٧، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/qaZ1p

(٥٦) موقع القناة العربية لشبكة تلفزيون الصين الدولية، على الرابط التالي: https://arabic.cgtn.com/

(٥٧) نفس المرجع.

(58) Roie Yellinek, Yossi Mann & Udi Lebel, Chinese Soft-Power in the Arab world – China's Confucius Institutes as a central tool of influence, Taylor and Francis Online, 06 November 2020, Accessed at: 17 June 2022, 07:20, available at: https://cutt.us/cbp5c

(٥٩) موقع روسيا اليوم بالعربي، https://arabic.rt.com

(٦٠) موقع سبوتنك على الرابط التالي: https://cutt.us/Ujgkd

(61) Mokhova I.M, The image of Russia in the Arab world: from Soviet-Arab friendship to the problem of finding a new image, 01 February 2013, Accessed at: 17 June 2022, 08:00, available at: https://cutt.us/s7jNv

مصر، الأردن، المغرب، السودان، الإمارات العربية المتحدة، البحرين، تونس)، وذلك من أصل ٥١٢ معهدًا و١٠٧٣ فصلا في ١٤٠ دولة (منطقة) في العالم. إن الهدف الرسمي للمعاهد، كما يظهر من مواقعها على شبكة الانترنت، هو تقديم دورات في اللغة الصينية وأنشطة ثقافية صينية، بحيث يكون الجمهور المستهدَف بشكل أساسي من الطلاب والباحثين. ومع ذلك، فإن المعاهد تخدم غرضًا آخر، كونها "**جزءًا مهمًا من بنية الدعاية الخارجية للصين**"[٦٢].

على الجانب الآخر استمر الكرملين في استخدام أدوات قوته الناعمة من خلال المنظمات التي تسيطر عليها الحكومة والتي تم تقديمها على أنها منظمات غير حكومية؛ خاصةً المراكز الثقافة الروسية، وترى **آنا بورشفسكايا الخبيرة في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى**، أن موسكو عززت الثقافة الروسية في جميع أنحاء المنطقة، في المقام الأول من خلال المراكز الثقافية التي تديرها وكالة الجاليات الروسية (Rossotrudnichestvo)[٦٣] ومؤسسة (RusskiyMir)، وتعمل هذه المراكز على نشر اللغة والثقافة الروسية كالباليه والأفلام[٦٤]، وكذلك التعاون العلمي والعمل مع المواطنين في الخارج وتعزيز العلاقات مع الشتات الروسي، وتنقسم الأحداث التي يعقدها RCSC في البلدان العربية إلى عدة فئات: الأحداث العامة، والعمل مع المواطنين، وتعزيز اللغة والثقافة الروسية، وتعزيز الخدمات التعليمية في روسيا[٦٥].

خاتمة: مستقبل الدور الروسي الصيني في المنطقة

استطاعت موسكو وبيجين أن تجدا لنفسيهما مواطئ قدم في المنطقة العربية وعملتا على تعزيز حضورهما وتحالفاتهما مع عدد من الدول في المنطقة، مستفيدتين من التخبط الأمريكي في التعاطي مع قضايا المنطقة وصعود قيادات عربية –خاصةً بعد الربيع العربي الذي مثل تهديدا لكثير من العروش العربية– أكثر حساسية في تعاطيها مع قضايا الإصلاح الديمقراطي من منظور غربي وأكثر تمردًا على التحالفات القديمة مع الولايات المتحدة والغرب الذين وجدوا أنهم حلفاء لا يُعتمَد عليهم في ظل الاضطرابات التي تشهدها المنطقة.

تعالج مبادرة الحزام والطريق الصينية مخاوف التنمية في العالم العربي، وفي الوقت نفسه، تنظر بعض القيادات العربية إلى الدور الروسي على أنه عامل للاستقرار في المنطقة وأن موسكو حليف ملتزم بأداء التزاماته تجاه حلفائه كما ظهر في سورية. كما أن القوة الناعمة للقوتين الصاعدتين تعمل على تعزيز تلك الصورة في العالم العربي وهو ما تجلى مؤخرًا في ردود الأفعال على الغزو الروسي لأوكرانيا؛ حيث أظهر استطلاع رأي عالمي ردود فعل إيجابية تجاه الغزو الروسي لأوكرانيا خارج الدول الغربية في الصين وماليزيا وغيرها وفي عدد من الدول العربية (مصر، الجزائر، المغرب والمملكة العربية السعودية)[٦٦]، يُظهر هذا نجاح القوى الناعمة الروسية في تعزيز صورة موسكو والرواية الروسية للأحداث في العالم.

(62) Roie Yellinek, Yossi Mann & Udi Lebel, Chinese Soft-Power in the Arab world – China's Confucius Institutes as a central tool of influence, Op. cit., pp. 523–524.

(٦٣) المعروفة باسم "الوكالة الفيدرالية لاتحاد الدول المستقلة والمواطنين الذين يعيشون في الخارج والتعاون الإنساني الدولي" وهي النسخة الروسية للوكالة الأمريكية للتنمية الدولية.

(64) Anna Borshchevskaya, Russia's Soft Power Projection in the Middle East, Washington institute, 04 December 2020, Accessed at: 17 June 2022, 01:00, available at: https://cutt.us/a4oXM

(65) Mokhova I.M, The image of Russia in the Arab world: from Soviet-Arab friendship to the problem of finding a new image, op. cit.

(66) Patrick Wintour, Negative views of Russia mainly limited to western liberal democracies, poll shows, the guardian, 30 May 2022, Accessed at: 17 June 2022, 03:20, available at: https://cutt.us/UotJP

لكن ثمة معوقات لهذا الدور الروسي الصيني في المنطقة العربية؛ حيث إنه بينما تسعى القوتان إلى وراثة الدور الأمريكي في المنطقة، فإنهما لا ينفقان الموارد المطلوبة لتحقيق ذلك الدور. فروسيا على الرغم من تنامي حضورها العسكري في بعض دول المنطقة فإنها تنقصها الموارد الاقتصادية للتمدد لدول أخرى، على العكس من ذلك فإن الحضور الاقتصادي التنموي والاستثماري الصيني يتطلب اضطلاع بيجين بدور أمني وعسكري خاصةً لتأمين موارد الطاقة وتعزيز الاستقرار في مناطق الفراغ التي تخلفها واشنطن.

*****

الهند المضطربة: صعود اقتصادي وأزمات دينية

أحمد محمد(*)

مقدمة:

وصل حزب بهاراتيا جاناتا (حزب الشعب) الهندي إلى السلطة بقيادة رئيس الوزراء الحالي ناريندرا مودي عام ٢٠١٤، وأعيد انتخاب الحزب مرة ثانية منتصف عام ٢٠١٩[١]؛ أسفرت الانتخابات العامة الهندية سنة ٢٠١٩ عن تعزيز هيمنة الحزب على المشهد السياسي الهندي بحصوله منفردًا على ٣٠٣ مقعدًا بنسبة ٥٥,٩٪ من إجمالي المقاعد، فيما حصل التحالف الوطني الديمقراطي الذي يقوده الحزب على ٣٦٣ مقعدًا تمثل ٦٥,١٪ من إجمالي المقاعد.

في المقابل حصد حزب المؤتمر الوطني الهندي ٥٢ مقعدًا تمثل ٩,٥٪ من إجمالي المقاعد، وبلغ نصيب التحالف التقدمي المتحد الذي يتزعمه الحزب ٩١ مقعدًا تمثل ١٦,٨٪ من مقاعد البرلمان، ليمنى بذلك الحزب بالهزيمة الثانية على التوالي بعد انتخابات ٢٠١٤، بعد عقود من هيمنته على المشهد السياسي الهندي[٢].

لقد تعطل الصعود الاقتصادي الهندي الذي بدأ خلال العقد الأول من القرن الحالي -حيث شهدت الهند ازدهارًا اقتصاديًا بسرعة قياسية من خلال شركات تكنولوجيا المعلومات، لتصبح مؤهَّلة لأن تكون لاعبًا عالميًّا وحتى قوة اقتصادية عظمى- تحت تأثير الأزمة المالية العالمية في عام ٢٠٠٨ التي أدت إلى جمود التحول الهيكلي الذي كانت تشهده البلاد، كما تفاقمت الصدمة لعقد كامل بسبب سوء إدارة الاقتصاد الوطني[٣].

وكذلك؛ يعد المحللون البعد الأيديولوجي القومي من العوامل الرئيسية وراء ضمان التفوق السياسي لحزب الشعب الهندي؛ فقد ركز الحزب وقياداته على المعتقدات الهندوسية موجهين انتقادات لحزب المؤتمر بدعوى عمله على استرضاء المسلمين على حساب المعتقدات الهندوسية، وفي هذا السياق تأسس ٤٥ ألف فرع للمنظمة الهندوسية المتطرفة "راشتريا سوايامسيفيك سانج" (Rashtriya Swayamsevak Sangh) التي قامت بحشد التصويت لصالح الحزب الهندوسي في مختلف الولايات. ويبرز هذا البعد القومي بقوة في حالات العنف التي تقع بين المسلمين والهندوس فضلا عن أوقات التوترات مع باكستان والتي استغلها حزب الشعب الهندوسي مطلع عام ٢٠١٩ لحشد التأييد لصالحه عندما هاجمت جماعة تسمى "جيش محمد" حافلة جنود هنود ما أدى لمقتل نحو ٤٠ منهم وهو ما ردت عليه الحكومة بمهاجمة مقار للجماعة داخل باكستان التي ردت بإسقاط طائرتين هنديتين واعتقال أحد الطيارين إلى أن تم الإفراج عنه؛ على نحو عزز فرص نجاح الحزب الهندوسي[٤].

انطلاقًا من هذا الواقع؛ بُنِيت سياسة حزب بهاراتيا جاناتا؛ بقيادة رئيس الوزراء الحالي- ماريندرا؛ على مستويي الاقتصاد، والأقليات؛ وخاصة الأقلية المسلمة؛ التي تمثل ثاني أكبر

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) منى مصطفى، هيمنة القوميين: كيف تمكّن حزب "بهاراتيا جاناتا" من حسم الانتخابات الهندية؟، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، ٢٧ مايو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/rn41B

(٢) المرجع السابق.

(٣) جوش فيلمان، صعود الهند المعطَّل.. كيف خنقت الحكومة النمو؟، كيوبوست-ترجمات، ٣٠ ديسمبر ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/jtwP9

(٤) منى مصطفى، مرجع سبق ذكره.

مجموعة دينية في البلاد؛ لينطلق باتجاه تحقيق صعود اقتصادي كبير من جهة؛ وانغلاق أيديولوجي من جهة ثانية؛ على نحو أنتج فرصًا وأوجد تحديات، وهو ما يمكن توضيحه على النحو التالي.

أولًا- الصعود الاقتصادي الهندي: مؤشرات وتحديات

في عام ٢٠١٤؛ حينما وصل رئيس الوزراء الهندي الحالي ناريندرا مودي للحكم لأول مرة كرئيس للوزراء، كانت الهند عاشر أكبر اقتصاد في العالم. وخلال السنوات السبع التالية نما اقتصادها بنسبة ٤٠٪، ثم انكمش الناتج المحلي الإجمالي في الهند بنحو ٢٥٪ تأثرًا بعمليات الإغلاق الناتجة عن تفشي وباء كورونا؛ لكن التقديرات الخاصة بصندوق النقد الدولي توضح أنه مع تلاشي تأثير الجائحة، فإن الاقتصاد الهندي سيكون الأعلى نموًا بين الدول الكبرى بنسبة ٨٪، ويتوقع أن تصبح الهند خامس أكبر اقتصاد في العالم بحلول ٢٠٢٧؛ بناتج محلي إجمالي بالأسعار الجارية يصل لنحو ٥ تريليونات دولار أمريكي.

على مستوى الأداء الاقتصادي الصاعد؛ تشير التقديرات أيضًا إلى أن حجم سوق الأوراق المالية في الهند يعتبر الرابع عالميًا؛ بعد كل من الولايات المتحدة الأمريكية والصين واليابان، كما تعد الهند ثالث أكبر دول العالم في التوسع بالشحن التوربيني بعد الولايات المتحدة والصين. وتعتبر الهند ثالث أكبر قاعدة للشركات الناشئة أحادية القرن، وهي شركات يقدر رأس مالها بأكثر من مليار دولار، وذلك بواقع ٨٣ شركة، يصل إجمالي رأسمالها إلى ٢٧٧,٨ مليار دولار أمريكي. ويُتوقع أن يصل عدد هذه الشركات في الهند لنحو ١٠٠ شركة ستساهم في توفير نحو ١,١ مليون وظيفة مباشرة؛ وفق بعض التقديرات[٥].

أسهم في تحقيق هذه المؤشرات الإيجابية؛ إقدام المستثمرين الأجانب على تحويل الأموال إلى سوق الأوراق المالية في الهند، متفائلين بصعودها الاقتصادي مرة أخرى، وهو ما يؤكده ظهور شركة ناشئة تقدر قيمتها بأكثر من مليار دولار في كل شهر في مجال الحوسبة السحابية والتعليم والترفيه والتمويل والمدفوعات والسياحة، بالتوازي مع تحويل شركات التصنيع العالمية أنظارها إلى الهند للحد من تركُّز مصانعها في الصين؛ مستفيدة من البنية التكنولوجية التحتية، والسوق المحلية الضخمة والمليئة بالكوادر الإدارية الناطقة باللغة الإنجليزية والمخزون الهائل من اليد العاملة الشابة.

يأتي ذلك كنتيجة أيضًا لنجاح الهند في تحقيق تقدم كبير في توفير البنية التحتية المادية والرقمية، وفي تنمية قدرتها على توفير السلع الأساسية لسكانها، إضافةً إلى تقوية قاعدة مواردها البشرية من مهندسين ماهرين ورجال أعمال[٦].

وقد ترجمت هذه الإنجازات في مجموعة من المحاور التي تجذب المواطنين لحزب الشعب أبرزها التركيز على الاحتياجات الأساسية؛ فعقب توليه رئاسة الوزراء في عام ٢٠١٤ جعل رئيس الوزراء الهندي "ناريندرا مودي" البنية التحتية الأساسية في صدارة أولويات حكومته، وتحديدًا مرافق الصرف الصحي التي يتسبب غيابها في العديد من القرى والمناطق الفقيرة في الهند في تهديد الصحة العامة، ومن ثم أطلق حملة وطنية لإمداد كل منزل بخدمات الصرف الصحي لحماية البيئة والتصدي لانتشار الأوبئة. وتؤكد الحكومة الهندية تمكنها من إمداد أكثر من ٩٠ مليون منزل في المناطق الفقيرة بخدمات الصرف الصحي.

يضاف إلى ذلك توصيل الغاز الطبيعي للمنازل مجانًا؛ إذ يعتبر ذلك من أهم إنجازات حكومة "مودي" من خلال تطبيق خطة "أوجاوالا" التي كفلت توصيل الغاز لأكثر من ٧٠ مليون منزل في المناطق الفقيرة؛ حيث تم الترويج لهذه الخطوة باعتبارها تمثل رفعًا للعبء عن كاهل السيدات في المناطق

(٥) نعمة زهران ومحمد عادل حنفي، صعود الاقتصاد الهندي باعتباره أسرع الاقتصادات الكبيرة نموًا عام ٢٠٢٢، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار التابع لمجلس الوزراء المصري، ١٢ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/qGE5x

(٦) جوش فيلمان، صعود الهند المعطَّل.. كيف خنقت الحكومة النمو؟، مرجع سبق ذكره.

الفقيرة، وأنها تعود بالنفع على أكثر من ١٦٠ مليون مواطن هندي، وهو ما أدى لحشد التصويت لصالح الحزب الحاكم في المناطق الفقيرة؛ حيث تمكن من التأثير من خلال الخدمات الأساسية وتوصيل الغاز للمنازل على أكثر من ٢٥٠ مليون ناخب نتيجة للتركيز على الحياة اليومية للمواطنين[٧].

ورغم هذه المؤشرات الإيجابية؛ فإن الهند تواجه مجموعة من التحديات الاقتصادية؛ في مقدمتها: الحاجة لزيادة معدلات التشغيل؛ فتشير التقديرات إلى احتياجها لتوفير نحو ٩٠ مليون فرصة عمل غير زراعية بين عامي ٢٠٢٣ و٢٠٣٠؛ وتحتاج الهند لرفع معدل التوظيف الصافي لديها بنسبة ١,٥٪ سنويًا خلال هذه الفترة؛ بغرض زيادة الناتج المحلي بنسبة تتراوح بين ٨ و٨,٥٪.

وقد خلقت الحرب الروسية الأوكرانية تحديًا آخر بالنسبة للاقتصاد الهندي، يتمثل في اضطراب سلاسل الإمداد الناجم عن العقوبات الغربية على موسكو، فضلا عن تأثرها بحالة عدم اليقين في التجارة العالمية مع ارتفاع أسعار النفط والسلع الغذائية الأخرى، لذا يتوقع أن تنعكس تداعيات هذه الأزمة على الاقتصاد الهندي في صورة ارتفاع معدلات التضخم المدفوعة بالتكلفة، فإن كل ارتفاع في أسعار النفط الخام بنسبة ١٠٪ يؤدي إلى ارتفاع بنسبة ٠,٤ نقطة مئوية في مؤشر التضخم الاستهلاكي. ونظرًا لاعتماد الهند على استيراد احتياجاتها من النفط الخام بنسبة ٨٥٪ فإن الارتفاع الكبير في أسعار النفط العالمية إلى أعلى مستوى لها منذ ١٤ عامًا، جراء الأزمة الروسية الأوكرانية، سيضغط بشكل كبير على مستوى الأسعار في الهند[٨].

ومن التحديات التي يرصدها البعض بخصوص الاقتصاد الهندي أيضًا، التقلبات التي تحدث في القوانين والسياسات الاقتصادية بشكل مفاجئ ومستمر؛ ما يؤدي لعدم الاستقرار في الأطر التشريعية المنظمة. فضلًا عن حالات الفساد والمحاباة لبعض الشركات، وغياب الشفافية والنزاهة؛ ما يؤدي لاختلال الثقة في السياسات الحكومية، والتناقض في السياسات المنظِمة بسبب عدم توافق الرؤى بين المستوى الفيدرالي بالعاصمة والمستوى المحلي بالولايات؛ وتؤثر هذه المشكلات سلبًا على حجم الاستثمارات الأجنبية بقطاع التصنيع المحلي في الهند[٩].

وبالتالي، تعتمد قدرة الهند على تحقيق الازدهار مرة أخرى لتصبح بديلا جديًا للصين على قدرتها في مواجهة العيوب المزمنة في سياساتها والتعامل مع التحديات الاقتصادية التي تواجهها.

وأمام هذه التحديات؛ فإن الحكومة الهندية تراهن على عدة ركائز لتطوير اقتصادها وزيادة معدل النمو خلال العقد المقبل، أبرز هذه الركائز: تشكيل سوق وطنية واحدة، تعتمد فيها كثير من الشركات والمستهلكين على النظام المالي الحديث. إلى جانب توسع الصناعة، في ظل تخطيط بعض الشركات لتطوير سلاسل التوريد المحلية بما يتناسب مع الأهداف والخطط الرسمية الرامية إلى تطوير مصانع للبطاريات والمركبات الكهربائية وأشباه الموصلات، فضلا عن التكنولوجيا، مع تضاعف حجم خدمات تكنولوجيا المعلومات في ظل الاستعانة بمصادر خارجية في الهند خلال العقد الفائت، حتى باتت عائدات هذا القطاع السنوية تقارب ٢٣٠ مليار دولار، بما جعل الهند المصدر الخامس عالميًا لهذه الخدمات؛ رغم أنها لا تزال في المرتبة السادسة عشر على سلم صادرات السلع العالمية. كما تراهن الهند على عامل الرفاهية الرقمية، مع تطوير شبكات أمان وطنية عالية التقنية لتقديم الدعم للمحتاجين عبر الإرسال المباشر إلى الحسابات المصرفية للأفراد، وقد بلغت قيمة هذه المدفوعات نحو ٨١ مليار دولار بما يعادل ٣٪ من الناتج المحلي الإجمالي حتى نهاية مارس ٢٠٢٢؛ وذلك مقارنة بنحو ١٪ قبل أربع سنوات[١٠].

(٧) منى مصطفى، مرجع سبق ذكره.

(٨) نعمة زهران ومحمد عادل حنفي، مرجع سبق ذكره.

(٩) جوش فيلمان، صعود الهند المعطَّل.. كيف خنقت الحكومة النمو؟، مرجع سبق ذكره.

(١٠) نعمة زهران ومحمد عادل حنفي، مرجع سبق ذكره.

ثانيًا- التحديات الدينية: قراءة في عمليات استهداف الوجود المسلم

قبل وصول حزب الشعب الهندي إلى الحكم؛ كانت الهند تُذكَر بوصفها مثلا في إدارة التنوع العرقي والديني؛ باعتبارها أحد النماذج الرائدة في هذا المجال؛ رغم المناوشات والمشكلات التي قد تكون مرت بها من قبل؛ لكن مع وصول الحزب إلى السلطة؛ ونظرًا لمحورية البعد الأيديولوجي بالنسبة لحزب الشعب الهندوسي؛ تغيرت الأوضاع خاصة فيما يتعلق بالمسلمين (الذين يشكلون أكبر أقلية دينية في البلاد بما يقارب ١٤٪) عبر سياسة فرض الأمر الواقع عليهم من خلال إجراءات وتشريعات تمييزية ضدهم. فبالتوازي مع التصريحات الطائفية ضد المسلمين[١١]، ارتكبت في الهند الكثير من المجازر الوحشية وأعمال الحرق والهدم ضدهم، والتي تنفذ من قبل عصابات هندوسية متطرفة (إرهابية)، وقد وُثِّق بعضها بمقاطع فيديو تناقلتها وسائل إعلام ومنصات تواصل اجتماعي.

تشير الدراسات إلى أن بهاراتيا جاناتا بارتي (حزب الشعب الهندوسي) هو الجناح السياسي للأصولية الهندوسية المعروفة باسم "هندوتفا" التي تعني "الهند للهندوس"[١٢]. ولهذه الحركة ثلاثة أجنحة؛ أولها شبه عسكري ويشير إلى "منظمة المتطوعين القومية" (راشتريا سوايااميسيفاك سانغ) والتي تمثل أحد جذور حزب الشعب الهندي، ونشأت سنة ١٩٢٥ لمواجهة المحتل البريطاني والمسلمين في نفس الوقت، وأنشأت منظمات عسكرية متطرفة أخرى تركز نشاطها بشكل رئيسي في أعمال العنف ضد المسلمين والمسيحيين، والحركة هي المسئولة عن اغتيال المهاتما غاندي[١٣]. أما الجناح الثاني فهو الديني ويتعلق بـ"المجلس الهندوسي العالمي" (فيشا هيندو باريشاد) وهو بمثابة المرجعية الدينية الأولى لليمين الهندوسي المتطرف. فيما يمثل حزب بهاراتيا جاناتا الجناح السياسي للحركة الأصولية الهندوسية[١٤].

تعود جذور حزب بهاراتيا جاناتا قومي (سياسيًا) إلى حزب "بهاراتيا جانا سانغ" المؤسَّس عام ١٩٥١، والذي اندمج سنة ١٩٧٧ مع حزب "جاناتا بارتي" بغرض منافسة حزب المؤتمر الوطني الذي هيمن على الحياة السياسية الهندية منذ الاستقلال. وفي الثمانينيات حل محل هذا التحالف حزب "بهاراتيا جاناتا" الذي فاز بمقعدين في انتخابات ١٩٨٤، وشارك في التسعينيات بحكومتين ائتلافيتين ثم قاد حكومة ائتلافية سنة ١٩٩٨ وحتى ٢٠٠٤ ليخلفه حزب المؤتمر الوطني حتى ٢٠١٤ حين استعاد حزب بهاراتيا جاناتا السلطة بشكل منفرد[١٥]، ولا يزال يحكم حتى الآن في الهند بعد تعزيز مقاعده في انتخابات ٢٠١٩[١٦].

يؤمن حزب الشعب الهندوسي (بهاراتيا جاناتا) بالهندوسية معتبرًا إياها الهوية الأصلية الوحيدة للبلاد وأنه لا مكان للمسلمين فيها، ومن ثم لا بد أن يرحلوا إلى باكستان تطبيقًا لشعار "الهند للهنود". وفي هذا السياق ركزت خطب مرشحي حزب الشعب الهندي منذ انتخابات ٢٠١٤ مرورًا بانتخابات ٢٠١٩ على عدة مواقف أبرزها: ضرورة مراجعة مكتسبات الأقليات في الهند لتقليصها، وفرض قانون مدني موحد على جميع الهنود بما في ذلك المسلمين ما يعني إلغاء المرجعية الإسلامية للأحوال الشخصية للمسلمين، وإنهاء الحكم الذاتي في إقليم كشمير ذي الأغلبية المسلمة، وهدم المساجد الكبرى

(١١) منى مصطفى، مرجع سبق ذكره.

(١٢) أحمد شوقي، مسلمو الهند في عهد حزب الشعب: تبعات تحول الدولة من العلمانية إلى الهندوسية، فصلية قضايا ونظرات، العدد (١٧)، أبريل ٢٠٢٠، ص ص ٢٩- ٤٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/EiuQO

(١٣) عماد يوسف قدورة، نتائج الانتخابات الهندية: الدلالات الاستراتيجية، مركز الجزيرة للدراسات، ٢٠ مايو ٢٠١٤، متاح عبر الرابط التالي:https://cutt.us/jR4CA

(١٤) أحمد شوقي، مسلمو الهند في عهد حزب الشعب: تبعات تحول الدولة من العلمانية إلى الهندوسية، مرجع سبق ذكره.

(١٥) عماد يوسف قدورة، مرجع سبق ذكره.

(١٦) منى مصطفى، مرجع سبق ذكره.

للمسلمين بدعوى أنها بنيت على أنقاض معابد هندوسية، واعتبار باكستان عدوًا تجب الحرب ضده[١٧].

إن هذه الأيديولوجية تُرجِمت في سياسات وإجراءات ضد الوجود المسلم في الهند؛ على نحو أنتج تحديات لثقافة التعددية في الهند، حتى أصبحت السلطات الهندية نفسها أحيانًا جزءًا من هذه التحديات. ويمكن سرد مجموعة من المؤشرات لتوضيح ذلك:

- **التصريحات المسيئة للإسلام والمسلمين:**

يعرف عن قادة حزب بهاراتيا جاناتا عداؤهم للإسلام والمسلمين في الهند وجوارها، ويُترجَم ذلك العداء في تصريحات مسئولي الحزب من حين لآخر، وآخر الصيحات ضمن هذا الجانب ما جاء في تصريحات المتحدثة باسم حزب الشعب الهندي الحاكم نوبور شارما، وكذلك المسؤول الإعلامي بفرع الحزب في العاصمة الهندية ناوين جيندال، والتي تسيء للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وذلك في نغمة متكررة منذ عقود تحمل الكراهية وتحض على العنف وقد ازدادت وتيرتها منذ وصول حزب الشعب إلى الحكم برئاسة ناريندرا مودي في مايو ٢٠١٤.

نددت العديد من الدول مثل قطر والكويت والسعودية وإيران والبحرين والمالديف وعُمان والأردن وأفغانستان وليبيا وإندونيسيا، بتصريحات مسؤولي الحزب الحاكم، وطالبت بعض الدول سفراءَها بتسليم رسائل احتجاج على ذلك.

أكدت الهند على لسان المتحدث باسم الحزب الحاكم أنها تحترم كل الأديان، وأن كل المواطنين الهنود أحرار في اعتناق أي معتقد يؤمنون به. ولم تتعرض البيانات الهندية الحزبية أو الحكومية لأي حكومة، لكنها خصّت باكستان ومنظمة التعاون الإسلامي بنقد لاذع، قائلة إن تصريح المنظمة بهذا الصدد ينم عن "ضيق العقل"، ووصفته بأنه "مغرض" و"مضلل" و"مؤذٍ"؛ معتبرة أن منظمة التعاون الإسلامي "تتبع خطة لتقسيم الناس لحساب عناصر لها مصالح". وطلبت الخارجية الهندية، من المنظمة "أن تمتنع عن التوجهات الطائفية وأن تُظهر الاحترام لكل الأديان"؛ وفقًا لها.

لم ترد نيودلهي على الدول الأخرى ولم تهاجمها حتى أنها أعلنت تعليق عضوية المتحدثة باسم الحزب لست سنوات، وطرد مسؤول آخر من الحزب وتقديم ثالث للمحاكمة، وذلك لأن مصالح كبرى تربطها بهذه المنطقة؛ فقد بلغ حجم التبادل التجاري الهندي مع دول مجلس التعاون الخليجي وحدها ٨٧ مليار دولار بين عامي ٢٠٢٠ و٢٠٢١، إلى جانب وجود نحو ٧,٥ مليون هندي يعملون في هذه الدول، ويوفرون للهند عملة صعبة تُقدّر بنحو ٤٠ مليار دولار في العام. وتعتمد الهند على هذه الدول إلى حد كبير لتوفير حاجاتها من النفط والغاز.

رأى مراقبون أن هذه الإجراءات مؤقتة، وأن المسؤولَيْن سيعودان إلى بعض المواقع القيادية حين تهدأ الأمور؛ لكن هذه المواقف جديدة على السياسة الهندية كما أنها توضح متى تستجيب هذه السياسة للمواقف الخارجية؛ فهذه الاستجابة لم تأتِ بعد انتقادات الدول الكبرى مثل الولايات المتحدة لانتهاكات حقوق الإنسان في الهند، في حين أن احتجاجات "دول صغيرة" جعلتها تتخذ بعض الإجراءات لمواجهة الإسلاموفوبيا وبعض الانتهاكات ضد المسلمين[١٨].

ومع ذلك؛ فإن السلطات الهندية ردت على احتجاجات بعض المسلمين على هذه التصريحات بهدم منازلهم وإزالة ممتلكاتهم[١٩]!

(١٧) المرجع السابق.

(١٨) ظفر الإسلام خان، الهند.. خطاب الكراهية على لسان مسؤولي الحزب الحاكم ليس صدفة، الجزيرة نت، ٦ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/e05I3

(١٩) الهند تهدم منازل مسلمين بعد مظاهرات مناهضة للتصريحات المسيئة للنبي محمد، بي بي سي عربي، ١٢ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/WqqJ0

- **محو الهوية المسلمة في الهند:**

إن الوجود المسلم في الهند ليس مستساغًا للقوميين المتعصبين على المستويين السياسي والشعبي، وهو ما نجم عنه توظيف العديد من الأدوات والسياسات التي استهدفت إضعاف الهوية المسلمة في الهند؛ فتبنت السلطات العديد من الإجراءات الهادفة إلى محو هوية المسلمين في البلاد، بغرض دمجهم قسريًا وتذويبهم في المجتمع الهندوسي، ويتم في هذا السياق توظيف جهات القضاء التي يُفترَض بها تحقيق العدالة. من بين هذه الإجراءات محاولات تحويل مساجد أثرية إلى معابد هندوسية؛ وفي الغالب يحرك الهندوس دعاوى قضائية، مطالبين بالحفر في أساسات المساجد بزعم إقامتها على أنقاض معابدهم قبل مئات السنين. وتقبل المحاكم هذه القضايا، رغم وجود قانون هندي صدر عام ١٩٩١، يضمن بقاء كل أماكن العبادة (ما عدا مسجد البابري) على الوضع الذي وجدت فيه يوم الاستقلال في أغسطس ١٩٤٧.

زادت الجماعات الهندوسية من دعاويها ضد المساجد بعد أن تمت لها السيطرة نهائيا على أرض مسجد البابري بأمر المحكمة العليا في نوفمبر ٢٠١٩، والتي أعطت أرضه للطرف الهندوسي رغم اعتراف المحكمة نفسها في حيثيات الحكم بأنه كان مسجدا لـ٥٠٠ عام، وأن التماثيل وضعت فيه في ديسمبر ١٩٤٩. عقب السيطرة على أرض مسجد البابري وهدمه، أعدّت الجماعات الهندوسية قائمة بثلاثة آلاف مسجد يطالبون بتحويلها إلى معابد، مما يعني أن التضييق على مسلمي الهند آخذ في التصاعد؛ محوًا لثقافتهم وهويتهم وأماكن عبادتهم[٢٠].

تتضمن إجراءات محو الهوية المسلمة في الهند أيضًا؛ حظر الكتب الإسلامية وتقليص المعاهد والمدارس والجامعات الخاصة بالمسلمين، فضلا عن ملاحقة الدعاة المسلمين المؤثرين من أمثال دكتور ذاكر نايك. وفي بعض الأحيان يتم حظر الطقوس الإسلامية، فقد حظرت إحدى القرى الهندية (قرية تيتولي بولاية هاريانا) ممارسة الشعائر الإسلامية من إطلاق اللحى وأداء الصلاة وغيرها.

ويرتبط بمحاربة الهوية الإسلامية في الداخل الهندي ملف الأحوال الشخصية؛ وهو من القضايا الشائكة التي تهم المسلمين في الهند منذ الاستقلال؛ فكثيرًا تتعالى المطالبات بين الحين والآخر لتطبيق قانون مدني على الجميع لكن الحكومة الهندية لم تفعل ذلك وأكدت أنها لن تقوم به إلا إذا طلبه المسلمون.

ومع ذلك؛ تندلع من حين لآخر المشكلات بسبب الأحكام القضائية التي تخص المسلمين ولم يتم فيها الرجوع إلى الشريعة الإسلامية. وكانت الاحتجاجات هي سبيل المسلمين لرفض هذا الفرض؛ ولذا نأت الحكومات التالية على الاستقلال بنفسها عن فرض قانون مدني ينظم الأحوال الشخصية للمسلمين.

لكن الأمر اختلف في ظل حكومة حزب الشعب الهندوسي؛ فقد أبلغت الحكومة الهندية في أكتوبر ٢٠١٦ المحكمة العليا أن الطلاق الثلاثي في الإسلام غير دستوري ويتنافى مع مبدأ المساواة بين الجنسين، وذلك رغم أن هذه المسألة تقع في صلب قانون الأحوال الشخصية للمسلمين. وفي أغسطس ٢٠١٧؛ جرمت المحكمة الطلاق الثلاثي: أي تطليق الزوجة طلاقًا بائنًا مرة واحدة "مثلا بقوله لها: أنت طالق طالق طالق". ومرر البرلمان الهندي في يوليو ٢٠١٩ قانونًا يتضمن هذا الحكم؛ ما اعتبرته رموز إسلامية اعتداءً على الهوية الإسلامية من جانب حزب بهاراتيا جاناتا[٢١].

- **الانتهاكات ضد شعب إقليم كشمير:**

بعد إلغاء الهند للوضع الخاص لإقليم جامو وكشمير- الذي تقطنه أغلبية مسلمة، أشار تقرير للجنة خبراء بالأمم المتحدة إلى تدهور وضع حقوق الإنسان في الإقليم، منذ أن ألغى البرلمان

(٢٠) ظفر الإسلام خان، مرجع سبق ذكره.

(٢١) أحمد شوقي، سياسات الإسلاموفوبيا في ميانمار والصين والهند، في: مجموعة باحثين، الجديد في حالة الإسلام والمسلمين في العالم (٢٠١٠-٢٠٢٠): ما بعد الإسلاموفوبيا، سلسلة أمتي في العالم، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، القاهرة، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م، ص ٣٠٧.

الهندي الوضع الدستوري لولاية جامو وكشمير في ٥ أغسطس ٢٠١٩؛ إذ لا يزال العديد من المتظاهرين رهن الاعتقال مع استمرار القيود على خدمة الانترنت مع تهم بالاعتقال التعسفي والتعذيب وسوء المعاملة، فضلا عن تجريم الصحفيين الذين غطوا الوضع هناك واحتجاز ناشطين في مجال حقوق الإنسان، ووقف أعمال اللجنة الحكومية المعنية بوضع حقوق الإنسان في جامو وكشمير في أكتوبر ٢٠١٩، والتي كانت واحدة من الطرق القليلة التي يمكن من خلالها لضحايا انتهاكات حقوق الإنسان التماس الإنصاف.

أشارت لجنة الخبراء إلى أنه لم يتم تقديم أي معلومات للجمهور حول ما سيحدث للحالات الجارية التي كانت الهيئة تحقق فيها، بما في ذلك مئات حالات الاختفاء القسري المشتبه بها التي يرجع تاريخها إلى عام ١٩٨٩، كما أن الادعاءات المتعلقة بآلاف المقابر التي لا تحمل علامات وبعض مواقع المقابر الجماعية لم يتم التحقيق فيها بشكل صحيح حتى الآن[٢٢].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن وضع إقليم كشمير يعتبر إحدى القضايا الشائكة التي نتجت عن تقسيم الهند وباكستان والتي كانت ولا زالت سببًا في تأجج الصراع داخل الهند وبينها وبين باكستان؛ فقد منحت بريطانيا عند التقسيم لما يعرف بالدول الأميرية التي كانت جزءًا من شبه الجزيرة الهندية وخاضعة للاحتلال البريطاني حق الانضمام إلى الهند إذا كانت ذات أغلبية هندوسية، وحق الانضمام لباكستان إذا كانت ذات أغلبية مسلمة؛ غير أن حاكم إقليم كشمير –وكان هندوسيًا- اختار الانضمام إلى الهند رغمًا عن رغبة الأغلبية المسلمة في مقابل الحصول على دعم نيودلهي لكبح الاحتجاجات وحركات التمرد التي قام بها مسلمون رغبة في الانضمام إلى إسلام اباد؛ مؤسسًا بذلك لصراع ممتد داخليًا وخارجيًا منذ أكثر من سبعة عقود[٢٣].

بعد أسابيع قليلة من التقسيم اندلعت الحرب الهندية الباكستانية الأولى والمعروفة بحرب كشمير الأولى سنة ١٩٤٧ والتي أسفرت عن خضوع ثلثي الإقليم للهند، وتعرف هذه المنطقة باسم ولاية جامو وكشمير وهي ذات أغلبية مسلمة ويطالب أغلبية سكانها بالاستقلال عن الهند والانضمام إلى باكستان معتبرين نيودلهي قوة احتلال للإقليم، فيما سيطرت باكستان على ثلث مساحة الإقليم وتعرف باسم "أزاد كشمير". وكان يفترض تنظيم استفتاء لتقرير المصير ولم يتم حتى الآن، ثم وقعت حرب كشمير الثانية سنة ١٩٦٥ ولم تسفر عن تغيير وضع الإقليم[٢٤].

ووفق إحصاءات سنة ٢٠١١ فإن عدد سكان ولاية جامو وكشمير بلغ ١٢,٥ مليون نسمة، ويعتبر الإقليم الوحيد ذا الأغلبية المسلمة في الهند، وتنشط فيه حركات تمرد تطالب بالاستقلال عن الهند منذ التقسيم سنة ١٩٤٧. وبموجب المادة ٣٧٠ من الدستور الهندي فإن ولاية جامو وكشمير تتمتع بالحكم الذاتي بما يتضمنه ذلك من الحق في تسيير كافة شئون الولاية باستثناء أمور الدفاع والاتصالات والشئون الخارجية، وكانت هذه المادة تمنح للولاية دستورًا وعلَمًا منفصلين[٢٥].

وفي إطار محاولات تنفيذ الأجندة السياسية لحزب بهاراتيا جاناتا؛ أعلنت السلطات الهندية يوم ٥ أغسطس ٢٠١٩ إلغاء المادة ٣٧٠ من الدستور الهندي، وترتب على هذا الإجراء أيضًا إلغاء مادة دستورية أخرى بشكل تلقائي كانت تحظر شراء

(٢٢) جامو وكشمير: خبراء أمميون يدعون إلى اتخاذ إجراءات عاجلة لمعالجة الوضع المقلق بشأن حقوق الإنسان، الأمم المتحدة، ٥ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/q6vbi

(٢٣) نجاح محمود، التوتر الهندي الباكستاني إلى أين؟، موقع الميادين نت، ٥ مارس ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي https://cutt.us/8nrLd

(٢٤) وفد إعلامي تركي يزور "كشمير" المتنازع عليه بين باكستان والهند، سوفاداكس، ٢٢ سبتمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ckYuN

(٢٥) إلغاء الحكم الذاتي في كشمير الهندية.. ٤ أسئلة حول قرار خطير، الجزيرة نت، ٦ أغسطس ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ZgjOA

الأجانب أو عملهم بالولاية؛ بما أثار المخاوف حول إمكانية تغيير التركيبة السكانية للإقليم لتغيير هويته الإسلامية[٢٦].

وأتبعت الحكومة الهندية قرار إلغاء الحكم الذاتي بتقسيم الولاية إلى إقليمين اتحاديين في ٣٠ أكتوبر ٢٠١٩، الإقليم الأول جامو وكشمير وهو ذو أغلبية مسلمة وسيكون له مجلس تشريعي والثاني "لاداخ" دون مجلس تشريعي، وهو ذو أغلبية بوذية[٢٧].

وتعكس هذه الإجراءات الأفكار القومية الهندوسية المتشددة بشأن الموقف من المسلمين والتي يتبناها الحزب الحاكم، كما أنها تتنافى مع الموقف الدولي بشأن النزاع على الإقليم والذي تمثل في قرارات مجلس الأمن التي قررت حق الإقليم في تقرير المصير[٢٨]. ولم يتوقف الأمر على ذلك فقد لجأت الحكومة الهندية لتعزيز تواجدها الأمني والعسكري في المنطقة لمصادرة حق سكان جامو وكشمير في الاحتجاج الذي كان وسيلتهم خلال عقود ما بعد التقسيم للتعبير عن حقوقهم والدفاع عنها. وفي محاولة لاحتواء رد الفعل المسلم؛ لجأت الحكومة الهندية إلى قطع خدمات الاتصال الهاتفي والانترنت والبث التلفزيوني في الإقليم مع فرض قيود على التنقل والتجمع[٢٩].

- **الحرمان من حق المواطنة:**

في ديسمبر ٢٠١٩؛ أقرت السلطات الهندية تعديلات على قانون المواطنة لعام ١٩٥٥؛ على نحو يحرم ملايين المسلمين من الجنسية ويمنحها للمهاجرين من ست طوائف أخرى ينتمون أصلا إلى أفغانستان وباكستان وبنغلادش. والمجموعات التي استفادت من حق الجنسية: هندوسية وبوذية وزرادشتية ويانية ومسيحية وسيخية. واستثنى القانون المسلمين من هذا الحق، رغم أنهم عرضة للاضطهاد كذلك في تلك الدول وفي غيرها.

وقد عرّف القانون الهندي عام ١٩٥٥ المهاجرين غير النظاميين بأنّهم أجانب دخلوا إلى البلاد من دون جواز سفر صالح أو وثائق سفر، أو أنهم بقوا في الهند بعد انتهاء مدة إقامتهم المسموح بها. وبالتالي كان يحظر منحهم الجنسية ويجيز ترحيلهم أو سجنهم.

وقد عبرت الأمم المتحدة ومنظمات حقوقية ودولية غير حكومية عن مخاوف من أن يكون هدف التعديل تحويل البلاد عن صبغتها العلمانية الديمقراطية؛ إذ يفرض قانون المواطنة المعدل عمليًا على سكان ولاية آسام شمال شرقي البلاد إثبات أن آباءهم عاشوا في الهند ما قبل عام ١٩٧١، وهو ما يعني أن نحو مليونين من هؤلاء قد يتحولون إلى "عديمي الجنسية"، بسبب عدم قدرتهم على تقديم أوراق ثبوتية تتعلق بالشروط المطلوبة منهم، نظرًا إلى تعقيدات تقسيم الهند وحدودها مع بنغلادش. وهكذا فإن الذين سيتحولون إلى "عديمي الجنسية" سيعدون "مقيمين غير شرعيين"، وقد يُزج بهم في سجون كبيرة.

ويمكن توضيح أبعاد هذه التعديلات وتداعياتها على المسلمين بشكل أوسع من خلال لمحة تاريخية؛ ففي سبعينيات القرن العشرين، طالب سكان ولاية آسام شمال شرق الهند بإخراج المهاجرين من الولاية للحفاظ على فرص العمل والثقافة المحلية، فأبرم اتفاق مع الزعماء المحليين والولاية منتصف الثمانينيات لإجراء إحصاء لسكان الولاية يتم بمقتضاه سلب الجنسية عن كل من دخل الهند بعد ١٩٧١م وهو العام الذي شهد نشأة بنجلاديش عن باكستان. واستهدف ذلك حرمان المسلمين من الجنسية باعتبار أنهم أغلبية المهاجرين الذين

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) متاجر مغلقة وشوارع مهجورة.. بدء سريان قرار التقسيم بكشمير الهندية، الجزيرة نت، ٣١ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/xBwLQ

(٢٨) راجع هذه القرارات في: البروفيسور أليف الدين الترابي، قضية كشمير المسلمة: المبادئ الأساسية والحقائق الثابتة، باكستان، المعهد العالمي للدراسات والبحوث الاستراتيجية باسلام أباد، ط١، جمادى الثانية ١٤٣١ هـ- يونيو ٢٠١٠ م.

(٢٩) وفد إعلامي تركي يزور "كشمير" المتنازع عليه بين باكستان والهند، مرجع سبق ذكره.

قدِموا للولاية؛ غير أن الإحصاء الذي تم تنفيذه بالفعل عام ٢٠١٩ بيَّن أن الولاية بها نحو مليوني أجنبي أغلبهم من الهندوس وليس المسلمين[٣٠].

بناءً على ذلك استقرت حكومة الهند على تعديل قانون الجنسية المشرع سنة ١٩٥٥ للسماح بتجنيس المهاجرين من ست طوائف من غير المسلمين (الهندوس والسيخ والجاينيين/اليانيين والبوذيين والمسيحيين والبارسيين)، والقادمين من ثلاث دول إسلامية (أفغانستان وبنجلاديش وباكستان)، والذين دخلوا الهند قبل نهاية ٢٠١٤[٣١].

وأبرز تبعات هذا القانون على المسلمين هناك أنه فضلا عن التمييز الديني ضدهم واعتبارهم مواطنين درجة ثانية[٣٢]؛ أنه بالفعل يستهدف نزع صفة المواطنة عن ملايين منهم فلن يصبحوا حتى مواطنين درجة متدنية لأنهم سيكونون من "البدون" أي بدون جنسية نهائيًا؛ فوفقًا لقانون الجنسية سيطلب من كل شخص في الهند تقديم ما يثبت إقامة والديه في البلاد قبل سنة ١٩٧١ بالنسبة لولاية آسام وقبل سنة ١٩٨٧ بالنسبة للولايات الأخرى. ومن المشكلات الكامنة بهذا القانون أنه يفترض من جميع تقديم مستندات تثبت حملهم الجنسية الهندية؛ في الوقت الذي تشير فيه التقديرات إلى أن ما يقارب ٤٥٪ من سكان الهند أميون أو مقيمون في القرى والمناطق النائية ولا يمتلكون أوراقًا تثبت جنسيتهم؛ بما يهدد مئات الملايين منهم بالحرمان من الجنسية.

بالنسبة لغير المسلمين فإن تعديلات قانون المواطنة تضمن لهم تخطي هذه العقبة بخلاف المسلمين الذين يتعرضون لخطر الحرمان من الجنسية. وفي هذا الحالة سيتعرض هؤلاء لمخاطر الاحتجاز في المعسكرات أو الترحيل والحرمان من الخدمات الحكومية مثل التعليم المجاني والعلاج والوظائف الحكومية والتسهيلات البنكية أو الحصول على وثائق مثل جوازات السفر ورخص القيادة وغيرها. وسيستمر هذا الوضع طالما بقيت الحكومة الهندوسية المتشددة في موقعها.

وقد لاقت التعديلات احتجاجات واسعة من المسلمين والمعارضين الهندوس الذين يرون في القانون تشويهًا لصورة الهند العلمانية التعددية ومن سكان آسام أنفسهم الذين يرون أن التعديلات لم تستجب لمطالبهم فضلا عن المسلمين المستهدفين بالقانون بشكل رئيسي[٣٣].

ورغم تورطها في صور متعددة من التمييز الديني ضد المسلمين؛ حاولت الحكومة الهندية تصوير التعديلات على قانون الجنسية بأن له أبعادًا إنسانية من خلال الادعاء بأن الطوائف الست التي يسمح لها بالتجنيس لا يجدون مكانًا آخر يذهبون إليه في ظل معاناتهم على أسس دينية في بلدانهم الأصلية[٣٤]؛ على نحو تتبين ضحالته بالنظر إلى مجموع السياسات الهندية تجاه المواطنين المسلمين مثل الموقف من إقليم كشمير والعنف المفرط تجاه الاحتجاجات، والتواطؤ مع الجماعات الإرهابية التي ارتكبت مجازر ومحارق بحق المسلمين ومقدساتهم.. إلخ.

خاتمة:

إن كان هذا التقرير قد ألقى الضوء بشكل سريع على بعض النجاحات الاقتصادية التي حققتها الهند في مسيرتها التنموية؛ فإن أبرز التحديات العميقة التي عكستها متابعة الوضع الاقتصادي للهند أيضًا هو الحاجة للتنويع؛ أي تنويع الاستثمارات الاقتصادية، لضمان عدم تركزها في القطاع الخدمي فقط الذي يُقبِل عليه المستثمرون الأجانب نظرًا لوضوح القوانين والسياسات الخاصة به؛ بخلاف القطاعات التصنيعية الأخرى التي يلتفها الغموض والمفاجآت في كثير من

(٣٠) قانون الجنسية بالهند.. القصة في نقاط، الجزيرة نت، ٢٦ ديسمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي https://cutt.us/rGvtC

(٣١) بعد اعتقال ١٠٠ متظاهر| الأزهر يدعو الهند للنظر في «إقصاء المسلمين من الجنسية»، أخبار اليوم، ١٩ ديسمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/gebPU

(٣٢) في الأوبزرفر: ما يجري في دلهي "وحشية ضد المسلمين"، بي بي سي عربي، ١ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/cpGF0

(٣٣) قانون الجنسية بالهند.. القصة في نقاط، مرجع سبق ذكره.

(٣٤) الهند: يجب منح المهاجرين غير المسلمين الجنسية، المصري اليوم، ٨ يناير ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/iOAgS

الأحيان، كما لفت التقرير عن الحاجة للتنويع في التوظيف؛ ليشمل قطاعات أخرى إلى جانب القطاع الزراعي.

هذا التنوع إن كان مطلوبًا على المستوى الاقتصادي؛ فإنه أكثر طلبًا وإلحاحًا على المستوى الثقافي والديني والعرقي؛ فإن كان غيابه النسبي على المستوى الاقتصادي مشكلة؛ فإن غيابه أو تغييبه على المستوى الديني والثقافي يعتبر مشكلة أعمق، ولا بد من التعاطي معها بسياسات حقيقية تستهدف تحييد أجهزة الدولة؛ لتكون أداة لضمان العدالة والمساواة بين الأغلبية والأقلية؛ دون تحيز لطرف على حساب الآخر، ودون أن تكون هي نفسها جزءًا من المشكلة.

يعتبر المسلمون جزءً أصيلا من تاريخ الهند؛ بل إنهم يشكلون ثاني أكبر جماعة دينية في البلاد، وحجم أكبر من أن تستوعبهم دولة أخرى أو حتى مجموعة دول، فلا جدوى من السياسات الرامية إلى التهجير أو الإقصاء، ومن ثم لا مناص من العمل على إدماج الجميع في دولة وطنية ديمقراطية؛ تُبنى على التنوع والتناغم بين مكونات المجتمع كافة، كما هو مطلوب على مستوى الاقتصاد؛ لضمان نجاح خطط الصعود والنمو الهندي.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام أيضًا هنا هي تأثير بعض القوى العربية والمسلمة في الموقف الهندي؛ فحين وجدت السلطات هناك موقفًا شبه موحد بين عدة دول لها تأثيرها في مسار العلاقات بين الهند والعالم العربي والإسلامي؛ لجأت السلطات إلى اتخاذ إجراءات لتهدئة الأوضاع خاصة فيما يتعلق بالتصريحات المسيئة للمسلمين وللإسلام، وإن كانت هذه الإجراءات غير كافية لاجتثاث أزمة التمييز الديني من جذورها؛ فمن الضروري الضغط لإصلاح الأوضاع ولتخفيف حدة التمييز ضد المسلمين في الهند، فضلا عن تصدير خطاب إسلامي معتدل يخاطب كافة مكونات المجتمع الهندي وينشر الصورة الصحيحة عن الدين ويستعرض تاريخ المسلمين هناك وكيف أنه وحتى وقت قريب كان جزءًا من التاريخ الوطني الهندي المناضل ضد "الاستعمار" الخارجي وضد محاولات الاستغلال والاحتلال.

*****

ب) دول الشرق المسلمة

آسيا الوسطى وصراع النفوذ والموارد بين روسيا والصين

محمد صلاح عبد العال(*)

مقدمة:

كانت منطقة آسيا الوسطى منذ القدم مَعْبَرًا ومفترقَ طرقٍ لحركة الشعوب والتجارة والأفكار بين أوروبا والشرق الأقصى. وكانت أيضًا ساحةً للتنافس العسكري والسياسي بين الإمبراطوريات والقوى العظمى المتصارعة على النفوذ والهيمنة، وكانت مطمعًا دائمًا لكل اللاهثين وراء المكاسب والموارد الاقتصادية.

وفي عالمنا المعاصر، نجد التنافس والصراع السياسي والاقتصادي والعسكري على آسيا الوسطى يحْتدم يومًا بعد يوم، وتتكاثر حلقاته ومجالاته، وتتعدَّد أطرافه بشكلٍ دائم. فنجد الصين وقد جعلت من آسيا الوسطى مَعْبَرًا لاثنين من أهمِّ ممرَّات حزامها الجديد في إطار مبادرة الحزام والطريق خاصَّتها. ونجد الولايات المتحدة تنصُّ في استراتيجيَّتها الرسمية على أن «آسيا الوسطى منطقة جيواستراتيجية مهمَّة في إطار مصالح الأمن القومي الأمريكي»[١]. ونجد روسيا وهي تجتهد في استعادة دول آسيا الوسطى إلى فلك هيمنتها وسيطرتها فتتدخَّل بذراع معاهدة الأمن الجماعي في كازاخستان لقمع الاحتجاجات الشعبية على النظام السياسي وحفظ الاستقرار من «الإرهاب»[٢]. وكذلك لم تَضِقْ الساحة عن استيعاب الهند الصاعدة التي تسعى لتطوير علاقاتها الاقتصادية مع دول المنطقة.

وتحاول هذه الدراسة فهم ما الذي جعل من آسيا الوسطى ساحةً لهذا التنافس والتكالب، ومقاربة الكيفية التي يجري بها هذا التنافس في حالتي روسيا والصين، والكيفية التي تتفاعل بها نخب المنطقة مع هذا التنافس.

أولًا- آسيا الوسطى: منطقة جيواستراتيجية مهمة

تمتد آسيا الوسطى في المنطقة الواقعة بين بحر قزوين في الغرب ومنغوليا في الشرق، وبين حدود روسيا في الشمال وحدود أفغانستان في الجنوب. وتنقسم المنطقة سياسيًّا إلى خمس دول حديثة التشكُّل، هي: كازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان وتركمانستان وأوزبكستان. وقد كانت المنطقة كلها ضمن أراضي الاتحاد السوفييتي حتى انهياره في عام ١٩٩١ وولادة هذه الدول.

ولمنطقة آسيا الوسطى أهمية اقتصادية واستراتيجية كبيرة. إذ تمتدُّ على مساحة تتجاوز الأربعة ملايين كيلومتر مربع، وتتوزَّع غالبها بين جبال شاهقة وصحارى شاسعة ومراعي واسعة، ويقطن هذه المساحات ما يزيد عن ستة وسبعين (٧٦) مليون نسمة، موزعين بين الدول الخمسة توزيعًا متفاوتًا (انظر الجدول ١). وهي كذلك منطقة معزولة تمامًا، لا يمكنها إلا الاعتماد على جيرانها في الاتصال المباشر بالعالم المحيط.

تكمن أهمية آسيا الوسطى استراتيجيًّا فيما يمثِّله موقعها من نقطة تمركزٍ مثالية. فالمهيمن على المنطقة تنفتح له أبواب العمق الحيوي لروسيا في الشمال، والعمق الصيني في الجنوب الشرقي، وعمق شبه القارة الهندية في الجنوب. وكذلك تضمن الهيمنة عليها السيطرة على بحر قزوين شديد الأهمية، ويتمتع المهيمن عليها بسيطرةٍ كاملة على الممرَّات الواصلة بين روسيا

(*) باحث في العلوم السياسية.

(1) Bureau of South And Central Asian Affairs, United States Strategy for Central Asia 2019-2025: Advancing Sovereignty and Economic Prosperity, U.S. Department of State, February 2020, Accessed: 1 May 2022, 20:00, Available at: https://bit.ly/3t0VEx3

(2) Olzhas Auyezov, Russia sends troops to put down Kazakhstan uprising as fresh violence erupts, Reuters, 7 January 2022, 20:10, Available at: https://reut.rs/3GwYIGG

والصين وشبه القارة الهندية، والممرَّات التي تربط الصين والشرق الأقصى وبين أوروبا.

الدولة	عدد السكان (نسمة)
كازاخستان	١٨,٧٧٧,٠٠٠
قيرغيزستان	٦,٥٢٤,٠٠٠
طاجيكستان	٩,٥٣٨,٠٠٠
تركمانستان	٦,٠٣١,٠٠٠
أوزبكستان	٣٣,٤٦٩,٠٠٠

الجدول (١)

المصدر: بيانات موقع WorldOmeter القائم على إحصاءات إدارة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية في عام ٢٠١٩[٣].

وبالإضافة إلى هذه الأهمية الاستراتيجية، تتمتَّع آسيا الوسطى بوفرةٍ في الموارد الاقتصادية الجاذبة للقوى العظمى. وعلى رأس هذه الموارد تأتي مصادر الطاقة الأساسية من النفط والغاز الطبيعي والفحم. فآسيا الوسطى تمتلك احتياطيات مؤكَّدة من النفط مقدارها ٣١,٢٥ مليار برميل من النفط، أي ما يعادل ١,٨٨٪ من الاحتياطي العالمي. وكذلك تمتلك من الغاز ما مقداره ٤١٥,٤ تريليون قدم مكعب، أي ما يعادل ٥,٩١٪ من الاحتياطي العالمي. وكذلك نجد من الفحم احتياطيات مؤكَّدة تصل إلى ٣١,٢٢ مليار طن، أي ما يعادل ٢,٧٪ من الاحتياطي العالمي من الفحم. وفوق مصادر الطاقة الأساسية، نجد في آسيا الوسطى، وبالأخص في كازاختسان وأوزبكستان، وفرةً من عنصر اليورانيوم. إذ يمثلان معًا ٠,٠٧٪ من الاحتياطي العالمي، بمقدار ١,١ مليون طن من اليورانيوم.

وعلاوةً على ما تملكه آسيا الوسطى من إمكانيات وموارد ذاتية جاذبة، نجد لكل قوةٍ من القوى الكبرى مطامع ومصالح خاصة بها تسعى إلى ضمانها وتحقيقها.

الدولة	الاحتياطي من النفط (برميل)	الاحتياطي من الغاز الطبيعي (مليون قدم مكعب)	الاحتياطي من الفحم (طن)
كازاخستان	٣٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠	٨٥,٠٠٠,٠٠٠	٢٨,٢٢٤,٦٤٧,٥٥٠
تركمانستان	٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠	٢٦٥,٠٠٠,٠٠٠	١,٥١٥,٦٧٦,٢٥٠
أوزبكستان	٥٩٤,٠٠٠,٠٠٠	٦٥,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٧٠,٣٤٣,٠١٠
قيرغيزستان	٤٠,٠٠٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	٤١٣,٣٦٦,٢٥٠
طاجيكستان	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	-

الجدول (٢)

المصدر: بيانات موقع WorldOmeter القائم على إحصاءات بريتش بيتروليم في عام ٢٠٢٠[٤].

ففي حالة **روسيا** على سبيل المثال، تعتبر آسيا الوسطى في نظر الاستراتيجية الروسية مجالًا حيويًّا وخاصرةً جنوبية يمكن لأيّ اضطرابٍ فيها أن يؤثر على استقرار روسيا الداخلي. ويمثل العامل الجيوسياسي بذلك عنصرًا هامًّا، إذ تمثل المنطقة مصدرًا محتملًا للتهديد إن تمكَّنت أي قوة معادية (الدول الغربية) أو لا تلتقي مصالحها مع المصالح الروسية (الصين؟) من الهيمنة عليها. وهو ما زاد من تحسُّس روسيا من توسُّع التحالفات السياسية والعسكرية الغربية، وخاصةً حزب الناتو.

وإلى جانب الاعتبارات الجيوسياسية، تدَّعي روسيا على الدوام أنها تسعى للدفاع عن حقوق المواطنين الروس أو ذوي الأصول الروسية ممَّن يمثِّلون قرابة ربع السكان في آسيا الوسطى. وكذلك تجتهد في الإبقاء على الدول السوفييتية الخمسة سوقًا للبضائع وقطاع الأعمال الروسي الذي عانى أزمةً خانقة منذ انهيار الاتحاد. وتشكِّل دول آسيا الوسطى معًا ما

(3) Worldometers.info, Central Asia Population, Daily Updates, Accessed on: 26 May 2022, Available at: https://bit.ly/3NI05ob

(4) Worldometers.info:

- Natural Gas Reserves by Country, Daily Updates, Accessed on: 26 May 2022, Available at: https://bit.ly/3M1pGaC

- Oil Reserves by Country, Daily Updates, Accessed on: 26 May 2022, Available at: https://bit.ly/3lTBOjd

- Coal Reserves by Country, Daily Updates, Accessed on: 26 May 2022, Available at: https://bit.ly/3z4sLUv

نسبته ٥٪ من الصادرات الروسية، بإجمالي ٢٧,٧ مليار دولار أميركي في عام ٢٠٢١، وهو ما يمثل ثلث ما تستورده جمهوريات المنطقة من العالم أجمع[٥].

أما **الصين** فنجد مصالحها الأساسية في المنطقة تدور حول أربعة أمور أساسية؛ **أولها** أن المنطقة توفِّر للصين بديلًا أقل تكلفة لمصادر الطاقة الأساسية من النفط والغاز. إذ تزيد نسبتهما من واردات الصين من الجمهوريات الخمسة عن ٥٠٪ من إجمالي وارداتها من هذه الدول، التي تجاوزت في عام ٢٠٢١ حاجز ١٨,٦ مليار دولار[٦]. وحتى الآن، تنقل الصين النفط والغاز عبر خطي أنابيب كبيريْن، هما خط غاز تركمانستان-الصين، الذي يبدأ من تركمانستان ويمر بأوزبكستان وكازاخستان، ومن هذه الأخيرة إلى مقاطعة شينجيانج الصينية، والخط الثاني هو خط نفط كازاخستان-الصين الممتد من ساحل بحر قزوين وحتى المقاطعة نفسها.

الأمر الثاني في استراتيجية الصين للمنطقة هو أن هذه الأخيرة تمثِّل بملايينها السبعين سوقًا استهلاكيًّا لا غني عنه، وساحةَ تنافس وتعاون للشركات الصينية المتعدِّدة. وقد بلغت الصادرات الصينية للجمهوريات الخمسة ما إجماليه ٢٥,٨ مليار دولار، بما يمثل ٣١٪ من إجمالي ما تستورده هذه المنطقة من العالم كله في عام ٢٠٢١[٧]. ثم يأتي **الأمر الثالث** متمثِّلًا في إحلال السلم على المناطق الحدودية. ففي الفترة السوفييتية كانت الحدود بين الصين وجمهوريات الكازاخ والقيرغيز والطاجيك غير متَّفق عليها، وسبَّبت نزاعات شديدة بين بكين وموسكو. لكن بعد تفكُّك الاتحاد، سارعت الصين إلى الاعتراف بالجمهوريات الوليدة والمبادرة لحلِّ النزاعات القائمة وتسوية المشكلات العالقة، وبالفعل تمكَّنت من ذلك بحلول عام ١٩٩٩، وتسْعى دومًا إلى ضمان هذا الاستقرار[٨].

أما **الأمر الرابع** من مصالح الصين الأساسية فهو إحلال السلام في المنطقة لضمان السيطرة على إقليم شينجيانج (تركستان الشرقية) المضطرب في شمال غرب البلاد. إذ تسْعى الصين إلى القضاء على أيِّ نزعاتٍ مقاوِمة في الإقليم، وهو ما تبلْور في حملات اضطهاد وقمع وتطهير عرقي ممنهج للمسلمين الأويجور وغيرهم من الكازاخ والقيرغيز. وتسعى الصين إلى حفظ علاقات ودية مع دول آسيا الوسطى المجاورة لإقليم لضمان السيطرة عليه ومواجهة «الإرهاب» الإسلامي فيه[٩].

وإلى جانب هاتين القوتين، نجد للقوى العظمى الأخرى مصالح جوهرية في آسيا الوسطى. فالولايات المتحدة تسْعى إلى مواجهة روسيا في الجمهوريات الخمس التي تمثل حدائق خلفية لموسكو، وتهتم بـ«تطهير» المنطقة مما سمَّته «ملاذات الإرهاب»، وبالطبع الحصول على «حصتها» من النفط والغاز في المنطقة، مع استعمال المنطقة لإحكام الحصار على إيران «الدولة المارقة». وكذلك نجد للاتحاد الأوروبي مصالح تتمثَّل بالأساس في الحصول على مصدرٍ جديدٍ للطاقة يكْسر هيمنة الغاز الروسي على أوروبا.

ثانيًا- روسيا والصين في آسيا الوسطى: تنافس وتعاون

تتقاطع مصالح روسيا والصين في آسيا الوسطى في العديد من النقاط، فكلاهما تسعيان إلى نشر الاستقرار السياسي والاجتماعي في المنطقة، وتخشيان الاحتجاجات الشعبية والاضطراب السياسي. وكذلك تهتم كلتا الدولتين بمواجهة ما تريان أنه «تطرف» في المنطقة، وخاصةً القادم من أفغانستان والشرق الأوسط. وتشتركان في بناء شبكات نقل ومواصلات

(٥) جعفر بهلول الحسيناوي، التنافس الدولي على منطقة آسيا الوسطى الاستراتيجية، مجلة حمورابي، السنة الثامنة، عدد ٣٣-٣٤، شتاء وربيع ٢٠٢٠، ص ص ١٩٥-١٩٧.

(6) Trade Map of International Trade Center, Bilateral trade between China and Central Asian Republics: Yearly Updates, Accessed on: 26 May 2022, Available at: https://bit.ly/3GoqCVh

(٧) المرجع السابق.

(8) China signs border demarcation pact with Russia, Reuters, 21 July 2008, Accessed at: 26 May 2022, Available at: https://reut.rs/3PSXR7y

(٩) جعفر بهلول الحسيناوي، التنافس الدولي على منطقة آسيا الوسطى الاستراتيجية، مرجع سابق، ص ص ٢٠٠-٢٠١.

واسعة النطاق في إطار مبادرة الحزام والطريق الصينية التي دخلت فيها روسيا عبر ممر الصين-روسيا-منغوليا الاقتصادي الذي خطَّطت له الصين. وجرى الاتفاق ضمنيًّا وفي التصريحات العلنية على كثافة العلاقات بين البلدين، وترابط مصالحهما في المنطقة من باب تقسيم العمل بينهما، فتركِّز الصين على مساعيها الاقتصادية، وتضْمن روسيا الجوانب الأمنية والعسكرية.

وكذلك تفضِّل الصين وروسيا إبقاء الحكومات التسلُّطية في الجمهوريات الخمس، وتعارضان بعداء السعي الغربي لفرض الديمقراطية على المنطقة، بما قد يؤدِّي لأنظمة ديمقراطية تهدد مصالحهما. وكذلك تسعى قيادة الدولتين إلى تقليل النفوذ الغربي في المنطقة. إذ في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وبالأخص بعد حوادث الحادي عشر من سبتمبر وتدخُّل الجيوش الغربية في أفغانستان وآسيا الوسطى في المجْمل، وقد وصلت دوافع التعاون بين الدولتين إلى أقصاها خوفًا من حصول الغرب، والولايات المتحدة على وجه الخصوص، على موطئ قدمٍ في المنطقة.

إلَّا أن انسحاب الولايات المتحدة من قاعدتها العسكرية في ماناس القيرغيزية في عام ٢٠١٤، ثم الانسحاب من أفغانستان في عام ٢٠٢١، واللامبالاة التي تعاملت بها إدارة ترامب مع المنطقة؛ أدَّى كلُّ ذلك إلى إزاحة الغرب من المنطقة بوصفه منافسًا جيوسياسيًّا عليها[١٠]، وأبان عن إمكانيات التباعد والتنافس المتزايد بين مصالح الروس والصينيّين، وأظهر تدخُّل كلٍّ منهما في مجال الآخر، فنجد توسُّعًا روسيًّا في محاولة السيطرة على الموارد الاقتصادية، وكذلك اهتمامًا صينيًّا كبيرًا بالمجال العسكري والأمني. وسنَنْظر فيما يلي في أوجُه هذا التنافس من أربعة جوانب: جانب **العلاقات المؤسسية والتنظيمية الرسمية**، وجانب **النشاط الاقتصادي**، وجانب **النشاط الأمني والعسكري**، وجانب **القوة الناعمة**.

- **العلاقات المؤسسية والتنظيمية الرسمية**

هناك العديد من العلاقات المؤسَّسية بين روسيا ودول آسيا الوسطى. فنجد على سبيل المثال **اتحاد الدول المستقلة** عن الاتحاد السوفييتي (CIS) الذي يضم حاليًّا جمهوريات آسيا الوسطى -باستثناء تركمانستان- مع روسيا إلى جانب أربع دولٍ سوفييتية سابقة، وهو في أحسن الأحوال مؤسسة رمزية تأسَّست بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. وكذلك نجد **منظمة معاهدة الأمن الجماعي** (CSTO) التي تضمُّ حاليًّا روسيا إلى جانب ثلاث دول هي كازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان، وهي حلف عسكري. ونجد **الاتحاد الاقتصادي اليوروآسيوي** (EAEU) وهو اتحاد اقتصادي نشأ بشكله الحالي في عام ٢٠١٥ تأسِّيًا بالاتحاد الأوروبي، ويضم روسيا وكازاخستان وقيرغيزستان إلى جانب أرمينيا وبيلاروسيا. وأخيرًا هناك **منظمة شانغهاي للتعاون** (SCO) التي تأسَّست في عام ٢٠٠١ وتضم الصين وروسيا ودول آسيا الوسطى باستثناء تركمانستان، ومعهم الهند وباكستان وإيران. وتمثِّل منظمة شنغهاي تطويرًا لمعاهدات الحدود التي أشرنا إليها سابقًا بين الصين ودول الاتحاد السوفييتي السابقة.

ولا نجد آليةً إقليمية واحدة تجْمع روسيا مع دول آسيا الوسطى الخمسة إلا آلية (٥+١) التي جمعت وزراء خارجية الدول الخمسة مع وزير الخارجية الروسي بدءًا من عام ٢٠١٩، وهي آلية سبقت الكثير من الدول روسيا في تشكيلها، من أمثال اليابان وكوريا الجنوبية والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة والهند، وكذلك الصين في عام ٢٠٢٠[١١].

(10) P. Stobdan, US Military Departure from Manas Stirring a New Game in Central Asia, Manohar Parrikar Institute for Defence Studies and Analyses, 7 July 2014, Accessed on: 23 May 2022, Available at: https://bit.ly/38l7xGO

(11) Farkhod Tolipov, 5+1: The Math of Geopolitics in Central Asia, Central Asian Bureau for Analytical Reporting, 7 November 2020, Accessed on: 24 May 2022, Available at: https://bit.ly/3Go5NsT

أما عن الصين، فعلاقاتها التنظيمية الرسمية مع آسيا الوسطى أقل بكثير من روسيا. إذ يتمثل ارتباطها التنظيمي الرسمي الأساسي في منظمة شنغهاي المذكورة وآلية (٥+١). ولا تعتبر مبادرة الحزام والطريق الشهيرة منظمةً دولية، بل هي مجموعة من المبادرات الاقتصادية التي تقودها الصين. لكننا نجد أن ارتباط الجمهوريات الخمسة بالمبادرة كبير، إذ دعمت جميعها المبادرة، ووقَّعت مع الصين، باستثناء تركمانستان، مذكرة تفاهم تُشير إليهم بوصفهم أعضاءً في المبادرة، وكلهم، باستثناء تركمانستان، أعضاء في **بنك الاستثمار الآسيوي في البنية التحتية** الذي تديره الصين.

خلاصة ما سبق أن **لروسيا في جانب العلاقات التنظيمية الرسمية مع آسيا الوسطى اليد الطولى**. فالصين تركز لا غير على نشر مبادرتها الاقتصادية، واستجلاب دعم الدول لها، وفتح الأبواب أمام ممرَّاتها وطرقها التجارية. في حين أن روسيا تهتم بالإبقاء على نوعٍ معين من الإقليمية، حتى لو كانت، كما عبَّر البعض، إقليميةً «افتراضية» رمزية أكثر منها ذات وظائف واضحة[١٢]. وذلك نظرًا لأن المنظمات المذكورة كلها ليست ذات تأثيرٍ كبير على سياسات المنطقة، إلا في حالات محدودة.

- **النشاط الاقتصادي**

كان اقتصاد الجمهوريات الخمس إبان حقبة الاتحاد السوفييتي يخضع بالأساس للإدارة السوفييتية المركزية. لكن مع انهيار الاتحاد، بدأت العلاقات الاقتصادية مع الدول المجاورة تتغير بشكلٍ كبير. ففي حالة روسيا، نجد أن العلاقات الاقتصادية قد بدأت تخْفت تدريجيًّا، وإن ما زال لها دور كبير في اقتصاد الجمهوريات الخمس، وفي حالة الصين نجدها في تصاعدٍ مستمر.

فمن جانب، تعتمد اقتصادات قيرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان اعتمادًا كبيرًا على تحويلات مواطنيهم العاملين في روسيا. ففي الأولى مثَّلت التحويلات نسبة ٢٨,٥٪ من إجمالي الناتج القومي في عام ٢٠١٩، وفي الثانية ٢٨,٦٪، وفي الأخيرة ١٤,٨٪[١٣]. أما إلى الصين، فهجرة مواطني دول آسيا الوسطى لا قيمة لها. ففي دراسة أعدَّتها زولفيا رايزوفا في عام ٢٠٢٠، لا تُعَدُّ الصين من الأماكن الجاذبة للعمالة من دول آسيا الوسطى[١٤].

لكن من جانب آخر، نجد الصين قد سبقت روسيا لتصبح هي الفاعل الاقتصادي الأهم في المنطقة. فمثلًا، وفقَ الجدول (٣)، نجد أن الصين قد أصبحت مستثمرًا أكبر من روسيا في كل دول المنطقة، وفي كازاخستان على وجه الخصوص (٢٩,١٧ مليار دولار استثمار تراكمي مباشر للصين مقابل ٦,٤٨٣ مليار دولار في الفترة ما بين ٢٠٠٧ و٢٠١٩). فنجد نسبة الاستثمار الصيني تتراوح بين أربعة أضعاف الاستثمار الروسي في كازاخستان وواحدٍ وأربعين ضعفًا في تركمانستان.

دول آسيا الوسطى	روسيا	الصين
كازاخستان	٦,٤٨ مليار دولار	٢٩,١٧ مليار دولار
قيرغيزستان	٥٩٢ ألف دولار	٤,٧٣ مليار دولار
طاجيكستان	١٩٣ ألف دولار	١,٤٥ مليار دولار
تركمانستان	١٦٥ ألف دولار	٦,٨ مليار دولار
أوزبكستان	١,٠٩ مليار دولار	٥,٧٩ مليار دولار

جدول (٣)

المصدر: صفحة الاستثمار الروسي المباشر في موقع بنك روسيا، وصفحة متتبع الاستثمار الصيني التابعة لمعهد أميركان إنتربريز[١٥].

(12) Roy Allison, Virtual Regionalism, Regional Structures and Regime Security in Central Asia, Central Asian Survey, Volume 27, Issue 2, Spring 2008, pp. 189-191.

(13) Personal remittances, received (٪ of GDP), World Bank, 2020, Accessed on: 26 May 2022, Available at: https://bit.ly/3PKHyJH

(14) Zulfiya Raissova, Trends in Modern Labor Migration in Central Asia, , Central Asian Bureau for Analytical Reporting, 13 February 2022, Accessed on: 23 May 2022, Available at: https://bit.ly/3xgXAD1

(15) See:

وإلى جانب الاستثمار الأجنبي المباشر، تعتمد بكين اعتمادًا كبيرًا على إقراض دول المنطقة، وغالبًا في إطار مبادرة الحزام والطريق. فكل دول المنطقة مدينة للصين، وأخطرها موقفًا هي قيرغيزستان وطاجيكستان. فالصين تحمل وحدها ٤٥٪ من ديون قيرغيزستان الخارجية بما يقابل ٢,٣ مليار دولار (٣٠,٥٪ من الناتج القومي الإجمالي)، و٥٢٪ من ديون طاجيكستان بما يقابل ١,١٥ مليار دولار (١٦,٢٪ من الناتج القومي الإجمالي)[١٦].

أما عن روسيا، فلا نجد معلوماتٍ واضحة عن ديونها لدى دول آسيا الوسطى، إذ إن معاملاتها المالية لا تتَّسم بالشفافية. فالأسلحة تُعْطَى لأعضاء معاهدة الأمن الجماعي بأسعار مخفَّضة (أو مجانًا)، وتحْصل كازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان على إعانات مالية من صندوق الاستقرار الأوراسي التابع للاتحاد الاقتصادي اليوروآسيوي، وكذلك أسقطت روسيا الكثير من الديون في محاولةٍ منها لزيادة نفوذها. ففي عام ٢٠٠٤ على سبيل المثال، أسْقطت روسيا ٣٠٠ مليون دولار اقترضتْهم طاجيكستان في مقابل بناء قواعد عسكرية روسية[١٧].

فمن ناحية، يبدو أن شبكة العلاقات المالية بين دول آسيا الوسطى وروسيا أكبر ممَّا يبدو في القنوات الرسمية للاقتراض. لكن من ناحيةٍ أخرى، لا شك في أن للصين اليد الطولى باعتبارها المقرِض الأكبر لجمهوريات المنطقة.

أما على مستوى التبادل التجاري، فنجد الصين وقد تنامتْ مقاديرُ تبادلاتِها التجارية مع دول المنطقة تناميًا مستمرًّا على مدار العقود الثلاثة الماضية، لتصل في عام ٢٠٢١ إلى ٤٤,٥ مليار دولار أميركي، في مقابل ٣٧,١ مليار دولار مقدار التبادل بين روسيا والجمهوريات الخمس[١٨].

تتَّسم مصالح الصين الاقتصادية في آسيا الوسطى بأنها متعدِّدة الأوجُه. فالوصول إلى المواد الخام ومصادر الطاقة والمعادن أحد أهم أهدافها، كما يتبدَّى في خطوط النفط والغاز. وكذلك تُعتبر المنطقة ممرًّا استراتيجيًّا حيويًّا لنقل البضائع إلى أوروبا في إطار مبادرة الحزام والطريق، وكذلك أصبح للبنوك الصينية حضور كبير في المنطقة في تمويل المشروعات التي تقوم عليها الشركات الصينية.

وفي عام ٢٠١٤، أعلنت الصين عن مشروعها **طريق الحرير الرقمي**، فتوسَّعت علاقاتها مع دول آسيا الوسطى في المجال التقني، وبدأت في نقل المعرفة التقنية وثقافة الشركات إلى المنطقة، ودفعت المبادرات الصينية جهود الرقمنة في آسيا الوسطى[١٩]. فنجد شركة الاتصالات الصينية العملاقة، هواوي، تساعد كازاخستان وأوزبكستان وطاجيكستان في إدخال تقنية شبكات الجيل الخامس، وفي تأسيس تقنية

- China Global Investment Tracker, American Enterprise Institute, 2021, Accessed on: 14 May 2022, Available at: https://bit.ly/3PPNotv

- Flows [of DI] by Insturment and Partner Country, Bank of Russia, 2021, Accessed on: 14 May 2022, Available at: https://bit.ly/3wWeGWu

(16) Sebastian Horn, Carmen Reinhard, and Christoph Tresbech, China's Overseas Lending, Working Paper 26050, National Bureau of Economic Research, May 2020, Accessed on: 23 May 2022, Available at: https://www.nber.org/papers/w26050

(17) Danny Anderson, Risky Business: A Case Study of PRC Investment in Tajikistan and Kyrgyzstan, China Brief, Vol. 18, Issue 14, 10 August 2018, Accessed on: 23 May 2022, Available at: https://bit.ly/3LVlWr0

(18) See:

- Trade Map of International Trade Center, Bilateral trade between China and Central Asian Republics: Yearly Updates, Op. cit.

- Bilateral trade between Russia and Central Asian Republics: Yearly Updates, International Trade Center, Accessed on: 23 May 2022, Available at: https://bit.ly/3LOQ6Mz

(19) Berta Tarrats Castillo, The Digital Silk Road: A View in Central Asia, European Guanxi, 3 December 2021, Accessed on: 23 May 2022, Available at: https://bit.ly/3lO2Vw6

المراقبة المسمَّاة بـ«المدن الآمنة»[٢٠]. وفي السنوات التي قلَّلت فيها الصين من نشاطها التقني في الدول الغربية، حقَّقت حضورًا تقنيًّا كبيرًا في جمهوريات آسيا الوسطى. وهنا تحاول الصين تجاوز العلاقة التقليدية بينها وبين دول آسيا الوسطى التي تمحْورت حول المواد الخام ومصادر الطاقة، إلى ربطها بها في شبكة رقمية قوية. وتتَّسم هذه المساعي بقوةٍ كبيرة تتجاوز ما يمكن لروسيا، ماليًّا وتقنيًّا، مواجهته. ومن كلّ ذلك، نجد أن الصين تسْبق روسيا في آسيا الوسطى بمعدَّلاتٍ سريعة وكبيرة، بما يجعلها الأشدَّ هيمنةً على المقدرات الاقتصادية للمنطقة.

- **النشاط الأمني والعسكري**

تظلُّ روسيا الشريك الأمني الأكبر لدول آسيا الوسطى، لكن الصين تسعى يومًا بعد يوم إلى تعظيم نصيبها من الأنشطة الأمنية والعسكرية في السنوات السابقة، بما انعكس ببعض التوتُّرات بينهما. فروسيا والصين لا تنسِّقان أعمالَهما العسكرية والأمنية في المنطقة إلَّا في إطار التدريبات العسكرية التي تشرف عليها منظمة شنغهاي للتعاون. في الوقت الذي تبيعان فيه السلاح وتعْقدان تدريبات ومناورات عسكرية مشتركة وتدرِّبان ضبَّاط جيوش الجمهوريات الخمس على أساسٍ ثنائي.

ولروسيا قاعدتان عسكريَّتان في المنطقة، الأولى تحْتوي سبعة آلاف جندي في طاجيكستان، والأخرى قاعدة جوية تحْوي أكثر من خمسمئة جندي في قيرغيزستان. أما الصين، فقد أسَّست قاعدة لحرس الحدود في منطقة جورنو-باداخشان ذات الحكم الذاتي في طاجيكستان تحْوي حسب وصف صحيفة "واشنطن بوست" قرابة عشرين مبنىً وبضع مئاتٍ من الجنود، ويعتبرها البعض قاعدةً عسكرية[٢١].

ومن ناحية مبيعات الأسلحة الروسية والصينية لآسيا الوسطى، فيصعب حسابها نظرًا لأن كلا البلدين يقدِّمان الأسلحة مجانًا أو مقابل النفط والغاز. لكن في دراسةٍ حديثة، قدَّر الباحثان برادلي چاردين (Bradley Jardin) وإدوارد لِمون (Edward Lemon) أن روسيا قدَّمت ما يزيد عن ثمانين في المئة من أسلحة المنطقة، في الفترة بين عامي ١٩٩١ و٢٠١٩، مع زيادةٍ مستمرَّة، وكانت ثلاثة أرباع هذه الأسلحة في الفترة من ٢٠١٠ إلى ٢٠١٩. أما الصين، فعلى قلَّة مساهمتها فإنها زادت من ١,٥٪ في الفترة من ٢٠١٠ إلى ٢٠١٤، إلى ١٨٪ من إجمالي واردات الأسلحة في المنطقة في الفترة من عام ٢٠١٥ إلى ٢٠١٨. ونجدها قد تجاوزت سيطرة روسيا على سوق الأسلحة في أوزبكستان وتركمانستان. لكن تظل روسيا هي المهيمنة على سوق الأسلحة في المنطقة[٢٢].

وفي جانب المناورات العسكرية، نجد روسيا تتجاوز الصين تجاوزًا كبيرًا في عدد المناورات العسكرية المشتركة الثنائية ومتعدِّدة الأطراف، وإن كانت مناورات الصين تزداد بشكلٍ سريع في السنوات الأخيرة. ففي التقرير المذكور سابقًا، ينقل الباحثان أن روسيا والصين قد عقدتا كل واحدة منهما عشر مناورات مع دول آسيا الوسطى، لكن روسيا عقدت إضافةً إلى ذلك ستة وعشرين مناورة في إطار منظمة معاهدة الأمن الجماعي. وينطبق الأمر نفسه على برامج تدريب ضباط الجيش، فروسيا تسبق بعددٍ كبير، لكن برامج الصين تتزايد بشكل أسرع. إذ يُقدَّر أن أكثر من نصف ضباط الجيش الكازاخي قد تدرَّب في روسيا، وأن سبعين في المئة من القوات الخاصة الطاجيكية قد تخرَّجت من معاهد عسكرية روسية. أما الصين فتتوسَّع في عدد برامجها العسكرية لتتضمَّن برامج تقدِّمها جامعات صينية ودورات

(20) Rhys Collins, Kazakhstan: Huawei to launch 5G network in 2021, Novastan, 19 March 2021, Accessed on: 3 May 2022, Available at: https://bit.ly/3GvmH94

(21) Gerry Shih, In Central Asia's forbidding highlands, a quiet newcomer: Chinese troops, The Washington Post, 18 February 2019, Accessed on: 20 May 2022, Available at: https://wapo.st/3tmIDy7

(22) Bradley Jardine and Edward Lemon, In Russia's Shadow: China's Rising Security Presence in Central Asia, Kennan Cables, No. 52, May 2020, p. 2, Accessed on: 23 May 2022, https://bit.ly/3NCFbH3

تدريبية لحرس الحدود وقوات وزارات الداخلية في الدول الأعضاء في منظمة شنغهاي[٢٣].

لكن الجانب الأخطر من انخراط الصينيّين في الجوانب الأمنية والعسكرية هو جانب شركات الأمن الخاصة. فمع توسُّع الأنشطة الاقتصادية الصينية في المنطقة، ثارت العديد من المخاوف الشعبية من التوسُّع الصيني، حتى وصلتْ إلى مرحلةٍ من الصينوفوبيا، بما تسبَّب أكثر من مرة في تظاهرات وأعمال شغب ضد المشروعات الصينية. فعلى سبيل المثال، هاجم المتظاهرون القيرغيز، المحتجُّون على تزوير الانتخابات البرلمانية في أكتوبر من عام ٢٠٢٠، اثنين من مناجم الذهب التي تقوم الشركات الصينية على إدارتها، وطردوا العمال الصينيّين منها[٢٤]. وهو ما دفع الصين إلى تكثيف أنشطتها في مجال شركات الأمن الخاصة في المنطقة، ليصبح لديها ست شركات نشطة في الجمهوريات الخمس.

تحتضن طاجيكستان أشد أنشطة الصين الأمنية والعسكرية كثافةً في السنوات الماضية. إذ يبدو أن الصين تركِّز بالأساس على حفظ الأمن ومواجهة الأنشطة «الإرهابية» في المنطقة، وبالأخص منع المقاتلين الأفغان والأجانب من الانتقال إلى مقاطعة شينجيانج (تركستان الشرقية). فنجد أن الصين قد بَنَتْ ما يقارب إحدى عشر قاعدةً لحرس الحدود لصالح الطاجيك، وكذلك شارك في عام ٢٠١٦ عشرةُ آلاف جندي وضابط من الصينيّين والطاجيك في تدريبات مقاومة الإرهاب. وكذلك أسَّست الصين في عام ٢٠١٦ **آلية التعاون والتنسيق الرباعي** مع طاجيكستان وباكستان وأفغانستان لضمان الأمن في المنطقة[٢٥].

خلاصة الأمر أن روسيا والصين تشتركان في مصلحة حفظ الأمن الإقليمي في آسيا الوسطى، لكن هناك بعض علامات على توترات قائمة بين الطرفين. أو بتعبيرٍ آخر، لدى روسيا بعض التحسُّس من نموّ النشاط الصيني.

● **القوة الناعمة**

تمثل روسيا النقطة المرجعية الأساسية لدول آسيا الوسطى بسبب التراث السوفييتي، وإن كان أثرها قد بدأ يخفت تدريجيًّا بعد انهيار الاتحاد. ونجد الحضور الروسي الثقافي والاجتماعي والسياسي واضحًا في استعمال اللغة الروسية، وانتشار وسائل الإعلام والأخبار الروسية، والعلاقات السياسية والتجارية بين نخب المنطقة ونظرائهم من الروس، وكذلك في عدد الطلاب ممَّن يختارون روسيا للدراسة. وكذلك تشتدُّ العلاقات بفعل العمالة المهاجرة إلى روسيا، وأهمية تحويلاتهم لاقتصاد الجمهوريات الخمس كما أشرنا سابقًا، وبالأخص قيرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان.

أما الصين فلا ترْقى علاقاتها التاريخية والثقافية والاجتماعية مع آسيا الوسطى لمنافسة العلاقات الروسية. لكنها أعدَّت برنامجًا لتطوير نفوذها في المنطقة، جعل سرعتها في توسُّع نفوذها أكبر بكثير من روسيا التي تعتمد على تراثها المشترك مع الدول الخمس. ففي الخمسة عشر عامًا الماضية، أسَّست الصين ١٣ مركزًا لتعليم اللغة الصينية أكثر ممَّا فعلت روسيا التي أسَّست ٩ مراكز فقط، وأصبح عدد المنتسبين إلى مراكز الصينية بالآلاف[٢٦].

لكن من غير الواضح ما إن كانت صورة الصين في آسيا الوسطى جيدةً مقارنةً بروسيا، إذ نجد مقاومةً شعبية للحضور الصيني، تزداد حدَّتها بسبب الاضطهاد الصيني للأويجور في شينجيانج (تركستان الشرقية). لكن في الوقت نفسه، نجد أن لها حضورًا قويًّا في أذهان الرأي العام بفعل حملات العلاقات

(23) Ibid, p. 8-9.

(24) Kanat Shaku, Wave of attacks on foreign owned gold mines amid Kyrgyzstan's political upheaval, bne IntelliNews, 7 October 2020, Accessed on: 24 May 2022, Available at: https://bit.ly/3ajouC9

(25) Bradley Jardine and Edward Lemon, In Russia's Shadow: China's Rising Security Presence in Central Asia, Op. cit., pp. 2-3.

(26) Xinhua, Chinese language craze catches on in Tajikistan, ChinaDaily, 16 October 2018, Accessed on: 22 May 2022. Available at: https://bit.ly/3wJFtFm

العامة والترويج الإعلامي. فعلى سبيل المثال، نجد في الجدول (٤) نتائج استطلاعَ رأيٍ عقده الباحثان مارلين لوريل (Marlen Laurelle) وديلان رويس (Dylan Royce) في عام ٢٠٢٠ بخصوص تفضيل سكان الجمهوريات الخمس لروسيا والصين.

ونرى من النتائج أن الصين ذات شعبيةٍ إلى حدٍّ ما، لكنها لا تقارن بشعبية روسيا. إذ يرى في الصين دولةً مفضلة نسبة من ٥٢٪ إلى ٨٤٪ من عينة الدراسة، في مقابل نسبة من ٨١٪ إلى ٩٤٪ يفضلون روسيا.

	روسيا			الصين		
	مفضَّلة بشدَّة	مفضَّلة إلى حدٍّ ما	إجمالي المفضِّلين	مفضَّلة بشدَّة	مفضَّلة إلى حدٍّ ما	إجمالي المفضِّلين
كازاخستان	٣٩٪	٤٧٪	٨٦٪	١٧٪	٤٣٪	٦٠٪
قيرغيزستان	٥١٪	٤٢٪	٩٣٪	١٣٪	٣٩٪	٥٢٪
أوزبكستان	١٩٪	٦٢٪	٨١٪	١٠٪	٥٩٪	٦٩٪
تركمانستان	٧٣٪	٢١٪	٩٤٪	٥٤٪	٣٠٪	٨٤٪

جدول (٤)

نتائج استطلاع الرأي العام حول تفضيل روسيا والصين في دول آسيا الوسطى. المصدر: استطلاع رأي عقده الباحثان مارلين لوريل وديلان رويس في أغسطس من عام ٢٠٢٠م[٢٧].

إن القوة الناعمة الروسية تفوق إلى حدٍّ كبير القوة الناعمة للصين، لكن يبدو أن الحضور الصيني ستزداد قوته في السنوات القادمة، وستصبح هي الدولة التي تقدِّم دعمًا أكثر لجمهوريات المنطقة في الارتباط بالاقتصاد العالمي وتمنحهم القدرة التقنيَّة والماليَّة ولا تركِّز فقط على الموارد التقليدية من النفط والغاز والمعادن. وتؤكِّد بعضُ الدراسات أن الطلاب المحليِّين في آسيا الوسطى يرون أن الأثر الكلِّيَّ للصين على المنطقة أثر إيجابي وينفع أكثر ممَّا يضرُّ.

خاتمة: من تختاره النخب؟

عطفًا على الجزء الأخير من القسم السابق، نتناول في هذه الخاتمة الكيفية التي تفاعلت بها نخب المنطقة مع التنافس الصيني الروسي، والحضور المتزايد لأنشطة الفريقين في المنطقة. وقد أشرنا إليه بصيغة «من تختار» بدلًا من «كيف تفاعلت» للدلالة على أنه لا مناص لدول آسيا الوسطى بفعل موقعها وماردها وقلة عدد سكانها إلا أن تكون في فلك إحدى القوى العظمى القائمة، أو أن تكون هي معًا قوة عظمى!

وعلى مستوى النخب، فقد اختارت جمهوريات آسيا الوسطى في تفاعُلها مع الصعود الصيني والتنافس بينها وبين روسيا، الميلَ ناحية الصين. فنجد أنه ثارت العديد من التظاهرات ضد التوسُّع الصيني في وسط آسيا[٢٨] قمعتْها النُّخب الحكومية وأنكرت أن يكون الهدفُ الصينيُّ هو التوسُّع، بل مجرد نفع المجتمعات الآسيوية.

والمنطق الكامن وراء هذا الاختيار هو الخروج من فلك الهيمنة الروسية. إذ تحمل النخب في هذه الدول مخاوفَ دائمة من سيطرة الروس، زادتْ بعد ضَمِّ شبه جزيرة القرم بذريعة أنها تحتوي الكثير من الروس وأنها كانت جزءًا من الأراضي الروسية دائمًا. لكن في المقابل لا نجد الكثير من الصينيِّين المقيمين في هذه الدول، وما للصين في هذه المنطقة من مصلحة إلَّا ضمان القضاء على الأنشطة المعادية لها من «إرهاب ونزعات انفصالية» لدى الأويجور وغيرهم، وشراء الموارد وحفظ المنطقة

(27) Marlene Laurelle and Dylan Royce, No Great Game: Central Asia's Public Opinions on Russia, China, and the U.S., Kennan Cables, No. 56, August 2020, Accessed on: 18 May 2022, Available at: https://bit.ly/3lT9mhf

(28) Elizabeth Woods and Thomas Baker, Public Opinion on China Waning in Central Asia, The Diplomat, 5 May 2022, Accessed on: 15 May 2022, Available at: https://bit.ly/3wRmRDn

بوصفها ممرًّا للتجارة مع أوروبا. وما من شيء في هذه المصالح يمثِّل تهديدًا وجوديًّا لدول المنطقة، على عكس المصالح الروسية.

وكذلك، ترى النخب في التقارب مع الاقتصاد الصيني المزدهر فرصةً كبيرة في مقابل منافع التقارب مع الاقتصاد الروسي الراكد والمهدَّد. فالمنافع العائدة على الجمهوريات الخمس من مشروعات مبادرة الحزام والطريق تجعل المشروعات المقترحة من روسيا في إطار الاقتصاد الأوراسي لا قيمة لها. وعلى مستوى التعامل الدبلوماسي، ترى نخب آسيا الوسطى أن العلاقة مع الصين أقرب إلى علاقة العمل والمنفعة المتبادلة، في مقابل علاقة السيطرة الأبوية والتاريخ المشترك التي تروّج لها روسيا.

*****

يفسِّر كلُّ ذلك مساعي نخب آسيا الوسطى نحو نزع الطابع الروسي عن أنفسهم وعن مجتمعاتهم، وذلك عبر الكثير من المبادرات منها الترويج للغات المحلية، والاستغناء عن الحروف الكيريلية في كتابة لغاتهم، وبالأخصِّ عبر التقارب مع الصين.

إن التنافس الصيني الروسي على آسيا الوسطى، وقبله تعاونهما في وجه القوى الغربية، يعيد إلى الأذهان الحديث عن «اللعبة الكبرى» بين الإمبراطورية البريطانية وروسيا القيصرية، بلعبةٍ كبرى جديدة بين روسيا والصين، تلعب فيها دول آسيا الوسطى دور الضحية المُتنافَس عليها دون قدرةٍ على المناورة إلَّا في التقارب مع أقلِّ المتنافسين ضررًا.

باكستان ومعضلة التنمية والتحولات الداخلية والإقليمية

أسماء البنا(*)

مقدمة:

نشأت دولة باكستان في أغسطس ١٩٤٧ وكان ظهورها بداية لمرحلة جديدة في شبه القارة الهندية، حيث تأسَّست بعد الاتفاق بين الأطراف السياسية الفاعلة في شبه القارة الهندية على قيامها إلى جانب دولة الهند. وقد قامت الدولة الجديدة بعد صراع طويل مع الاستعمار البريطاني والأغلبية الهندوسية التي قادت حركة المقاومة الوطنية في شبه القارة الهندية[١]، ولقد عانت البلاد من الحكم العسكري لفترة طويلة، مثل انقلاب أكتوبر ١٩٥٨ الذي قام به الجنرال أيوب، وانقلاب ١٩٧٠ الذي قام به الجنرال ضياء الحق على الحكم المدني للرئيس ذو الفقار علي بوتو، وأخيرًا انقلاب بروز مشرف على نواز شريف في ١٩٩٩[٢]، ولا تزال باكستان تعاني من عدم الاستقرار على عدَّة مستويات؛ على المستوى السياسي يستمرُّ الصراع بين النُّخب المدنية والعسكرية على السلطة[٣]، بالإضافة إلى عدم استقرار العملية السياسية حيث تمَّ سحب الثقة من عمران خان (رئيس الحكومة المنتخب)[٤] من البرلمان في أبريل ٢٠٢٢، وصوَّت أعضاء البرلمان الباكستاني، يوم الإثنين ١١ أبريل ٢٠٢٢، على تعيين زعيم المعارضة شهباز شريف، رئيسًا جديدًا للوزراء في البلاد بشكل مؤقَّت[٥]، ومن جانب آخر تعاني البلاد من ضعف مؤسَّسات الدولة والعنف السياسي. أما على المستوى الاقتصادي، فتُعاني البلاد من تراجع وتعثُّر التنمية الاقتصادية وعدم استقرار معدَّلات النموِّ الاقتصادي، والفجوة الكبيرة في توزيع ثمار التنمية، مما أدَّى إلى مشكلات اقتصادية خطيرة مثل ارتفاع البطالة والتضخم وأزمة الطاقة والغذاء والمياه وغيرها.

أما على المستوى الأمني فتواجه الدولة عدَّة مشكلات من أهمِّها عدم استقرار الوضع الأمني وازدياد الهجمات والأعمال الإرهابية خاصة على المناطق الحدودية بشكل يعوق ممارسة المواطنين حياتهم اليومية. وقد شهدت العمليات الإرهابية زيادة بعد سيطرة طالبان على السلطة في أفغانستان مما أدَّى إلى تعزيز قوة حركة طالبان الباكستانية.

وتنقسم هذه الورقة إلى محورين، المحور الأول: التنمية الاقتصادية في باكستان، ويتناول مجموعةً من الأسئلة: ما هي المراحل المختلفة التي مرَّت بها باكستان في طريقها للتنمية الاقتصادية؟ ما هي المشكلات التي تُعاني منها باكستان في

(*) باحثة في العلوم السياسية.

(١) ستار جبار علاوي، باكستان دراسة في نشأة الدولة وتطور التجربة الديمقراطية، (السودان: دار الجنان للنشر والتوزيع، ٢٠١٢)، ص ٥.

(٢) شفيق شقير، باكستان.. تاريخ حكم العسكر والمدنيين، مركز الجزيرة للدراسات، ١٧ أغسطس ٢٠٠٧، تاريخ الاطلاع: ١ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3wukHth

(٣) هبة كمال عبد المجيد، العلاقة بين القيادة السياسية والمؤسسة العسكرية للدولة وأثرها على اضطراب النظام في باكستان، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ٢٤ يوليو ٢٠١٦، تاريخ الاطلاع: ١ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Y67RP

(٤) للمزيد انظر:

- باكستان بين الشرعية الإسلامية وتعايش الديمقراطية والجيش، الشرق الأوسط، ٨ سبتمبر ٢٠١٨، تاريخ الاطلاع: ١ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3sAqYlP

- باكستان: البرلمان يصوت على عزل رئيس الوزراء عمران خان، فرانس ٢٤، ٩ أبريل ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ١ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3wdjVlr

(٥) ما هي التحديات التي تواجه الحكومة الباكستانية الجديدة، سكاي نيوز، ١١ أبريل ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ١ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3FYZhcd

التنمية؟ ما هي أهم مؤشِّرات باكستان طبقًا لمؤشِّر التنمية المستدامة الأخير (٢٠٢١)؟ والمحور الثاني: أهم التحديات الإقليمية وتتمثَّل في: الصراع مع الهند، والعلاقات مع أفغانستان، وموقف باكستان من التقارب الروسي الصيني. ويناقش المحور مجموعة من الأسئلة: ما هي طبيعة العلاقة وأهم نقاط الصراع بين باكستان والهند وكيف تطوَّر الصراع؟ كيف تطوَّرت العلاقات الباكستانية الأفغانية وخاصة في ظلِّ وصول طالبان للسلطة في ٢٠٢١؟ وأخيرًا كيف تفاعلت باكستان مع التقارب الروسي الصيني بعد الحرب الباردة؟

أولًا- التنمية الاقتصادية

تمثِّل التنمية الاقتصادية والاجتماعية واحدةً من أهمِّ المعضلات التي تواجهها باكستان، وبالرغم من أن المؤشِّرات الاقتصادية الدولية تشير إلى تقدُّم باكستان في العديد من الجوانب، إلا أنها ما زالت تُعاني من ارتفاع مستويات الفقر وانخفاض مستويات التعليم والصحة والخدمات وخاصة في قطاع الطاقة والمياه، بالإضافة إلى أنها لم تستطع الحفاظ على معدَّل نموٍّ اقتصادي دائم طوال عقودها الستَّة. فقد كان للحربين الرئيسيَّتين مع الهند، وخسارة الجزء الشرقي من البلاد، وتجربة ذو الفقار علي بوتو مع السياسات الاشتراكية، آثارُها السلبية على الاقتصاد.

وفي حقبة ما بعد ١١ سبتمبر ساعد تدفُّق المساعدات الاقتصادية الأجنبية، وإعادة جدولة الديون، وزيادة التحويلات المالية من الباكستانيِّين في الخارج، على تسجيل معدَّلات نموٍّ جيِّدة. لكن الوضع الأمني المتردِّي، والنقص المستمر في الطاقة، وانخفاض الاستثمارات الأجنبية ثبَّطت عزائم المستثمرين المحليِّين واضطرَّت باكستان للاستدانة من صندوق النقد والبنك الدوليين مرة أخرى، مما انعكس مجددًا في مزيد من الصعوبات للاقتصاد الباكستاني[٦].

لقد مرَّت تجربة التنمية في باكستان بعدَّة مراحل: المرحلة الأولى (١٩٤٧-١٩٥٨)، والمرحلة الثانية (١٩٥٨-١٩٧١)، والمرحلة الثالثة (١٩٧٢-١٩٧٧)، والمرحلة الرابعة (١٩٧٧-١٩٨٨)، والمرحلة الخامسة (١٩٨٨-٢٠٠٢)[٧]، وقد واجهت تجربة التنمية في باكستان خلال هذه المراحل العديد من العقبات، مثل هيمنة الزراعة على النشاط الاقتصادي ونشوء طبقة من الإقطاعيِّين التي تسيطر على قطاع الزراعة ولا تسمح بأي قوانين للإصلاح الزراعي قد تغيِّر من مكانتها الاجتماعية والاقتصادية، والضغط السكاني المتزايد والذي أدَّى إلى عجز الدولة عن تقديم الخدمات المختلفة، وانتشار البطالة، التفاوت الاقتصادي، والفساد، وأزمة الديون والتي أدَّت إلى الاعتماد على الخارج في تمويل عملية التنمية، وفقدان القدرة على اتخاذ القرار السياسي المستقل، والإنفاق العسكري وهيمنة المؤسَّسة العسكرية على المؤسَّسات الأخرى وخاصة في ظلِّ التهديد الهندي[٨].

لا يختلف الوضع الاقتصادي اليوم كثيرًا في باكستان، ويمكن القول إن الاقتصاد الباكستاني يواجه التحديات ذاتها، حيث يشير مؤشِّر أهداف التنمية المستدامة الأخير (SDG) لعام ٢٠٢١ إلى عدَّة نقاط هامَّة بخصوص التنمية الاقتصادية والاجتماعية، فيقدَّر عدد سكان باكستان بأكثر من ٢٢٠ مليون نسمة في عام ٢٠٢١، ومعدل نمو يبلغ ١,٩٥٪ سنويا. ولا يزال النمو السكاني أحد أكبر التحديات التي تواجه التنمية في باكستان، حيث تقل أعمار ٦٠٪ من سكَّانها عن ٢٥ عامًا، ويبلغ معدَّل الخصوبة ٣,٥ مولود لكل امرأة. وهذا يعني أن توفير التعليم والصحة والتوظيف لمجموعة كبيرة ومتنامية من الشباب سيظلُّ مشكلة في المستقبل القريب. أما في قطاع التعليم، فلا تزال معدلات الإلمام بالقراءة والكتابة سيئة عند ٥٩٪ من السكَّان، أيضًا جودة التعليم والتوظيف لخريجي المدارس منخفضة للغاية، ولا يتمتع الشباب المتنامي بفرص

(٦) تحديات الداخل الباكستاني وضغوط الخارج، جريدة الاتحاد الإماراتية، ٢٠١١، تاريخ الاطلاع: ٣ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/BJD1qat

(٧) ستار جبار علاوي، باكستان دراسة في نشأة الدولة وتطور التجربة الديمقراطية، مرجع سابق، ص ص ٢٠١-٢١٨.

(٨) المرجع السابق، ص ص ٢١٨-٢٣٠.

الوصول إلى التعليم الجيد[٩]. وتواجه باكستان أيضًا أزمة طاقة، وهي ليست مشكلة حديثة، فقد عانت مختلف القطاعات الصناعية والمستهلكين في المنازل من نقص الطاقة وانقطاع التيار الكهربائي لسنوات.

وعلى الرغم من نموٍّ متوسِّط الدخول، إلا أن معدَّلات التضخم ترتفع حيث وصل إلى ٦٪، مما يرفع تكلفة السلع الأساسية. بينما وصلت البطالة إلى ١٦٪ بين الطبقة المتوسطة المتعلِّمة. وطبقًا لبرنامج الغذاء العالمي يُعاني أكثر من ٢١٪ من السكَّان من سوء التغذية. بينما يُعاني ٤٤٪ من الأطفال دون سنِّ الخامسة من توقُّف النمو. ويواجه ٣٧٪ من السكَّان انعدام الأمن الغذائي، على الرغم من أن باكستان منتِج رئيسي للقمح والأرز. إلى جانب هذه التحديات، تُعاني باكستان من نقص كبير في المياه، فتحتلُّ المرتبة ١٤ من بين ١٥٠ دولة معرَّضة بشدَّة لخطر أزمة المياه. وتشير منظمة Water Aid إلى أن ١٧ مليون شخص في باكستان يفتقرون إلى المياه النظيفة بالقرب من منازلهم، وأن ٧٠ مليونًا يفتقرون إلى صرف صحي لائق، ومعظمهم في المجتمعات الريفية[١٠].

وعلى صعيد آخر تواجه باكستان حاليا العديد من المشكلات الهيكلية التي تُعيق عملية التنمية الاقتصادية؛ ومنها:

أولا- أزمة إدارة الموارد: ويعتبر سوء الإدارة وغياب الحوكمة الرشيدة من الأسباب العميقة لمعظم مشاكل باكستان الاقتصادية. فعلى الرغم من تمتُّع باكستان بوفْرة الموارد الطبيعية والمصادر البشرية؛ حيث يوجد فيها خامس أكبر احتياطي ذهب في العالم وثاني أكبر احتياطي من الملح وسادس أكبر احتياطي من الفحم، لكنها لم تستطع استغلال هذه الموارد لمصلحتها الاقتصادية، بل هناك مخاوف من أن تؤدِّي هذه الاكتشافات إلى حرب أهلية في ولاية بلوشستان بسبب سيطرة زعماء القبائل المحليِّين على الأرض هناك، كما أن الحكومات الباكستانية المتعاقبة لم تستطع التخطيط والتنفيذ لبرامج مناسبة تمكِّنها من الاستفادة من الموارد البشرية المتمثِّلة بفئة "الشباب" الأكثر حيويَّة في المجتمع[١١].

ثانيًا- الحرب على الإرهاب: تضرَّرت باكستان اقتصاديًّا من الحرب على الإرهاب، حيث أثَّرت الحرب على تدفُّق الاستثمارات المحلية والأجنبية وجعلت منها بيئة غير آمنة وغير جاذبة للاستثمار، فقد تراجع الاستثمار الأجنبي المباشر في باكستان بنسبة ٤٥٪ في ٢٠٠٩-٢٠١٠، بالمقارنة مع المؤشِّرات التي كانت قبل الحرب التي شنَّتها الولايات المتحدة الأمريكية على أفغانستان، ولم يستطع "صندوق دعم التحالف" (CSF) بقيادة واشنطن تعويض الخسائر التي تحمَّلتها باكستان منذ بداية الحرب في ٢٠٠١، حيث وصلت تعويضات الصندوق إلى حوالي ١٣ مليار دولار، في حين زادت الخسائر عن ١٠٦ مليارات دولار. ومن جانب آخر، تقدَّر الخسائر الناتجة عن الهجمات الإرهابية خلال ٢٠١٣-٢٠١٤ و٢٠١٤-٢٠١٥ فقط بحوالي ١١,٦ مليار دولار[١٢]. بعبارة أخرى، إن الحرب على الإرهاب لم تقتصر على التأثير على موارد الميزانية فحسْب، بل كان على باكستان تخصيص المزيد من الموارد للأغراض الأمنية، فضلًا عن أنها أثَّرت سلبًا على قطاع السياحة بصفة خاصة[١٣].

ثالثًا- أزمة الطاقة: تسبَّب إهمال الحكومات الباكستانية المتعاقبة في قطاع الطاقة بأزمات أصبحت بدورها عقبة كبرى أمام النمو الاقتصادي، وتتطلَّع إسلام أباد اليوم إلى تطوير تجارة الطاقة مع دول آسيا الوسطى وغيرها من دول الجوار، ومن المتوقَّع أن يربط خطُّ أنابيب الطاقة العابر من آسيا

(9) Economic corridor development in Pakistan: concept, framework, and case studies, Asian development bank, February 2022, p. VII, available at: https://cutt.us/YmC1m

(10) Tahmina Rashid, Pakistan's substantial development challenge, Asian and the Pacific Policy Society, 23 September 2021, accessed: 5 May 2022, available at: https://cutt.us/V2nHr

(11) Sakib Sherani, Defining challenges, DAWN, 29 January 2021, accessed: 4 June 2022, available at: https://cutt.us/JrdGw

(12) Pakistan gets 336 m in coalition support fund, foreign reserves climb to 19 bn, DAWN, 28 July 2015, accessed: 4 June 2022, available at: https://cutt.us/iJqOz

(13) Sakib Sherani, Defining challenges, Op. cit.

الجنوبية إلى آسيا الوسطى باكستان بكلٍّ من أفغانستان وطاجيكستان وقرغيزيا. وتتطلَّب تجارة الطاقة عبر الحدود رفع كفاءة قطاع الطاقة المحلي، وتتطلَّب عدَّة خطوات، أهمها: زيادة الاستثمار في تطوير نظم توزيع الطاقة، وتحسين إدارة الموارد من المستهلكين، وتوفير حزمة متنوِّعة من أنواع الطاقة القابلة للاستخدام في البلاد[١٤].

رابعًا- الاتفاقات التجارية غير الفعالة: أدَّى تعثُّر نظام الحوكمة الرشيدة في الاتفاقيات التجارية، وخاصة إهمال حماية المصالح الوطنية، إلى حدوث تحيُّزات مخلَّة في العلاقات الاقتصادية أثَّرت على النمو الاقتصادي الباكستاني بالسلب. وعلى الرغم من عضوية باكستان في "منظمة التعاون الاقتصادي-إيكوتا" (ECOTA)، و"منطقة التجارة الحرة لجنوب آسيا" (SAFTA)، لم تفلح باكستان في ممارسة تجارة كبيرة مع شركائها الإقليميّين؛ حيث لا يزيد نصيب باكستان من التجارة الإقليمية عن ٥٪، مقارنة بحوالي ٤٠٪ بالنسبة للتجارة البينية للدول الأخرى الأعضاء في هاتين المنظمَّتين[١٥].

بالإضافة إلى تلك التحديات البنيوية، تواجه الحكومة في باكستان عددًا من التحديات مثل: النقص الحاد في احتياطيات النقد الأجنبي، حيث تعاني باكستان في الوقت الحالي من نقص حاد في احتياطيات النقد الأجنبي، وهو أكبر انخفاض منذ عام ٢٠١٩، حيث وصل احتياطي النقد الأجنبي إلى ١٦,٤ مليار دولار أميركي، بسبب زيادة عجز الحساب الجاري والعجز التجاري، وارتفاع مدفوعات الديون الخارجية.

التفاوض مع صندوق النقد الدولي: تتفاوض الحكومة مع صندوق النقد الدولي للحصول على قرض عاجل بقيمة مليار دولار، حيث بدأت المفاوضات بين الطرفين الأربعاء ٢٥ مايو الماضي ومستمرة حتى الان. ويضع صندوق النقد الدولي شروطا صعبة من وجهة نظر الحكومة الباكستانية، حيث يتوجب على الحكومة إجراء إصلاحات اقتصادية من ضمنها رفع الدعم عن بعض العناصر الرئيسية مثل البترول، وهذا ما يزيد من المخاوف لدى المواطنين، بالرغم من تعهُّد رئيس الوزراء بعدم رفع الأسعار[١٦].

حكومة على وشك الإفلاس: لا تزال حكومة شهباز شريف تحافظ على عدم رفع الأسعار على المواد الأساسية خوفًا من زيادة استياء المواطنين الذين كانوا ينتقدون ارتفاع الأسعار خلال حكم عمران خان. لكن الوضع الحالي للاقتصاد ومستوى انهيار العملة المحلية يجعلان من الصعب على الحكومة الإبقاء على الأسعار القديمة. كما أن أسعار البترول ترتفع عالميًا، وفي حال لم يتم رفع الأسعار فإن الحكومة سوف تضطر إلى أن تتحمَّل فارق الأسعار. وقد تمَّ الإعلان عن إمكانية كبيرة لرفع أسعار البترول والمحروقات، لكن الحكومة تراجعت عن ذلك، في وقت تشهد فيه البلاد انقطاعات متكرِّرة للتيار الكهربائي وسط ارتفاع درجات الحرارة، مما يزيد من المعاناة والاستياء لدى المواطنين[١٧]، كما تواجه الدولة مشاكل ندرة المياه،كما سبق الذكر، بالإضافة إلى عدم الاهتمام بمشاريع التنمية المستدامة، وارتفاع معدلات البطالة، وزيادة الدين العام، والتوزيع غير المتكافئ للثروة[١٨].

بالإضافة إلى معضلة التنمية الاقتصادية، تواجه باكستان نطاقًا واسعًا من التحديات الداخلية يشمل التحديات الأمنية، وأمن المنشآت النووية، والتحديات السياسية

(١٤) شاهد نعيم، الاقتصاد الباكستاني: التناقضات بين الإمكانات والسياسات، مركز الجزيرة للدراسات، ٢٩ نوفمبر ٢٠١٥، تاريخ الاطلاع: ٤ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/5IBPf

(١٥) المرجع السابق.

(١٦) محمد العقاد، باكستان تئن وسط أزمات اقتصادية ومعيشية متدهورة، مركز الجزيرة للدراسات، ٢٢ مايو ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٤ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/390ppat

(١٧) المرجع السابق.

(18) Syed Zeeshan Haider, Pakistan's major problems and their solutions, Pakistan Today, 16 June 2018, accessed: 4 June 2022, available at: https://cutt.us/QEl2O

والحكومية[١٩]، فالتحديات التي تواجه الأمن الداخلي في باكستان حاليًا هي الأكثر تهديدًا لأسس الدولة وأركان وجودها، فلقد أدَّتْ سيطرةُ طالبان على أفغانستان بعد خروج الولايات المتحدة إلى تعقيد الوضع الأمني في باكستان، إذ تخشى باكستان من حركة طالبان الباكستانية وكذلك الانفصاليّين في إقليم بلوشستان الباكستاني والحركات المسلَّحة الأخرى الذين يقومون بشنّ هجمات على باكستان[٢٠]، وقد نتج عن ذلك زيادة كبيرة في عدد وشدَّة الحوادث الإرهابية في باكستان بأعداد كبيرة من القتلى، وعطَّلت إلى حدٍّ كبير الحياة اليومية، لا سيما في أجزاء من إسلام أباد، وعلى نحو أشد في المناطق القبلية على الحدود مع أفغانستان[٢١].

ثانيًا- التحديات الإقليمية

أ) الهند:

شهدت العلاقة بين باكستان والهند توترًا متزايدًا في الفترة الأخيرة مع تزايد التصعيد من الجانب الهندي سواء فيما يتعلَّق بقضية كشمير أو فيما يتعلَّق بقضية الإرهاب، وهو الأمر الذي يفسِّره البعض على أنه انعكاس لتوجُّهات الحكومة الهندية القومية برئاسة ناريندرا مودي منذ عام ٢٠١٤[٢٢]، وتمثِّل قضية كشمير قضية أساسية في العلاقة بين البلدين[٢٣]، وقد تجدَّد الصراع في أغسطس ٢٠١٩ عقب قيام الهند بإلغاء الحكم الذاتي لإقليم كشمير الذي يقع في الهند، في المقابل اعتبرت باكستان قرار الهند خطوة "غير شرعية"، مؤكدة أن المنطقة، التي تشهد تمردًا انفصاليًّا وتطالب إسلام أباد بالسيادة عليها، معترف بها دوليًّا كأرضٍ متنازعٍ عليها، كما أعلنت باكستان أنها ستلجأ لمحكمة العدل الدولية[٢٤].

دشَّن قرار الهند مرحلة جديدة من الصراع الهندي الباكستاني وأضاف مسارات جديدة من التعقيدات السياسية في شبه القارة الهندية[٢٥]، وزاد التوتُّر بين البلدين، إذ خفضت باكستان الروابط الدبلوماسية وأغلقت مجالها الجوي وعلَّقت العلاقات التجارية مع الهند، وقد تمَّ تسجيل أكثر من ٤٦٠٠ حالة لانتهاك وقف إطلاق النار في عام ٢٠٢٠ وحده بين الدولتين، من جهتها تحاول الهند تغيير التركيبة الديموغرافية وهوية المنطقة ذات الأغلبية المسلمة، فقد أدخل رئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي تعديلات على قوانين الإقامة في كشمير الهندية لأول مرة منذ عام ١٩٤٧، في مسْعى للقضاء على أي محاولة لتحدِّي مسألة تبعية المنطقة -المتنازع عليها- للهند[٢٦].

ومع وصول حكومة شهباز شريف إلى السلطة في إبريل الماضي خلفًا لعمران خان، يتوقَّع المحلِّلون أن العلاقات بين البلدين قد تشهد تحسُّنًا وقد تشهد أزمة إقليم كشمير تسوية من جانب البلدين ونقطة انطلاق جيدة للهند لاستئناف الحوار. وذلك بسبب الخلفية السياسية والعائلية لشهباز شريف التي تشجِّع التعاون مع الهند، وبسبب الصعوبات الاقتصادية التي تواجهها باكستان وأيضًا التطوُّرات الإقليمية والعالمية الراهنة

(19) Pakistan's Internal Security Challenges: Will The Military Cope?, Institute of peace and conflict studies, August 2013, accessed: 5 May 2022, available at: https://cutt.us/HN7Lr

(٢٠) ياسمين أحمد إسماعيل، التداعيات الدولية والإقليمية للانسحاب الأمريكي من أفغانستان، مجلة كلية السياسة والاقتصاد، المجلد ١٥، العدد ١٤، أبريل ٢٠٢٢، ص ٤٧٥.

(21) Sumit Ganguly, What Pakistan's New National Security Policy Leaves Out, Foreign Policy, 2 February 2022, accessed: 5 May 2022, available at: https://cutt.us/uxUm5

(٢٢) أنجيلوس عبد الملك، السياسة الهندية تجاه باكستان منذ ٢٠١٤، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية، ٢٥ فبراير ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٣ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ETbWy

(٢٣) عزة جمال عبد السلام، مستقبل الصراع بين الهند وباكستان في ضوء الغاء الحكم الذاتي لإقليم كشمير، مجلة كلية السياسة والاقتصاد، العدد الثالث، ٢٠١٩، ص ٤٦.

(٢٤) المرجع السابق، ص ٤٣.

(٢٥) المرجع السابق، ص٥٥.

(٢٦) محاكاة خطط الاستيطان الإسرائيلية.. هكذا يسعى مودي لتغيير هوية كشمير، مركز الجزيرة للدراسات، ٣٠ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3MsJBzd

التي قد تدفع البلدين إلى التعاون والسعي لتحقيق التنمية الاقتصادية[٢٧].

أما فيما يخصُّ قضية العمليات العنيفة تجاه الهند، كان لنمط التفاعل الصراعي بين الهند وباكستان دورٌ في ظهور وتمدُّد الجماعات العنيفة التي تستهدف الهند، وقامت بتنفيذ العديد من العمليات الإرهابية سواء في كشمير أو داخل الهند، ويمكن تصنيف هذه الجماعات والتنظيمات إلى فئتين: الأولى هي تلك التنظيمات والجماعات التي تتَّخذ من باكستان قاعدةً لها وتتكوَّن بالأساس من عناصر باكستانية وتعدُّ جماعتا "جيش محمد" و"لشكر طيبة" أبرز هذه المنظمات، أما الفئة الثانية فهي تلك التي تتَّخذ من باكستان قاعدة لها ولكنها تتكوَّن من عناصر كشميرية بالأساس ومن أبرزها حزب المجاهدين. وقد قامت السياسة الهندية تجاه هذه القضية منذ انتهاء الحرب الباردة على الإدانة الكاملة للإرهاب والدعم غير المحدود لمكافحته عليه، والمطالبة بتوقيع معاهدة شاملة للتصدِّي له، والدعم الكامل للولايات المتحدة في حربها في أفغانستان بغرض تحقيق مكاسب سياسية في أفغانستان التي تُعَدُّ عمقًا استراتيجيًّا لباكستان، وإضعاف موقف باكستان المرتبط بدعم الجماعات الإسلامية المتشدِّدة، ومحاولة إبعاد باكستان عن الحملة الأمريكية، في المقابل نَفَتْ باكستان أيَّ صلة لها بهذه الجماعات ونددَّت باتهامات الهند لها[٢٨].

من ناحية أخرى، عملت الهند على تكوين شبكة من الحلفاء الإقليميّين والدوليّين كجزءٍ من الاستراتيجية المتَّبعة لعزل باكستان دوليًّا، حيث عملت الهند على تعزيز تعاونها مع الولايات المتحدة الأمريكية في مجال مكافحة الإرهاب العابر للحدود، وهو ما ظهر من خلال توقيع الاتفاق الثنائي بين الرئيس الأمريكي باراك أوباما ورئيس الحكومة الهندي مودي في يونيو عام ٢٠١٦، حيث نصَّ هذا الاتفاق على تعزيز الجهود المشتركة لمكافحة التهديدات الإرهابية من الجماعات المتطرِّفة مثل القاعدة، وداعش، وجيش محمد، ولشكر طيبة، ومطالبة باكستان بتقديم المسؤولين عن هجمات مومباي عام ٢٠٠٨[٢٩]إلى العدالة، كذلك فقد عملت الهند على تعزيز التعاون مع دول الخليج العربي وخاصة المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة؛ فقد استغلَّت الهند فرصة التوتُّر في العلاقة بين باكستان ودول الخليج العربي بعد رفض باكستان إرسال قوات للمشاركة في التحالف الذي تقوده السعودية في اليمن لتعزيز التعاون الأمني مع شركائها في منطقة الخليج وخاصة في مجال مكافحة الإرهاب، ويُعَدُّ هذا التعاون الهندي - الخليجي في مجال مكافحة الإرهاب استمرارًا للسياسات المتَّبعة من قبل الحكومات الهندية السابقة[٣٠].

تشهد كشمير منذ سيطرة طالبان على كابول تصعيدًا في التوتُّر مع تنفيذ المتمرِّدين هجمات وقيام قوات الأمن بعمليات ضدَّ مخابئ المتمرِّدين وعمليات تسلُّل عبر خطِّ وقف إطلاق النار بين الهند وباكستان. ولم تنسب نيودلهي صراحةً مسؤولية تلك التصعيدات لسيطرة طالبان على أفغانستان، واتَّهمت باكستان بتحريك مجموعتي "لشكر طيبة" و"جيش محمد" المتمركزتين على أراضيها واللتين تُنسب إليهما العديد من الهجمات في كشمير، وهي اتهامات تنفيها باكستان، واكتفت

(27) Namra Naseer and Rushali Saha, What Political Change in Pakistan Could Mean for Relations With India, The Diplomat, 13 may 2022, accessed: 4 June 2022, available at: https://cutt.us/W1Gow

(٢٨) أنجيلوس عبد الملك، السياسة الهندية تجاه باكستان منذ ٢٠١٤، مرجع سابق.

(٢٩) هجمات مومباي هي مجموعة من الهجمات المسلحة شبه المتزامنة بدأت أحداثها ليل الأربعاء ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٨، قامت بها مجموعات من المسلحين على عدد من الفنادق الفاخرة والمطاعم الشهيرة والمستشفيات ومحطات القطارات المكتظة في المدينة التي يزيد عدد سكانها عن ١٣ مليون نسمة، مما تسبب في مقتل ١٩٥ شخص، وجرح مئات آخرين واحتجاز عدة سياح أجانب.

(٣٠) أنجيلوس عبد الملك، السياسة الهندية تجاه باكستان منذ ٢٠١٤، مرجع سابق.

الهند بتكثيف دورياتها في محيط الشطْر الباكستاني من كشمير وعزَّزت بعض المخيمات العسكرية[٣١].

ب) أفغانستان:

تُعَدُّ أفغانستانُ الجارَ الأكثر أهمية لباكستان نظرًا للتداخل العميق بين البلدين عرقيًّا وجغرافيًّا؛ فقد هيْمن مبدأُ "العمق الاستراتيجي" على العقلية الباكستانية إزاء أفغانستان في تسعينيات القرن الماضي حين كان الطموح لدى العسكريّين الباكستانيّين -المدفوع بمشاركة المجاهدين الأفغان انتصارهم العسكري- يكمن بتأمين أفغانستان الصديقة والموالية لهم لتكون في مواجهة الهند، وعمقًا لهم للوصول إلى أسواق دول آسيا الوسطى[٣٢].

يرجع تاريخ التوتُّرات في علاقات أفغانستان وباكستان إلى فترة تأسيس باكستان، ويمكن القول إن هناك ثلاث قضايا أساسية تحكم العلاقة بين باكستان وأفغانستان، في البداية كانت مسألة الحدود، نتيجة مطالبة أفغانستان ببعض الأراضي التي زعمت أنه تمَّ التنازل عنها تحت ضغوط استعمارية ورفض خط "ديورند" الحدودي، ودعم المطالبة بإنشاء منطقة بشتونستان[٣٣]. ثانيًا، قضية اللاجئين الأفغان، ففي عام ١٩٧٨ مع وصول النظام الشيوعي إلى الحكم شعرت باكستان بالخطر خاصة مع زيادة تدفُّق المهاجرين الأفغان وأيضًا مع ازدياد الوجود السوفيتي في أفغانستان. وثالثًا، ملف الإرهاب[٣٤].

في أعقاب استيلاء طالبان على أفغانستان في أغسطس ٢٠٢١، كثَّفت حركة طالبان الباكستانية من هجماتها ضدَّ باكستان بشكل كبير[٣٥]. تجدر الإشارة إلى أن حركة طالبان الباكستانية هي تكتُّلٌ من الجماعات الجهادية المناهضة لباكستان التي تنْشط داخل أفغانستان وخارجها، وعلى النقيض من التصوُّرات بأن الانسحاب الأمريكي وعودة طالبان إلى السلطة في أفغانستان يشكِّلان انتصارًا استراتيجيًّا لباكستان، فإن أفغانستان ما بعد الولايات المتحدة تتحوَّل إلى تحدٍّ أمنيٍّ أكبر لإسلام أباد نظرًا لدعمها لطالبان باكستان ولجماعة خراسان داعش ولعدَّة حركات مسلحة أخرى، حيث يسير المجتمع الباكستاني مرة أخرى نحو السقوط في قبضة موجة إرهاب جديدة، تتضمَّن شنَّ هجمات انتحارية على أماكن دينية وإراقة دماء مئات القتلى[٣٦].

وفي ظلِّ نظام طالبان، تتمتَّع حركة طالبان الباكستانية بقدرٍ أكبر من الحرية العملياتية للتخطيط للهجمات ضد باكستان وتنفيذها. وعلى الأرجح، تستخدم حركة طالبان باكستان الأسلحة التي تركتْها القوات الأمريكية في أفغانستان،

---

(٣١) الهند تخشى عواقب سيطرة طالبان على أفغانستان في كشمير، فرانس ٢٤، ١٦ أكتوبر ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٤ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/390u3oV

(٣٢) أحمد موفق زيدان، العلاقات الباكستانية الأفغانية، مركز الجزيرة للدراسات، ٥ ديسمبر ٢٠١٢، تاريخ الاطلاع: ٤ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/f5Wo5

(33) Mohib Ullah Durani, Ashraf Khan, Pakistan - Afghan Relations: Historic Mirror, The Dialogue, Volume IV, Number 1, 2021, p 27.

(34) Ibid, p. 34.

(٣٥) شنَّت طالبان الباكستانية معظم الهجمات من داخل الأراضي الأفغانية. ووفقًا للأرقام الصادرة عن المعهد الباكستاني لدراسات الصراع والأمن، شهد أبريل ٢٠٢٢ ارتفاعًا بنسبة ٢٤٪ في هجمات المسلَّحين مقارنة بالشهر السابق. وشهد أبريل وقوع ٣٤ هجومًا، مما أودى بحياة ٥٥ شخصًا وأصيب ٢٥ آخرون على الأقل. وفي مارس، بلغ عدد الهجمات ٢٦. لكن عدد الضحايا كان أعلى بكثير، حيث سقط ٧٧ قتيلًا و٢٨٨ جريحًا، وذلك بسبب تفجير انتحاري مدمِّر في مسجد شيعي في بيشاور في اليوم الرابع من الشهر، وللمزيد انظر:

- عمر فاروق، باكستان في مواجهة المجيء الثاني لـ«طالبان»، الشرق الأوسط، ١٠ مايو ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٤ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3Q7aOdZ

(٣٦) عمر فاروق، باكستان في قبضة موجة إرهاب جديدة وهجمات انتحارية، الشرق الأوسط، ٧ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٤ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3zlR4xl

وقد أتاح توقُّف ضربات الطائرات بدون طيار الأمريكية بزيادة القوة التنظيمية لحركة طالبان باكستان[٣٧].

الخلاصة: تشكِّل حركة طالبان باكستان تهديدًا طويل الأمد للأمن الداخلي الباكستاني من مخابئها الأفغانية، وقد استعادت الحركة القدرة على تنفيذ هجمات بارزة في باكستان، وسيتعيَّن على باكستان أن تعيد تقييم سياستها الأفغانية الحالية، إذا كانت تريد حلًّا فعَّالًا للمشكلات الإرهابية التي تواجهها[٣٨].

ج) التقارب الروسي الصيني:

شهدت العلاقات الروسية - الصينية تقدُّمًا ملحوظًا في العقدين الماضيين، وباتت مواقف الدولتين أكثر تقاربًا في ملفات عديدة، وقد ازداد التعاون الاقتصادي بينهما، سواء كان على المستوى الثنائي أو في الأطر الإقليمية والدولية، إضافة إلى المناورات العسكرية المشتركة، والزيارات المتبادلة بين قادة البلدين، ومشروعات الصناعات العسكرية بينهما، وعقد الغاز الذي وقَّعه زعيما البلدين في بكين عام ٢٠١٥[٣٩]، وقد وسَّعت روسيا علاقتها بالصين، بعد ضمِّ القرم عام ٢٠١٤ وما تبعه من عقوبات غربية، في مجالي الطاقة والسلاح. حيث وافقت على بيع أنظمة الصواريخ المضادَّة للطائرات للجيش الصيني. أما في مجال الطاقة، فقد جرى توقيع اتفاقية تقضي بتوريد ٣٨ مليار طن سنويًّا من الغاز الروسي لمدة ٣٠ عامًا. من جهة أخرى، أجرى البلدان مناورات بحرية عسكرية عديدة[٤٠]، وهكذا، يمكن القول إن العلاقات الروسية - الصينية ستستمرُّ في توجُّهاتها القائمة، طالما استمرَّت المصالح المشتركة والإرادة السياسية لدى قيادة البلدين، بما يمكنهما من احتواء خلافاتهما والتحديات التي ستواجههما[٤١].

أدَّى التقارُب بين روسيا والصين على المستوى الدولي والإقليمي إلى تقارب الدولتين من باكستان، ومحاولة نسْج علاقات قوية ومحاولة ضمِّها للحلف الروسي الصيني في مواجهة القطبية الأحادية والهيمنة الأمريكية التي تسيطر على النظام الدولي، وقد استجابت باكستان لهذا التقارب نظرًا لتوتُّر العلاقات بين الولايات المتحدة وباكستان بعد عودة طالبان للسلطة في أفغانستان.

لقد شهدت التحالفات الباكستانية تغيُّرًا ملحوظًا وخاصة بعد وصول طالبان للسلطة في أفغانستان، فقد شهدت علاقاتها مع الولايات المتحدة الأمريكية تراجعًا، حيث إن الأخيرة تسعى لتحميل باكستان مسؤولية عودة طالبان، في حين ترفض باكستان هذا الاتهام، نتيجة لذلك انخفضت المساعدات الاقتصادية والدعم المالي والأمني الذي طالما قدَّمته الولايات المتحدة لباكستان قبل وأثناء الحرب على أفغانستان. وتمَّ إدراج باكستان في اللائحة الرمادية لمجموعة العمل المالي التي تُعنى بمكافحة جرائم غسل الأموال والتهرُّب الضريبي في العالم، وكانت باكستان قد أبْدت دهشتها من قرار مجموعة العمل المالي بالإبقاء عليها في قائمتها الرمادية إذ قالت إنها امتثلت لمعظم بنود خطة العمل[٤٢].

(٣٧) مجيد عبد الباسط، عودة حركة طالبان الباكستانية بعد استعادة طالبان السلطة، عين أوروبية على التطرف، ١٦ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٥ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3sNSTiz

(٣٨) المرجع السابق.

(٣٩) محددات العلاقات الروسية الصينية وتجلياتها في الشرق الأوسط، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، ٢٢ديسمبر ٢٠١٨، ص ٢.

(٤٠) عام ٢٠١٥ في شرق البحر الأبيض المتوسط على مقربة من سوريا، وفي عام ٢٠١٦ في بحر الصين الجنوبي، وفي عام ٢٠١٧ في بحر البلطيق، المسرح الرئيس للمواجهة العسكرية بين روسيا والحلف الأطلسي.

(٤١) محددات العلاقات الروسية الصينية وتجلياتها في الشرق الأوسط، مرجع سابق، ص ص ٣-٤.

(42) Samprity Biswas, Russia–China– Pakistan Engagement in the Changing Global Context: Scrutinizing the Realist Logic of a Trilateral 'Axis, Jadavpur Journal of International Relations vol. 25, Issue 1, 2021, p. 11.

من جهة روسيا، فإنها تعمل على زيادة الجهود الدبلوماسية لإحياء علاقاتها في آسيا في ظلِّ تراجع صلاتها مع الغرب، والتوتُّرات المتزايدة مع الولايات المتحدة، خاصة أن الأخيرة تعمل على تكثيف وجودها في منطقة المحيطين الهندي والهادئ بتحالفات مع كلٍّ من الهند، وأستراليا، واليابان، بالإضافة إلى أن الانسحاب الأمريكي من أفغانستان، وانهيار الحكومة، وتسلُّم طالبان الحكم أدَّى إلى احتمالات تصاعد موجات العنف في الإقليم؛ ما دفع موسكو إلى التفكير في تعزيز علاقاتها مع باكستان، بالرغم من أن العلاقة بين البلدين شهدت تاريخًا من انعدام الثقة(٤٣).

الآن، يتغيَّر المشهد الروسي - الباكستاني، على الرغم من حفاظ روسيا تاريخيًّا على علاقاتها مع الهند، وذلك منذ أن وقَّعت الدولتان على معاهدة السلام والصداقة والتعاون عام ١٩٧١، لكن في ظلِّ العلاقات الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والهند، بدأت روسيا تفقد تدريجيًّا صفقات مربحة للشركات الأمريكية، لتصبح الولايات المتحدة أكبر شريك دفاعي للهند من حيث مبيعات الأسلحة. وبينما استعادت روسيا عام ٢٠١٥ لقبها كأكبر مصدِّر أسلحة إلى الهند بعدَّة صفقات، بقيت تداعيات العلاقات الاستراتيجية بين نيودلهي وواشنطن ملحوظة على موسكو. وفي السياق نفسه، وبالرغم من التحالف التاريخي بين الولايات المتحدة وباكستان، ودورهما المتناغم حتى وقت قريب في أفغانستان، فإن واشنطن في ظلِّ قربها من نيودلهي -العدو التاريخي لإسلام أباد- زادت من حدَّة نقدها للأخيرة، وبلغت حدَّ اتهام الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترمب القادة الباكستانيين بالكذب والخداع، وهذه العوامل دفعت موسكو وإسلام أباد إلى تقارب سريع(٤٤).

توتَّرت العلاقات الباكستانية - الأمريكية خلال فترة حكم الرئيس الأمريكي دونالد ترمب، بين عامي ٢٠١٧ و٢٠٢١، وأُقصي العسكريُّون الباكستانيُّون من برنامج التعليم العسكري الأمريكي؛ ما دفع إسلام أباد إلى توقيع اتفاقية تدريب أمني مع موسكو لتدريب ضباطها في المؤسسات العسكرية الروسية لأول مرة في تاريخ البلدين. وشهد عام ٢٠١٨ تشكيل لجنة عسكرية مشتركة بين البلدين بعدما زار الجنرال الباكستاني قمر جاويد باجوا موسكو، ليتبعها تكثيف في الاتصالات الدبلوماسية تتوِّجها زيارةٌ لوزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف إلى إسلام أباد عام ٢٠٢١، ليلتقي نظيره الباكستاني شاه محمود قريشي، وهي الزيارة الأولى لمسؤول روسي رفيع المستوى منذ ما يقرب من عقد من الزمان(٤٥).

بالإضافة إلى ذلك، فإن الرغبة المشتركة في ضبط سلوك طالبان أفغانستان، واحتواء تبعات الانسحاب الأمريكي من البلاد، تجمع موسكو وإسلام أباد؛ حيث خدم كلٌّ من الطرفين الآخر؛ فقد دافعت باكستان عن دور روسي في المحاورات مع طالبان حتى قبل انهيار السلطات داخل أفغانستان، ورفضت موسكو الجهود الأمريكية لاحتواء النُّفوذ الباكستاني في أفغانستان من خلال تكثيف التواصل الدبلوماسي مع إسلام أباد(٤٦).

بالنسبة للصين، رغم أن العلاقات بين الصين وباكستان كانت دائمًا ودِّية، فقد انحصر التعاون بين البلدين سابقًا في غالبه في المستوى السياسي والعسكري، ولم تمتدَّ العلاقات إلى التبادل الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الشامل كما هي عليه اليوم. فهذه المرحلة الجديدة من العلاقات بدأت في مايو ٢٠١٣ مع زيارة رئيس مجلس الدولة الصيني، لي كه تشيانغ، إلى

(43) Rouben Azizian, Peter Vasilieff, Russia and Pakistan: The Difficult Path to Rapprochement, Asian Affairs, vol. 30, Issue 1, 2003, p. 38.

(٤٤) مصطفي شلش، روسيا وباكستان.. تعاون الضرورات، مركز الدارسات العربية الأوراسية، ١٩ ديسمبر ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٤ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/6jauo

(٤٥) المرجع السابق.

(٤٦) منى هاني محمد، العلاقات الروسية الباكستانية، المركز العربي للبحوث والدراسات، ٦ يونيو ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٤ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/MRmLx

باكستان، والتي اقترح فيها رسميًّا فكرة "الممر الاقتصادي الصيني-الباكستاني". ثم تبادل بعد ذلك القادة والمسؤولون من كلا البلدين، وبصرف النظر عن مشاريع البنية التحتية والطاقة، فقد شملت هذه المرحلة الجديدة من العلاقات بين البلدين أيضًا المجالات الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية، وحتى التعاون الثقافي(٤٧).

مما سبق، يمكن رؤية كيف أن العلاقات بين كلٍّ من روسيا والصين وباكستان تتَّجه نحو مزيد من التفاهم والتقارب نتيجة لعدَّة متغيرات دولية وإقليمية. كان من أهمها بالنسبة لباكستان عداؤها مع الهند ورغبتها في زيادة عدد الحلفاء في مواجهة الهند، بالإضافة إلى ذلك، أدَّى توتُّر العلاقات بين الولايات المتحدة وباكستان مؤخَّرًا واتهام الولايات المتحدة لباكستان بمعاونتها للإرهاب إلى اتجاه باكستان إلى تعزيز علاقتها بروسيا. أما العلاقة بين الصين وباكستان فهي علاقة تعاونية قوية من البداية نظرًا لمصالح الطرفين، فقد كانت العلاقات الودية بين الهند والاتحاد السوفيتي شوكة في خاصرة الصينيين الذين بدأت علاقاتهم الخاصة مع الاتحاد السوفيتي تتدهور منذ الستينات فصاعدًا. لذلك سعت الصين في منطقة جنوب آسيا إلى التحالف مع باكستان تحقيقًا للتوازن مع الهند، وحافظت على هذه السياسة حتى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وقد مثَّلت عودة طالبان للسلطة في أفغانستان ورقةً مهمَّةً في العلاقات الباكستانية الروسية الصينية، ومع استمرار المصالح المشتركة من المحتمل أن تستمر وتتطوَّر الشراكة بين روسيا والصين وباكستان.

خاتمة:

لقد عانت باكستان من أزمات وتحديات مهمَّة وخطيرة منذ تأسيسها عام ١٩٤٨ وحتى الآن. وقد تركت تلك الأزمات آثارها على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية في باكستان. لقد تناول هذا التقرير أهم التحديات السياسية والاقتصادية والإقليمية التي تواجه باكستان وكيف تؤثِّر على حاضر الدولة ومستقبلها.

انقسم التقرير إلى محورين؛ ناقش المحور الأول التنمية الاقتصادية في باكستان من حيث المؤشِّرات الاقتصادية الدولية والتحديات التي تواجه باكستان في تحقيق التنمية، حيث يتَّجه الاقتصاد الباكستاني نحو أزمة مالية تهدِّد التنمية الاجتماعية والسياسية وتغذِّي الاضطرابات الاجتماعية وبالتالي هناك حاجة إلى إصلاحات هيكلية جادَّة، سبق أن أعاقتها النخبة الاقتصادية في البلاد، لتجنُّب تأزُّم الوضع الاقتصادي وتجديد الثقة في الاقتصاد الباكستاني في الداخل والخارج(٤٨). بينما تناول المحور الثاني التحديات الإقليمية التي تواجهها باكستان. وتناول المحور ثلاثة أطراف اقليمية: الهند، وأفغانستان، والعلاقات الروسية الصينية من حيث القضايا والملفات التي تحكم العلاقات مع باكستان والاستراتيجية المتبعة من جانبها تجاه هذه القوى الثلاثة.

ويمثِّل عدم الاستقرار الاقتصادي والسياسي والأمني المتزايد والإرهاب ودعم التطرف والجماعات الإرهابية المسلَّحة، بالإضافة إلى توتُّر العلاقات بين باكستان والولايات المتحدة - على خلفية استيلاء طالبان على السلطة في أفغانستان- تهديدًا لاستقرار البلاد في المستقبل القريب، كما تعرقل تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية. مما يدفع الحكومة إلى ضرورة مواجهة عدم الاستقرار على عدَّة مستويات مثل ضرورة سَنّ وتنفيذ سياسات وتحرُّكات صارمة لمكافحة الإرهاب ووقف تمويل الجماعات المسلحة، وضرورة بناء إجماع عبر المجتمع الباكستاني فيما يتعلَّق بدور الدولة ومفاهيم المواطنة من جانب الجهات الفاعلة المحلية مثل الأحزاب والحركات المختلفة، واتخاذ إصلاحات اقتصادية هيكلية وجادَّة نتيجةَ حجم التجزئة والانقسام داخل المجتمع على أسس عرقية وطائفية، وحجم الاختلاف بين وجهات نظر معتدلة ومتطرِّفة، وحجم الاضطرب

(47) The Strategic Importance of Chinese-Pakistani Relations, Aljazeera Center for Studies, 3 August 2016, accessed: 5 May 2022, available at: https://bit.ly/3wN0eQG

(48) Stephanie Flamenbaum, the future of Pakistan, United States institute of peace, March 2020, pp. 1-2.

السياسي بسبب اختلال توازن القوى بين قادته المدنيّين والعسكريّين، مما أنتج مفهومًا معقَّدًا لطبيعة المواطنة والعملية السياسية بأكملها.

هذا بالإضافة إلى الأزمة السياسية الحالية وذلك بعد توجُّه رئيس وزراء باكستان المعزول دستوريًّا، عمران خان، نحو تسليحِ قُوى الشارع التي تؤيّده واتهامه مؤسسات الدولة ولا سيما السلطة القضائية بالإطاحة به بناء على أوامر أمريكية، كما طالب بإجراء انتخابات مبكرة. في المقابل منعت الحكومة عدَّة تظاهرات وحظرت من استخدام عمران خان لقوى الشارع وما قد يسبّبه من فوضى. وفي الوقت الذي تبدو فيه الانتخابات المبكّرة أمرًا لا مفرَّ منه تقريبًا، يعتقد بعض المراقبين الأمريكيّين أن فرص خان في الاستمرار في الحكم كبيرة للغاية، بسبب ضعف وتشتُّت الأحزاب السياسية المعارضة، وبسبب الدعم الشعبي لخان. وإذا تسلَّم عمران خان مقاليد السلطة مرة أخرى فمن المتوقَّع أن يدفع بقوة لأجندته السياسية ويعاقب منتقديه، مع مواصلة توجيه سياسته الخارجية نحو موسكو وبكين بدلًا من الولايات المتحدة[٤٩].

في الوقت الذي تواجه فيه باكستان التهديدات الإقليمية، مثل تركيزها حول الهند وخاصة بعد ٢٠١٩ (بعد إعلان الهند ضم كشمير)، بالإضافة إلى القلق المتزايد بشأن التهديد الداخلي المتزايد للإرهاب، والوضع في أفغانستان وخاصة بعد استيلاء طالبان على السلطة، وما نتج عنه من توتُّر في العلاقات مع الولايات المتحدة، والتقارب الروسي الصيني وتداعياته على المنطقة[٥٠].

*****

(٤٩) محمد المنشاوي، الأزمة السياسية في باكستان.. ما حدود العلاقة بين واشنطن وإسلام آباد وعمران خان؟، مركز الجزيرة للدراسات، ٧ أبريل ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٤ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3toyUat

(50) Stephanie Flamenbaum, the future of Pakistan, Op. cit.

بنجلاديش والانتعاش الاقتصادي: مسارات وتحديات

عمر سمير(*)

مقدمة:

كان لصعود الاقتصاد البنجالي عبر العقدين الماضيين بُعيد طفرة النمور الآسيوية أثره على التفاعلات الإقليمية في منطقة الباسيفيك وكذلك التفاعلات العالمية، سواء السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية، حيث أصبحت محطَّ اهتمام العديد من الخبراء ونموذجًا تنمويًّا يُشاد به، ودليلًا على أن مسارات التنمية متعدِّدة وممكنة من خارج النموذج الرأسمالي الغربي السائد أو بتعديلات فيه دون أخذه بحذافيره.

بينما تتحدَّث العديد من النخب الاقتصادية والسياسية في العديد من الدول عن النموذج التنموي الغربي كمسار وحيد، فإن تجارب عدَّة سواء من داخل هذا النموذج أو من خارجه قد حادتْ عن تطبيق حذافير النموذج ونجحت إلى حدٍّ كبير في تحقيق مؤشرات تنموية كبيرة بالذات في مواجهة الفقر والعجز وأزمات التمويل والتشغيل وغيرها من الأزمات التي تطال الاقتصاد الكلي والجزئي، كان من بين أهم هذه التجارب التجربة البنجالية سواء في تخفيض حدَّة الفقر والبطالة أو تحسين التعليم والمساواة ومضاعفة متوسط دخل الفرد في السنوات العشر الأخيرة فقط.

وإذا كان الحديث الدائم عن النمو السكاني وعدد السكان كعائق، فإننا إزاء عدَّة تجارب لدول ذات تعدادات سكانية حقَّقت معدَّلات تنموية كبيرة تصل حدَّ الطفرات في مواجهة الفقر والبطالة والتضخُّم كأزمات رئيسية في النموذج النيوليبرالي الغربي المعتمد على نظرية التساقط وتحسين بعض المؤشِّرات السطحية المرتبطة بالنمو في الأرقام الكلية على أمل أن تتساقط ثمار هذا النمو تلقائيًّا على الفقراء والفئات المهمَّشة، لكنها في الحقيقة كانت تُسقط هؤلاء من حسبانها بينما يتساقطون هم في دوَّامة الفقر والجوع.

وإذا كنَّا نتحدَّث عن الفقر والأزمات ونقص الموارد، فإننا إزاء إحدى البلدان التي استقلَّت في السبعينيات عن جارتها باكستان، وعانت احتلالًا لأراضيها لعقود، ثم دخلت في أزمات مناخية حادَّة قادتْ لمجاعةٍ راح ضحيَّتها الملايين، ولم يكن لها حضور في الأخبار سوى في الكوارث الطبيعية، ويمكن القول إنها لا تمتلك سوى البشر والماء.

نحن هنا إزاء تجربة بنجلاديش التنموية بكافة أبعادها نتعرض لها عبر عدَّة أسئلة تدور في معظمها حول لماذا بدأت بنجلاديش تتحول من أفقر الدول في العالم إلى دولة صاعدة؟ ما هي أهم المسارات التي اتخذتها في هذا الصعود؟ وما هي أهم التحديات التي تواجهها؟ وكيف تواجهها؟ لعل الإجابة على هذه الأسئلة تعطي نموذجًا عمليًّا إضافيًّا لما أشارت إليه عدَّة دراسات جادَّة حول تجارب أخرى لمن يريد أن يسلك طريق التنمية للجميع وبالجميع، وفي دراسة التجربة البنجالية فإننا يمكننا التعريج على العناصر الهامَّة التالية:

أولًا- العنصر التمويلي للتنمية الريفية المستقلة

من حسن حظِّ بنجلاديش وجود مفكِّرين كبار مهتمِّين بمكافحة الفقر وتحقيق تنمية مستنِدة لأسس علمية من حيث المعطيات المجتمعية والتمويل والتخطيط والتنفيذ، حيث كان البروفيسور والاقتصادي المحنَّك محمد يونس والفريق البحثي الخاص به من المهتمين بالعدالة الاجتماعية ومكافحة الفقر الريفي ذوي تجربة رائدة عبر تأسيس بنك الفقراء "بنك جرامين"، حيث كان البنك يستهدف أفقر الفقراء بالتمويل، مع التركيز بشكل خاص على النساء، اللائي كنَّ مستبعدات من

(*) باحث في العلوم السياسية.

آليات التمويل التقليدية وأصبحن يحْصلن على ٩٥ في المائة من قروض البنك، كان لدى النساء فرص أقل للوصول إلى البدائل المالية لخطوط الائتمان العادية والدخول، حيث كان يُنظر إليهن على أنهن يتمتَّعن بنصيبٍ غير عادلٍ من السلطة في صنع القرار الأسْري. وجد يونس وآخرون أن إقراض النساء يولِّد آثارًا ثانوية كبيرة، بما في ذلك تمكين شريحة مهمَّشة من المجتمع، الذين يتشاركون في تحسين الدخل مع أطفالهم، على عكس العديد من الرجال. يدَّعي يونس منذ عام ٢٠٠٤، أن المرأة ما زالت تواجه صعوبة في الحصول على القروض، فالنساء كنَّ يشكِّلْن أقلَّ من ١٪ من المقترضين من البنوك التجارية وأن معدَّلات الفائدة التي تتقاضاها مؤسسات التمويل الأصغر بما في ذلك بنك جرامين مرتفعة بالمقارنة مع البنوك التقليدية، حيث الفائدة (أساس الرصيد المتناقص) على منتجها الائتماني الرئيسي حوالي ٢٠٪.

يعتبر الإقراض التضامني الذي اتبعه البنك حجر الزاوية في الإقراض الأصغر، ويُستخدم النظام الآن في أكثر من ٤٣ دولة، إن يونس ورفاقه آمنوا بأنه "عندما تمسك العالم في راحة يدك وتفحصه فقط من وجهة نظر الطيور، تميل إلى الغطرسة، لا تدرك أن الأشياء تصبح ضبابية عند النظر إليها من مسافة شاسعة، اخترت بدلًا من ذلك "وجهة نظر الديدان"... لقد علَّمني الفقراء اقتصاديات جديدة تمامًا، لقد تعلَّمت عن المشاكل أنهم يواجهونها من منظورهم الخاص"[١].

كان يونس يؤمن بمبدأين أحدهما أن الفقراء لديهم طاقات خلَّاقة وقدرات إبداعية في العيش والتعايش مع أسوأ الظروف وأنهم راغبون بشدَّة في تغييرها ويملكون التزامًا أخلاقيًّا جماعيًّا بذلك، وفي المقابل فإنهم يحتاجون فقط إلى رأسمال بسيط لتحويل أفكارهم وطموحاتهم لمشروعات تنتشلهم من الفقر.

وفقًا لموقع البنك في أكتوبر من العام ٢٠٢١ كان عدد المتعاملين معه قرابة ٩,٤ مليون عميل، ٩٧٪ منهم من النساء، ومن خلال ٢٥٦٨ فرعًا، يقدِّم البنك خدماته في ٨١٦٧٨ قرية تغطِّي أكثر من ٩٣٪ من إجمالي القرى في بنجلاديش، تمَّ توثيق التأثير الإيجابي لبنك جرامين على المقترضين الفقراء في العديد من الدراسات المستقلَّة التي أجرتْها مؤسسات دولية ومحلية بما في ذلك البنك الدولي والمعهد الدولي لسياسات أبحاث الغذاء (IFPRI) ومعهد بنجلاديش لدراسات التنمية BIDS[٢].

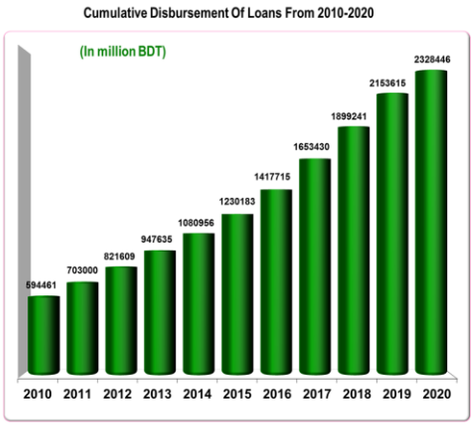

نحن هنا لا نتحدَّث عن تجربة تمويلية صغيرة إنما نتحدَّث عن بنك تمكَّن من إقراض أكثر من خمسين مليون عميلٍ من أفقر الفقراء، بمبالغ تجاوزتْ ما يقرب من ٢٦,٦ مليار دولار في عام ٢٠٢٠ وفقًا لبيانات البنك نفسه كما هو موضَّح بالرسم أعلاه[٣].

تقوم فكرة التضامنية هنا على أن المقترضين المحتملين يشكِّلون مجموعات من خمسة أشخاص في نفس الوضع، والذين يسجلون كـ "مجموعة دعم" ويقرِّرون فيما بينهم أول عضوين يتمتَّعان بامتياز التقدُّم بطلبٍ للحصول على قرض، لا يضمن أعضاء المجموعة الخمسة قروض بعضهم البعض، لكن القروض المتتالية لأي عضو في مجموعة معينة تعتمد على تاريخ

(1) Muhammad Yunus & A. Jolis, Banker to the Poor: Micro-lending and the Battle against World Poverty, available at: https://bit.ly/3FRmr3O

(2) Grameen Bank official website, available at: https://cutt.us/FNFij

(3) Grameen Bank formal website, Graphical data, Cumulative Disbursement Of Loans From 2010-2020, Available at: https://grameenbank.org

السداد لجميع أعضاء المجموعة[٤]. وبالتالي فهناك ما يشبه المسئولية التضامنية القائمة على السمعة حتى وإن كانت غير مكتوبة حيث يحرص الجميع على مساعدة بعضهم للسداد، وهي أمور متاحة في الأعراف والمجتمعات الريفية.

وهذه التجربة تعطينا دروسًا في الاقتصاد السياسي للتمويل في البلدان النامية، حيث رسم يونس وتجربة بنك جرامين مخطَّطًا لممارسات الإقراض في البنك والتي واجهت بعض المشكلات التي تتعلَّق بالسياق السياسي والثقافي والبيئي والمالي المعقَّد، خلال قرابة أربعة عقود من الإقراض الأصغر عبر المشاريع الناجحة التي يتم تجربة تكرار نجاحها في قرى مختلفة مع تكييفها لتلائم الظروف الثقافية والسياسية والاقتصادية المحلية في البلدان النامية الفقيرة الأخرى بل وقد تكون مفيدة كذلك في المناطق الفقيرة نسبيًّا في البلدان الصناعية المتقدمة، ولعل التجارب التي استلهمت فكرة هذا النوع من التمويل انتشرت في العديد من البلدان تراوحت مواقع المشاريع من ريف ماليزيا ومدن في الفلبين إلى أركنساس الريفية ووسط مدينة شيكاغو ونيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية.

تَعْزُو بعضُ التقارير قوةَ وضع البلاد اليوم إلى هذا النظام الائتماني الصغير الناجح، الذي بدأ يترسَّخ في ثمانينيات القرن الماضي، ويمثِّل نموذجًا يُحتذى به لاقتصادات الدول النامية، ومن الأسباب الأخرى للنجاح تركيز الحكومة على تمكين المرأة الريفية من حقوقها الاقتصادية والاجتماعية بشكل عام، ومنح الأولوية للتعليم والصحة[٥].

وبالإضافة إلى ما سبق فقد دعمت الحكومة مبادرات الشمول المالي، فأصبح ٣٤,١٪ من البالغين البنجال لديهم حسابات بنكية في ٢٠١٧، وقاموا بعمليات مصرفية عبر الإنترنت، بالمقارنة بمتوسط ٢٧,٨٪ في غرب آسيا، و١٠,٤٪ فقط من الحسابات المصرفية في بنجلاديش كانت من دون عمليات إيداع ولا سحب، مقابل ٤٨٪ في الهند، وفقًا لبيانات البنك الدولي[٦].

ثانيًا- تعزيز القطاعات الإنتاجية للاقتصاد تنمية للجميع

التجربة البنجالية في قطاع الزراعة تشير إلى استخدام التنمية الزراعية في تحقيق التنمية وتقليل معدلات الفقر، حيث إن الفقر الريفي كان ملمحًا رئيسيًّا للاقتصاد البنجالي، فإن السياسات الزراعية ركَّزت على أن هبوط معدلات الفقر في المناطق الريفية من بين العوامل الرئيسية في مجمل عمليات تقليص الفقر على المستوى القومي.

وهنا تشيد التقارير الدولية حول التنمية بالتجربة البنجالية في عدَّة جوانب أهمها تعزيز الطلب على التعليم في المناطق الريفية عبر برامج التحويلات النقدية وأطر التمويل البنكية الجديدة، وهو الأمر الذي حدث أيضًا في تجارب مثل البرازيل والمكسيك. تساقطت آثار النمو على الفقر عبر مشاركة سكَّان المناطق الريفية في أسواق المنتجات عالية القيمة، بشكلٍ مباشرٍ في بنجلاديش، وهو ما ارتبط بقطاعات مثل القطن والاستزراع السمكي وكان نتيجة لسياسات عامة قوية في القطاع ودور قوي للمجتمع المدني. سياسة تعزيز عملية إدارة المخاطر بزيادة انفتاح الحدود وتجارة القطاع الخاص، وهو ما جرى عند نجاح إدارة نقْص مخزون الأرز في بنجلاديش نتيجة للفيضانات في عام ١٩٩٨[٧].

(4) Tim Büthe, Reviewed Work: Banker to the Poor: Micro-Lending and the Battle Against World Poverty by Muhammad Yunus, Alan Jolis, *Journal of International Affairs* Vol. 53, No. 2, 2000, pp. 741-45, available at: https://cutt.us/8q6it

(٥) براكريتي غوبتا، بنغلاديش تنتصر على الفقر بالنمو الاقتصادي، الشرق الأوسط، ٦ يناير ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3wFCKOj

(٦) أحمد ذكر الله، ازدهار بنغلاديش: دروس اقتصادية إلى السلطة المصرية، الجزيرة نت، ٧ فبراير ٢٠١١، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3Mf14LH

(٧) البنك الدولي، تقرير التنمية في العالم ٢٠٠٨: الزراعة من أجل التنمية، ص ص ١٢-١٤، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3GRaUlG

بفضل السياسة الزراعية الجيدة بالتوازي مع دعم التمويل الريفي للمشروعات الصغيرة والمتوسِّطة، ورغم تعرُّضها لتقلُّبات مناخية شديدة من فيضانات وكوارث طبيعية، يشير مؤشِّر الأمن الغذائي إلى تقدُّم ملحوظ لبنجلاديش ذات ال١٦٣ مليون مواطن في السنوات الأخيرة، وهي وفقًا للمؤشر رغم وقوعها في المرتبة ٨٤ من بين ١١٣ دولة، فهي تتمتَّع بخمسة عناصر قوة رئيسية تتمثَّل في (الأمن الغذائي والتزامات سياسة الوصول للغذاء - جودة المعايير الغذائية - مواجهة تقلبات الإنتاج الزراعي - معايير سلامة الغذاء الجيدة - مواجهة فقدان الطعام) بينما لا تزال تواجه تحديًا يتعلَّق بضعف مؤشِّر التنوُّع الغذائي[٨].

كذلك فإن التخصُّص في صناعة الملابس والمنسوجات وتعزيزها، يُعَدُّ سرًّا من أسرار نجاح التجربة البنجالية في التنمية، فقد كان للسياسات الزراعية ولتعزيز صناعة النسيج وضبط قوانين العمل دور في استقطاب الشركات الكبرى المحلية والأجنبية للاستثمار في قطاع النسيج، وكان للصادرات - خصوصًا في مجال الملابس الجاهزة- دورٌ هائلٌ في تحقيق تلك الطفرة في الصادرات، ففي ظل تبنّي قطاع الملابس لاستراتيجية قومية تركِّز على التصنيع، ازدادت صادرات البلاد بمعدَّل متوسط سنوي يتراوح بين ١٥ و١٧٪ خلال السنوات الأخيرة. وفي عام ٢٠١٧، صدَّرت بنجلاديش ملابس تتجاوز قيمتها ٢٨ مليار دولار، محقِّقة المركز الثاني بعد الصين في التصدير،كذلك تمثل صادرات الملابس ١٤٪ تقريبًا من إجمالي الناتج المحلي، و٨٠٪ من إجمالي الصادرات[٩].

وقد حقَّقت بنجلاديش أكبر نموٍّ لإجمالي الناتج المحلي خلال العام المالي ٢٠١٧-٢٠١٨، ونسبته ٧,٨٦٪، متخطِّية النمو التقديري البالغ ٧,٦٥٪، مما ساعد على انتشال ٥٠ مليون شخص من الفقر المدْقع، بحسب صندوق النقد الدولي، ووفقًا لرئيسة وزرائها شيخة حسينة، فإن بلادها أصبحت من بين أسرع خمسة اقتصادات نموًّا في العالم وتحتلُّ المرتبة ٤١ من حيث الناتج المحلي الإجمالي، وعلى مدى العقد الماضي قامت بتخفيض معدَّل الفقر من ٣١,٥٪ إلى ٢٠,٥٪، كما قفز دخْل الفرد إلى أكثر من ثلاثة أضعاف في عقد واحد فقط، كما وصلَ احتياطي العملات الأجنبية لدينا إلى أعلى مستوى له على الإطلاق إلى ٤٨ مليار دولار، وحقَّقت بنجلاديش تقدُّمًا مذهلًا في المجال الاجتماعي والاقتصادي وتمكين المرأة[١٠].

تشير الدراسات إلى أن معدَّل النمو المرتفع والمستمر انعكس على زيادة متوسِّط دخل الفرد، والذي زاد من ٨٧٠ دولارًا عام ٢٠١١ إلى ١,٧٥١ دولارًا عام ٢٠١٨، أي بمعدَّل زيادة ٢٠١٪ تقريبا خلال أقل من عشر سنوات، ورغم التزايد السكاني الضخم خلال العقد الماضي فإن النمو الاقتصادي استطاع أن يستوعب الأعداد المتزايدة الداخلة إلى سوق العمل، واستمرَّ معدَّل البطالة المنخفض في البلاد على حاله تقريبًا منذ عام ٢٠٠٠ والذي بلغ خلال تلك الفترة ٣,٣٪ بينما تراوح بين ٤,٣٪ و٤,٤٪ في الأعوام الخمسة الأخيرة. كما استمرَّ معدَّل البطالة بين الذكور في حدود ٣٪ إلى ٣,٣٪ خلال السنوات الخمس الأخيرة، بينما انخفض معدَّل البطالة بين الإناث من ٧,١٪ عام ٢٠٠٥ إلى ٦,٥٪ عام ٢٠١٨[١١].

ثالثًا- نظام سياسي ديمقراطي شبه مستقر

رغم التعدُّدية العرقية والدينية في بنجلاديش، فإن استقرار نظامها السياسي على مدار العقدين الماضيين حتى ولو كان استقرارًا هشًّا فقد كان عاملًا رئيسيًّا في التنمية والطفرة الاقتصادية، وهذا ما تشير إليه أدبيات التنمية السياسية الحديثة، والدراسات التي تتناول الظاهرة الصعودية للاقتصاد البنجالي من مداخل الاقتصاد السياسي.

(8) Global Food Security Index 2021, Bangladesh, available at: https://bit.ly/3MoD88y

(٩) براكريتي غوبتا، بنغلاديش تنتصر على الفقر بالنمو الاقتصادي، مرجع سابق.

(١٠) وكالة الأناضول للأنباء، شيخة حسينة: بنغلاديش من بين أسرع ٥ اقتصادات نموًّا في العالم، ٢٤ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3xaPDyS

(١١) أحمد ذكر الله، ازدهار بنغلاديش، مرجع سابق.

نحن إزاء دولة تحكمها سيدة في منصب رئيسة الوزراء في نظام ديمقراطي شبه مستقر، قد احتفلت العام الماضي ٢٠٢١ بعِيد استقلالها الـ٥٠ عن جارتها باكستان بعد حرب تحرير دامت تسعة أشهر أعقبها حكم عسكري دام ١٥ عامًا ثم تحوُّل ديمقراطي بتعدُّدية منقسمة بين تيارات دينية وأخرى علمانية تخلَّلتها تحالفات دقيقة، وعانتْ من كوارث طبيعية مثل الفيضانات والمجاعات والأوبئة التي تتبعها، ولم يمْضِ عقدان على استقلالها حتى حازت على الاهتمام الدولي بتجربة النجاح التنموي في مواجهة الفقر والبطالة واللامساواة على النحو الذي أوضحناه.

يشكِّل التوازنُ بين العسكريين والعلمانيين والجماعات الإسلامية المعتدلة وبعض التيارات المتشدِّدة والمتطرِّفة والأحزاب التابعة لهذه القوى خريطةَ المشهد السياسي البنجالي الذي أفْضى لما يشبه حكم الحزب الواحد بتوازن دقيق للتحالفات والتفاهمات مع القوى الأخرى، لكن السرَّ هنا في النجاح الاقتصادي الكبير الذي حافظ على معدَّل نموٍّ يتجاوز متوسِّطه ٦٪ منذ عام ١٩٩١ وحتى الآن، وهي فترة تخلَّلتها بعض الاضطرابات السياسية في الفترة ٢٠٠٦-٢٠٠٨ وفي ٢٠١٤-٢٠١٦، وليس السر فقط في معدَّل النمو بحدِّ ذاته، وإنما فيما يمكن تسميتُه بعدالة التوزيع، فالنموُّ كان يصبُّ بشكلٍ أكبر في صالح الفئات الأفقر والأكثر تهميشًا على النحو الذي أوضحْناه سابقًا في عملية التمويل الصغير ومتناهي الصغر لأفقر الفقراء وللمرأة والريف بشكل خاص.

وبرغم أن بعض الدراسات كانت تشير لمؤشِّرات مقْلقة بشأن مستقبل النظام السياسي هناك سواء فيما يتعلَّق بالصراع بين التيارات العلمانية والإسلامية والمجموعات الجهادية وبعض الأحزاب السياسية المتبنِّية للعنف في الصراع مع السلطة، في الأعوام ٢٠١٤-٢٠١٦ وكذلك التخوُّفات من صعود تنظيمات جهادية عابرة للحدود[١٢]، فإن شرعية الإنجاز الاقتصادي والاجتماعي جعلت هذه التيارات في موضع حرج وزادت من حجم الطبقة الوسطى المؤيِّدة لاستقرار النظام السياسي والتحالف الحاكم الحالي بقيادة حزب رابطة عوامي وزعيمته شيخة حسينة التي تحافظ على قدرٍ من الاعتدال في مواجهة تيارات علمانية من جهة وأخرى يمينية دينية متطرفة.

وإذا كان الإرهاب والعنف والتطرف مُعِيقًا رئيسيًّا للتنمية كما تتحجَّج العديد من الحكومات، فإننا إزاء بلد وصف بأنه مركز للمجموعات الإرهابية الصاعدة في وسط آسيا من قبل العديد من الكتاب الغربيين[١٣]، ومع ذلك فإن معدَّلات نموِّه الاقتصادي والاجتماعي لا تزال متقدِّمة وتوقُّعاته للسنوات القادمة متفائلة بشدَّة.

لكن تبْقى بعضُ المعوِّقات التي قد تقوِّض التنمية الاقتصادية يومًا وهي الاحتمالية المستمرَّة لتدخُّل العسكريين في العملية السياسية، مع وجود الإرهاب والحركات المتطرِّفة التي تجد لها ذرائع قوية بنموِّ الخطاب اليميني القومي المتطرِّف في دول الجوار المباشر ضد المسلمين في دول مثل الهند وميانمار وفيتنام وغيرها. تتعامل الحكومة هناك بحذرٍ شديدٍ في المواقف المرتبطة بهذه التحديات معتمدة على الاهتمام بالتعليم ومواجهة الخطابات الشعبوية عن يمينها ويسارها بهدوء كسبيل لمواجهة التطرُّف.

وكذلك تمثِّل الفيضانات والكوارث الطبيعية المرتبطة بتغير المناخ تحديًا كبيرًا للحكومة البنجالية حيث تسبَّبت الموجات المتكرِّرة من الأعاصير في عمليات نزوح داخلي كبيرة، وتشير التقارير إلى أن ٧٠٠ ألف شخص نزحوا سنويًّا خلال العقد الماضي، بسبب الكوارث الطبيعية هناك، تتسبَّب الأعاصير المتكرِّرة بأضرار كبيرة في السدود المنتشرة على السواحل، والبالغ طولها نحو ٥٥٠٠كم، وتواجه الحكومة هذا التحدِّي بإنفاقٍ عالٍ للتكيُّف مع هذه التغيُّرات المناخية يصل سنويًّا لنحو ٥

(١٢) علي رياض، بنغلاديش ومؤشرات مقلقة: مواجهة الإسلاميين وفشل الديمقراطية، ترجمة: كريم الماجري، مركز الجزيرة للدراسات، ٣٠ يونيو ٢٠١٦، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3Mj9TnM

(13) Sajjan M. Gohel, "Bangladesh: An Emerging Centre for Terrorism in Asia", *Perspectives on Terrorism,* Vol. 8, No. 3, 2014, pp 84-91, available at: https://cutt.us/0clSw

مليارات دولار، كما أنها تطالب بتعويضات على المستوى الدولي، بقيمة ١٠٠ مليار دولار للدول المتأثِّرة بتغيُّر المناخ[١٤].

أي إننا نتحدَّث عن بنجلاديش التي تمَّ تصنيفها يومًا بين أفقر دول العالم، والأكثر كثافة سكَّانية على مستوى العالم، ورابع أكبر دولة من حيث عدد السكَّان المسلمين، كمثال لقصة نجاح اقتصادي كبيرة في مواجهة الفقر والبطالة واللامساواة وتحسين الخدمات الصحية والتعليمية في وقت قصير رغم العقبات الكبيرة.

رابعًا- النمو المرتبط بالسياسة الخارجية الناجحة:

عندما نتحدَّث عن بنجلاديش فنحن بصدد أحد أكبر البلدان المصدِّرة للعمالة في العالم، وبالتالي فهي واحدة من أكبر متلقِّي تحويلات العمالة في الخارج، ولقد كانت هذه التحويلات أحد أهم عوامل الصمود في وجه الأزمة المتعلِّقة بفيروس كورونا وتبعاتها الاقتصادية، حيث كان معدَّل الزيادة في تحويلات العاملين البنجاليين هي الأكبر عالميًّا بحوالي ١٨٪ زيادة عن العام ٢٠١٩ وفقًا لبعض التقارير نقلًا عن موقع ستاتستكا[١٥] كما يتَّضح من الشكل التالي:

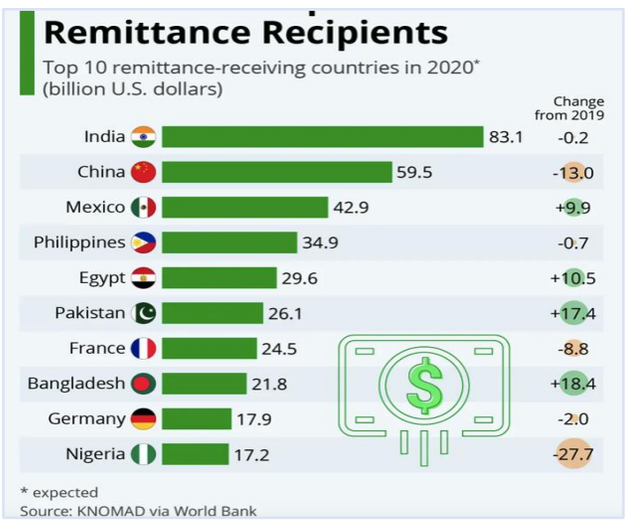

وهو مؤشِّرٌ هامٌّ للنموِّ وللحفاظ على الاستقرار في سعر العملة وعلى الاحتياطيات الأجنبية وميزان المدفوعات، حيث تحوَّلت بنجلاديش بنجاح من بلد يعتمد بشكلٍ كبيرٍ على المعونات والمنح والقروض الأجنبية، إلى بلدٍ مصدِّرٍ للعديد من السلع والخدمات، ونموذجٍ اقتصاديٍ ملهِم في بعض جوانبه فيما يتعلَّق بمحاربة الفقر في الريف على الأقل، وتمَّ ذلك بفضْل سياسة داخلية جيدة وسياسة خارجية متميزة حافظت على وحدة البلاد واستقرارها في ظل حرب باردة قوية بين الشرق والغرب، ومن جانب آخر، كانت باكستان والهند وبنجلاديش بؤرةَ توتُّر كبيرة فيها، وجزءًا هامًّا من الصراع على التحالفات والموارد والأنظمة الإقليمية، ووفقًا لبعض الدراسات فإن التنمية الاقتصادية التي حقَّقَتْها كانت بحلول ٢٠٢١ قادرة على إكسابها صفة القوة المتوسطة والقدرة على قول (لا) في الأوقات الصعبة بحرية كبيرة استنادًا إلى النجاحات الكبيرة في الاقتصاد[١٦].

ارتبطت هذه السياسة الخارجية بإدراك الحكومة للدور الذي يمكن أن تلعبه البلد في إطار تقسيم العمل الدولي، سواء عبر التخصُّص في صناعة الملابس الجاهزة والمنسوجات كقطاع تحْظي فيه البلاد بميزات تنافسية، أو عبر استغلال الجائحة في تعزيز صادراتها من خلال إنتاج وتصدير معدات الوقاية الشخصية عالية الجودة أثناء الجائحة، والتي لن تتضاءَل احتياجاتها في المستقبل القريب، أو عبر تعزيز القوى البشرية العاملة بالقطاع التكنولوجي حيث تُعَدُّ البلد حاضنةً

(١٤) وكالة الأناضول للأنباء، بنغلاديش.. نزوح وأمراض ومعاناة جراء تغير المناخ: ٧٠٠ ألف شخص نزحوا سنويًّا خلال العقد الماضي، بسبب الكوارث الطبيعية، ٢٠ يونيو ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3tM4vTE

(١٥) أكبر ١٠ دول متلقية للتحويلات في العالم.. تعرف عليها!، العربية نت، ١٦ مايو ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3PGF4fC

(16) Lailufar Yasmin, "Bangladesh at 50: The Rise of A Bangladesh That Can Say No", Daniel K. Inouye Asia-Pacific Center for Security Studies, 2022, pp. 1-2, available at: https://cutt.us/lR5vf

تكنولوجيةً قويةً في جنوب آسيا والمزوِّد الثاني عالميًّا في مجال القوى العاملة عبر الإنترنت[١٧].

أي إننا إزاء تصدير حقيقي للعمالة وتصدير لخدمات التعهيد عبر الإنترنت أصبحت تنافس فيه الهند والصين بقوة، وبتكلفة بسيطة عبر الاهتمام بالتعليم والتعليم التقني، واتبعت البلاد أيضًا ما يُطلِق عليه البعض "الدبلوماسية التنموية" و"دبلوماسية الموانئ"، بحيث انفتحت على الجميع ولكن بشروط تتعلَّق بالاتفاقات التجارية والتصديرية العادلة، بحيث أصبح لديها علاقات تنموية قوية مع الصين واليابان ودول الخليج العربي أي دول الجوار المباشر والقريب كأولوية وكثير من دول العالم كأولوية ثانية، مع الأخذ في الاعتبار ألا تعتمد على شريك تجاري واحد بشكل مكثَّف، أي إنها تعتمد سياسة تعدُّد الشركاء سواء في عمليات تطوير الموانئ والبنية التحتية أو حتى شركاء التجارة الخارجية[١٨].

ساعدت هذه السياسة التنموية بنجلاديش في تعزيز سياستها الخارجية بحيث استطاعت أن تحتجَّ على السياسات الدولية بحق ميانمار، وطالبت بالاعتراف بالمجازر العسكرية بحقِّ الروهينجا وتفعيل القانون الدولي الإنساني بشأن التعامل مع الأوضاع في جارتها ميانمار والتي تسبَّبت مجازرُ النظام القومي المتطرِّف فيها ضدَّ الروهينجا إلى لجوء قرابة ١,٢ مليون شخص إلى بنجلاديش وحدها، وساهمت في وضع هذه القضية على الأجندة الأممية التي أشاد خبراؤها بالسياسات البنجالية في هذه المسألة[١٩].

وفي الوقت نفسه فإن السياسة الخارجية الجيدة وأنشطة السفارات في الترويج للعمالة البنجالية ودعمها، فتحت أسواقًا جديدة للعمالة البنجالية في الخارج لا سيما في دول الخليج التي هي الوجهة الأولى للعمالة البنجالية إذ تستضيف السعودية وحدها قرابة ٢,٥ مليون عامل بحسب تصريحات سعودية[٢٠]، كما تستضيف سلطنة عمان قرابة نصف مليون وهي تعد الجالية الأكبر في البلاد، ويتوقَّع أن تستضيف ١٦٠ ألف وافد بنجالي جديد في عام ٢٠٢٢، وذلك بارتفاع يزيد عن ٦٠ ألف عامل فقط العام الماضي وفقًا لتقرير لصحيفة خليج أونلاين[٢١].

وبالنسبة للاستثمار الأجنبي المباشر، فإنها تاريخيًّا لم تشهد معدلات مرتفعة منه بحسب الـUNCTAD، إذ إنها في السنوات من ٢٠١١-٢٠٢٠ بلغت في المتوسط ٢,١ مليار دولار[٢٢].

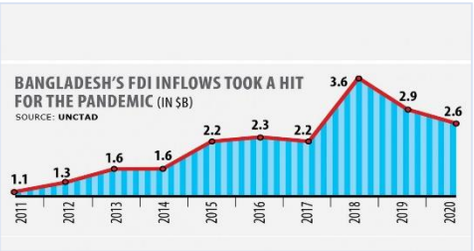

صحيح أنها استقطبت استثمارات أجنبية ضعيفة على مدار السنوات الماضية، وأن مؤشِّر الاستثمار الأجنبي المباشر فيها لا يزال منخفضًا تاريخيًّا إلا أن وتيرة انخفاض هذه الاستثمارات كانت الأقل عالميًّا جرَّاء أزمة كورونا، فبينما انخفض هذا المؤشِّر

(17) Ibid, p. 3.

(18) Ibid, p. 5.

(١٩) خبير أممي: بنغلاديش أنقذت عددًا لا يحْصَى من أرواح الروهينجا من الجرائم الفظيعة في ميانمار، الأمم المتحدة، ١٩ ديسمبر ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3xfLA5M

(٢٠) لتعزيز العلاقات.. وزير الخارجية السعودي يصل إلى بنجلاديش، موقع صحيفة الخليج الجديد، ١٥ مارس ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3NknwUX

(٢١) توقعات باستقبال عُمان ١٦٠ ألف عامل بنغالي في ٢٠٢٢، الخليج أونلاين، ٥ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3NQPBD6

(22) Rejaul Karim Byron, FDI outlook bleak for Bangladesh, the daily star, Jun 22, 2021, available at: https://bit.ly/3NWnouQ

عالميًا بنسبة ٤٢٪ في التسعة أشهر الأولى من عام ٢٠٢٠ فإن النسبة في بنجلاديش كانت ١٩,٥٪[٢٣].

كما أنها تعزّز اقتصادها بالاعتماد على موارد تمويل داخلية جيدة وباعتماد أقل على الديون الخارجية، فنحن إزاء دولة استطاعت مضاعفة الناتج المحلي الإجمالي فيها أكثر من ست مرات في ٢٠ عامًا (من ٥٣,٣ مليار دولار عام ٢٠٠٠ إلى ٣٢٣ مليار دولار في ٢٠٢٠[٢٤]، وينخفض اعتمادها على الديون الخارجية إذ يبلغ حجم الدين الخارجي إلى الناتج القومي الإجمالي فيها في ٢٠٢٠ حوالي ٢٠٪ انخفاضًا من ٤٤,٥٪ منه عام ١٩٩٤[٢٥]. يمكننا القول إن مصادر التمويل الدولي الأساسية للاقتصاد البنجالي تعتمد على الصادرات القوية، وتحويلات العاملين بالخارج وهي موارد يسهل التحكُّم بها وزيادتها، وبدرجات أقل على المساعدات الخارجية والمنح، وكذلك الاستثمار الأجنبي المباشر، وأخيرًا الديون والقروض التي لا تشكِّل نسبةً كبيرةً من الناتج القومي. ينبئنا هذا الوضع أن سياسات الاعتماد على الذات ليست وهمًا اشتراكيًا أو مجرد طنين لأصوات مدرسة التبعية في الاقتصاد السياسي والعلاقات الدولية، بل هو أمر ممكن ومسار لا بدَّ منه في أي طريق نحو التنمية الحقيقية.

خاتمة:

تنبئنا تجربة بنجلاديش في التنمية على ما بها من تعثُّرات ونقاط مضيئة، أنه لا مستحيل إذا كان هناك نظام ديمقراطي مستقر أو شبه مستقر، ونخب اقتصادية ومالية تعمل لصالح غالبية المواطنين، وتسخِّر معارفها وطاقاتها للنهوض بهؤلاء المواطنين، وتؤمن بقدراتهم وطاقاتهم دون تخوين أو تشكيك في ولاءات المواطنين.

لا يمكن أن تحدث تنمية حقيقية من دون نظام تمويلي موجَّه للفئات الأكثر فقرًا، فأنظمة التمويل الرأسمالي القائمة في البلدان الفقيرة تحافظ على الفقر والتفاوت والتعثُّر الاقتصادي بشكل بنيوي، وتعمل بشكل آلي على تسريب القيمة للفئات الأكثر غني وتقود لتدهور ولاء المواطنين وإحساسهم بأنهم أصحاب هذا الوطن.

لا تزال المعادلة القائمة بين التنمية الاقتصادية والسياستين الداخلية والخارجية في بنجلاديش هشَّة وتحتاج لعوامل استقرار تدعم استمراريتها وترتبط بتداول سلمي للسلطة بين الأحزاب الرئيسية مع نمط حكم يحد من فكرة سيطرة الحزب الواحد لمدى زمني طويل ويقبل بصعود الإسلاميين للسلطة لكي يتمَّ ترويضهم في أروقة الدولة وتحدياتها بعيدًا عن الاستقطابات الأيديولوجية الحادَّة ذات الطابع الشعبوي، لكن هذه التجربة تشير إلى أن التنمية الاقتصادية الحقيقية غير ممكنة وغير مجْدية إذا لم يكن المواطن هدفها الأول، وإذا لم تكن تستهدف تحسين حياة المواطنين الأكثر فقرًا والأقل حظًّا من التعليم والخدمات العامة المختلفة، وهذا مرتبط أيضًا بوجود نظام سياسي ناجح في إحداث تعاون حقيقي مع المؤسسات الأكاديمية ومؤسسات المجتمع المدني، ففكرة بنك الفقراء انطلقت من مجتمع الأكاديميا إلى المجتمع بأكمله عبر مجتمع مدني قوي في سياق معقول من الحريات والحقوق الأساسية والتنظيمية للمواطنين، كذلك ساعدت قوانين العمل والاستقرار النسبي في تقديم مناخ أكثر تنافسية للشركات من بلدان مجاورة مثل الهند وسريلانكا وغيرها.

تعطينا هذه التجربة أيضًا دروسًا في أنه لا تنمية حقيقية من دون تخطيط جيد سياسات عامة رشيدة موجَّهة للقطاعات الإنتاجية سواء في الزراعة والصناعة كأولوية على أية مشروعات

(23) Bangladesh sees slump in FDI inflow as foreign investment falls worldwide, The financial express, 25 January 2021, available at: https://bit.ly/3Nfmjy9

(24) World Bank national accounts data, and OECD National Accounts data files, GDP (current US$) - Bangladesh, World Bank national, available at: https://bit.ly/3arIGSC

(25) International Debt Statistics, External debt stocks (٪ of GNI) - Bangladesh, World Bank, https://bit.ly/3GOOpxM

شخصية للقيادات السياسية، لأن هذه القطاعات هي الضامن الحقيقي لرفع معدلات التشغيل وخفض البطالة وزيادة الموارد العامة التي بها يمكن تحسين الخدمات العامة في الصحة والتعليم والسكن والمواصلات، وضمان رضاء غالبية المواطنين عن مخرجات النظامين السياسي والاقتصادي، وهذا الرضاء هو ركيزة الاستقرار.

*****

القوقاز: الصراعات الجيواستراتيجية وإشكالية الهوية

د. أحمد عبد الحافظ فواز(*)

مقدمة:

القوقاز هو منطقة جغرافية سياسية تقع عند حدود أوروبا وآسيا، وهي موطن جبال القوقاز، وغالبًا ما يقسَّم إلى القوقاز الجنوبي والقوقاز الشمالي. يقع الأخير داخل أراضي روسيا الاتحادية وتتركَّز به وبمنطقة حوض الفولجا والأورال غالبية مسلمي روسيا. ويضم شمال القوقاز سبع جمهوريات تتمتع بالحكم الذاتي، وهي: أديغيا، وداغستان، والشيشان، وإنغوشيا، وأوسيتيا الشمالية، وقباردينو - بلقاريا، والقرتشاي/الشركس، إضافة إلى منطقتي ستافروبول وكراسنودار[١]. أما القوقاز الجنوبي فيضمُّ ثلاث دول هي جورجيا وأرمينيا وأذربيجان، وتقطن الأخيرة غالبية مسلمة.

شهد القوقاز تاريخيًّا العديد من الصراعات السياسية والعسكرية والدينية والثقافية والعمليات التوسُّعية عبر قرون، بل إنه عقب تفكُّك الاتحاد السوفيتي وقعت كلُّ الصراعات تقريبًا التي ارتبطت بنهاية القوة السوفيتية في القوقاز، مثل صراع الشيشان في روسيا، والصراعات الإقليمية حول ناغورنو كاراباخ في أذربيجان، وأوسيتيا الجنوبية وأبخازيا في جورجيا. وفي تلك الصراعات لعبت روسيا دورًا محوريًّا كطرف رئيسي كما في حالة الشيشان أما في بقية الصراعات فقد تراوحت أدوارها أحيانًا بين التدخُّل المباشر أو دعم طرف على حساب آخر أو فرض نفسها وسيطًا أساسيًّا للتفاوض بين الأطراف المتصارعة أحيانًا أخرى[٢].

يسعى التقرير لرصد أهم التطورات التي شهدتها منطقة القوقاز عبر السنوات الخمس الماضية؛ أي خلال الفترة من مطلع العام ٢٠١٧ حتى مطلع يونيو ٢٠٢٢. ومن ثم يتمُّ التركيز على رسم خرائط للتوازنات الإقليمية وتحديد الإشكاليات التي تواجه دول المنطقة في ظل تلك التوازنات. وسوف يتم ذلك عبر الإجابة عن التساؤلات التالية:كيف كان القوقاز ميدانًا لصراعات القوى الكبرى أحيانًا، وبين فاعليه المحليّين وما اعتبره محلِّلون أحيانًا حروبًا بالوكالة في المنطقة؟ كيف انعكست الحرب الأوكرانية على الصراعات في القوقاز؟ كيف أثَّرت مكانة وسياسات روسيا في جنوب القوقاز على مواقف دول الإقليم من الحرب في أوكرانيا؟

اتَّبعت دول جنوب القوقاز -أرمينيا وأذربيجان وجورجيا- منذ استقلالها بعد تفكُّك الاتحاد السوفيتي ولقرابة الثلاثين عامًا مساراتٍ مختلفةٍ في سياساتها الخارجية. ورغم إعلان الدول الثلاث أنها لن تنضمَّ للعقوبات ضدَّ روسيا ولن تغلق مجالها الجوي أمام الطائرات الروسية، إلا أن حكوماتها تدرك أن هناك قطاعات من الرأي العام الداخلي، خاصة في جورجيا وأذربيجان، تؤيد أوكرانيا في صراعها الأخير مع روسيا، من ثم لم تحاول تلك الأنظمة قمع أشكال التعبير عن ذلك التعاطف[٣].

انعكست هذه الاختلافات في البداية على رَدِّ الفعل الدبلوماسي للدول الثلاث على الغزو الروسي لأوكرانيا. ففي جلسة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في ٢

(*) أستاذ مساعد علوم سياسية بجامعة القاهرة، مصر.

(1) The North Caucasus: The Challenges of Integration (I), Ethnicity and Conflict, International Crisis Group, Europe Report; No. 220, 19 October 2012, p. 3.

(٢) أحمد عبد الحافظ فواز، "القوقاز بعد ربع قرن من تفكك الاتحاد السوفيتي: خريطة القوى والتفاعلات،" فصلية قضايا ونظرات، مركز الحضارة للدراسات السياسية، العدد الرابع، يناير ٢٠١٧، ص ٤٠.

(3) Dennis Sammut, "Ukraine poses a dilemma to the three South Caucasus countries, but they have still one important card they can play", Common Space ,10 March 2022, available at: https://cutt.us/Hsok1

مارس ٢٠٢٢، صوَّتت جورجيا مع ١٤٠ دولة أخرى لصالح قرار يدين الغزو الروسي، بينما امتنعت أرمينيا عن التصويت، وغابت أذربيجان، كان هذا هو الجانب الرسمي المعلن لكن وراء الكواليس، عانت الدول الثلاث كثيرًا بشأن كيفية التعامل مع هذه الأزمة التي يصعب التنبُّؤ بتداعياتها[٤].

أولًا- مواقف دول جنوب القوقازوجمهورياته الانفصالية من الحرب الأوكرانية

منذ اندلاع الحرب الروسية الأوكرانية واهتمام العالم قد تحوَّل للتركيز على تبعات تلك الحرب خاصةً ذلك الدمار الذي خلفته وتأثيراته على المدنيين الأوكرانيين. ومع استمرار الحرب التي تقرُّ تحليلات غربية بأن تكلفتها تزداد بالنسبة لروسيا إلا أن تلك التحليلات أشارت على صانعي السياسة في الولايات المتحدة وأوروبا بضرورة إيلاء اهتمام أكبر بالمناطق الأخرى التي ربما يؤدِّي تضاؤل سمعة روسيا العسكرية فيها إلى زعزعة موازين القوى المحلية. سيحدث خطر واضح ولكن أيضًا هناك فرصة ناجمة عن تراجع مصداقية روسيا كقوة عسكرية فيما يسمَّى "الصراعات المجمَّدة" في جنوب القوقاز: أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية في جورجيا، وبين أرمينيا وأذربيجان حول ناغورنو كاراباخ. بالتالي، يمكن أن تعود تلك "الصراعات المجمَّدة" إلى العنف، ولكن من ناحية أخرى -بحسب تلك التحليلات- هناك أيضًا فرصة لإحياء الحلول الدبلوماسية[٥]. وترى تحليلات أخرى أنه إذا طال أمد الحرب ولم تحقِّق روسيا أهدافها بسرعة في أوكرانيا، فقد تطالب حلفاءها في آسيا الوسطى بالاشتراك في المعركة، وفي جنوب القوقاز يحظى الكرملين بنفوذ أكبر، لكن ذلك لا يمنع أن تؤدِّي التوتُّرات بين اثنين من حلفاء موسكو - أذربيجان وأرمينيا- إلى إضعاف يد روسيا في المنطقة[٦].

بالطبع لن تقف تبعات الحرب الروسية الأوكرانية عند طرفيها الرئيسين؛ فعلى مستوى معدلات النمو الاقتصادي -على سبيل المثال- من المتوقَّع أن تكلِّف الحربُ دولَ جنوب القوقاز وآسيا الوسطى ١,٥ نقطة و٢,٣ نقطة نمو على التوالي في عام ٢٠٢٢. وستتباين الصدمة الاقتصادية من دولة لأخرى. يعتمد بعض تلك الدول على التحويلات المالية من المهاجرين العاملين في روسيا، مثل قيرغيزستان وطاجيكستان، أفقر دول المنطقة؛ حيث تمثِّل هذه الإيرادات وحدها ٢٦٪ و ١٦٪ من الناتج المحلي الإجمالي للدولتين على التوالي. كما يشكِّل العمَّال المهاجرون حوالي ٥ إلى ٦ بالمائة من القوة العاملة الروسية لكن -حتى كتابة هذه السطور- لم تحدث عمليات مغادرة جماعية[٧].

ولا يختلف الوضع كثيرًا في جنوب القوقاز عن نظيره في آسيا الوسطى من حيث تداعيات الحرب الأوكرانية. فقد تواجه دول القوقاز تداعيات اقتصادية محتملة من الأزمة، وخاصة من العقوبات الهائلة المفروضة على روسيا. ولدى البلدان الثلاثة هي الأخرى مجتمعات شتات كبيرة في روسيا ترسل الأموال بانتظام إلى أقاربها في الوطن، بل تشير الدلائل إلى أنه كان هناك بالفعل انخفاض في هذه التحويلات حتى قبل أن تدخل العقوبات حيز التنفيذ، ومن المحتمل أن تنخفض أكثر بكثير إذا استمرَّ الانكماش الاقتصادي في روسيا[٨].

سوف تستعرض الدراسة في هذا القسم بإيجاز أهمَّ التطوُّرات الداخلية بدول القوقاز وكيف انعكست تلك

(4) Ibid.

(5) Mary Glantz, Noah Higgins, "Russia's Ukraine War Could Offer Chance to Resolve South Caucasus Conflicts", United States Institute of Peace ,5 May 2022, available at: https://cutt.us/DT2Cs

(6) Nikola Mikovic, "The Caucasus card in Russia's war on Ukraine", Asia Times ,10 March 2022, available at: https://cutt.us/IWHOn

(7) Julien Bouissou, "The war in Ukraine is having a knock-on effect on Central Asian and Caucasian economies", Le Monde ,20 April 2022, available at: https://cutt.us/xUZUI

(8) Dennis Sammut, "Ukraine poses a dilemma to the three South Caucasus countries, but they have still one important card they can play", Op. cit.

التطورات على مواقفها من الحرب الأوكرانية وكيف تأثرت هذه المواقف بطبيعة علاقاتها بكلٍّ من روسيا وأوكرانيا.

١- جورجيا

سَعَتْ جورجيا كالعديد من جمهوريات الاتحاد السوفيتي إلى الاستقلال في مطلع تسعينيات القرن العشرين في الوقت الذي أيَّدت أبخازيا -جمهورية حكم ذاتي داخل جورجيا آنذاك- البقاء ضمن الاتحاد، وتعالت النبرة القومية في خطاب القيادات الجورجية، وما إن تفكَّك الاتحاد السوفيتي حتى شهدت جورجيا حالة من الاضطرابات والفوضى وخاضت البلاد حربًا أهلية في عام ١٩٩٢ وامتدَّت المعارك لإقليم أبخازيا عقب اجتياح القوات الجورجية له[٩].

أ) روسيا وتطورات الأوضاع الداخلية في جورجيا

عقب هزيمة جورجيا في أبخازيا في عام ١٩٩٣ مارست روسيا ضغوطها على كلا الطرفين لتوقيع اتفاقية سلام أبرمت بالفعل في مايو ١٩٩٤، ونصت الاتفاقية على أن تقود روسيا مهام حفظ السلام في مناطق الصراع، وكانت عندما تتوتَّر العلاقات تحرص روسيا على إرسال رسائل لجورجيا مفادها أن الأخيرة لا تزال في مجال التأثير الروسي مثل تصريح يلتسين -رئيس روسيا آنذاك- في ٢٥ أغسطس ١٩٩٧ أن روسيا ستظل هي وسيط المحادثات بين جورجيا وأبخازيا ولن تسمح للولايات المتحدة أن تلعب هذا الدور[١٠].

عندما أطلقت جورجيا حملتها العسكرية على أوسيتيا الجنوبية في أغسطس ٢٠٠٨ وتدخَّلت القوات الروسية دفاعًا عن أوسيتيا، انتهز قادة أبخازيا الفرصة لفرض السيطرة على سائر إقليم أبخازيا، وتركَّزت المواجهات في أبخازيا آنذاك في كودوري جورج، وهي المنطقة التي هيمنت عليها الميليشيات العسكرية الجورجية منذ تفكُّك الاتحاد السوفيتي إلى أن فرضت قوات الداخلية الجورجية سيطرتها عليها في عام ٢٠٠٦[١١].

ارتبطت توتُّرات العلاقات الروسية الجورجية عمومًا بتنامي سعي جورجيا للتقارب مع الغرب وإعلان رغبتها في أن تصبح عضوًا في كلٍّ من حلف الناتو والاتحاد الأوروبي، وقد ظهر ذلك بشكل أوضح منذ تولِّي ميخائيل ساكاشفيلي (Mikheil Saakashvili) الحكم في جورجيا في أواخر عام ٢٠٠٣ بعد الثورة الوردية التي أطاحت بالرئيس السابق إدوارد شيفرنادزه (Eduard Shevardnadze).

لذلك كان انتصار بيدزينا إيفانشفيلي (Bidzina Ivanishvili) في الانتخابات الجورجية أواخر عام ٢٠١٢ بداية تحوُّل هام في السياسة الخارجية الجورجية. فقد أضحت حكومة تبليسي تسعى لإيجاد صيغة تفاهم مع موسكو دون التخلِّي عن حقوقها السيادية في أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، قاد ذلك الاقتراب لتهدئة التوتُّر وخلق مناخًا أفضل للعلاقات بين روسيا وجورجيا، لكن ذلك كله لم تكن له انعكاسات مؤثِّرة على أيٍّ من قضايا الصراع بين موسكو وتبليسي، كما لم تظهر أيضًا أية مؤشِّرات على تغيُّر في نشر القوات الروسية في المنطقة[١٢].

فاجأت عودة الرئيس السابق ميخائيل ساكاشفيلي جورجيا، وهو الآن سجين ويدعو لثورة جديدة، ويتَّفق العديد من المحلِّلين على أن عودة ساكاشفيلي في مطلع أكتوبر ٢٠٢١ واعتقاله في اليوم ذاته -وهو ما وافق عشية الجولة الأولى من الانتخابات المحلية- قد ساعد في حشد أنصار الحركة الوطنية المتحدة (United National Movement [UNM]). ونتيجة

(٩) لمزيد من التفصيل عن تاريخ العلاقات الجورجية الأبخازية، انظر: أحمد عبد الحافظ فواز، "الحركة الإسلامية في تتارستان وأبخازيا"، في الخارطة التونسية بعد الثورة: السلفيون - التقدميون - الشيعة، كتاب المسبار الشهري، الكتاب الثاني والستون (فبراير ٢٠١٢)، ص ص ٢١٥-٢٤١.

(١٠) أحمد عبد الحافظ فواز، القوقاز بعد ربع قرن من تفكُّك الاتحاد السوفيتي، مرجع سابق، ص ٤٣.

(11) Abkhazia: Deepening Dependence, International Crisis Group, Report No. 202, 26 February 2010, p. 1.

(١٢) أحمد عبد الحافظ فواز، القوقاز بعد ربع قرن من تفكك الاتحاد السوفيتي، مرجع سابق، ص ٤٤.

لذلك، فاز الحزب الحاكم "الحلم الجورجي" في الجولة الأولى بنسبة ٤٦,٧٥ في المائة من الأصوات على مستوى البلاد، في حين حصل حزب الحركة الوطنية المتحدة على ٣٠,٦٧ في المائة. والجدير بالذكر أن الحزبين مجتمعين حصلا على أصوات أكثر من الانتخابات البرلمانية لعام ٢٠٢٠ (ثم كانت الأرقام ٤٨,٢٢ في المائة و٢٧,١٨ في المائة على التوالي)[١٣].

أصبح الخطاب السياسي للحلم الجورجي، الذي يأتي أساسًا من رئيس الوزراء إيراكلي غاريباشفيلي (Irakli Garibashvili)، أكثر حدَّة منذ يوليو ٢٠٢١، عندما تمَّ حشد حشود عنيفة لمهاجمة أنصار مجتمع المثليِّين، ممَّا أدَّى إلى إصابة بعض الصحفيِّين، كما دفعت عودة ساكاشفيلي والخوف من التعبئة غير المسبوقة من قبل الحركة الوطنية في جورجيا حزبَ الحلم الجورجي للتركيز على الرغبة في "إنهاء الخطر الذي تمثله الحركة الوطنية". تحدث غاريباشفيلي عن مخاطر العنف إذا فاز مرشحو المعارضة في الجولة الثانية، كما شدَّد على أن ساكاشفيلي "سيقضي بالكامل" سنوات سجنه الست، استخدم غاريباشفيلي أيضًا خطابًا شديد اللهجة تجاه أعضاء البرلمان الأوروبي الذين أعربوا عن قلقهم بشأن ساكاشفيلي، من ناحية أخرى، حاولت قيادات الحركة الوطنية المتحدة تهدئة مخاوف الانتقام السياسي في حالة النصر، وشدَّدت على سياسات التحالف وتحدثت عن المصالحة[١٤].

في الجولة الثانية في ٣٠ أكتوبر ٢٠٢١، وفقًا للنتائج الرسمية، فاز الحلم الجورجي في ١٩ بلدية من أصل ٢٠، بما في ذلك جميع المدن الرئيسية، وإن كان بهامش ضئيل في بعض الحالات، صوَّتت المناطق الوسطى الغنية في العاصمة في الغالب ضد حزب الحركة الوطنية المتحدة. لكن في كبرى مدن غرب جورجيا، كوتايسي وباتومي، كانت هناك تقارير عن تزوير الأصوات والرشوة والترهيب، وهو ما تنامت معه الادِّعاءات بأن ذلك قد ساعد الحزب الحاكم على انتزاع النصر من الحركة الوطنية المتحدة[١٥].

سرعان ما أعلنت المعارضة أن الجولة الثانية "باطلة" ودعت أنصارها إلى النزول إلى الشوارع ولاقت الدعوة استجابة تمثَّلت في مظاهرات في ٦ نوفمبر ٢٠٢١ بالعاصمة تبليسي، كما اعتصم أعضاء من الحركة الوطنية حول سجن روستافي مطالبين بالإفراج عن ساكاشفيلي، الذي دعا إلى "انتزاع السلطة" من الحزب الحاكم. وفي إشارة منه إلى الثورة الأرمنية لعام ٢٠١٨ واحتجاجات الميدان الأوكراني في أواخر ٢٠١٣ ومطلع ٢٠١٤، قال "يجب فعل الشيء نفسه هنا أيضًا؛ لأن فكرة مثل هذه الثورات ولدت بالأساس في جورجيا"[١٦].

ب) موقف جورجيا من الحرب الأوكرانية

قدَّمت الحكومة الجورجية في ٣ مارس ٢٠٢٢ طلبًا رسميًّا للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي رغم أنه كان مخططًا القيام بذلك في عام ٢٠٢٤، وفي ظل رغبة الاتحاد الأوروبي عدم زعزعة استقرار جورجيا أكثر من ذلك فالمتوقَّع أن يستخدم الاتحاد بعض الصياغات الحكيمة ويتأنَّى في الاستجابة لهذا الطلب[١٧].

على عكس الترحيب الذي أظهرته أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، الجمهوريَّتان الانفصاليَّتان داخل جورجيا، باعتراف موسكو بدونيتسك ولوغانسك -كما سيرد لاحقًا- تم تلقِّي الاعتراف بشكل مختلف تمامًا في تبليسي، ورسم الكثيرون مقارنة بين الحرب والاعتراف الروسي بالمناطق الانفصالية في جورجيا في عام ٢٠٠٨ وما يحدث في أوكرانيا. إذا كان صحيحًا أن هناك عناصر مشتركة، أي الإكراه العسكري والاعتراف السياسي، فمن الصحيح كذلك أن هناك اختلافات كبيرة أيضًا. في جورجيا، تم الاعتراف بعد حرب قصيرة على منطقة محدودة

(13) Otar Kobakhidze, "Mikheil Saakashvili is back", International Politics and Society ,9 November 2021, available at: https://cutt.us/8kSF8

(14) Ibid.

(15) Ibid.

(16) Ibid.

(17) Dennis Sammut, "Ukraine poses a dilemma to the three South Caucasus countries, but they have still one important card they can play", Op. cit.

للغاية (حتى لو امتدَّ القصف الاستراتيجي إلى ما وراء منطقة الغزو برًّا). لكن في حالة الهجوم على أوكرانيا، قدَّم الاعترافُ ذريعةً لعمليات عسكرية أكبر بكثير. ولكن أيضًا، كما لاحظت الرئيسة الجورجية سالومي زورابيشفيلي (Salome Zourabichvili): "لم تكن روسيا في عام ٢٠٠٨ تمامًا مثل روسيا في عام ٢٠٢٢ [...] تتَّجه روسيا مباشرةً نحو الضمِّ حتى بدون ذريعة الحرب، مما يعني أنها خطوة أعلى في مستوى الصراع"[١٨].

لكن على الرغم من تلك المقارنة وكون جورجيا الدولة الوحيدة في جنوب القوقاز التي تطمح إلى عضوية كلٍّ من الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي (الناتو) وكذلك الدولة الإقليمية الوحيدة في صراع إقليمي مع روسيا، إلا أن قياداتها الحكومية رفضت زيارة أوكرانيا في وسط الأزمة المتفاقمة رغم الدعوات العديدة من الجمهور والمعارضة. وفي ٢٥ فبراير ٢٠٢٢، رفض الحزب الحاكم "الحلم الجورجي" عقد جلسة برلمانية استثنائية بشأن الأزمة الأوكرانية كانت قد بادرت بها المعارضة البرلمانية وبدعم من رئيسة الدولة سالومي زورابيشفيلي، بل وأفادت تقارير صحفية بأن رئيس البرلمان شالفا بابواشفيلي (Shalva Papuashvili) منع دخول نواب المعارضة للقاعة العامة كي يمنع أية محادثات برلمانية حول هذه القضية[١٩].

بات واضحًا أن الحكومة الجورجية لا تخطِّط للانضمام للعقوبات الغربية ضدَّ روسيا، فعلى الرغم من إعلان البنك الوطني لجورجيا أنه "لا يستطيع ولن يساعد" أي شخص يسْعى للتهرُّب من تلك العقوبات، إلا أنه وفقًا لرئيس الوزراء إيراكلي غاريباشفيلي، فإن التوافق مع نظام العقوبات المفروض بصرامة من الغرب لن يؤدِّي إلا إلى إلحاق الضرر بجورجيا وشعبها. لاقت تلك التصريحات إشادة النائب الأول لرئيس اللجنة الدولية لمجلس الاتحاد الروسي (الغرفة العليا في البرلمان)، فلاديمير جباروف (Vladimir Jabarov)، الذي قال: "لا يسع المرء إلا أن يرحِّب بمثل هذا القرار"، لكن هذا الموقف السياسي للحكومة الجورجية أثار غضب المعارضة وقطاعات من الرأي العام الجورجي الذين أدانوا العدوان الروسي على أوكرانيا ودعوا إلى استقالة رئيس الوزراء غاريباشفيلي[٢٠].

ردًّا على هذا النقد ودفاعًا عن قراره، أشار غاريباشفيلي، في ٢٨ فبراير ٢٠٢٢، إلى غياب أية قوة خارجية حازمة لمنع قصف أوكرانيا؛ كما رأى أن "العقوبات ليست بالوسيلة الفعالة" لهذا الغرض. وأضاف: "نتعاطف مع الجميع، لكن يجب أن نحمي بلدنا وشعبنا أولًا"، لكن تلك التصريحات لم تمنع الحكومة الجورجية من الانضمام لأذربيجان في إرسال إمدادات طبية إلى أوكرانيا بقيمة مليون لاري (أي حوالي ٣١٥٠٠٠ دولار)[٢١].

على المستوى الشعبي شهدت عاصمتا البلدين مظاهرات لدعم أوكرانيا وهو ما دفع الرئيس الأوكراني زيلينسكي (Volodymyr Zelensky) ليغرد بتاريخ ٢٦ فبراير ٢٠٢٢ ليشكر الجورجيين على مسيراتهم المؤيدة لأوكرانيا، لكن في الوقت ذاته منتقدًا موقف الحكومة الجورجية؛ حيث قال: "في الواقع، هناك أوقات لا يكون فيها المواطنون هم الحكومة، ولكنهم أفضل من الحكومة"[٢٢].

لم تقتصر الانتقادات الموجهة للحكومة على المستوى الشعبي فقط ومن جانب المعارضة، بل خرجت انتقادات من قبل رئيسة الدولة سالومي زورابيشفيلي، لكن نظرة متأنية لوضع جورجيا تظهر أن الدولة لديها عدد قليل من الخيارات المتاحة، وأن عدم لفت الانتباه لها وعدم استفزازها موسكو في

(18) Marilisa Lorusso, "War in Ukraine: reactions from the South Caucasus", Osservatorio Balcani e Caucaso, 24 February 2022, available at: https://cutt.us/LCzfL

(19) Vasif Huseynov, "The Countries of the South Caucasus Cautiously Follow the Russia-Ukraine War", The Caspian Post ,2 March 2022, available at: https://cutt.us/WyNxK

(20) Vasif Huseynov, "The Countries of the South Caucasus Cautiously Follow the Russia-Ukraine War", Op. cit.

(21) Ibid.

(22) Ibid.

المأزق الحالي هو على الأرجح الأمر الذي ينبغي القيام به، فمن الواضح أن جورجيا لا تملك الكثير لتقدِّمه لأوكرانيا، في حين أنها من ناحية أخرى عرضة في أي وقت لمغامرات جديدة من قبل الكرملين[٢٣].

مواقف الحكومة الجورجية دفعت تحليلات للقول بأنه يسود اعتقاد واسع النطاق في تبليسي بأن الحكومة قد أساءت إدارة اتصالاتها بشأن ما كانت تفعله ولماذا، سواء في بياناتها أو في تعاملاتها مع كل من الجمهور الجورجي والمجتمع الدولي، بدا ذلك -بحسب تلك التحليلات- متماشيًا مع الاتجاه الذي ظهر في حزب "الحلم الجورجي" الحاكم في العام الماضي والمتمثل في عدم الاهتمام بما يقوله الرأي العام المحلي أو المجتمع الدولي؛ ذلك لأن الانتخابات البرلمانية المقبلة لن تتمَّ حتى عام ٢٠٢٤"[٢٤].

وبالرغم من موافقة البرلمان الجورجي في فبراير ٢٠٢٢ على قرار يدعم وحدة أراضي أوكرانيا، فإن هذا القرار تعرَّض لانتقادات شديدة من قبل المعارضة لأنه لم يذكر روسيا صراحةً في أي موضع، لكن ردود أفعال الطبقة الحاكمة في تبليسي أضحت تشير إلى روسيا على أنها معتدية بدون ذلك التحفُّظ المعتاد في الماضي والذي كان -بحسب رئيسة الدولة زورابيشفيلي- مرده إلى الوضع الأمني الجورجي غير المستقر[٢٥].

إن التحليلات التي تبدي تفهُّمًا للموقف الحكومي الجورجي وترى صعوبة الاختيارات المتاحة أمامه تنتقد بدورها المنادين باتباع السياسات الغربية وتعتقد أن الوقت قد حان لأن ترفض جورجيا ودول ما بعد الاتحاد السوفيتي الأخرى السياسات التي تملِي عليها النمط الذي ينبغي أن يبدو عليه التقدُّم والتطوُّر، بدلًا من ذلك يحتاج صنَّاع السياسات -بحسب تلك التحليلات- إلى مراعاة الاحتياجات الأساسية للناس العاديين، بما في ذلك الوصول إلى الوظائف والرعاية الصحية والتعليم[٢٦].

من التحليلات الجورجية ما يرى أنه من السذاجة الاعتقاد بأن حرب بوتين في أوكرانيا -التي تقع في محيط جورجيا الإقليمي- لن تؤثِّر على جورجيا، بل إن ذلك التأثير -في رأي تلك التحليلات- يمكن التمييز فيه بين ثلاثة اتجاهات: أولًا، روسيا وأوكرانيا شريكان تجاريان مهمَّان لجورجيا. وتتركَّز مساهمات هذين الاقتصادين بشكلٍ رئيسي في مجالات التجارة والسياحة والتحويلات المالية، ومن الواضح أن تراجعها يعني خسارة الإيرادات لجورجيا. ثانيًا، شهدت جورجيا حرب أغسطس عام ٢٠٠٨ ولا تزال القوات الروسية تحتل أراضٍ جورجية ويمكنها الزحف نحو تبليسي في ظلِّ خطاب وسردية روسية تجعل جورجيا ضمن طموحات بوتين التوسُّعية، وكلُّ هذا بالطبع لا يساهم في خلق مناخ أعمال واستثمار إيجابي في البلاد. أخيرًا، جورجيا اقتصاد صغير ومنفتح، وهذا يعني أنه إذا تضرَّر الاقتصاد العالمي، فسيكون لذلك تأثير سلبي غير مباشر على اقتصاد جورجيا أيضًا. ولقد أظهرت جائحة كورونا بالفعل مدى أهمية هذا التأثير[٢٧].

٢- أذربيجان

من بين جمهوريات جنوب القوقاز الثلاث تتميَّز أذربيجان بغالبية سكَّان مسلمين، وهي عضو في منظمة التعاون الإسلامي، ورغم غياب الإحصاءات الدقيقة حول نسبة هؤلاء المسلمين إلا أنها تتراوح بين ٩٢ و٩٦ بالمائة من إجمالي السكان، وتعتنق غالبيتهم المذهب الشيعي، فهي تشبه وضع جارتها إيران، غير أن الدستور الأذربيجاني ينصُّ على علمانية الدولة على غرار تركيا التي تشترك معها في الخصائص العرقية واللغوية للسكان، وهي

(23) Dennis Sammut, "Ukraine poses a dilemma to the three South Caucasus countries, but they have still one important card they can play", Op. cit.

(24) Ibid.

(25) Marilisa Lorusso, "War in Ukraine: reactions from the South Caucasus", Op. cit.

(26) Bakar Berekashvili & Tato Khundadze, "The long road to democracy", International Politics and Society ,25 June 2018, available at: https://cutt.us/Zma28

(27) Elene Kvanchilashvili, "Georgia in Putin's War on Ukraine", Forbes Georgia, 5 April 2022, available at: https://cutt.us/f8nus

أيضًا تسعى لتعريف نفسها كدولة تريد التخلُّص من موروثها السوفيتي[٢٨].

جعل الوضعُ الجغرافي أذربيجان جارةً قريبةً لعدد من الدول التي تسعى لتصدير نماذجها الثقافية؛ مثل إيران، وتركيا، والسعودية. ولذلك كانت مقصدًا للكثير من الدعاة والمنظمات، وبدأت تبرز فيها تجمُّعات ذات صبغة شيعية، وأخرى ذات صبغة سُنية، وهو ما اعتبرته حكومة باكو تهديدًا لعلمانية الدولة، وسَعَتْ للحدِّ منه أو السيطرة عليه[٢٩]. ورغم تأكيد السلطات الأذرية على علمانية الدولة وحقيقة أن الدستور الأذربيجاني الصادر في ١٩٩٥ يفصل بين الدين والدولة، وأن الدين لا يدرس بالمدارس العامة. لكن ذلك لا ينفي اهتمام النخبة الحاكمة بإبراز الموروث الإسلامي وأن التعليم الديني الخاص في تزايد، كما أنه بإمكان المدارس والجامعات تنظيم المحاضرات الدينية من مواردها الذاتية[٣٠]، غير أن منظمات حقوقية غربية تتَّهم حكومة باكو باستخدام فزاعة التطرف الديني لقمع المعارضة التي تدعو للإصلاح عبر الوسائل السلمية والحرية الدينية[٣١].

أ) علاقات أذربيجان الخارجية

سعت أذربيجان لاتباع سياسة خارجية متوازنة قدر المستطاع، فمن ناحية تدرك الوضع المتميز لروسيا داخل إقليم القوقاز والضغوط التي تمارسها موسكو على دول الإقليم، ومن ناحية أخرى تسعى لتطوير علاقات اقتصادية متميزة مع الغرب. لكن يظل اعتماد أوروبا على موسكو في توفير احتياجاتها من الغاز الطبيعي أكبر بكثير من اللجوء إلى باكو، ففي عام ٢٠٢١، استورد الاتحاد الأوروبي ١٥٥ مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي من موسكو، و٨,٢ مليار فقط من أذربيجان. وتخطط الجارة الجنوبية لروسيا لزيادة صادراتها إلى أوروبا، على الرغم من أن التوقُّعات -تسعة مليارات متر مكعب في عام ٢٠٢٢ و١١ مليارًا في عام ٢٠٢٣- من غير المرجَّح أن تحدث فارقًا كبيرًا للمستهلكين الأوروبيّين[٣٢].

ومع ذلك، فإن باكو لديها استراتيجية طويلة الأجل لنمو الصادرات، تخطط السلطات لتحويل منطقة ناغورنو كاراباخ إلى "منطقة طاقة خضراء"، ممَّا سيسمح لأذربيجان بزيادة إنتاج الكهرباء من مصادر متجدِّدة وإتاحة المزيد من الغاز للتصدير. كما أنها بصدد التوصُّل إلى اتفاق من شأنه أن يسمح لشركة النفط والغاز متعدِّدة الجنسيات BP وشركة "مصدر" للطاقة ومقرها الإمارات العربية المتحدة ببناء محطات للطاقة الشمسية في ناغورنو كاراباخ[٣٣].

وفقًا لاتفاقية وقف إطلاق النار في نوفمبر ٢٠٢٠، يجب على أرمينيا إزالة أية معوقات أمام الروابط الاقتصادية وخطوط النقل في المنطقة، ممَّا سيمكِّن أذربيجان من استكمال بناء ممرِّ نقل ناختشيفان (المعروف أيضًا باسم ممر زانجيزور) بحلول عام ٢٠٢٣، مما سيسمح لباكو بربط جمهورية ناختشيفان المتمتِّعة بالحكم الذاتي عبر الأراضي الأرمينية دون نقاط التفتيش الأرمينية[٣٤]. وتقوم أذربيجان أيضًا ببناء الطرق والسكك الحديدية والمطارات في المنطقة، وهو ما سيتيح كذلك ربط أذربيجان بتركيا التي تربطها بها بالفعل علاقات عسكرية

(٢٨) أحمد عبد الحافظ فواز، القوقاز بعد ربع قرن من تفكك الاتحاد السوفيتي، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٢٩) فاطمة الصمادي، أذربيجان.. التعددية الدينية وتحديات بناء الهوية، مركز الجزيرة للدراسات، ١٤ سبتمبر ٢٠١٥، متاح عبر الرابط التالي:https://cutt.us/q8Bi0

(30) Mohammad Karim, "Globalization and Post-Soviet Revival of Islam in Central Asia and the Caucasus", Journal of Muslim Minority Affairs, Vol. 25, No. 3, December 2005, p. 442.

(31) Durna Safarova, Azerbaijan: Dubbing Critics as "Islamic Extremists", Eurasia Net's Weekly Digest Azerbaijani Politics Islam, 20 September 2016, accessed at: 20 September, 2016, available at: https://cutt.us/VQ98j

(32) Nikola Mikovic, "Azerbaijan watches closely the Russian invasion of Ukraine", The Interpreter, 11 March 2022, accessed at 27 May 2022, available at: https://cutt.us/BeU1m

(33) Ibid.

(34) Ibid.

وثيقة، لكن المشكلة تكْمن في أن ٤٥ كيلومترًا من الممرِّ المشار إليه يجب أن تمرَّ عبر الأراضي الأرمنية، لكن يريفان -على عكس باكو- لا يبدو أنها في عجلة من أمرها في البناء، ذلك على الرغم من أن خطَّ السكة الحديدية سيربط أرمينيا بشريكتها الوثيقة روسيا عبر البر الرئيسي لأذربيجان(٣٥).

- **أذربيجان وروسيا**

يمكن النظر إلى قضية ناغورنو كاراباخ كأحد أهم القضايا التي شهدت تدخُّلًا روسيًّا في شؤون أذربيجان، وقد استندت سياسة ناغورنو كاراباخ الروسية إلى الحفاظ على توازن القوات وتجميد الصراع، وعلى الرغم من الاتهامات التي كانت توجِّهها باكو لموسكو بدعم أرمينيا في مواجهة أذربيجان ضمن مخطَّط السيطرة على احتياطياتها النفطية إلا أن كون روسيا لاعبًا أساسيًّا في المنطقة دفع السلطات الأذرية إلى خلق علاقات استراتيجية معها.

وبالرغغم من أن يريفان عضو في منظمة معاهدة الأمن الجماعي التي تقودها موسكو منذ عام ١٩٩٤، فإن موسكو وباكو وقعتا "اتفاقية تعاون مع الحلفاء" في ٢٢ فبراير ٢٠٢٢، قبل يومين فقط من بدء روسيا غزوها لأوكرانيا، في ظلِّ هذه الظروف، يصعب على أذربيجان القيام بما يسيء لعلاقاتها مع الكرملين. وعلى الصعيد الاقتصادي بلغ حجم التبادل التجاري بين البلدين ما يقرب من ٣ مليارات دولار في عام ٢٠٢١، ولا تزال موسكو واحدةً من أهمِّ شركاء باكو التجاريّين، وربما يكون هذا أحد أسباب عدم انضمام أذربيجان إلى العقوبات المناهضة لروسيا(٣٦).

في خضمِّ الحرب الروسية ضدَّ أوكرانيا، تواصل أذربيجان ما يمكن وصفه بنهج متوازن في السياسة الخارجية التي تبنَّاها هذا البلد بوعْي في منتصف التسعينيات من القرن العشرين، كما يشكِّل التاريخ الحديث للعلاقات الأذربيجانية الروسية (على سبيل المثال، الدعم الروسي التقليدي لأرمينيا في النزاع الأرمني الأذربيجاني السابق، والإمدادات العسكرية من موسكو لأرمينيا قبل وأثناء حرب كاراباخ الثانية لعام ٢٠٢٠) الأساس المنطقي لسياسات باكو الحذِرة تجاه موسكو، حيث أعلنت القيادة السياسية لأذربيجان، على الرغم من امتناعها عن انتقاد روسيا علانية، دعمها غير المباشر لأوكرانيا من خلال تسليط الضوء على أهمية القانون الدولي، ولا سيما السيادة وسلامة الأراضي، كأساس لوقف إطلاق النار الذي يجب أن يتحقَّق بين الأطراف المتصارعة(٣٧).

تمَّ تسليط الضوء على مواءمات باكو في يناير ٢٠٢٢، حيث كان الحشد العسكري الروسي على الحدود الأوكرانية على قدم وساق، فقد زار الرئيس إلهام علييف (Ilham Aliyev) الرئيس فولوديمير زيلينسكي في كييف وأعاد التأكيد على دعم باكو لوحدة أراضي أوكرانيا، تمَّ توقيع إعلان تعاون استراتيجي ينصُّ على الاستعداد لتقديم الدعم المتبادل لسيادة الدولتين وسلامتهما الإقليمية داخل الحدود المعترف بها دوليًّا، وأيضًا ضدَّ التهديدات المختلطة. من أجل الاستقرار في منطقة بحر قزوين الأسود وما وراءها. في ٢٢ فبراير ٢٠٢٢ -قبل يومين فقط من إعلان روسيا عن "العمليات العسكرية" في أوكرانيا- كان علييف في موسكو للتوقيع على معاهدة "تحالف" مع بوتين، وخلال الاجتماع، حرص بوتين على إبلاغ علييف أن عدم اعتراف روسيا بالسيادة الأوكرانية على الجمهوريَّتين الانفصاليتين لا شأن له بجمهوريات ما بعد الاتحاد السوفييتي الأخرى(٣٨).

لكن لم يكن توقيت التوقيع على الإعلان موضع ترحيب في أذربيجان؛ حيث فسَّر بعضُ المحلِّلين الوثيقةَ على أنها تضحية باستراتيجية باكو طويلة المدى للسياسة الخارجية المتوازنة لصالح موسكو، لكن التواصُل مع روسيا لا ينبغي أن يكون

(35) Ibid.

(36) Ibid.

(37) Vasif Huseynov, "The Countries of the South Caucasus Cautiously Follow the Russia-Ukraine War", Op. cit.

(38) Marilisa Lorusso, "War in Ukraine: reactions from the South Caucasus", Op. cit.

مفاجأة؛ إذ طالما اتَّبعت باكو سياسة خارجية متوازنة بين موسكو والغرب كما تناور بأفضل ما يمكن لمنع أذربيجان من الوقوع تحت تأثير أي منهما، بل إن الإعلان الجديد جاء بعد أيام فقط من زيارة مفوض الطاقة بالاتحاد الأوروبي إلى باكو، واتَّصل رئيس حلف الناتو ينس ستولتنبرغ (Jens Stoltenberg) بعلييف لشكر أذربيجان لكونها مورد غاز موثوق لأوروبا وكذلك لزيادة صادرات الغاز. بينما كان الغرب يسْعى لزيادة شحنات الغاز الطبيعي لتعويض النقص المحتمل في حال قطعت روسيا الإمدادات كجزء من المواجهة بشأن أوكرانيا، كانت باكو توافق على الطلب[٣٩].

يعتقد الكثيرون أن الوثيقة كانت سيناريو مربحًا للجانبين، بالنسبة لموسكو، أكَّدت عدم انضمام باكو إلى العقوبات التي يقودها الغرب ضدَّ روسيا، وبالنسبة لباكو، تلزم الوثيقة كلا البلدين بالاعتراف بوحدة أراضي كلٍّ منهما، أي إن موسكو تعتبر ناغورنو كاراباخ أرضًا أذربيجانية، وهو ما رفضته روسيا رسميًّا في السابق، فقد لُوحظ أن روسيا لم تؤكِّد رسميًّا قَطُّ على وحدة أراضي أذربيجان في أي مناسبة، ولا حتى في السياقات متعدِّدة الأطراف، لكن التحليلات المعارضة للاتفاق أشارت إلى أن الوثيقة تعهَّدت فيها الأطراف "بالامتناع عن القيام بأي نشاط اقتصادي يتسبَّب في ضررٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ لمصالح الطرف الآخر"، هنا يبدو أن هذا البند يعطي موسكو رأيًا في مشاريع الطاقة المستقبلية في أذربيجان[٤٠].

– أذربيجان وتركيا

تعود العلاقة بين البلدين للعام ١٩٩١ عندما كانت تركيا أول دولة تعترف بأذربيجان. كانت تركيا منذ استقلال أذربيجان الدولة الأجنبية الأقرب لها وأقامت معها علاقات اقتصادية وتعليمية وثقافية[٤١]، ساعد على ذلك التقاربِ حقيقةُ أن العرقية التي تشكِّل الأغلبية بالجمهورية هي الأذريون الأتراك الذين يمثلون حوالي ٧٥ بالمائة من سكان أذربيجان[٤٢].

سَعَتْ أنقرة لاتخاذ أذربيجان موطئ قدم لتوطيد شراكتها مع هذه الدولة على كافَّة الأصعدة، وفي الوقت نفسه للتمدُّد وتوسعة النفوذ عبر القوقاز، وقدَّمت تركيا لأذربيجان في ٢٠٢٠ دعمًا حاسمًا في حربها ضدَّ القوَّات الأرمينية في ناغورنو كاراباخ، وتضمن التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري بين البلدين خصوصًا تقديم مساعدة تركية لأذربيجان في مجال تدريب وتسليح جيشها، وتسهيل إرسال صادراتها من النفط والغاز إلى أوروبا عبر الالتفاف على روسيا[٤٣].

– أذربيجان و إيران

أما عن العلاقة مع إيران فمنذ فقدت الدولة القاجارية سيطرتها على خانات شمال نهر آراس في حربها ضد روسيا القيصرية خلال الفترة (١٨١٣-١٨٠٤) فإن الأذريّين بالمنطقة طوَّروا تدريجيًّا خصائص متباينة عن تلك التي يتَّصف بها أذريُّو إيران. فبينما شهدت أذربيجان الروسية رواجًا لعملية العلمنة والتتريك، استمرَّ الإسلام الشيعي والتأثير الثقافي الإيراني الفارسي مهيمنًا على أذريّي إيران[٤٤]. وكما هو الحال مع تركيا انخرطت إيران في علاقات اقتصادية وثقافية مع أذربيجان، لكن

(39) Yeghia Tashjian, "A View from Baku: How Azerbaijan perceives the Russia-Ukraine conflict", The Armenian Weekly ,29 March 2022, accessed: 14 May 2022, available at: https://cutt.us/H7ovS

(40) Ibid.

(41) Mohammad Karim, "Globalization and Post-Soviet Revival of Islam in Central Asia and the Caucasus", Op. cit., p. 442.

(42) Raoul Motika, "Islam in Post-Soviet Azerbaijan", Archives de sciences sociales des religions, July-September 2001, Available at: https://cutt.us/UXqab

(٤٣) التمدد التركي في القوقاز من خلال نافذة أذربيجان،جريدة أحوال تركية، ١٩ فبراير ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/JiQ4B

(٤٤) أحمد عبد الحافظ فواز، القوقاز بعد ربع قرن من تفكك الاتحاد السوفيتي، مرجع سابق، ص ٤٥.

الأخيرة تخشى من إمكانية تصدير إيران لنموذجها الإسلامي[٤٥]، لذلك ارتبط توتُّر العلاقات بين البلدين بالحديث عن التخوُّف من التطرُّف، فخرجت عن بعض القيادات الإيرانية تصريحات اعتبرتها باكو استفزازية، كما وجَّهت اتهامات لمتطرِّفين موالين لطهران بمحاولة اغتيال صحفي علماني التوجُّه في عام ٢٠١٢[٤٦].

وقد شهد الربع الأخير من عام ٢٠٢١ تصاعد العداء بين إيران وأذربيجان، وتعود التوتُّرات لفترات سابقة تخصُّ الحدود ومقاطعة أذربيجان الشرقية في إيران، لكن زاد من التوتُّرات فرضَ باكو ضريبةً على شاحناتٍ تنقل وقودًا وسلعًا، من إيران إلى مناطق أرمينية في كاراباخ. ثم أغلقت باكو الجزءَ الرئيسيَّ من الطريق السريع جوريس كابان في أرمينيا الذي يمرُّ عبر أذربيجان، وسلَّمت مذكرة دبلوماسية إلى السفير الإيراني، واحتجزت السائقين الإيرانيِّين[٤٧].

ترافق ذلك مع مضايقات أخرى لإيران، بما في ذلك سلسلة من التدريبات العسكرية التي شاركت فيها أذربيجان وتركيا وباكستان، وتصاعد الخطاب المعادي لإيران من قبل المسؤولين الأذربيجانيِّين. وللمرة الأولى منذ عقود، أجْرت طهران مناورات عسكرية واسعة النطاق على حدودها الشمالية مع أذربيجان. فبالتوازي مع التدريبات، تسارعت الحرب الكلامية بين البلدين، في حين أن هناك العديد من القضايا التي لا يمكن أن تتَّفق عليها طهران مع باكو، فإن لديها شاغلَيْن رئيسيَّيْن في الوقت الحالي، هما: استخدام إسرائيل المحتمل للأراضي الأذربيجانية لأغراض استخباراتية وعسكرية ضدَّ إيران، واحتمال أن تستولي أذربيجان على مقاطعة سيونيك الجنوبية في أرمينيا وتقطع العلاقات الإيرانية مع أرمينيا[٤٨].

ب) تطورات الصراع في ناغورنو كاراباخ

بشكل عام وعلى مستوى دول الجوار تبقى علاقة أذربيجان بجارتها أرمينيا هي العلاقة الأكثر اضطرابًا وخطورة في ظلِّ قضية ناغورنو كاراباخ التي كانت سببًا في اندلاع مواجهات عسكرية مباشرة بين الدولتين آخرها في عام ٢٠٢٠، كانت ناغورنو كاراباخ نزاعًا مجمَّدًا منذ وقف إطلاق النار عام ١٩٩٤، وكانت الجولة الأخيرة من القتال في عام ٢٠٢٠ هي الأكثر تدميرًا خلال ٣٠ عامًا[٤٩].

تطوَّر نزاع ناغورنو كاراباخ عام ٢٠٢٠ إلى حملة استرجاع لأذربيجان، التي استعادت، وفقًا لاتفاقية وقف إطلاق النار في ١٠ نوفمبر ٢٠٢٠، السيطرة على سبع مناطق كانت تحت سيطرة الجيش الأرميني منذ عام ١٩٩٤، وكذلك جزء من إقليم ناغورنو كاراباخ نفسه[٥٠]. ربما كان هناك اتفاق لوقف إطلاق النار، لكن لا يوجد سلام؛ حيث يطالب الرئيس الأذربيجاني

(45) Mohammad Karim, "Globalization and Post-Soviet Revival of Islam in Central Asia and the Caucasus", Op. cit., p. 442.

(46) Shahla Sultanova, Azerbaijan: Islam Comes with a Secular Face, Eurasia Net's Weekly Digest Azerbaijani Politics Islam, August 15, 2013, accessed: 4 November 2016, available at: http://www.eurasianet.org/node/67396

(٤٧) إيلي هيدموس، إيران وأذربيجان.. علاقات شائكة تحرّكها تعقيدات داخلية وتحالفات خارجية، موقع الشرق للأخبار، ١ أكتوبر ٢٠٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://rb.gy/4azqiq

(48) Rovshan Mammadli, "What is behind the growing Iran-Azerbaijan tension?", International Politics and Society , 25 October 2021, available at: http://shorturl.at/cfjGZ

(49) Valentina Pegolo, "The Impact of the Nagorno-Karabakh Conflict on the Middle East Region: Iran's Policy of Strategic Retreat and the Dangers of a New Geopolitical Game in the Caucasus", in: Francisco Jose B. S. Leandro et al. (eds.), The Geopolitics of Iran, Studies in Iranian Politics (Singapore: Palgrave Macmillan; 1st edition, 2021), p. 568.

(50) Ibid., pp. 567-568.

إلهام علييف بكامل ناغورنو كاراباخ وجزءٍ كبيرٍ من أرمينيا، بما في ذلك عاصمتها يريفان[٥١].

كان استعداد أذربيجان للمضيّ قدمًا في العملية العسكرية ودعم تركيا الصريح وغير المشروط لهذه المغامرة العسكرية سببًا في جعل موسكو تفتقر للخيارات الحاسمة، ومن ثم سَعَتْ موسكو قدرَ الإمكان لحماية أرمينيا من الهجوم الأذربيجاني، لكن لم يكن من المقبول نشر قواتها لمواجهة القوات الأذربيجانية -وربما التركية- على الأرض[٥٢]، ثم جاءت الحرب في أوكرانيا لتزيد في الوقت نفسه من خطر عودة هذه النوعية من الصراعات المجمَّدة إلى أعمال عنف وتخلق نافذة من الفرص للولايات المتحدة وأوروبا للضغط من أجل حل دبلوماسي للصراعات[٥٣].

سيكون أحد أكبر تداعيات الغزو الروسي لأوكرانيا على جنوب القوقاز هو زيادة النُّفوذ الغربي في المنطقة، وعليه ستواصل روسيا وتركيا على الأرجح تفاعلهما العملي مع جنوب القوقاز، بهدف تقليل دور الجهات الفاعلة الخارجية، بدأت هذه العملية بعد نهاية حرب ناغورنو كاراباخ الثانية بإنشاء تنسيق ٣ + ٣ / ٣ + ٢ (روسيا وتركيا وإيران وأذربيجان وأرمينيا وربما جورجيا) وسوف تتكثَّف فقط في أعقاب الحرب في أوكرانيا. كما أن المواجهة الروسية الغربية ستقلِّص إلى حدٍّ كبيرٍ مساحةَ أرمينيا للمناورة في قضايا السياسة الخارجية[٥٤].

تلك الهيمنة الروسية لإدارة عملية الوساطة بين أذربيجان وأرمينيا في عام ٢٠٢٠ سيكون لها تداعيات كبيرة بشكل خاص على نمط الوساطة الدولية المتَّفق عليها سابقًا في نزاع ناغورنو كاراباخ. فعلى الرغم من أن مجموعة مينسك التابعة لمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا هي الشكل الوحيد المفوض دوليًّا للتوسُّط في نزاع ناغورنو كاراباخ إلا أنه قد تمَّ تهميشها إلى حدٍّ كبيرٍ في أعقاب حرب ناغورنو كاراباخ الثانية لعام ٢٠٢٠ بسبب الدور الروسي المتزايد وإحجام أذربيجان عن الاستمرار في هذا الشكل. لسنوات عديدة، كانت مجموعة مينسك (التي تشارك في رئاستها الولايات المتحدة، وفرنسا، وروسيا) واحدة من الأماكن القليلة التي تعاونتْ فيها روسيا والغرب ولم يواجه كلٌّ منهما الآخر. لكن لم يعدْ هذا هو الحال. بل قد تكون الحرب الروسية الأوكرانية المسمار الأخير في نعش مجموعة مينسك. كما أن سياسة الغرب الجديدة المتمثِّلة في العزلة الكاملة لروسيا وكذلك تطلُّعات موسكو لتشديد قبضتها على جنوب القوقاز لن تترك مساحة كبيرة لوجود مثل هذه الآثار من النظام العالمي بعد الحرب الباردة[٥٥].

ج) موقف أذربيجان من الحرب الأوكرانية

شكَّل التعامل مع الحرب الأوكرانية تحديًا لقيادات أذربيجان؛ لذلك كانت هناك مزايا للبقاء على الحياد في مواجهةٍ بَدَا أنها تهدف لتغيير شكل أوروبا. لكن بينما يستمرُّ الخلاف مع أرمينيا، فإن الغزو الروسي لأوكرانيا يمثل تحديًا مختلفًا لأذربيجان الغنية بالطاقة. يبدو الحياد هو شعار باكو في سعيها للحفاظ على علاقاتها مع كلٍّ من موسكو وكييف، على الرغم من أن الوضع في أوروبا الشرقية يثير قلقَ الدولة القوقازية، فمن المحتمل أن تستفيد باكو من المشكلة، خاصة فيما يتعلَّق بصادرات الغاز إلى أوروبا. إن عملية "فك الارتباط" بين روسيا والاتحاد الأوروبي تمثِّل فرصة لأذربيجان، خاصة إذا توقَّفت دول الاتحاد في نهاية المطاف، لأي سبب كان، عن شراء الطاقة

(51) Michael Rubin, "Ukraine war may lead to Middle East and Caucasus crises", Washington Examiner ,14 March 2022, available at: https://cutt.us/vGOme

(52) Jaba Devdariani, "With Belligerent Ankara, Russia's Global Ambitions Hit a Regional Snag", Civil Georgia, 4 October 2020, available at: https://civil.ge/archives/373037

(53) Mary Glantz, Noah Higgins, "Russia's Ukraine War Could Offer Chance to Resolve South Caucasus Conflicts", Op. cit.

(54) Tigran Grigoryan, "Russia's war could spell trouble for Armenia and Nagorno-Karabakh", Open Caucasus Media ,21 March 2022, available at: https://cutt.us/qwV96

(55) Ibid.

الروسية[٥٦]. وجاء الدعم الإنساني والخطاب الداعم لوحدة أوكرانيا بمثابة مفاجأة للعديد من المراقبين الذين توقَّعوا أن تنحاز أذربيجان بشكلٍ لا لبْس فيه إلى روسيا في جميع القضايا الدولية الحاسمة -بالطريقة التي اعتادتْ أرمينيا وغيرها من حلفاء روسيا في منظمة معاهدة الأمن الجماعي (CSTO) القيام بها- خاصةً بعد الإعلان الأذربيجاني الروسي الموقَّع في فبراير ٢٠٢٢ بشأن تعاون الحلفاء، لكن قبل شهر واحد فقط من اندلاع الحرب، ووسط تصاعد الأعمال العدائية، كان الرئيس علييف القائد الوحيد من منطقة ما بعد الاتحاد السوفيتي (باستثناء دول البلطيق) الذي سافر إلى كييف، حيث وقَّع عددًا من الاتفاقيات بشأن تعميق التعاون الثنائي وأعلن دعمه لوحدة أراضي أوكرانيا وسيادتها.

في ٢٥ فبراير ٢٠٢٢، بعد أن أعلن الرئيس بوتين بدءَ "عملياته العسكرية" في أوكرانيا، صرح حكمت حاجييف (Hikmat Hajiyev) -كبير مستشاري الرئيس علييف للسياسة الخارجية- للتلفزيون الحكومي بأن الأحداث التي تحدث في جميع أنحاء أوكرانيا "عمليات مقلقة ويجب حلُّها عن طريق الحوار"، ومن اللافت للانتباه أنه بينما اعترف حاجييف بوحدة أراضي أوكرانيا لكنه تجنَّب وصفَ الإجراءات الروسية بأنها "حرب" أو "غزو"، بل إنه عندما تعرَّضت القنصلية الأذربيجانية في خاركيف للقصف لم تصْدر أيَّة تعليقات رسمية وتمَّ إجلاءُ الموظَّفين الدبلوماسيِّين بهدوء من المدينة[٥٧].

قدمت باكو الدعم عبر المساعدات الإنسانية مبكِّرًا، ففي ٢٦ فبراير ٢٠٢٢، تبرَّعت أذربيجان بما قيمته ٥ ملايين يورو من الأدوية والمعدَّات الطبية كإغاثة إنسانية لأوكرانيا، وأعلن عن المساعدة الرئيس الأوكراني زيلينسكي على تويتر بعد وقتٍ قصيرٍ من مكالمته الهاتفية مع الرئيس الأذربيجاني إلهام علييف، وفي تغريدةٍ أخرى، ذكر زيلينسكي أن جميع محطات تعبئة البنزين التابعة لشركة النفط الحكومية لجمهورية أذربيجان "سوكار" (SOCAR) في أوكرانيا قد صدرت لها تعليمات لتوفير الوقود المجاني لسيارات الإسعاف وسيارات الإطفاء[٥٨].

٣- أرمينيا

تمَّت الإشارة في أكثر من موضع لتطورات الصراع في ناغورنو كاراباخ وتأثيراته على طرفي الصراع. لذا سيقتصر هذا القسم على تأثيرات التحالف الروسي الأرميني على سياسات أرمينيا الإقليمية سواء في القوقاز أو في شبه جزيرة القرم.

أ) أرمينيا والسياسات الروسية

أرمينيا حليف مهم لروسيا في جنوب القوقاز، فهي موطن لقاعدتين عسكريَّتين روسيَّتين وأكثر من ٣٠٠٠ جندي روسي يواجهون الجناح الشرقي لحلف شمال الأطلسي، كما تشارك أرمينيا أيضًا في عددٍ من التكتُّلات الاقتصادية الكبرى التي تهيمن عليها موسكو مثل الاتحاد الاقتصادي الأوراسي (EAEU) الذي تمَّ إضفاءُ الطابع الرسمي عليه في أعقاب ضمِّ روسيا لشبه جزيرة القرم عام ٢٠١٤، وهو المدار التجاري لموسكو لإبقاء جيرانها في أوراسيا تحت هيمنتها، بينما تحاول منظمة معاهدة الأمن الجماعي (CSTO) موازنة الناتو في هذا الجزء من العالم[٥٩].

رغم التحالف الروسي الأرميني إلا أن يريفان لم تعترفْ رسميًّا بالخيارات السياسية للأعوام الأربعة عشر الماضية (٢٠٠٨-٢٠٢٢) من الحروب الروسية، وبالتالي فهي لا تعترف بأبخازيا أو أوسيتيا الجنوبية أو بضم شبه جزيرة القرم، وحينما سُئل وزير الخارجية الأرميني عن الحرب في أوكرانيا أجاب: "نحن بالتأكيد نريد حَلَّ القضايا القائمة بين الدولتين الصديقتين من خلال

(56) Nikola Mikovic, "Azerbaijan watches closely the Russian invasion of Ukraine", Op. cit.

(57) Yeghia Tashjian, "A View from Baku: How Azerbaijan perceives the Russia-Ukraine conflict", Op. cit.

(58) Vasif Huseynov, "The Countries of the South Caucasus Cautiously Follow the Russia-Ukraine War", Op. cit.

(59) Hannah Wallace, "Armenia has a unique position in the Ukraine-Russia war", Jerusalem Post, 3 May 2022, available at: https://cutt.us/o01DY

الحوار الدبلوماسي والمفاوضات ووفقًا لقواعد ومبادئ القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة، ونأمل أن يكون الهدف من الخطوات اللازمة تخفيف حدَّة التوتر وحلّ الوضعِ سلميًّا". وعندما سئل عما إذا كانت أرمينيا ستعترف بدونيتسك ولوغانسك، أجاب بأن الاعتراف ليس على جدول الأعمال[٦٠].

لكن كما أشرنا بخصوص قلة البدائل أمام أرمينيا وأنه ليس لدى يريفان مساحة كبيرة للمناورة لأنها لا تزال تعتمد بشدَّة على موسكو، إذ تُعتبر روسيا الشريك التجاري والمستثمر الرئيسي لأرمينيا مع مشاركة البلدين في سوقٍ واحدةٍ بفضْل عضويَّتهما في الكتلة التجارية الأوروبية الآسيوية، وتمَّ دمج أنظمة الدفاع في البلدين إلى حدٍّ كبير؛ حيث تعمل روسيا كضامن لأمن أرمينيا، كما تمَّ تصميم هيكل الأخيرة الأمني من قبل روسيا ويتمُّ تدريب الضباط العسكريّين الأرمن في الأكاديميات الروسية، وهي سياسة طويلة الأمد في فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي[٦١].

ب) التحالف الروسي الأرميني والحرب الأوكرانية

برزت أرمينيا باعتبارها الدولة الوحيدة في جنوب القوقاز التي تحالفتْ مع روسيا في قضية أوكرانيا، ففي ٢٥ فبراير ٢٠٢٢ صوَّتت أرمينيا وحدها مع الوفد الروسي ضدَّ قرار في مجلس أوروبا بتعليق عضوية روسيا في المنظمة بسبب هجومها المسلَّح على أوكرانيا. وفي اليوم نفسه، قام وزير الدفاع الأرميني سورين بابيكيان (Suren Papikian) بزيارة إلى موسكو والتقى نظيره الروسي، لكن البيان الصحفي الصادر عن الاجتماع لم يُشِرْ إلى حرب أوكرانيا، وفي ٢٦ فبراير ٢٠٢٢، نفت وزارة الخارجية الأرمينية المعلومات التي انتشرت على وسائل التواصل الاجتماعي حول مشاركة مزعومة لأفراد من الخدمة الأرمينية في الحرب ضد أوكرانيا[٦٢].

يضع العدوان العسكري الروسي اليوم أرمينيا في وضعٍ صعبٍ للغاية، ليس فقط لأن العلاقات الأرمينية الأوكرانية جيدة، ولكن أيضًا لأن هناك جالية أرمينية مهمَّة تُقيم في أوكرانيا -في دونيتسك وحدها، أكثر من ٥٠ ألف أوكراني من أصل أرمني وأرمن هاجروا إلى أوكرانيا- تعمل السفارة الأرمينية في البلاد ويتم إعداد خطة إخلاء محتملة للأرمن[٦٣].

وعلى ضوء ذلك يمكن تفسير قلق يريفان من الانعكاسات الإقليمية للعقوبات الدولية المناهضة لروسيا، فقد حذَّر رئيس الوزراء الأرميني نيكول باشينيان (Nikol Pashinian) في ٢٧ فبراير ٢٠٢٢ في نور سلطان بكازاخستان أثناء كلمته أمام اجتماع المجلس الحكومي للاتحاد الاقتصادي الأوراسي -الذي تهيمن عليه موسكو- من الانعكاسات الخطيرة لهذه الأزمة. وقال: "بالطبع، من الواضح أن العقوبات سيكون لها تأثير مباشر على المناخ الاقتصادي في منطقة أوراسيا"، مضيفًا أن الدول الأعضاء في الاتحاد الاقتصادي الأوروبي بحاجة إلى اتخاذ تدابير لتقليل التأثير السلبي لهذه العقوبات على اقتصاداتها[٦٤].

أثار موقف يريفان المحايد في تصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة غضب الكرملين بشكل ملحوظ. وفي ٤ مارس ٢٠٢٢، أي بعد يومين من التصويت، جرتْ مكالمةٌ هاتفيةٌ بين وزيري خارجية روسيا وأرمينيا -سيرجي لافروف (Sergey Lavrov) وأرارات ميرزويان (Ararat Mirzoyan)، وقد عقبت وزارة الخارجية الروسية بأن الوزيرين ناقشا خلال الاتصال مسألة تنسيق الاقترابات على الساحة الدولية. من الواضح أن موسكو كانت مستاءةً من امتناع يريفان عن التصويت في الأمم المتحدة واستخدمت هذا الاتصال لتوبيخ شريكها الأصغر[٦٥].

(60) Marilisa Lorusso, "War in Ukraine: reactions from the South Caucasus", Op. cit.

(61) Hannah Wallace, "Armenia has a unique position in the Ukraine-Russia war", Op. cit.

(62) Vasif Huseynov, "The Countries of the South Caucasus Cautiously Follow the Russia-Ukraine War", Op. cit.

(63) Marilisa Lorusso, "War in Ukraine: reactions from the South Caucasus", Op. cit.

(64) Ibid.

(65) Tigran Grigoryan, "Russia's war could spell trouble for Armenia and Nagorno-Karabakh", Op. cit.

٤- مو اقف الجمهوريات الانفصالية في القوقازمن الحرب في أوكر انيا

أعلن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في ٢١ فبراير ٢٠٢٢ اعتراف روسيا باستقلال جمهوريتي دونيتسك (DPR) ولوغانسك (LPR) الانفصاليَّتين بأوكرانيا. وبعد ثلاثة أيام، شَنَّ بوتين هجومه العسكري على أوكرانيا قائلًا إنه كان لحماية سكَّان منطقة دونباس من الحكومة الأوكرانية. منذ ذلك الحين، تهاجم القوات الروسية المدن الكبرى والبنية التحتية في أوكرانيا[٦٦]. احتفل الانفصاليون في أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، المدعومتين من موسكو، بالاعتراف بدونيتسك ولوغانسك، في ٢٣ فبراير ٢٠٢٢، تمَّ الاحتفال بـ"يوم المدافع عن الوطن"، كما هو الحال في روسيا، وبهذه المناسبة ألقى الرئيس الأبخازي أصلان بجانيا (Aslan Bzhania) خطابًا عامًّا قصيرًا بينما حضر رئيس أوسيتيا الجنوبية أناتولي بيبيلوف (Anatoly Bibilov) مراسم كرَّر خلالها جميع الاتهامات التي وجَّهها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ضد الناتو[٦٧].

كانت أوسيتيا الجنوبية قد اعترفت بالفعل بالجمهوريَّتين الأوكرانيَّتين الانفصاليَّتين في عام ٢٠١٤، وقد فعلت ذلك أبخازيا في فبراير ٢٠٢٢. بالإضافة إلى الدعم السياسي، أتاحت أوسيتيا الجنوبية أراضيها لاستضافة أيتام الصراع ووضعت دفاعاتها في حالة تأهُّب، وعقد رئيسُها بيبيلوف سلسلةً من الاجتماعات مع وزير دفاعه فيما يتعلَّق بالأزمة الأوكرانية للتحقُّق من حالة القوات ووسائل الدفاع والمعدَّات العسكرية والأسلحة والأفراد وكذلك الاستعداد للردِّ على الاستفزازات المحتملة من جورجيا وذلك في حالة انتشار التوتُّر الإقليمي[٦٨].

الدعم الذي قدَّمته أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية امتدَّ كذلك للتوطين وإيواء اللاجئين من "جمهورية لوغانسك الشعبية" إلى الاتحاد الروسي بحيث يتمُّ نقلُهم لاحقًا إلى أبخازيا، وبحسب التقارير الواردة من السلطات المحلية، فإن "وزير الطوارئ الأبخازي" ليف كفيتسينيا (Kvitsinia Lev) أشرف بنفسه على النقل من لوغانسك، وستقدم أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا مساعدة نشطة لصالح الغزو[٦٩].

ثانيًا- التنافس الروسي التركي في جنوب القوقاز

بعد حرب ناغورنو كاراباخ الثانية في ٢٠٢٠، عزَّزت روسيا نفوذها في القوقاز، نتيجةً لاتفاق وقف إطلاق النار الموقع بين رئيس الوزراء الأرميني نيكول باشينيان والرئيس الأذربيجاني إلهام علييف بوساطة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، تم نشر حوالي ٢٠٠٠ جندي حفظ سلام روسي في ناغورنو كاراباخ. علاوة على ذلك، أضحت روسيا حليفًا فعليًّا لكل من أرمينيا وأذربيجان[٧٠]، لكن التحليلات المشكِّكة في النوايا الروسية تجاه القوقاز ترى أن تطوُّر الأزمة الأوكرانية قد يدفع الكرملين إلى إشعال الحرائق الصغيرة في أجزاء أخرى من العالم. إذا تمَّ اتِّباع هذه الإستراتيجية فسوف يصبح جنوب القوقاز معرَّضًا للخطر بشكلٍ كبيرٍ، حيث يمكن لروسيا -صاحبة الوجود العسكري في جميع أنحاء المنطقة- أن تثير بسهولة حوادث من تلك النوعية والتي إذا لم يتمَّ تقييمها ومعالجتها بشكلٍ صحيحٍ يمكن أن تتفجَّر بسرعة إلى عنف واسع النطاق[٧١].

على الجانب المقابل، بينما كانت تركيا تلعب دور الحليف الرئيسي للولايات المتحدة وشريك الناتو في المنطقة، كانت مشاركتها في صراعات جنوب القوقاز مقيَّدةً بهذا الوضع، لذلك كان خطاب أنقرة الداعم لوحدة أراضي جورجيا -على سبيل

(66) Elene Kvanchilashvili, "Georgia in Putin's War on Ukraine", Op. cit.

(67) Marilisa Lorusso, "War in Ukraine: reactions from the South Caucasus", Op. cit.

(68) Ibid.

(69) Ibid.

(70) Nikola Mikovic, "Azerbaijan watches closely the Russian invasion of Ukraine", Op. cit.

(71) Dennis Sammut, "Ukraine poses a dilemma to the three South Caucasus countries, but they have still one important card they can play", Op. cit.

المثال- دبلوماسيًّا في الغالب، كما أن التعاون العسكري مع أذربيجان -على الرغم من أهميته- يعتبره محلِّلون ذا صبغة تجارية: فقد باعت أنقرة الأسلحة إلى باكو ثم اشترت بالدولارات من الأخيرة النفط والغاز، كما فعلت موسكو الشيء نفسه[٧٢]، لكن أنقرة صاغت أهدافها في محيطها الإقليمي وبالقرب من حدودها عكس موسكو التي تسعى لاستعادة مكانتها العالمية.

إذا كانت موسكو تتخطَّى وزنها الاقتصادي والدبلوماسي والعسكري الحقيقي، فقد كان الهدف في الغالب هو تأمين تلك الامتيازات الإقليمية، لكن يبدو أن منافسًا واحدًا على الأقل، وهو تركيا، رأى روسيا على حقيقتها كقوة إقليمية متوسِّطة. قد تميل تركيا -تحت قيادة رجب طيب أردوغان- مثل روسيا للعودة إلى زمن ما قبل الحرب العالمية الأولى. تمامًا كما في ذلك الوقت، ظاهريًّا تبدو روسيا وتركيا حليفتين لكنهما تتَّجهان باستمرار لتحقيق ميزة ضدَّ بعضهما البعض في مناطقهما الحدودية النائية. لذا تتَّفق أنقرة مع موسكو في انتقاد الازدواجية الغربية في تطبيق المعايير التي تدعو إليها، ويميل الرئيس أردوغان -مثل بوتين- للعودة إلى الماضي الإمبراطوري والقيم التقليدية ذات الصبغة الدينية، كقوة موازنة للمبادئ الليبرالية والديمقراطية[٧٣].

منذ عام ٢٠٢١، كانت أذربيجان شريكًا وثيقًا لتركيا وهناك مخاوف في موسكو من أن تسمح باكو لأنقرة ببناء قواعد عسكرية في الدولة الواقعة في القوقاز. على الرغم من ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه في عام ٢٠٢١ افتتحت تركيا وروسيا منشأة عسكرية مشتركة في أذربيجان للمساعدة في مراقبة وقف إطلاق النار في ناغورنو كاراباخ. يسمح التفويض الأولي لقوات حفظ السلام الروسية بالبقاء في الدولة القوقازية حتى عام ٢٠٢٥[٧٤]، لذلك نظريًّا، أذربيجان متحالفة مع روسيا وتركيا، ولكن من الناحية العملية ربما تتحرَّك باكو لتعزيز علاقاتها مع أنقرة، حتى مع بقاء موسكو شريكًا تجاريًّا رئيسيًّا. لكن هذا لا يعني أن أذربيجان ستسمح لتركيا بإنشاء قواعد عسكرية على أراضيها، لأن مثل هذه الخطوة ستعرِّض علاقات باكو مع موسكو للخطر[٧٥].

خاتمة:

يكشف العرض السابق لخريطة تفاعلات القوقاز أهمية المنطقة في الاستراتيجية الروسية؛ حيث تنظر موسكو إلى جنوب القوقاز باعتباره جوارها القريب ومنطقة نفوذ وتأثير لا تسمح لأطراف منافسة أن تنازعها الهيمنة فيها أو أن تشكِّل مع دول المنطقة تحالفات تهدِّد المصالح الروسية. أما عن شمال القوقاز الذي يشكِّل جزءًا من الاتحاد الروسي وتشغله جمهوريات حكم ذاتي في مقدِّمتها الشيشان، فلم تركِّز عليها الدراسة لأن تلك الجمهوريات بحكم الخضوع الرسمي لموسكو ليس متوقَّعًا أن تخرج عن قياداتها ما يخالف السياسة الخارجية الروسية. تحظى الشيشان بوضعية خاصة بين تلك الجمهوريات حيث أطلق الكرملين يدَ رئيسها رمضان قديروف في التعامل سواء مع معارضيه أو مع أية تهديدات داخل الجمهورية. بل طالت قديروف اتهامات بقربه من عناصر نفَّذت عمليات اغتيال لشخصيات معارضة لبوتين وأطلقت بعض الدوائر الغربية على قديروف -ضمن أوصاف أخرى مسيئة- فتى بوتين المدلَّل. لذلك لم يكن مستغربًا تلك التصريحات التي يدعم فيها قديروف الحرب التي شنَّها بوتين على أوكرانيا والتقارير التي خرجت لتؤكِّد مساهمة قوات شيشانية في الحرب حتى وإن كانت تحليلات غربية قد رأت أن مساهمة تلك القوات بشكل هامشي ولا تخرج عن كونها جزءًا من الدعاية (البروباجندا) التي توظِّفها موسكو خلال العمليات العسكرية.

بالعودة لجنوب القوقاز نجد أن روسيا في تعاملها مع جورجيا كانت عادةً ما تستخدم إقليمي أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا كورقتي ضغط على النظام الجورجي، فقد كان تقارب الأخير مع أوروبا غالبًا ما يصاحبه خطابٌ معادٍ من روسيا. وجاءت قمة التصعيد

(72) Jaba Devdariani, "With Belligerent Ankara, Russia's Global Ambitions Hit a Regional Snag", Op. cit.

(73) Ibid.

(74)Nikola Mikovic, "Azerbaijan watches closely the Russian invasion of Ukraine", Op. cit.

(75) Ibid.

الروسي في أغسطس ٢٠٠٨ عندما حاولت جورجيا استعادة أوسيتيا الجنوبية بالقوة العسكرية فما كان من روسيا إلا أن تدخَّلت للدفاع عن الإقليم وتزامن ذلك مع تدخُّل الأبخاز للسيطرة على كامل إقليمهم. ورغم وقف إطلاق النار إلا أن روسيا منحتْ أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا الاعترافَ بالاستقلال وهو ما كان يطالب به الإقليمان لسنوات. لذلك كان متوقَّعًا ذلك التأييد والدعم الذي أظهرته الجمهوريَّتان لاعتراف موسكو بالجمهوريَّتين الانفصاليَّتين في أوكرانيا.

أما عن الصراع بين أذربيجان وأرمينيا فعلى الرغم من التقارب الروسي الأرميني إلا أن مصالح روسيا مع أذربيجان حالت دون تصعيد المواجهات في أبريل ٢٠١٦ ونجحت الوساطة الروسية في تهدئة الأوضاع من جديد. لكن الأوضاع تدهورت بشكل متسارع واندلعت المواجهات العسكرية بين الطرفين في عام ٢٠٢٠ إلى أن نجحت موسكو من جديد في الوصول لاتفاق إطلاق النار بعد استبعاد واضح للدور الأوروبي الأمريكي في التسوية.

وعلى الرغم من حرص دول القوقاز المحافظة على علاقات جيدة مع الغرب فإن الوجود القوي لروسيا بالمنطقة دفع المخاوف الأوروبية إلى أن تمتدَّ للاعتقاد باحتمال لجوء روسيا لاستخدام شبكاتها في الدول القوقازية الثلاث للالتفاف على العقوبات الغربية. وهو ما سيضع تلك الدول في مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وأطراف أخرى من المجتمع الدولي. تأتي تلك المخاوف على الرغم من تطمينات ومواقف مثل إعلان جورجيا في وقت مبكِّر عن تطلُّعاتها الأوروبية الأطلسية ورغبتها في الانضمام إلى الناتو والاتحاد الأوروبي في أقرب وقت ممكن.

في التحليل النهائي، هناك قاسمٌ مشتركٌ واحدٌ مهمٌّ جدًّا لأرمينيا وأذربيجان وجورجيا: إنهم جميعًا يريدون حماية وصوْن استقلالهم وسيادتهم. إنهم جميعًا يدركون الآثار المترتبة على تصرفات روسيا في أوكرانيا وكيف أن هذا لا يبشِّر بالخير بالنسبة لهم. لذا ترى تحليلات غربية أنه حان الوقت لاتخاذ الخطوة الأولى وتبنِّي التعاون الإقليمي، وإذا كان هناك شيء واحد من شأنه أن يربك الروس فسيكون كذلك، لقد بُنيت كل الاستراتيجيات الروسية في جنوب القوقاز في الثلاثين عامًا الماضية -منذ تفكُّك الاتحاد السوفيتي- على أساس استغلال القلاقل والاضطرابات والمنافسة غير الصحية بين البلدان الثلاثة وداخلها[٧٦].

*****

(76) Dennis Sammut, "Ukraine poses a dilemma to the three South Caucasus countries, but they have still one important card they can play", Op. cit.

ج) أوضاع الأقليات وتطورات ما بعد جائحة كورونا

الإيجور والسياسة الصينية: تحديات، ومقاومة

إسراء علاء عبد الله(*)

مقدمة(**):

تُعد قضية الإيجور وإقليم شينجيانج قضية متجددة، تعود أصولها إلى ما يزيد عن ألفي عام، وتدعي الصين سيطرتها عليه منذ ذاك الوقت،(١) حيث قامت سجالات وحروب للسيطرة على الإقليم ولتحريره من هذه السيطرة. وذلك حتى القرن الماضي، حين قام "ماو زي دونج" باحتلال الإقليم وضمه إلى السيادة الصينية. اعتبر الإيجور الأمر احتلالًا استيطانيًا؛ لأن السيادة الصينية وقتئذ لم تكتفِ بضم الإقليم وفرض سيطرتها عليه، بل قامت أيضًا بتهجير العديد من الصينيين الهان، وهم بشكل أساسي صينيون يعتنقون البوذية أو لا دينيين، والذين زاحموا الإيجور في أرضهم وزراعتهم. والإقليم ما زال الإيجور يعتبرونه مستقلًا عن الصين لغةً ودينًا وأصلًا. حيث تميل ثقافة الإيجور إلى ثقافة دول وسط آسيا، ويعتنقون الإسلام، ويتحدثون لغتهم الخاصة.

تتابعت الأحداث في الإقليم وتصاعدت خلال الثلاثة عقود الماضية، حيث نشأت حركات انفصالية من الإيجور، تدعو إلى الانفصال عن الصين، ومارست ما أُطلق عليه أعمال شغب و"هجمات إرهابية" ألقت الحكومة الصينية مسؤوليتها على الجماعات الانفصالية الإسلامية من الإيجور. لكن حدثت انتفاضات خلال التسعينيات وفي عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٩ وكانت هذه من أشد الاحتجاجات التي حدثت في الإقليم. لاحقًا، تبنت الحكومة الصينية منهجية إعادة تأهيل المواطنين، والتي سنتطرق إليها بعد التفصيل في أبعاد الأزمة التي بسببها تسعى الصين، قديمًا وحديثًا، سعيًا محمومًا للسيطرة على هذا الإقليم بالتحديد.

أولا- أبعاد الأزمة:

منذ حوالي عقد، وبالتحديد في سبتمبر عام ٢٠١٣، أعلن الرئيس الصيني بدأ **مبادرة "الحزام والطريق" الاقتصادية**، والتي تسعى لتكوين طريق حرير جديد يصل القارات ببعضها بعضًا –بدءً من الصين- وبتكلفة تتخطى التريليون دولار، والذي تهدف الصين أن ينتهي بناؤه والتجهيز له بحلول عام ٢٠٣٠.(٢) ويعد إقليم شينجاينج هو حجر الأساس لهذا المشروع، لمشاركته الحدود مع ثمانِ دولٍ مختلفة منها روسيا والهند. إلى جانب تنوع مصادر الطاقة فيه، من بترول وغازٍ طبيعي، والعديد من مصادر الخامات التي تستخدمها الصين في صناعاتها. مشروعٌ بهذا الحجم لا تريد الصين أن تجازف بوجوده في إقليم حكم ذاتي –أي بعيد عن تحكمات الدولة- وإن كان تابعًا لها.

على الرغم من أن الصين دولة شيوعية دكتاتورية، إلا أنها تتعامل مع الرأسمالية بما يتفق ويتناسب مع مصالحها. وتحتل الصين المركز الأول في الصادرات، بفارق يتخطى ٦٠٠ مليون دولار أمريكي، بنسبةً تتعدى ١٠٪ من إجمالي صادرات العالم.(٣)

(*) باحثة في العلوم السياسية.

(**) وتجدر الإشارة إلى أن جزءًا كبيرًا من هذا التقرير تم بناءً على مقابلات شخصية مع ناجين من النظام القمعي في الصين، وبسبب حساسية القضية، لا نستطيع الكشف عن أي معلومات تخص تفاصيلهم الشخصية أو كيف وأين تمت المقابلات؛ حفاظًا على سلامتهم وبناءً على رغبتهم.

(1) Bradley Jardine, Great Wall of Steel: China's Global Campaign to Suppress the Uyghurs, Wilson Center, March 2022, accessed at: 15 May 2022, available at: https://cutt.us/B7p2N

(2) The Belt and Road Initiative in the global trade, investment and finance landscape, OECD Business and Finance Outlook 2018, Accessed at: 11 May 2022, available at: https://cutt.us/oywPl

(٣) إحصائيات الصادرات عام ٢٠٢٠، البنك الدولي، تاريخ الإطلاع: ٢٥ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي:

بعبارةٍ أخرى، تتربع الصين على عرش الاقتصاد العالمي وتسعى أغلب الدول إلى العمل معها للاستفادة من هذا الكيان المهول.

قد لا تبدو الخلفية الاقتصادية مهمة في التعامل مع مشكلة الإيجور، إلا أنها تعتبر من المحاور المركزية التي تقوم عليها المشكلة. هذا لأنه بالنسبة إلى الصين، إقليم شينجيانج هو حلقة الوصل التي يقوم عليها مشروعها العالمي، وهو أصل "مهدر" لمصادر متنوعة من الطاقة والصناعة، إلى جانب الأراضي الزراعية والمحاصيل الإنتاجية.

منذ إعلان المشروع وبدأت تتغير ديموجغرافيا الإقليم؛ حيث تسعى الصين لإحلال الإيجور بالهان. المشكلة هنا كانت تكمن في تهميش الإيجور وإبعادهم عن هذه الفرص للعمل، وكان هذا أحد أسباب اندلاع الاحتجاجات عام ٢٠١٣، بجانب بعض المشاكل السياسية وتقنين سيادة الإقليم الذاتية والسعي إلى تحجيمه.

تتعامل الصين مع مبدأ الدين كإشكالية، ومصدر تهديد لنظامها. حيث تعمل الدولة على أن تصبح هي الإله وأن يتعامل المواطنون معها على هذا الأساس. ولتحقيق ولاء مطلق للحزب الشيوعي الحاكم، تم العمل على اتجاهين، **الأول**، تمجيد الرئيس والشيوعية وإصدار ما يمكن أن نُطلق عليه كتيب العمل والأخلاق، والذي يحتوي على كل ما تريد معرفته لتكون مواطنًا صالحًا، وكل ما يخالف ذلك هو معاداة صريحة للنظام وللرئيس، والتي بالتبعية تستوجب العقوبة.

الاتجاه الثاني، هو عمل الدولة على مراقبة شاملة للمواطنين؛ تحركاتهم على أرض الواقع وفي الفضاء الافتراضي. ولزيادة تعزيز فكرة الدولة الإله، حيث يكون النظام هو الحاكم الوحيد لتصرفاتك، وللتأكد من عدم مخالفة المواطنين للأحكام العامة، تتم مراقبة المواطنين في كل وجميع حركاتهم، وهذا لا ينطبق فقط على الإيجور، لكن على المليار والأربعمئة مليون نسمة في جميع أرجاء الصين. حيث إن تمت أي مراسلة على سبيل المثال وذكر فيها اسم "ساحة تاينمين"[٤] (ذات الدلالة التاريخية المزعجة للنظام الصيني) ذلك كفيل بأن يتم اعتقال الطرفين وزجهما في السجن دون محاكمة إلى أجلٍ غير معلوم وفرض رقابة صارمة على أقاربهم وأسرهم.

وللتأكد من التزام المواطنين بهذه المبادئ، أُنشئ نظام الثواب والعقاب، حيث يكون للفرد نقاط اجتماعية هي المحدد الأساسي لاستحقاقه لأي حقوق من الدولة. على سبيل المثال: تنقص نقاطك الاجتماعية إذا كنت تقضي وقت أكثر من اللازم أو أقل من اللازم على مواقع التواصل المحددة من الحكومة، وذلك أحد سبل المراقبة التي تستخدمها الحكومة الصينية، وهي أنه لا يُسمح باستخدام أي مواقع تواصل غير المواقع المصنعة خصيصًا للحكومة الصينية. أُعلن عن هذا النظام في عام ٢٠١٤، كمنظومة قمع وقائي،[٥] وذلك بالقبض على الشخص موضع الشبهة قبل أن يتطرف، ودخلت المنظومة حيز التنفيذ في عام ٢٠١٧ بشكل اختياري، إلا أنها دخلت حيز التنفيذ الإجباري في إقليم شينجيانج في أغسطس من نفس العام[٦].

https://cutt.us/YpaKb

(٤) أحداث ساحة تاينمين أو الرابع من يونيو ١٩٨٩، عندما قامت احتجاجات في أرجاء الصين بسبب تعديلات سياسية واقتصادية جديدة، لكن أشهر الاحتجاجات كانت في تلك الساحة في وسط العاصمة بيجين، اعتصم طلاب الجامعات احتجاجًا على التعديلات وأحداثٍ أخرى، وانتهى الأمر باقتحام الدبابات والجيش للساحة في أول يونيو عام ١٩٨٩، قتل العديد في المواجهات وتم اعتقال الكثير من الطلاب ومنهم من واجه حكم الإعدام أو السجن لفترات مختلفة. وتمت السيطرة على الساحة بالكامل وإخلاءها في الخامس من ذات الشهر. ويشار إلى تلك الأحداث الدموية بأحداث الرابع من يونيو لأن غالبية المواجهات والقتل حدثت في ذلك اليوم. المصدر: موسوعة Britannica: متاح عبر الرابط التالي:
https://cutt.us/lvMOZ

(5) Sheena Chestnut Greitens, Myunghee Lee, and Emir Yazici, Understanding China's 'preventive repression' in Xinjiang, Brookings Institution, 4 March 2020, accessed at: 15 May 2022. Available at: https://cutt.us/H3qtP

(6) Big data meets Big Brother as China moves to rate its citizens, Wired Organisation, 17 October 2017, Accessed at: 9 May 2022. Available at: https://cutt.us/gVB5n

ثانيًا- الصين ودولة الأخ الأكبر

ولم يكن إقليم شينجيانج هو الأول في خارطة الإخضاع، بل كان الثاني بعد التبت. وقد عينت الحكومة الصينية في عام ٢٠١٦ "شين قوانجو" كمسئول عن الإقليم[٧] -تم استبداله لاحقًا أواخر عام ٢٠٢١- وهو ذات المسؤول الحكومي الذي استطاع بنجاح –في منظور الحكومة الصينية- السيطرة على إقليم التبت وإخضاعه للسيطرة الصينية، ليبدأ بعدها مستوى جديد من القمع والهيمنة على إقليم شينجيانج. تنفق الصين على ميزانيتها العسكرية أكثر مما تنفق على أي بندٍ أخر، وأغلب هذه الميزانية تذهب إما للتسلح أو التكنولوجيا. ويعتبر إقليم شينجيانج الآن –ومنذ بضعة أعوام- مختبرًا لتجربة جميع وكل تكنولوجيا وأنظمة المراقبة الصينية الجديدة.

في عام ٢٠١٩، نشرت صحيفة "النيويورك تايمز" تقرير صحفي[٨]، عن التكنولوجيا التي تستخدمها الصين في مراقبات المواطنين، وهي نفس التكنولوجيا التي تستخدمها دول الغرب في تتبع وملاحقة رؤساء العصابات والإرهابيين. أضاف التقرير أن من بعض الأدوات المستخدمة ما قد تبدو مجرد صندوق لتجميع أسلاك الكهرباء؛ بينما في الواقع هي آلة لها نطاق واسع للتجسس على جميع الهواتف المحمولة في نطاقها. وقد تم تركيب هذه الصناديق مع كاميرات المراقبة في كل حي وشارع في منطقة شينجاينج[٩].

يستحيل على أي فرد في الإقليم القيام بأي تحرك دون أن تعلم الحكومة مسبقًا عنه. تستعمل الحكومة كاميرات تتبع موصولة بأنظمة مراقبة حيوية تستخدم الذكاء الصناعي ليس فقط لتحديد هوية المواطن، ولكن أيضًا لتحديد حالته، متوترٌ أم لا، وتصنع خارطة لجميع الأماكن التي يتردد عليها وكم من الوقت يجلس فيه ومع من وفيما يتحدثون في بعض الأحيان.[١٠] وهذه الأنظمة ليست هي فقط ما يراقبك؛ لتدخل أو تخرج من أي منطقة، سيكون هناك تفتيش ذاتي، إذ يحمل المواطنون بطاقات هوية بتفاصيل شخصية تتضمن العرق والدين ورمز رقمي يفتح ملفًا عنه للشرطة والسُلطات. عند سؤال أحد الفارين من الإقليم عن الأمر أخبرنا "هنالك نمط تفتيش أمني كامل عند محاولتك الدخول لأي مكان، تبدأ بتسليم بطاقة هويتك، ثم تقف أمام جهاز ليتم مطابقة هويتك مع شخصك، ثم تمر من خلال آلة المسح، ثم يتم تفتيشك ذاتيًا، إن لم تكن من الإيجور يمكن أن تدخل بعدها، لكن إن كنت من الإيجور يتم أخذك في مكتب لسؤالك عما تفعله ولماذا أتيت إلى هذا المكان، كان يتم استثنائي في بعض الأحيان من الاستجواب عندما كنت في طريقٍ معتاد من وإلى عملي، لكن ليس في غير ذلك". لا يهم وسيلة تحركك، سوف يتم رصدك بالكاميرات أو عند نقاط التفتيش والتي تكون في كل مكان، بين الأحياء وبالأخص الأحياء التي يتركز فيها المسلمون، حتى وإن كنت ذاهبًا إلى السوق، وإن كنت تتحرك أسرع من المعتاد سيطلق إنذار للشرطة ويتم توقيفك للاستجواب. إلى جانب زيادة عدد مراكز الشرطة ليتواجد واحد كل حوالي ٩٠ متر في بعض الأحياء، وفي عام ٢٠١٧، تم توظيف أعداد مهولة من ضباط الشرطة بما يعادل ٦ أضعاف العدد الذي تم توظيفه في عام ٢٠١٥.[١١]

---

(7) China replaces Xinjiang Communist Party Chief Chen Quanguo, CNBC, 26 Dec. 2021, Accessed at: 20 May 2022. Available at: https://cutt.us/mNJ6c

(8) A Surveillance Net Blankets China's Cities, Giving Police Vast Powers, The New York Times, 17 Dec. 2019, accessed at: 18 May 2022, available at: shorturl.at/cfnHP

(٩) "وكأننا أعداء في حرب" حملة الاحتجاز الجماعي والتعذيب والاضطهاد التي تمارسها الصين ضد المسلمين في شينجيانغ، منظمة العفو الدولية، ١٠ يونيو ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ١٥ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/LGvn0

(10) A Surveillance Net Blankets China's Cities, Giving Police Vast Powers, Op. cit.

(11) Life Inside China's Total Surveillance State, video, Wall Street Journal, 20 Dec 2017. Accessed at: 6 May 2022, Available at: youtu.be/OQ5LnY21Hgc

في التسريبات الأخيرة[١٢] التي أظهرت وثائق رسمية تحكي منهجية النظام في التعامل مع الإيجور، تم ذكر مستويات مختلفة من الحرية، والتي لا تتحدد فقط بناءً على معدل نقاطك الاجتماعي، وإنما أيضًا على عرقك ودينك وخلفيتك. حيث يتم معاملة الإيجور، وهم أكبر أقليات الصين، على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية. ويتم تتبعهم حركيًا سواءً بنظم المراقبة أو بإرسال شرطيين وراءهم. بعض الكتب والسلع تعامل معاملة المحظورات، فالنساء لا يستطعن شراء ملابس فضفاضة أو تناسب معتقداتهن، والكتب المقدسة أو التي تناقش تعاليم الإسلام ممنوعة بشكلٍ تام. فلا معتقد في شريعة الحزب الشيوعي الحاكم غير شريعته، ولا إله إلا الدولة. هذه السياسات وغيرها تجعل ممارسة المهام اليومية عملية شبه مستحيلة بل مُستنِفَذة، ناهيك عن ممارسة شعائرك أو معتقداتك. وهو ما تريد الصين الوصول إليه تحديدًا.

ثالثًا- الصين وسياسات العقاب الجماعي ضد الإيجور في الداخل

في عام ٢٠١٧، تم إرسال وثائق إجبارية لجميع مواطنين إقليم شينجاينج، والتي من خلالها يجب عليهم تقديم معلومات شخصية وتفصيلية عن أنفسهم وحياتهم. لم يكتفوا بذلك، بل كانوا يهددون بعض المواطنين –من الإيجور وغيرهم- بالاختفاء القصري والقتل لهم أو لأحد أفراد أسرتهم إذا لم يقوموا بتتبع جيرانهم وتقديم تقارير مفصلة عنهم وتأكيد صحة المعلومات التي قدموها في تلك الوثائق[١٣].

شملت تلك الوثائق العديد من الأسئلة، مثل "ما هي وظيفتك؟"، و"هل تصلي؟"، و"هل لديك كتب في المنزل؟ ما نوعها؟ من الكاتب؟"، و"هل اتصلت أو تعاملت مع أجانب/ صحفيين من قبل؟" وكل ما يمكن تخيله عن تفاصيل حياة أحدهم. بناءً على الإجابات عن هذه الأسئلة، يتم تقييم المواطنين وتصنيفهم إلى ثلاثة تصنيفات: طبيعي، مصدر خطر محتمل، ومصدر تهديد مؤكد. بناءً على هذه التصنيفات وما تصدره خوارزميات النظام عن المعلومات المجمعة بشأن المواطن، إما أن يتم اعتقاله، أو وضعه تحت المراقبة ونقله إلى "المراكز التعليمية"، أو يتم الاستعانة بالشخص للتجسس على جيرانه.[١٤]

إن سلسلة الإجراءات القمعية والأفعال المنكرة التي تمارسها الصين ضد المسليمن الإيجور لا يمكن حصرها في هذا التقرير، ولا نستطيع التفصيل في كل ما توصلنا إليه من معلومات وشهادات الناجين لعدم مناسبتها لهذا التقرير، لكن سنسرد باختصار العنواين الرئيسية والإطار العام للممارسات التي أقل ما توصف به هو "الشنيعة".

١- ما قبل معسكرات الاعتقال:

أصدر الحزب الشيوعي الحاكم عدة قرارات فيما يتعلق بالممارسات العقائدية. في عام ٢٠١٤، كان ممنوعًا على أي مسلم أو مسلمة يُظهر علامات التدين استخدام المواصلات العامة،[١٥] تطور الأمر لاحقًا ليصبح منعًا من صيام شهر رمضان[١٦] أو الصلاة أو القيام بأي شعائر دينية في الأماكن

(12) Austin Ramzy and Chris Buckley, 'Absolutely No Mercy': Leaked Files Expose How China Organized Mass Detentions of Muslims, NY Times, 16 Nov 2019, accessed at: 15 May 2022, available at: https://cutt.us/lIKsh

(١٣) بناءً على المقابلات الشخصية.

(14) Bethany Allen-Ebrahimian, Exposed: China's Operating Manuals for Mass Internment and Arrest by Algorithm, International Consortium of Investigative Jornalists, 24 November 2019, accessed at: 15 May 2022. Available at: https://cutt.us/nl6vJ

(15) China bans beards, veils from Xinjiang city's buses in security bid, Reuters, 6 August 2014, Accessed at: 20 May 2022. Available at: https://cutt.us/vtzxh

(16) China bans Muslims from fasting Ramadan in Xinjiang, ALJazeera, 18 June 2015, accessed at: 15 May 2022. Available at: https://cutt.us/gDcpC

العامة ثم هدم المساجد والأضرحة والبناء عليها[١٧]، ثم لحقها بعد ذلك منع اللباس المحتشم واللحى ونفي الأئمة والشيوخ[١٨] مثل الإمام محمد التوهتي.[١٩] كذلك التضييق في مصادر الرزق، حيث يتم إقفال أي تجارة تتعامل مع البضائع والكتب الدينية[٢٠] ومصادرة المباني والأصول وعرضها للبيع في مزادات حكومية ومعها ما يثبت إدانة مالك المكان.[٢١] أيضًا منع التعاليم الدينية والمدارس الإسلامية والكُتَّاب، وفصل الأطفال عن أسرهم وعائلاتهم وإلحاقهم بمدارس داخلية أو بأسر أخرى تُصنف على أنها من "الفئات الآمنة".[٢٢] وقد يحدث أن تتم زيارتك في بيتك من قبل الشرطة وتفتيشه، أو طلب حضورك للاستجواب في أي وقت.

ويتم اعتقال الأشخاص بنظام "الوقاية"، أي إنه بناءً على معلومات النظام وتوقعاته، كل من هم مصنفون على أساس أنهم "مصدر خطر محتمل" أو "مصدر تهديد" يتم اعتقالهم دون محاكمات أو تهم، ودون معرفة إلى أين أو متى يعودون لأسرهم.

٢- معسكرات الاعتقال:

ما تطلق عليه الحكومة الصينية مجرد "مراكز تعليمية وتأهيلية لسوق العمل" إنما هي في الحقيقة معتقلات جماعية، هدفها الأساسي ينقسم إلى جزءين: **الأول:** غسيل العقول ومسح كامل لثقافة الإيجور ومعتقداتهم، وتحويلهم إلى مواطنين مثاليين في نظر الحزب الشيوعي الحاكم. **الثاني:** هو كسر تام وتدمير نفسي للمعتقلين من مسلمي الإيجور.

في خلال الشهر الأول أو الشهرين من تاريخ الاعتقال، يتم احتجاز المعتقل في زنزانة فردية ومراقبة بكاميرات، ويتم عرض مناهج الحزب الحاكم من خلال تلفازٍ صغير بشكلٍ متواصل لا ينقطع ليلًا أو نهارًا. يتم نقل المعتقلين فيما بعد إلى زنازين جماعية مكتظة. لاحقًا، يتم التعرض لجميع أنواع التعذيب والتعليم الإجباري. تطول قائمة الانتهاكات والتعذيب الذي يتعرض له المعتقلون، من عمليات تعقيم إلى التقييد في كراسي حديدية لأيام[٢٣]، إلى الاغتصاب الجماعي الممنهج[٢٤]، هذا والكثير غيره مما يصعب ذكره. هذا غير التهديد إن حدث وأفصح أحدهم عما تعرض له حتى أمام زملائه في السجن. ذلك بالطبع بخلاف التمثيليات التي يُجبر المعتقلون على مسايرتها عند السماح بزيارات لمراسلين أجانب[٢٥] أو منظمات حقوقية

(17) Bahram K. Sintash, Demolishing Faith: The Destruction and Desecration of Uyghur Mosques and Shrines, 28 October 2019, accessed at: 20 May 2022. Available at: https://cutt.us/wEawx

(١٨) بيتر أيرون، إقصاء الإسلام :اضطهاد الصين لأئمة الأويغور ورجال الدين، مشروع UHRP، ١٥ مايو ٢٠٢١، تاريخ الإطلاع: ٢١ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/J9dat

(19) Uyghur detention: Leaked files reveal locations of lost loved ones, BBC news, 24 May 2022, accessed at: 28 May 2022. Available at: https://cutt.us/rYL6W

(٢٠) بناءً على المقابلات الشخصية.

(21) Nicole Morgret, Under the Gravel : Evidence of Uyghur-owned Property Seized and Sold Online, UHRP, 15 September 2021, Accessed at: 20 May 2022, Available at: https://cutt.us/DL3aZ

(22) Elise Anderson, Coerced Kinship: The Pomegranate Flower Plan and the Forced Assimilation of Uyghur Children, UHRP, 27 January 2022, accessed: 20 May 2022, Available at: https://cutt.us/4ZwjU

(٢٣) "وكأننا أعداء في حرب" حملة الاحتجاز الجماعي والتعذيب والاضطهاد التي تمارسها الصين ضد المسلمين في شينجيانغ، مرجع سابق.

(24) 'Their goal is to destroy everyone': Uighur camp detainees allege systematic rape, BBC, 2 February 2021, accessed at: 21 May 2022. Available at: https://cutt.us/hSaH4

(25) John Sudworth, Inside China's 'thought transformation' camps, BBC, 18 June 2019, accessed at: 10 May 2022. Available at: https://cutt.us/IuTAO

لأجزاء محددة من السجون.[٢٦] والذي لم تكن الصين لتعترف بوجودها إن لم يكن الصور الملتقطة بالأقمار الصناعية[٢٧] لأكثر من معسكر من تلك المعسكرات.[٢٨]

التهمة الوحيدة التي يواجهها المعتقلون هي أنهم الإيجور ويعتنقون الإسلام. لا تكتفي الحكومة الصينية باعتقالهم، وإنما أيضًا تجبرهم على العمل بالسُخرة إما في المصانع التي بُنيت على أراضيهم بعد أن تمت مصادرتها منهم، وإما في مزارعهم التي صادرتها الحكومة أيضًا منهم.

لا يتم الإفراج عن المعتقلين حتى يتعلموا اللغة الصينية ويكتبوا خطاب اعتذار عن أفعالهم، ويعبروا عما تعلموه وشكرهم للرئيس وللحزب الشيوعي الحاكم على توفيرهم الطعام والملابس لهم خلال فترة الاعتقال. بعد مرورهم بعدة اختبارات تثب جدارتهم بالحرية، وتوقيعهم على تعهد بعدم الإفصاح عن أي شيء أو الحديث مع أي شخص عما مروا به داخل المعسكرات. لا يعلم أحد بالضبط ما هي ضوابط الإفراج عن المعتقلين، وليس حتميًا أن الخروج من المعسكرات يعني الإفراج، لأن البعض يتم إعدامه أو يختفي تمامًا دون أثر.[٢٩]

٣- بعد المعتقل:

بعد الخروج من المعسكرات، يُفرض على المفرج عنهم أن يستضيفوا موظفين من الحكومة في بيوتهم عدة أيام في زيارات شهرية مفاجئة. ويوضعون تحت المراقبة الدائمة وهم معرضون للاعتقال مرة أخرى، ويتم الاستحواذ على جواز سفرهم ويُمنعون من التحرك أو مغادرة المدن التي يقيمون فيها.[٣٠]

قد يتم تجاهل المفرج عنهم في أحيائهم ويُمنعون من العمل لأن الجميع لا يريد أن يرتبط سجل نقاطهم الاجتماعي بمعرفتهم أو التعامل معهم، وهو نظام تغريب آخر تستخدمه الحكومة للضغط على الإيجور. على الجانب الآخر، إن تمكن أحدهم من السفر خارجيًا، يتم استخدام عائلاتهم كنظام تهديد لهم في حالة شهادتهم ضد الصين فيما يحدث أو ظهورهم إعلاميًا. إلى جانب إجبارهم على تحميل تطبيق خاص بالشرطة الصينية، والذي يتجسس عليهم ويضعهم تحت المراقبة طوال اليوم داخل وخارج المنزل.[٣١]

رابعًا- السياسات العقابية ضد الإيجور خارج الصين

في الكثير من الأحيان، يلجأ الإيجور إلى الهرب إلى الخارج، يذهب معظمهم إلى دول وسط آسيا، مثل كازخستان وأفغانستان. وبعضهم يلجأ إلى الدول العربية الإسلامية وبالتحديد مصر والسعودية، باعتبارهما ملاذًا للمسلمين. البعض يلجأ إلى الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي بحثًا عن اللجوء السياسي. إلا أن القصة لا تنتهي هنا، لأن الصين لا تتسامح مع فكرة وجود الإيجور بالخارج وبالأخص المعتقلين السابقين. لم تتقبل الصين وجود من ينتقدها مثل "أدريان زينز"، عالم الأنثروبولجي الألماني، والذي كان مفتاح التسريبات التي حدثت خلال السنوات الفائتة، وشنت هجومًا شاملًا عليه وعلى مصداقيته. أما فيما يتعلق بالإيجور بالخارج، فأقل ما يحدث هو سجن عائلاتهم، حيث أُثبتت العديد من الحالات أن الشخص يتلقى رسائل تهديد مباشرة من السلطات الصينية، أو يتم بالفعل سجن أحد أفراد العائلة ويتم تهديد الشخص إذا ما استمر في التحدث إذا كان أحد النشطاء بالفعل. لم تقتصر السلطات الصينية على ذلك، بل قامت عام ٢٠١٩ بتوقيع رسالة تأييد مع ٣٦ دولة منها دول عربية وإسلامية على رأسهم

(26) "The Happiest Muslims in the World" Disinformation, Propaganda, and the Uyghur Crisis, July 2020, Accessed: 20 May 2022. Available at: https://cutt.us/lPUfr

(٢٧) وكأننا أعداء في حرب" حملة الاحتجاز الجماعي والتعذيب والاضطهاد التي تمارسها الصين ضد المسلمين في شينجيانغ، مرجع سابق.

(28) Who are the Uyghurs and why is China being accused of genocide?, Op.Cit.

(29) Austin Ramzy and Chris Buckley, 'Absolutely No Mercy': Leaked Files Expose How China Organized Mass Detentions of Muslims, Op. cit.

(30) Isobel Yeung, China's Vanishing Muslims: Undercover In The Most Dystopian Place In The World, VICE News, 29 June 2019, accessed at: 13 May 2022. Available at: https://cutt.us/m8lTx

(٣١) بناءً على المقابلات الشخصية.

المملكة السعودية والإمارات المتحدة ومصر، تقر فيها الدول بمنظومة السجن الجماعي للإيجور[٣٢]. كانت هذه الرسالة ردًا من الصين على رسالة أولى تم التوقيع عليها من الولايات المتحدة وكندا وبعض الدول الأوروبية. قامت الصين بوضع الإيجور في إطار الإرهاب الذي تحاول تخليص العالم منه، وبناءً على ذلك جعلت من المبرر اعتقالهم وترحيلهم إلى الصين مجددًا.

لكن الدول لم تكن بحاجة إلى توقيع هذه الرسالة، لأنه قبلها بعامين، بدأت الدول في الشرق الأوسط وأفريقيا، بتسليم الإيجور لسببٍ أو لآخر. على سبيل المثال، في عام ٢٠١٧، قامت السلطات المصرية بالقبض على بعض من الإيجور بناءً على قائمة مرسلة من الصين، وأمهلت الآخرين ٤٨ ساعة لمغادرة البلاد.[٣٣] وقامت السلطات السعودية بترحيل ٨ أفراد من الأقلية إلى الصين مرة أخرى، بينهم طفلة لم يتجاوز عمرها ١٣ عامًا.[٣٤] وقامت عدة دول في أفريقيا بتسليم الإيجور في مقابل الحصول على مشروعات تنموية ضخمة كاملة.[٣٥]

تسعى الصين حاليًا إلى تطوير علاقاتها الاقتصادية مع الدول التي يلجأ إليها عادةً الإيجور طلبًا للحماية. من أكبر التعقيدات الآن، أن أغلب قادة الدول لا يمانعون ذلك، بل ويُسهلون للضباط الصينيين الوصول إلى بلدانهم لاستجواب الإيجور في الزنازين والمعتقلات. وما زاد الطين بلة، هو زيارة رئيسة المفوضية السامية للأمم المتحدة لحقوق الإنسان، "ميشيل باتشيليت"، للصين وزيارتها لإقليم شينجيانج وإطلاق مؤتمر صحفي من هناك، إعلانًا منها أنها مجرد زيارة لمباحثات فيما يتعلق بحقوق الإنسان وأنها لم تكن زيارة بغرض التحقيق.[٣٦]

أصبح التحدي القائم للإيجور حاليًا، هو الهرب من أيادي الحكومة الصينية والتي طالت جميع الدول تقريبًا، وإخفاء هويتهم كمسلمي إيجور حفاظًا على حياتهم.

خامسًا- أدوات الدعم وتفعيلها

١- على مستوى المنظمات الدولية:

لا يستطيع الإيجور فعل الكثير أمام الآلة العسكرية الضخمة التي يترأسها الحزب الشيوعي الحاكم. ما يستطيعون فعله هو التحدث ودعم الضحايا ماديًا ومعنويًا ونفسيًا لتخطي ما حدث، فضلا عن محاولة الإبقاء على ثقافتهم حية. العديد من الإيجور بالخارج أقاموا احتجاجات في دول مختلفة، وأقاموا منظمات مختلفة لدعم الأقلية والناجين سواءً بتسجيل الانتهاكات التي حدثت أو تأريخ ما يحدث. ومشروع الحقوق الإنسانية للإيجور إثبات حي على ذلك، حيث يهدف إلى رفع الوعي وإصدار تقارير حية عن الأمر. وتم إعداد وتقديم طلب لمحكمة العدل الدولية عام ٢٠٢٠، وبعد تواجد أدلة كافية على اختراق الصين لدول أخرى للوصول إلى الإيجور، أصبح هناك ما يكفي لفتح تحقيق في الأمر.[٣٧] وهذا ينقلنا إلى نقطة أخرى وهي واجب الدول العربية والمسلمة تجاه القضية. حتى الآن، لم تقم الدول العربية والإسلامية بأي دورٍ لإنكار -أو حتى التعريف- بما يحدث للمسلمين الإيجور، بل على العكس، قامت بالإشادة بسياسات الصين مع المسلمين علنًا من خلال بيان اجتماع وزراء

(32) Michelle Nichols, "Saudi Arabia Defends Letter Backing China's Xinjiang Policy," Reuters, 18 July 2019, accessed at: 30 May 2022, available at: https://cutt.us/5ymQQ

(33) Bradley Jardine, Great Wall of Steel: China's Global Campaign to Suppress the Uyghurs, Op.Cit.,

(34) Bradley Jardine, Lucille Greer, Beyond Silence Collaboration Between Arab States and China in the Transnational Repression of Uyghurs, UHRP, 23 March 2022, accessed: 24 May 2022, available at: https://cutt.us/zNgQK

(35) Dickens Olewe, Why African countries back China on human rights, BBC, 2 May 2021, accessed at: 13 May 2022. Available at: https://cutt.us/BvEht

(36) Eva Dou, U.N. human rights chief disappoints Uyghur advocates on visit to China, The Washington Post, 29 May 2022, accessed at: 29 May 2022. Available at: https://cutt.us/VSd5L

(37) Rodney Dixon,Uighur group urges ICC to probe alleged China genocide, East Turkistan Government in Exile,7 July 2020, available at: https://cutt.us/GttSj

الخارجية للدول الأعضاء **بمنظمة التعاون الإسلامي** في عام ٢٠١٩.[٣٨] وهو أمر مفهوم في سياق اقتصادي بحت، حيث إن الصين كقوة عظمى الآن، تستطيع أن تضغط على الدول بسحب استثماراتها، على سبيل المثال: خطوط التجارة الصينية العابرة من خلال باكستان، تشكل الآن حوالي ٢٠٪ من الاقتصاد الكلي لباكستان. لكن بعد مرور ثلاث سنوات على هذا البيان، وظهور أدلة جديدة تدين الصين ورئيسها والحزب الحاكم، سيكون من الأفضل أن تصدر المنظمة ما يُبرأ ذمتها وتقف موقف قوة تجاه الأمر، وبالأخص أن تعداد مسلمي الإيجور المعتقلين يتجاوز الآن ٢ مليون نسمة.

بالرغم من أن الصين لا تعترف **بمحكمة العدل الدولية** ولا سلطتها القضائية، إلا أن خطوة مثل ما حدث مع قضية مسلمي الروهينجا، وهو أن تتولى دولة مسلمة القضية وتقدمها بالأدلة إلى محكمة العدل الدولية، هي خطوة في الاتجاه الصحيح لرفض الوضع الحالي في إقليم شينجيانج. إلى جانب ذلك، يجب أن تتخلى الدول المسلمة، وبالأخص الدول المسيطرة على صنع القرار في المنظمة، عن تفضيلها لمصالحها الاقتصادية في مقابل حقوق الإيجور؛ لأن زيادة الاستثمارات الصينية –والتي ارتفعت بعد بيان المنظمة- لا تؤدي إلا إلى الهاوية، مثل الاستعمار الاقتصادي الحاصل في سيريلانكا الآن.

هنالك مخرج للدول الإسلامية وهو التعاون والاتصال مع حلفائها الدوليين الآخرين ممن أعلنوا رفضهم لسياسات الصين، وهي في هذه الحالة الولايات المتحدة الأمريكية. بالطبع ينبع رفض الولايات المتحدة من خوفها من أن تكون الصين هي القوة العظمى بدلًا منها، لكن يمكن استخدام هذا الخوف في صالح قضية الإيجور، والدفع بالقضية إلى الساحة العالمية لتأخذ زخمًا وتشغل حيزًا من النقاش العالمي، من أهم الخطوات الحالية هي الاعتراف بأن الوضع في الصين تجاوز الانتهاكات ووصل إلى أنه جريمة ضد الإنسانية، لأن ذلك هو بداية الطريق لأخذ خطوات عملية –وإن كانت ستأخذ وقتًا- لكنها ستسمح باتخاذ إجراءات تحمي الإيجور بدول الخارج على أقل تقدير.

ذلك مع العلم أن توفير الدعم الاقتصادي لدول الشرق الأوسط وأفريقيا ووسط آسيا وإنشاء مشاريع مشتركة من قبل قوى دولية متنوعة، سيساعد على كسر دائرة الهيمنة الصينية على آليات اتخاذ القرار في تلك الدول.

على صعيدٍ آخر، يجب على **الأمم المتحدة** إدراج الحقوق الإلكترونية للأفراد ضمن ميثاق حقوق الإنسان العام المعمول به بالفعل. وبناءً عليه يجب على المفوضية السامية لحقوق الإنسان البدء بالتحقيق وجمع الأدلة فيما يتعلق بالقضية وإصدار تقارير نزيهة عنها، وتعيين مسؤول عن متابعة القضية وتوفير المعلومات اللازمة عن التطورات وذلك لرفع الوعي الدولي بمدى تدهور الوضع وخطورته. وعليها أيضًا البدء بتوفير هويات أخرى للإيجور الفارين من الصين أو مناطق استهدافهم، والتي بالتبعية تعطي لهم الحق في السفر والحركة والحماية والدعم في أي بلد.

٢- على مستوى الدول:

لم يتم أخذ خطوات فعلية تجاه مساعدة الإيجور على الهروب من قبضة الصين، فيما عدا التوقيع على رسالة تشجب الانتهاكات التي تقوم بها الصين، ولم يقم بالتوقيع عليها غير بعض الدول الغربية[٣٩]؛ والتي قابلها رسالة الشكر من وزراء الخارجية بمنظمة التعاون الإسلامي في اجتماعٍ لهم في أبي ظبي –على نحو ما أشير.[٤٠] لم يتم اتخاذ إجراءات فعلية للضغط

(38) Resolutions on Muslim Communities and Muslim Minorities in the Non-OIC Member States, 46th Session of the Council of Foreign Ministers, OIC, 2 March 2019, accessed: 11 May 2022. Available at: https://cutt.us/Z7tCQ

(39) Ben Westcott, Jo Shelley, 22 countries sign letter calling on China to close Xinjiang Uyghur camps, CNN, 11 July 2019, accessed at: 13 May 2022. Available at: https://cutt.us/A4QY7

(40) Resolutions on Muslim Communities and Muslim Minorities in the Non-OIC Member States, 46th Session of the Council of Foreign Ministers, Op. cit.

على الصين، أو التحرك لحماية الإيجور في الخارج، أو تسهيل لجوئهم إلى الدول الأخرى. مما ينقلنا إلى ما يجب أن يكون على قائمة الأولويات في سياسات الدول تجاه قضية الإيجور: فالحاجة ملحة إلى توفير **ملاذات آمنة للاجئين والناجين من الإيجور**، وذلك من خلال تقديم الدعم المادي والمعنوي وتجريم تسليمهم إلى الصين مرةً أخرى -مثلما حدث سابقًا- وتسهيل دخولهم لأي بلد يلجأون إليه وتوفير مسكن ورعاية طبية لهم، فضلا عن مراعاة الوضع العام لهم وتسهيل تسجيلهم في مؤسسات تعليمية لاستمرار حياتهم.

الصين دولة اقتصادية، تركز على صورتها بالخارج فقط لأن ذلك قد يضر بمصالحها الاقتصادية؛ وعليه فإن **عدم الموافقة على الحزم الاقتصادية** وإن كان يشكل تحديًا كبيرًا لمعظم الدول، إلا أن فرض العقوبات ووضع شروط على استثماراتها بأن يتم توقيف الاضطهاد الممنهج على الإيجور، قد يؤدي إلى نتيجة أفضل.

مما قد يحد من نظام المراقبة المبالغ فيه **فرض عقوبات ومنع تصدير أو بيع تكنولوجيا مراقبة جديدة إلى الصين على الشركات والدول**، وكذلك فرض عقوبات شخصية واقتصادية على المسؤولين الأساسين في الصين ورجال الأعمال الصينيين الذين يدعمون الحكومة الصينية في مسعاها نحو قمع الإيجور، مثل المنع من السفر وتقييد أصولهم وأموالهم بالخارج، وربط توقفها بوقف العنف ضد الإيجور.

أيضًا من المهم **تشكيل تحالفات اقتصادية بين الدول** لمواجهة الهيمنة الاقتصادية للصين على دول العالم الثالث، وبذلك تكسر دائرة الضغط على الدول لتأييد مسعى الصين في اضطهاد الإيجور.

٣- على مستوى المجتمع المدني:

توجد بعض الجهود لعدة مبادرات من الإيجور للحفاظ على هويتهم وهناك عدة منظمات تعمل بدأب لتقديم المساعدة للناجين وأسر المعتقلين، مثل مشروع حقوق الإنسان للإيجور، ولكنه ما زال ينقصه الكثير من الدعم والانتشار. كما ينقصه التنسيق بين المنظمات المختلفة لتوحيد الجهود وتنظيمها. البعض يسعى لتوفير المساعدات للإيجور بالداخل لمساعدتهم على المضي يومًا بيوم، بينما يسعى آخرون إلى تشكيل إذاعات وقنوات إخبارية للتعريف ونشر الوعي فيما يتعلق بالقضية، والبعض الآخر يسعى لتسجيل وتأريخ ما يحدث من انتهاكات للضحايا وأسرهم ويجمع الأدلة على ذلك، كما أن هناك من ينشئون فكرًا أكاديميًا يدرس الوضع العام للإيجور. كلها جهود مبذولة ومتنوعة وتلعب دورًا هامًا، لكن يجب أن تتوحد تحت مظلة واحدة، لتتكامل ويعلو صوتها في مواجهة الآلة الصينية.

هنالك مساحات يمكن أن يعمل عليها المجتمع المدني، على سبيل المثال: يجب توفير **مجتمعات آمنة للإيجور، حيث يستطيعون مشاركة ثقافتهم** ويستطيع القائمون عليها توعيتهم بحقوقهم والأمان الرقمي ضد ما قد يهددهم. إلى جانب **توفير الدعم النفسي** لهم ليستطيعوا تجاوز الأحداث التي مروا بها، وتوفير الدعم المادي والتأهيل المهني والدراسي لهم.

ذلك فضلا عن **توفير منصات آمنة للإيجور للتقدم بالشكاوى أو طلب الحماية**؛ في حال تم رفض منحهم أحد حقوقهم أو قام أحد بابتزازهم أو التمييز ضدهم.

من اللازم كذلك **رفع الوعي العالمي للشعوب**، عبر القيام بحملات توعية بالقضية وتنظيم وقفات تضامنية مع الإيجور ضد السياسات الصينية. مر ما يزيد على ستة أعوام على تفجر الأوضاع ومازالت الشعوب تجهل القضية أو متناسيةً لها، لذلك يجب رفع الوعي وتسليط الضوء على الاضطهاد الواقع على الإيجور، في محاولة لرفع الدعم الشعبي على مستوى العالم لهم.

خاتمة:

إن أزمة الإيجور قد تبدو أزمةً داخلية من المنظور السطحي، ولكنها أكبر إبادة عرقية في الألفية الحديثة؛ ليس فقط فيما يتعلق بأعداد ضحاياها، وإنما أيضًا فيما يتعلق بمستوى شناعتها وتوسعها لتطال الضحايا خارج نطاق حدود الصين، والسكوت العالمي عنها هو خزيٌ كبير ليس فقط للمسلمين وإنما أيضًا للعالم.

ولنعلم أن المستوى الذي قد تصل إليه الصين لدعم مخططاتها الاقتصادية والسياسية لا يمكن تخيله. وهذا ينعكس على مستقبل الدول الأخرى وليس فقط على المستقبل القريب، ولكن الهيمنة المتزايدة للصين على الاقتصاد العالمي، وبالتالي هيمنتها على سياسات بعض الدول في الداخل والخارج هو أمر لا يتصور له أي نهاية تحمد عقباها. وكلما تأخر رد الفعل المرجو، استفحلت الفاجعة وزادت هيمنة الصين على السياسة العالمية.

إن الانكباب على تأثيرات المواجهة بدلًا من طرق المواجهة الفعَّالة للأزمة إنما هي العائق الحقيقي في مواجهة الصين وسياساتها. وعليه، فإن طرق التكاتف العالمي بدلًا من السعي وراء المصالح الذاتية هي ما يمكن أن يقدمه العالم لنفسه قبل أن يقدمه للإيجور؛ هذا من منظور الواقع الحالي، في ظل السعي المحموم من الدول وراء مصالحها –حتى تلك التي استهجنت سياسات الصين تجاه الإيجور.

ذلك هو الأساس الذي يمكن الانطلاق منه حاليًا لمواجهة هذه الأزمة. وحتى يتم الأمر، يبقى الإيجور في دائرة الاضطهاد والخوف مما هو قادم بين العيش في ظل دولة بوليسية من العيار الثقيل، وبين لجوء غير آمن ومطاردة في الداخل والخارج.

*****

السياسة الهندية الجديدة ضد المسلمين

عبد الرحمن فهيم(*)

مقدمة:

شهد المسلمون في الهند منذ الانفصال التاريخي بين الهند وباكستان عام ١٩٤٧ -الذي كان أحد نواتج سياسات الاحتلال الإنجليزي تجاه سكَّان شبه القارة الهندية- العديد من الاعتداءات والمذابح والصراعات مع المتطرِّفين الهندوس، وعزَّز هذا الانفصال جذور عقدة الطائفية بين الهندوس والمسلمين والريبة في ولاء المسلمين الباقين في الهند لدولتهم، وبرزت مشكلات رئيسية بالنسبة للمسلمين في الهند وعلاقتهم بالدولة وبأصحاب دين الأغلبية، وأدَّى عدم حلِّ المشكلة لتفاقمها، كما شرعت العديد من حكومات الولايات التي يحكمها متطرِّفون هندوس في استهداف المسلمين سياسيًّا وثقافيًّا ودينيًّا، وإصدار قوانين وسياسات تضيِّق الخناق على الوجود الإسلامي فيها.

ومع الصعود المتنامي لحركة "الصحوة الهندوسية" التي ربطت نفسها خلال النضال ضدَّ المستعمر البريطاني بالحركة القومية الأوروبية المتطرِّفة في الثلاثينيات كالفاشية والنازية، والتي مثَّلَتْها حركة المتطوِّعين الوطنيِّين الدينية المتطرِّفة أو "Rahtriya Swayamsevak Sangh" (راشتريا سوايامسيفاك سانغ) المعروفة اختصارًا باسم (RSS) التي تمَّ تأسيسها عام ١٩٢٥، وهي حركة اجتماعية وسياسية يمينية هندوسية تعتبر المسلمين هم التهديد الأكبر لها بشكلٍ خاص، كما قام متطرِّف من تلك المنظمة باغتيال "المهاتما غاندي" عام ١٩٤٨؛ معتقدًا أن غاندي كان يقدِّم الكثير من المساعدة لباكستان، وكان هذا أول عمل إجرامي هندوسي متطرِّف في الهند المستقلَّة. ويسعى المتطرِّفون الهندوس إلى استعادة الهند للهندوس وله نزعة طائفية انتقامية متنامية[١]. وقد كوَّنت حركة (RSS) حزبًا سياسيًّا لها عام ١٩٨٠ وهو حزب الشعب الهندي المعروف باسم "بهاراتيا جاناتا" "حزب الشعب الهندوسي" (BJP)، وبرز نشاط الحركة في النظام الهندي من ١٩٩٦-١٩٩٨ فصاعدًا، بعد تقدُّم نسبي لحزبها في الانتخابات، ووصل نفوذُها في الداخل لذروته مع فوز الحزب بـ٥٢ بالمئة من مقاعد البرلمان وتقلُّده السلطة بقيادة "نيريندرا مودي" الزعيم الهندوسي المتطرف؛ الذي برز في السبعينيات كناشط في حركة (RSS)، وانتقل عام ١٩٨٨ إلى حزب الشعب الهندوسي المتطرِّف، وانتُخب أمينًا عامًّا له عام ١٩٩٨ في ولاية غوجارات. وفي عام ٢٠٠١ انتُخب رئيسًا للولاية، بعدها بعام وقت أحداث شغب بين الهندوس والمسلمين في ولاية غوجارات، راح ضحيته أكثر من ألف شخص أغلبهم من المسلمين، وانتُقد فيها مودي لعدم القيام بما يكفي لوقف تلك الأحداث، وفاز مودي وحزبه اليميني عام ٢٠١٤ بأكبر نسبة تصويت لمرشَّح في العالم؛ ليزيح حزب المؤتمر الوطني الذي حكم الهند لـ٦٧ عامًا ثم أُعيد انتخابه بفوز تحالفه الحاكم بـ٤٥٪[٢]، لتتصاعد معه سياسات الحكومة الهندية التي تستهدف الوجود الإسلامي فيها، فضلًا عن الحملات الشعبوية العنيفة لمتطرفين هندوس ضد المسلمين على المستوى الشعبي، ومع دخول الهند ضمن الدول التي طالتها الأزمة الوبائية العالمية لجائحة كوفيد ١٩؛ ظهرت تحديات جديدة أمام مسلمي الهند نتاج سياسات

(*) باحث علوم سياسية.

(١) ماجدة إبراهيم عامر، الخطاب الرسمي تجاه الإسلام والمسلمين في مثلث "موسكو-بيكين-دلهي"،(في): د.نادية مصطفى (إشراف عام)، أمتي في العالم، الكتاب الخامس عشر (الجديد في حالة الإسلام والمسلمين في العالم ٢٠١٠-٢٠٢٠.. ما بعد الإسلاموفوبيا)، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، دار البشير للثقافة والعلوم، ٢٠٢١)، ص ١٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣١، ١٣٣.

حكومة مودي التي جعلتهم ككبش فداء لأزمة الهند الوبائية، كل ذلك في ظلِّ تباين في ردود الأفعال العربية والإسلامية وسط تساؤلات حول جهود الدول العربية والإسلامية تجاه أزمة مسلمي الهند وتوظيف نُفوذهم في الحدِّ منها.

وتستعرض هذا الورقة تلك السياسات وجديدها وتداعياتها، من خلال: الوقوف على سياسات حكومة مودي تجاه المسلمين ومظاهر تلك السياسات والتحديات الجديدة التي يواجهها المسلمون في الهند في ظل حكومة مودي الطائفية ما بعد جائحة كوفيد ١٩؛ **أولًا**، ثم بحث أدوات المسلمين لمواجهة ذلك وأدوات الدعم والاستجابات العربية والإسلامية لهم وكيفية تفعيلها؛ **ثانيًا**.

أولًا – سياسات حكومة مودي تجاه المسلمين

تعتمد سياسات الحزب الحاكم على تغذية الخطابات الشعبوية والمتطرِّفة للهندوس وإعادة توظيفها كأداة ضغط تظهر شعبية القرارات التي تتَّخذها، وكثيرًا ما تترك مساحة للفعل الشعبي العنيف والمتطرِّف لتنفيذ أهدافها وتكتفي بالمراقبة السلبية دون القيام بدورها الطبيعي في منع الجرائم بحق المسلمين، والأسوء من ذلك أن بعض الولايات والدوائر الشرطية والقضائية تتحوَّل لجلاد للضحية أو أداة لإفلات المجرمين من العدالة. وترتكز تلك السياسات على مجموعة من الأهداف والآليات لإنفاذ العقيدة "الهندوتفا"، منها:

- إنهاء الهوية النهروية (نسبة لنهرو ثم غاندي) وعلمانية الهند رسميًّا وشعبيًّا في الخطاب والممارسة، وتعزيز هيمنة الأيديولوجيا الهندوتفا على المجتمع الهندوسي وعلى المجال العام والخاص بالهند.
- توظيف السياسات العنصرية وتغذية الخطابات الشعبوية المتطرِّفة لضمان بقاء حكومة مودي في السلطة من جهة، والحفاظ على الدعم الشعبي والمجتمعي لقرارتها من جهة أخرى.
- ترسيخ سلبية وعنصرية الدوائر التنفيذية الدنيا والمتوسطة في الشرطة والقضاء وحكومات الولايات تجاه الجرائم المرتكبة بحقِّ الأقليات الإسلامية، وأحيانًا تتحوَّل لجلاد للضحية.
- توظيف الحراك الشعبي الطائفي الهندوسي في إنْفاذ سياستها؛ لتمثِّل مهربًا للسلطة الرسمية من المسألة القانونية ومن الضغوط الخارجية من قبل الدول الغربية والمنظمات الحقوقية ومنظمات المجتمع المدني، ولتقديم الجرائم بحق المسلين على أنها أحداث عنف وشغب، لا على أنها جرائم عنف طائفي وإبادة جماعية بحقِّ المسلمين.
- ممارسة الإسلاموفوبيا على مختلف المستويات من أعلى هرم السلطة وصولًا ومرورًا بالمؤسسات والتنظيمات والعصابات المتطرِّفة والأحزاب، مع برجماتية الخطاب الرسمي أحيانًا وتناقضه مع الواقع الفعلي لممارسات وسياسات حكومة مودي، خاصة أمام المجتمع الدولي وبدا ذلك من تناقض التصريحات الرسمية حول أزمة محاولة الإساءة للنبي صلى الله عليه وسلم مع حملة الكراهية والإسلاموفوبيا التي يشعلها حزب مودي.

ويمكن رصد تلك السياسات وجديدها من خلال العناصر التالية:

(١) استهدف الهوية الثقافية للمسلمين

تبنَّت السلطات الهندية العديد من الإجراءات الهادفة إلى محو هوية المسلمين في البلاد؛ بغرض دمجهم قسْريًّا وتذويبهم في المجتمع الهندوسي. من بين هذه الإجراءات: حظر الكتب الإسلامية وتقليص المعاهد والمدارس والجامعات الخاصة بالمسلمين، فضلًا عن ملاحقة الدعاة المسلمين المؤثِّرين من أمثال الدكتور ذاكر نايك. وفي بعض الأحيان يتم حظر الطقوس الإسلامية فقد حظرت إحدى القرى الهندية (قرية تبتولي بولاية هاريانا) ممارسة الشعائر الإسلامية من إطلاق اللحى وأداء الصلاة وغيرها. كما تندلع من حين لآخر المشكلات بسبب الأحكام القضائية التي تخصُّ المسلمين ولم يتمَّ فيها الرجوع إلى

الشريعة الإسلامية. فقد أبلغت الحكومة الهندية في أكتوبر ٢٠١٦ المحكمة العليا أن الطلاق الثلاثي في الإسلام غير دستوري ويتنافى مع مبدأ المساواة بين الجنسين، وذلك رغم أن هذه المسألة تقع في صلب قانون الأحوال الشخصية للمسلمين. وفي أغسطس ٢٠١٧؛ جرَّمت المحكمة الطلاق الثلاثي ومَرَّرَ البرلمان الهندي في يوليو ٢٠١٩ قانونًا يتضمَّن هذا الحكم؛ ما اعتبرته رموز إسلامية اعتداءً على الهوية الإسلامية من جانب حزب بهاراتيا جاناتا[٣].

كما صدر قرار من كلية في ولاية كرناتاكا الجنوبية التي يهيمن عليها حزب "بهاراتيا جاناتا"، بالإضافة إلى إصدار مرسوم يمنع تلميذات الثانويات الحكومية من ارتداء الحجاب في مطلع يناير ٢٠٢٠، والذي سرعان ما اعتمدتْه مؤسسات تعليمية أخرى في الولاية، وفي تقرير لوكالة "فرانس برس"، فإنه في مدينة هندي كجورجان التابعة للعاصمة نيودلهي، يعيش أكثر من نصف مليون مسلم، لكنها لا تتوفَّر إلا على ١٥ مسجدًا فقط، ما يفرض على العديد منهم الصلاة في الشارع، وهو الأمر الذي أصبح يُعَرِّضهم لخطر كبير، بسبب الهندوس المتطرِّفين والمسؤولين أيضًا[٤].

(٢) إلغاء الوضع الخاص لإقليم كشمير

أقدمت حكومة مودي في أغسطس ٢٠١٩ علي إلغاء الوضع الخاص لإقليم جامو وكشمير، وإلغاء المادة ٣٧٠ من الدستور الهندي، وترتب على الإجراء أيضًا إلغاء مادة دستورية أخرى بشكلٍ تلقائي كانت تحظر شراء الأجانب أو عملهم بالولاية؛ بما آثار المخاوف حول إمكانية تغيير التركيبة السكانية للإقليم لتغيير هويته الإسلامية، وتقسيمه إلى منطقتين منفصلتين تُحكمان من قبل الحكومة المركزية. كما تحاول الهند هندسة أغلبية هندوسية في إقليم كشمير المسلم من خلال برنامج ترسيم الحدود وتقسيم الدوائر الانتخابية للمنطقة شبه المستقلة السابقة إلى عدَّة وحدات انتخابية جديدة بطريقة من المرجَّح أن تُعطي ثقلًا عدديًّا للمنطقة الجنوبية من جامو، حيث يوجد تركيز أكبر للناخبين الهندوس، هذه التغيرات الديموغرافية، بحسب تقرير لـ"فورين بوليسي"، عندما تقترن بإعادة تشكيل ذكية للدوائر الانتخابية؛ ستسمح للسياسيِّين الهندوس القوميين بتحقيق هدفهم القديم المتمثِّل في تنصيب رئيس وزراء هندوسي في كشمير[٥]. كما فرضت حكومة مودي قانونًا جديدًا على المسلمين في كشمير، من شأنه أن يجعل كل حياتهم مراقبة، وذلك من خلال إجبار أصحاب المحال على تجهيز متاجرهم بكاميرات متطوِّرة، وعلى تكلفتهم الخاصة[٦].

(٣) تعزيز الشعبوية المتطرفة والإسلاموفوبيا في الخطاب الهندي الرسمي وغير الرسمي

منذ تولِّي حزب بهاراتيا جاناتا الحكم انتشر خطاب هندوسي غير رسمي ثقافي وشعبي يعمل على غرْس وتضخيم كراهية الآخر الديني خاصة المسلمين ومناهضًا للإسلام والمسلمين يزكّي الإسلاموفوبيا في عقلية عموم الهندوس، ثم انتقل ذلك الخطاب غير الرسمي إلى الدوائر العليا من الحزب:

ففي عام ٢٠١٥، أثارت سادفي ديفا ثاكور، التي كانت عضوًا بارزةً آنذاك في الحزب، موجة جدلٍ واسعة عندما أبلغت الصحفيين بأن المسلمين والمسيحيين يجب أن يخضعوا

(٣) أحمد شوقي، سياسات الإسلاموفوبيا في ميانمار والصين والهند: المستجدات والدلالات، (في): د.نادية مصطفى (إشراف عام)، أمتي في العالم، الكتاب الخامس عشر (الجديد في حالة الإسلام والمسلمين في العالم ٢٠١٠-٢٠٢٠.. ما بعد الإسلاموفوبيا)، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، دار البشير للثقافة والعلوم، ٢٠٢١)، ص ٣٠٧.

(٤) مسلمو الهند مطاردون في صلواتهم... مسؤولون هددوهم بالعقاب حال الجهر بالعبادة، فلجأوا إلى بيوتهم، عربي بوست، ٢٤ ديسمبر ٢٠٢١، تاريخ الدخول: ٧ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3mrbxsF

(٥) عبر إعادة تقسيم الدوائر الانتخابية... هكذا تحاول الهند هندسة أغلبية هندوسية في إقليم كشمير المسلم، عربي بوست، ١٣ أغسطس ٢٠٢١، تاريخ الدخول: ٢٠ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/39bPO59

(٦) سنراقبكم وعلى نفقتكم! الهند تحوِّل كشمير لإقليم خاضع للمراقبة وتفرض على المسلمين وضع كاميرات، عربي بوست، ٢٠ مايو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ٣ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3MmWwTh

لعمليات تعقيم للسيطرة على نموّهم السكاني. وفي مؤتمر الحزب، طالب كثير من المتحدِّثين من هندوس الهند بـ"الدفاع" عن الدين بالأسلحة. فيما طالب متحدِّث آخر بـ"تطهير" الهند من الأقليات.

وعلى إثر اندلاع مظاهرات منددِّة بقانون الجنسية العنصري بدأت أعمال عنف ضد المسلمين بعد تصريح أدلى به مسؤول في الحزب الحاكم يدعي "كابيل ميشرا" في تجمُّع شعبي هندوسي طالب فيه الشرطة بالتدخُّل لإخلاء الشوارع من المتظاهرين ضد قانون الجنسية وإلا فإنه وأنصاره سيقومون بالمهمَّة؛ وبعد ساعات من تصريحه بدأ أنصاره في مهاجمة المتظاهرين، وبعد أيام بدءوا في حرق بيوت ومتاجر المسلمين ومساجدهم وقُتل من المسلمين ٥٠ شخصًا. وتطوَّر الأمر لحدِّ إساءة أحد المسؤولين الحكوميّين في مدينة (بنجالورو) الهندية -عبر الفيس بوك- لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم في ١٢ أغسطس ٢٠٢٠؛ مما أثار المسلمين فانتفضوا تظاهرًا وسقط منهم جرحي وقتلى على يد الشرطة[٧]. ومع أن الحملات التي ينظِّمها الحزب والأفكار التي يتبنَّاها ليست بالشيء الجديد، فقد صاروا أكثر جرْأةً الآن بشأن الإعلان عنها[٨].

وكان آخرها في ٥ يونيو ٢٠٢٢، عندما صرَّحت المتحدِّثة الرسمية للحزب "نوبور شارما" في شهر مايو الماضي خلال مناظرة تلفزيونية -من مواضيعها النقاش حول بناء مسجد في شمال شرق الهند في موقع ضريح هندوسي سابق- فإن شارما تساءلتْ إن كان بإمكانها الاستهزاء ببعض أجزاء من القرآن، وذكرت بالخصوص "الخيول الطائرة" في إشارتها لما يُعرف عند المسلمين بـ"البراق"، وكان نافين جيندال وشارما قد نشرا تدوينات مثيرة للجدل بشأن زواج النبي محمد بالسيدة عائشة، ما أثار غضبًا وانتقادات واسعة بين روَّاد مواقع التواصل الاجتماعي، خاصة في الدول العربية، وبرَّرت شارما على "تويتر" تعليقاتها، بأنها جاءت ردًّا على "الإهانات" الموجهة ضد الإله الهندوسي "شيفا"[٩].

(٤) الحرمان من العدالة

تعدَّدت أوجه غياب العدالة بالنسبة للمسلمين في الهند على نحوٍ يزيد من معدَّل فقدان الثقة في مؤسسات الدولة الهندية؛ حيث خلص تقرير صدر عام ٢٠١٩ عن منظمة غير حكومية تدعى Common Cause إلى أن نصف أفراد الشرطة أظهروا تحيزًا ضدَّ المسلمين، ممَّا يجعلهم أقلَّ عُرضة للتدخُّل لوقف الجرائم ضدَّ المسلمين. ولاحظ المحلِّلون انتشارَ الإفلات من العقاب لمن يهاجمون المسلمين في السنوات الأخيرة. ومن جانب آخر، ألْغت المحاكم والهيئات الحكومية أحيانًا الإدانات أو سحبت القضايا التي اتَّهمت الهندوس بالتورُّط في أعمال عنف ضدَّ المسلمين[١٠].

(٥) تواطؤ السلطات الهندية ضد المسلمين

تجلَّى هذا التواطؤ في عدم محاسبة المتورِّطين في جرائم ضدَّ المسلمين، على نحوٍ كشف عدم اكتراث الحكومة بالتعصُّب القومي الهندوسي وجرائمه، وهو ما شجَّع قادةَ المليشيات والمسؤولين للاعتراف أمام الكاميرات بتورُّطهم في جرائم القتل والقيام بعمليات أخرى ضدَّ المسلمين، وكان تصرُّف الأجهزة التنفيذية للدولة متحيِّزًا للهندوس ومتواطئًا معهم في الاعتداء، وغضَّت طرفها عن وحشيَّتهم تجاه المسلمين، ومنها على سبيل المثال هجوم مليشيات هندوسية على متظاهري منطقة

(٧) ماجدة إبراهيم عامر، الخطاب الرسمي تجاه الإسلام والمسلمين في مثلث "موسكو-بيكين-دلهي"، مرجع سابق، ص ١٣٧.

(٨) دعوات لإبادتهم دون تحرُّك من جانب الحكومة.. ماذا يريد الهندوسي مودي وتياره الحاكم من المسلمين؟، عربي بوست، ١٩ يناير ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ٤ يونيو ٢٠٢٢، الساعة: ١١:٠٤، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3MlU3bU

(٩) إسماعيل عزام، الهند والعالم الإسلامي... مخاوف من تصعيد يضر بالمصالح المتبادلة، دويتش فيله، ٧ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٤ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/39zAmzU

(10) Lindsay Maizland, India's Muslims: An Increasingly Marginalized Population, Council on Forigen Relations, 20 August 2020, Accessed: 6 June 2022, 13:17, available at: https://on.cfr.org/3xu4lBx

مصطفى أباد في دلهي على بعد أمتار من مقرّ الشرطة والتي لم تتحرَّك رغم استغاثات المسلمين، بل إن الشرطة شارك العشرات من أفرادها في الهجوم على أحياء المسلمين(١١).

ونشرت صحيفة The New York Times الأمريكية تقريرًا بعنوان "صمتٌ من قادة الهند إزاء دعوات متطرّفين هندوس لقتل المسلمين"، رصَد قيام المئات من النشطاء والرهبان الهندوس اليمينيّين في مؤتمرٍ عُقِدَ الأسبوع الأخير من عام ٢٠٢١ ليقسموا على أن يحوّلوا الهند، الجمهورية العلمانية دستوريًّا، إلى أمةٍ هندوسية، حتى لو تطلَّب ذلك الموت والقتل. ورصد تقرير الشبكة ما حدث في المؤتمر، حيث قالت بوجا شكون باندي، العضو البارزة في حزب هندو ماهاسابها اليميني المتطرف: "إذا صار ١٠٠ منا جنودًا وكانوا متأهّبين لقتل مليوني (مسلم)، فسوف ننتصر... ونحمي الهند، ونصنع أمةً هندوسية"، ولم تخضع هي أو أي من المسؤولين الآخرين للتحقيق والاعتقال.

اللافت هنا أن الهند تحظر الخطاب الداعي إلى الكراهية بموجب عديد من المواد في القانون الجنائي لديها، بما في ذلك مادة تجرِّم "الأفعال الخبيثة والمتعمَّدة" التي تستهدف إهانةَ المعتقدات الدينية. وقالت منظمة هيومن رايتس ووتش إن كثيرًا من جرائم القتل المزعومة مرَّت دون عقاب، ويُعزى هذا جزئيًّا إلى تأجيل تحقيقات الشرطة وإلى "الخطابات" الصادرة عن ساسة الحزب الحاكم، التي ربما تسبَّبت في إثارة العنف بين صفوف الجمهور(١٢).

وفي ١١ أبريل ٢٠٢٢، تم فرض حظر تجول في مدينة خرغون في ماديا براديش بعد رفع شعارات استفزازية بالقرب من مسجد خلال احتفالات رام نافامي، ممَّا أدَّى إلى أعمال شغب ورشْق الحجارة والعنف. ردًّا على ذلك، قال رئيس وزراء الولاية شيفراج سينغ تشوهان لوسائل الإعلام إنه تمَّ التعرُّف على مثيري الشغب، وقال إن الإجراءات المتَّخذة ضدهم "لن تقتصر فقط على الاعتقالات، بل سيتم استرداد الأضرار من ممتلكاتهم الخاصة أو العامة"، بعد أقل من ٢٤ ساعة، هدمت السلطات المحلية ممتلكات ومنازل أولئك الذين يُزعم تورُّطهم في أعمال العنف، ومعظمهم ينحدرون من أسر مسلمة محرومة اقتصاديًّا(١٣).

(٦) التعتيم الإعلامي على الجرائم ضد المسلمين

ترافق مع تلك الانتهاكات التي يتعرَّض لها المسلمون في الهند؛ حالةٌ من التعتيم الإعلامي على الجرائم بحقِّ المسلمين منعًا لإثارة القضية في المنتديات الدولية على نحوٍ كان من شأنه أن يعزّز الانتقادات للسياسات الهندية ويدفعها للتخفيف من وطأة الاضطهاد بحق المسلمين؛ فعند النظر لحرية الإعلام، تحتلُّ الهند الآن المرتبة الثالثة عالميًّا في عمليات إغلاق الإنترنت، متراجعة عن المركز الأول، وفقًا لتقرير صدر من قبل شركة أبحاث الخصوصية والأمن Top10VPN ومقرها المملكة المتحدة. ومنذ عام ٢٠١٩، عندما أخضعت حكومة مودي ولاية كشمير ذات الأغلبية المسلمة في البلاد للسيطرة الفيدرالية، واجه ما لا يقل عن ٣٥ صحفيًّا هناك استجوابًا من الشرطة أو مداهمات أو تهديدات أو اعتداءات جسدية أو قضايا جنائية ملفَّقة بسبب تقاريرهم، حسبما أفادت هيومن رايتس ووتش(١٤).

كما تمَّ استهدافُ الصحفية "رنا أيوب" بسيلٍ من التخويف والإساءات، سواء كان ذلك عبر الإنترنت أو في الواقع؛ وذلك إثر نشرها تحقيقًا على هيئة كتاب بعنوان "ملفات كُجَرات: تشريح التستُّر على جريمة"، وهو تحقيق نتجَ عنه القبض على "أميت

(١١) ماجدة إبراهيم عامر، الخطاب الرسمي تجاه الإسلام والمسلمين في مثلث "موسكو-بيكين-دلهي"، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(١٢) دعوات لإبادتهم دون تحرُّك من جانب الحكومة.. ماذا يريد الهندوسي مودي وتياره الحاكم من المسلمين؟، عربي بوست، مرجع سابق.

(13) India: Authorities must stop apparent unlawful demolitions of largely Muslim-owned property, Amnesty International India, 14 April 2022, Accessed: 6 June 2022, 11:00, available at: https://bit.ly/3xnIk8C

(14) Ruth Pollard, Anti-Muslim Hatred Is Shaping India's Elections, Bloomberg, 2 March 2022, Accessed: 6 June 2022, 11:40, available at: https://bloom.bg/3NpvAnq

شاه"، وزير داخلية حكومة كُجَرات والمستشار المقرَّب لمودي، على خلفية صلته بمقتل مسلم على يد شرطة الولاية (وأُسقِطت التهم في النهاية، ويشغل "شاه" الآن منصب وزير داخلية الهند). وفي عام ٢٠١٨، استُهدفت رنا باستخدام تقنية "التزييف العميق"، حيث ظهرت شبيهتها المُزيَّفة في فيديو إباحي، ولاقى الفيديو المُزيَّف انتشارًا واسعًا حتى بين أعضاء حزب "بهارتيا جاناتا" الحاكم. وبعد مدَّة وجيزة، نشر أحدهم رقم هاتف رنا أيوب وعنوانها على الإنترنت[١٥].

(٧) ملاحقة المنظمات الحقوقية المدافعة عن ضحايا الإسلاموفوبيا

رفعت السلطات الهندية في عهد مودي سلاحَ التخوين في وجه نشطاء ومنظمات حقوق الإنسان المطالبين بتحقيق العدالة بحق ضحايا العنف الطائفي بولاية "جواجارات" واصفة إياهم بالمناهضين للوطن، كما استخدمت وسائل الإعلام خطابًا قوميًّا متطرِّفًا ضدهم ووجَّهت اتهامات مالية ضدَّ هؤلاء الناشطين كما ألْغت تراخيص المنظمات التي ينشطون في ضوئها بسبب السعي للتحقيق وتوجيه الاتهامات الجنائية ضد عدد من المسؤولين في مقدِّمته رئيس الوزراء الهندي بسبب أعمال العنف في جواجارات حيث كان رئيس وزراء الولاية آنذاك. وفي أكتوبر ٢٠١٩؛ رفعت الشرطة دعوى ضدَّ ٤٩ شخصية بينهم فنانون سينمائيون بعد توجيههم رسالة لرئيس الوزراء مودي للتحذير من موجات العنف الطائفي التي تستهدف الأقليات؛ غير أن القضية أُغلقت في غضون أيام بعد إدانات واسعة[١٦]، كما حذَّرت شبكة حقوق الإنسان في جنوب آسيا أن التضييق على المجتمع المدني والمعارضة في الهند قد جعل البلاد مكانًا خطيرًا على الأقلية المسلمة[١٧]. وتعرَّضت وسائل الإعلام والمنظمات الحقوقية نفسها للقمع حتى لم يعدْ لمنظمة هيومن رايتس ووتش أو العفو الدولية مثلًا مكاتب داخل البلاد، وأصبح قطع الإنترنت أثناء الاحتجاجات شيئًا معتادًا[١٨].

(٨) حملة تشويه لنجوم بوليوود المسلمين والليبراليين

نشرت مجلة Foreign Policy الأمريكية تقريرًا عنوانه "حملة هجوم متزايدة يشنُّها ناريندرا مودي ضد بوليوود"، رصد إلقاء القبض على نجل النجم الهندي الشهير شاه روخ خان (شاروخان) بتهمة تعاطي المخدرات في إحدى الحفلات، وما تعرَّضت له نجمة أخرى في إطار ما تقوم به الحكومة الهندوسية المتطرِّفة بحقِّ الأقلية المسلمة. يدافع أنصار حكومة مودي القومية الهندوسية عن هذا الاعتقال باعتباره إجراءً قانونيًّا، زاعمين أنَّه يكشف مدى الفساد والانحلال في عالم صناعة السينما الهندية "بوليوود". في المقابل، يؤكِّد ليبراليون في الهند أنها خطوة متعمَّدة تهدف إلى تشويه صورة النجم المحبوب المسلم لإرضاء اليمين الهندوسي. وكان شاروخان قد صرَّح لقناة "NDTV" الإخبارية المحلية: "كيف تُمثِّل العادات الغذائية لمجموعة من الناس مشكلة بالنسبة لأناس آخرين؟"، مضيفًا أنَّ "التعصُّب الديني والقضاء على العلمانية في هذه الدولة هو أسوأ أنواع الجرائم التي يمكن لأي وطني ارتكابها". يتَّضح من هذا أن هذه الحملة المتزايدة ضدَّ نجوم بوليوود جزءٌ من نهجٍ أوسع نطاقًا، إذ ألْمحت أقليات وأفراد ليبراليون في جميع القطاعات المؤثِّرة في المجتمع إلى أنَّهم يتعرَّضون لضغوط لقبول الأفكار التمييزية لليمين الهندوسي بشأن ما يجب أن تكون عليه الهند[١٩].

---

(١٥) ياسمين سرحان، الهند...كيف تنهار أكبر ديمقراطية في العالم؟، ترجمة: هدير عبد العظيم، ميدان، ٢٥ ديسمبر ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٥ يونيو ٢٠٢٢، الساعة: ٢١:٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3NV84OT

(١٦) أحمد شوقي، سياسات الإسلاموفوبيا في ميانمار والصين والهند: المستجدات والدلالات، مرجع سابق، ص ٣١٢.

(١٧) دعوات لإبادتهم دون تحرُّك من جانب الحكومة... ماذا يريد الهندوسي مودي وتياره الحاكم من المسلمين؟، عربي بوست، مرجع سابق.

(١٨) إسلام المنسي، كيف سيطر اليمين المتطرف على الهند؟، إضاءات، ١٨ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ٤ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3mpZ9ZW

(١٩) حتى "الملك شاروخان" لم يسلم منها.. خطة للحكومة الهندية لتشويه سمعة نجوم بوليوود المسلمين، عربي بوست، ٢ يناير ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع:

(٩) مكافحة "جهاد الحب" أو الزواج بين المسلمين والهندوس

سَنَّتْ حكوماتُ الولايات التي يقودها حزب بهاراتيا جاناتا في أوتار براديش وجوجارات وماديا براديش قوانين مناهضة لتغيير الديانة منذ عام ٢٠٢١، لتضييق الخناق على الزواج العابر للأديان وجعل التحوُّل الديني القسْري عن طريق الزواج جريمة جنائية واستهدفت بشكلٍ أساسيٍّ الرجال المسلمين الذين يحاولون الزواج من هندوسيات؛ حيث أصبحت الزيجات بين النساء الهندوس والرجال المسلمين بؤرةً سياسيةً خطيرة بسبب نظرية مؤامرةٍ منتشرة تُعرف باسم "جهاد الحب"، زعم أولئك الذين يؤمنون بهذه النظرية أن الرجال المسلمين يُغْرُون النساء الهندوسيات بالزواج بدعوى كاذبة، من أجل تحويلهنَّ إلى الإسلام وضمان هيمنة المسلمين على الهندوس في الهند. لكن وفقًا لوكالة التحقيق الوطنية الهندية لا يوجد دليلٌ على "جهاد الحب"، ولا ينعكس ذلك في بيانات السكَّان في الهند، حيث لا يزال الهندوس يشكِّلون حوالي ٨٠٪ والمسلمون ١٤٪.

وفي حين أن هذا التشريع يشمل جميع الأديان، فقد استُخدِمَ في الغالب على مدار العام الماضي لاستهداف الأقليات الإسلامية، بالإضافة إلى تشجيع الجماعات الهندوسية اليمينية الأهلية لوقف الزواج العابر للأديان. وفي ولاية أوتار براديش، تعرَّض الرجالُ المسلمون الذين حاولوا الزواج من نساءٍ هندوسيات لهجماتٍ عنيفة، وأُجبِروا على الاختباء أو زُجَّ بهم في السجن، حيث تمَّ اعتقال ٢٠٨ أشخاص بين نوفمبر ٢٠٢٠، وأغسطس ٢٠٢١، ولم يُدَنْ أيٌّ منهم حتى الآن[٢٠].

(١٠) الاستبعاد والإقصاء السياسي

توازى مع تبنِّي نهج متتابع لإحكام الخناق الاقتصادي على المسلمين، عدم السماح لهم بالتطوُّر من خلال استبعادهم من جميع المناصب العليا في الدولة سواء على صعيد المؤسسة العسكرية أو الأمنية أو القضائية، فضلًا عن مؤسسات التشريع والتنفيذ الأخرى، وعلى سبيل المثال بنهاية العقد الأول من الألفية الثالثة لم يكن في مجلس النواب سوى ٣٦ نائبًا مسلمًا من العدد الإجمالي البالغ ٥٤٣ نائبًا[٢١]، وفي مساع لـ«تطهير» البرلمان من المسلمين يتوقَّع أن ينخفض عدد المسلمين في البرلمان إلى أدنى مستوياته في تاريخ الهند، بسبب هيمنة حزب «بهاراتيا جاناتا» ومناهضته لترشيح المسلمين. ففي أوتار براديش، أكبر ولايات الهند ويبلغ عدد سكَّانها ٤٣ مليون مسلم، لم يُنْتَخَب مرشَّح مسلم واحد للبرلمان الهندي[٢٢].

(١١) سياسات الإفقار والحصار الاقتصادي

تشهد مناطق المسلمين -كغيرها من مناطق القبائل المهمَّشة- سياسيات لإنتاج الفقر تؤدِّي لاستمرار حالة الضعف التي تواجهها المجتمعات المسلمة؛ فبسبب حالة العوز في تلك المناطق وضعف الدعم الحكومي للعملية التعليمية بها سرعان ما يترك الأطفال المسلمين المدارس ويتَّجهون للاندماج في سوق العمل بحثًا عن تدبير المعايش، على نحوٍ يؤدِّي إلى استمرار دائرة الأمِّية والفقر في هذه المجتمعات ومن ثم ضعف فعاليَّتها ومشاركتها في الحياة العامة.

أظهر تحليل عام ٢٠١٩ أن نسبة الشباب الملتحقين بالمؤسسات التعليمية كانت الأقلَّ بين المسلمين. وتمَّ تسجيل ٣٩٪ فقط من المسلمين في الفئة العمرية ١٥-٢٤ مقابل ٥٩٪ للطبقات العُليا الهندوسية. كانت نسبة الشباب الذين أكْملوا تخرُّجهم بين المسلمين في (٢٠١٧-٢٠١٨) ١٤٪ مقارنة بـ٣٧٪

---

٥ يونيو ٢٠٢٢، الساعة: ١١:١٤، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/395CEqu

(٢٠) زواج مسلم من هندوسية يعني قتله... قصة مؤامرة "جهاد الحب" التي يروج لها المتطرفون في الهند، عربي بوست، ٢٣ يناير ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ٥ يونيو ٢٠٢٢، الساعة: ٢٠:٠٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3GR3T4v

(٢١) أحمد شوقي، سياسات الإسلاموفوبيا في ميانمار والصين والهند: المستجدات والدلالات، مرجع سابق، ص ٣٠٧.

(٢٢) ماذا يعني أن تكون مسلمًا في الهند التي يحكمها مودي؟، ساسة بوست، ٣ يونيو ٢٠١٩، تاريخ الدخول: ١ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3MnhIZx

للطبقات العُليا الهندوسية. وكان أداء الشباب المسلم في قلب الهند -حيث يهيمن حزب بهاراتيا جاناتا – الأسوأ، وكان التحصيل التعليمي هو الأدنى في ولاية هاريانا بنسبة ٣٪ في (٢٠١٧-٢٠١٨) و١١٪ في ولاية أوتار براديش. وهو أكثر صعوبة بالنسبة للنساء، فوفقًا لليونسكو؛ يبلغ معدل معرفة القراءة والكتابة لدى النساء في الهند ٦٢,٨٪، لكن نسبة النساء المسلمات كانت حوالي ٥٢٪، وهي واحدة من أدنى المعدَّلات في الهند.

وخلال حملتها على إقليم جامو وكشمير يوليو ٢٠١٦ احتلَّت القوات شبه العسكرية العديدَ من المدارس لتحويلها إلى معسكرات؛ ما أدَّى إلى إغلاق المدارس وتوقُّف العملية التعليمية للأطفال. كما يتمُّ التمييز ضدَّ المسلمين في أماكن العمل بسبب معتقداتهم والتزامهم بشعائر دينهم. فعلى سبيل المثال، أُجبر العديد من عاملات المنازل والمراهنات اليومية والباعة على جانب الطريق على استخدام الأسماء المستعارة الهندوسية لكسب لقمة العيش، وإذا تمَّ اكتشاف ذلك، فسيواجهون الضرب العلني والتحقيق من الشرطة[٢٣]، بالإضافة إلى ذلك قاد الحزب الحاكم حملةً لمقاطعة المسلمين تجاريًّا، ومنعهم من ممارسة أي نشاط اقتصادي في مناطق عديدة، والضغط عليهم للتحوُّل إلى الهندوسية، وانتشرت حملات التهجير والسلب والنهب بشكل واسع، حتى إن حملة واحدة شنَّها المتطرِّفون في ٢٠٢٠ على منطقة أنديرا فيهار شمال نيودلهي أدَّت إلى وقوع عشرات القتلى وخسائر تزيد عن ٣٠ مليار دولار شملت منازل ومتاجر ومساجد[٢٤].

هذه ليست حالات منعزلة أو مقصورة على الاقتصاد غير الرسمي؛ فقد أظهر تحليل لمجموعة ET Intelligence Group قبل بضع سنوات أن المسلمين يمثلون ٢,٦٧٪ من المديرين وكبار المديرين التنفيذيين -٦٢ من بين ٢٣٢٤ مديرًا تنفيذيًّا- من بين شركات BSE 500. وكان المسلمون في الإدارة العليا لشركات BSE 100 أعلى قليلًا عند ٤,٦٠٪ -٢٧ من ٥٨٧- من إجمالي المديرين وكبار المديرين التنفيذيين، لكن حصَّتهم من المكافآت كانت ٢,٥٦ في المائة فقط. وعلى نفس المنوال، كانت نسبة المسلمين في الوظائف الحكومية أقلَّ من نصف نسبتهم من السكَّان[٢٥].

(١٢) سياسة "البولدوزر" تجاه بيوت المسلمين

يقصد بها استخدام "البولدوزرات" لهدم بيوت المسلمين ومتاجرهم حين يعارضون اقتحام غوغاء الهندوس أحياءهم رافعين شعارات السبِّ والإهانة للإسلام ورسول الإسلام والمسلمين، وبدأ استخدام "البولدوزرات" على نطاق واسع في أبريل ٢٠٢٢، حين حاولت مظاهرات هندوسية صاخبة دخول أحياء المسلمين في نحو ٢٠ مدينة عبر ١٠ ولايات هندية. وفي كل مكان حاول المسلمون صَدَّ هذه المظاهرات الاستفزازية وصلت "البولدوزرات" سريعًا لتهدم بيوتهم كما جرى في منطقة "جهانغيربوري" بالعاصمة الهندية في ٢٠ أبريل الماضي. ولم ينقذ "جهانغيربوري" إلا أمر مباشر من المحكمة العليا بوقف الهدم في تلك المنطقة بينما استمرَّ الهدم في مناطق أخرى، بما فيها عشرات من مناطق العاصمة الهندية نفسها في الأيام التالية[٢٦]. واستخدمت حكومات الولايات التابعة لحزب مودي "البولدوزرات" مرة أخرى في المناطق التي خرج مسلموها

(23) Ashraf Engineer, Muslims in India facing social, political & economic exclusion.. What's their future?, National Herald India, 4 April 2022, Accessed: 6 June 2022, available at: https://bit.ly/3GSohSR

(٢٤) إسلام المنسي، كيف سيطر اليمين المتطرف على الهند؟، مصدر سابق.

(25) Ashraf Engineer, Muslims in India facing social, political & economic exclusion.. What's their future?, Op. cit.

(٢٦) للمزيد، راجع:

- الهند تصعِّد انتهاكاتها بحق المسلمين... هدمت منازلهم ومحالهم التجارية شمالي دلهي، عربي بوست، ٢٢ أبريل ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٢ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3Nadgxr
- هدم بيوت المسلمين في الهند... تصعيد العنف يثير قلق الملايين هناك، عربي بوست، ١٨ مايو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٢ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/39zEQXx

يحتجُّون على الإساءة للنبي صلى الله عليه وسلم في عشرات من المدن الهندية، واعتقل آلاف المسلمين في أنحاء الهند، وهدمت بيوت من عدَّته السلطات من "قادة" المظاهرات كما في ولاية أوتار براديش حيث هدمت منزل الناشط ورجل الأعمال المسلم محمد جاويد، وكان ذلك بحجَّة أنها بنايات "غير مرخَّصة" رغم أن البيوت المستهدفة تقوم وسط آلاف البنايات "غير المرخَّصة"[٢٧].

وسبق للحكومة الهندية استخدام تلك السياسة لسنوات طويلة في كشمير من أجل هدم البيوت والبنايات التي يحتمي بها المسلحون الانفصاليون أو يطلقون منها النيران. كما استخدمت الحكومة "البولدوزر" لهدم بيوت من تسمِّيهم "المافيا"، في حين كان أغلبهم سياسيِّين مسلمين يعارضون سياسات حزب الشعب الهندي. ووصل بها الأمر إلى أن استخدمت "البولدوزرات" لهدم أجزاء من جامعة جوهر في مدينة رام بور التي بناها الزعيم المسلم والوزير السابق أعظم خان، الذي يُعَدُّ مناوئًا قويًّا لحزب الشعب الهندي. ودائمًا تتذرَّع الحكومة بأنها تتَّخذ إجراءات الهدْم ضدَّ "بنايات غير مرخَّصة"، رغم أن البنايات المستهدفة هي تقريبًا في كلِّ الأحوال للمسلمين المعارضين لسياسات الحكومة، وبناياتهم ليست البنايات غير المرخَّصة الوحيدة في المنطقة. وقال كبير وزراء ولاية دلهي كيجريوال إن ٧٠٪ من بنايات العاصمة الهندية "غير مرخَّصة" إلا أن الهدم لا يطال سوى بيوت المسلمين[٢٨].

(١٤) لوم المسلمين على جائحة كورونا

مع انتشار فيروس كورونا المستجد "كوفيد ١٩" في الهند، تصاعدت أعمال العنف والتمييز ضدَّ المسلمين على خلفية اتهامهم بالتسبُّب في نشْر الفيروس، من خلال تنظيم تجمُّع واسع في العاصمة دلهي. فقد أعلنت وزارة الصحة في الهند في أبريل ٢٠٢٠، أن ٣٠٪ من الإصابات بالفيروس في البلاد، مرتبطة بالاجتماع الذي عقدته جماعة التبليغ، في العاصمة دلهي، وحضر الاجتماع السنوي للجماعة الذي عُقد خلال الفترة من ١٣ إلى ١٥ مارس ٢٠٢٠ ما يقدَّر بنحو ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ شخص، في مقر الجماعة بمنطقة "نيزامودين" الغربية في دلهي. ومنذ ذلك الحين، تعرَّض أبناء الأقلية المسلمة لسلسلة من الهجمات من قبل متطرِّفين هندوس يتَّهمون المسلمين بـ"جهاد كورونا" وفي أعقاب التجمُّع أغلقت السلطات الهندية مقرَّات الجماعة وبدأت التحقيق في عدد حالات الإصابة بكورونا المرتبطة بأنشطتها، كما ألقت قوات الأمن القبض على زعيم الجماعة "مولانا سعد كاندهلوي"، ووجَّهت له اتهامات بانتهاك توجيهات الحكومة لمواجهة كورونا، والقتل غير العمد وتعريض حياة الآخرين للخطر[٢٩].

وعلى إثر تلك الحادثة والتصريحات انطلقتْ حملةُ شائعات تستهدف مسلمي الهند وتتَّهمهم بالتسبُّب في تفشِّي وباء كورونا وسارعت بعض القنوات الإخبارية والمسؤولين في الحكومة إلى لوْم المسلمين على ارتفاع عدد حالات الإصابة بفيروس كورونا حيث وصف مراسلون صحفيُّون أعضاء جماعة التبليغ بـ"القنابل البشرية"، في تغذية لنظرية المؤامرة التي تمَّ تبنِّيها على نطاقٍ واسعٍ بأنه "فيروس مسلم" وأن المسلمين في جميع أنحاء البلاد كانوا في مهمَّة "جهاد كورونا " لإصابة الأبرياء الهندوس.

---

(٢٧) للمزيد، راجع:

- "نحن الآن مشردون".. الجرافات الهندية تسحق حقوق المسلمين، فرانس ٢٤، ١٦ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٧ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3xGjBeA
- تعذيب وهدم منازل.. فيديوهات توثق اعتداءات الشرطة الهندية على مسلمين تظاهروا نصرة للرسول، الجزيرة نت، ١٢ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3zKQ85O

(٢٨) ظفر الإسلام خان، تحول الهند من أكبر ديمقراطية في العالم إلى جمهورية "البولدوزر"، الجزيرة نت، ١٦ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٧ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3QA1gbs

(٢٩) لوموند: على خلفية كورونا.. فيروس الكراهية والريبة تجاه المسلمين ينتشر في الهند، الجزيرة نت، ٢٣ أبريل ٢٠٢٠، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3zNxQAK

وخلال شهر مارس وأبريل ٢٠٢٠؛ قام فريق التحقيقات التابع لوكالة فرانس برس بـ"فضح" المئات من منشورات وسائل التواصل الاجتماعي التي استهدفت المسلمين فيما يتعلَّق بوباء الفيروس التاجي في الهند، ورصد انتشار مقاطع فيديو مزيَّفة ومريبة تزعم أنها لمسلمين يلعقون الثمار للبيع وينتهكون قواعد الإغلاق، كما استخدمت مئات الآلاف من المنشورات عبر الإنترنت علامة التصنيف CoronaJihad# (#كورونا_الجهاد)، والتي تم نشر بعضها من قبل أعضاء حزب باهاراتيا جاناتا (BJP) الحاكم[٣٠].

ومع تفشِّي المعلومات الخاطئة أصبح كوفيد ١٩؛ أداة جديد لنشر الكراهية تجاه المسلمين، وليتحول المسلمين إلى كبش فداء لتخبُّط وعجز حكومة مودي، وأنهم "ناشرون فائقون للفيروس التاجي" ليزداد العنف والغضب ضد المسلمين، وانتقل من العالم الافتراضي إلى العالم الحقيقي؛ أتْبَعَتْه مقاطعة الشركات الإسلامية ورفض المستشفيات لاستقبال المرضى المسلمين، وتم تهميشهم وباتوا لا يُستقبلون في الأسواق والصيدليات والمستشفيات. وسجَّلت أغلب أنحاء البلاد، اعتداءات على سائقي الشاحنات المسلمين والبدو الرُّحَّل. وأظهر مقطع فيديو على فيسبوك شابًّا مسلمًا ينزف ويتوسَّل وهو يُضرب بالعصي. وفي الفيديو الذي تمتلك الشرطة نسخة منه، يمكن سماع أحد المهاجمين يسأل الشاب المسلم قائلا: "من أرسلك لنشر الفيروس؟" كما اتخذ العداء أشكالًا أكثر جرأةً، حيث ظهرت ملصقات مكتوبًا عليها "لا للمسلمين" في بعض القرى. وقال مسؤول إحدى المستشفيات إن المسلمين لن يتمَّ قبولهم بدون شهادة تثبت أن نتائج فحوص كوفيد ١٩ سلبية لديهم، كما منع عدد من الحالات في بعض الولايات من دخول المستشفيات[٣١]. بل تُقسم الأجنحة التي تضمُّ الإصابات المؤكَّدة أو المشتبهة في كوفيد-١٩ داخل مستشفى أحمد أباد المدني في ولاية غوجارات تبعًا لمعتقد المريض الديني، وفقًا لتقرير أوردته صحيفة ذا إنديان إكسبرس، وقد أعربت اللجنة الأمريكية للحريات الدينية الدولية (USCIRF) التابعة للكونجرس الأمريكي عن قلقها بشأن ذلك[٣٢].

بخلاف تلك الادِّعاءات فإن العديد من التقارير تنفي التهمة عن المسلمين، وتفيد أن تراخي السلطات الهندية في التعامل مع تجمُّع الملايين من المتديِّنين الهندوس في أبريل ٢٠٢١، في بلدة هاريدوار، الواقعة في جبال الهيمالايا، للمشاركة في مهرجان "كومبه ميلا" الديني تحوَّل إلى مناسبة كبرى لتفشِّي الفيروس في البلاد، وقال المسؤولون في هاريدوار، إنه ثبتت إصابة ٢٦٤٢ من المتدينين الهندوس بالفيروس، بمن فيهم العشرات من كبار الزعماء الدينيِّين لتُسَجِّل الهند في أعقابه رقمًا قياسيًّا عالميًّا جديدًا لحالات كوفيد-١٩، حيث سجَّلت الدولة أكثر من ٤٠٠ ألف حالة يوميًّا بحلول مطلع مايو ٢٠٢١، مع حالات وفاة يومية قياسية تجاوزت ٣٦٠٠ حالة، وكان إحجام رئيس الوزراء ناريندرا مودي عن إلغاء التجمُّع بسبب احتمال وقوع ردِّ فعل عنيف من زعماء دينيِّين هندوس[٣٣]. بالإضافة إلى ذلك بحسب الجارديان فإن غرور مودي بأن الهند تمثِّل استثناء أن البلد هو "صيدلية

(٣٠) "من أرسلك لنشر الفيروس؟"... الهند تدير ظهرها لاضطهاد المسلمين المتزايد، الحرة، ٦ مايو ٢٠٢٠، تاريخ الدخول ١٧ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://arbne.ws/3OJ7a8P

(٣١) للمزيد، راجع:

- باسل درويش، WP: حكومة مودي حولت المسلمين إلى كبش فداء كورونا بالهند، عربي ٢١، ٢٥ أبريل ٢٠٢٠، تاريخ الدخول: ١٧ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3HFn55m
- "من أرسلك لنشر الفيروس؟"... الهند تدير ظهرها لاضطهاد المسلمين المتزايد، الحرة، مرجع سابق.
- فايز الحق، الإسلاموفوبيا في الهند... استغلال كورونا لتصفية الحسابات مع المعارضين، العربي الجديد، ١٨ مايو ٢٠٢٠، تاريخ الدخول: ١٧ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3n0slae

(٣٢) آدم ويذنول، "فصل بين مرضى كورونا الهندوس والمسلمين" في مستشفى هندي، إندبندنت عربية، ١٩ أبريل ٢٠٢٠، تاريخ الدخول: ١٢ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3Qxr5Jq

(٣٣) شادي عبد الحافظ، كارثة في الهند... كيف سقط ثاني أكبر بلد في العالم في قبضة كورونا؟، الجزيرة نت، ٢ مايو ٢٠٢١، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3HAlgWp

العالم"، مشيرًا إلى أن الحياة يمكن أن تُستأنف كما كانت قبل ظهور هذا الوباء، الأمر الذي جعل البلد لا يستعدُّ بالشكل المطلوب، ولا سيما في إنتاج اللقاحات[٣٤].

أمَّا من جانب المسلمين؛ فمع تفاقم الوضع الصحي في الهند بسبب فيروس كورونا، حوَّل المسلمون في عدَّة مدن من البلاد المساجدَ والمدارسَ الدينية إلى مراكز رعاية لمساعدة المرضى. وفي ولاية غوجارات الغربية، أنشأ المسؤولون عن معهد دار العلوم الإسلامية للتعليم العالي في مدينة فادودارا، مركز رعاية لمصابي كورونا، يشمل أَسِرَّةً مزوَّدة بالأكسجين، وأجنحة عزل داخل حرم المعهد، وفي فادودارا أيضًا، تمَّ تحويل جزء من مسجد جهانجير بورا إلى مركز رعاية لمصابي كورونا، كما أنشأت الجامعة الإسلامية الهندية فريق عمل إغاثي، ويعمل في غرفة التحكُّم في نيودلهي ٣٠ شخصًا على مدار الساعة لمساعدة المرضى[٣٥].

من جانبها استنكرت منظمة التعاون الإسلامي تصاعد حدَّة استهداف المسلمين في الهند وانتشار مشاعر الكراهية والإسلاموفوبيا في بعض الأوساط السياسية والإعلامية ومنصَّات التواصل الاجتماعي على أساس ادِّعاءات تحمِّل الأقلية المسلمة مسؤولية تفشِّي وباء كورونا[٣٦].

ثانيًا - الاستجابات العربية والإسلامية على أزمة مسلمي الهند

كان تجاوب الدول الإسلامية والعربية مع أزمة مسلمي الهند ضعيفًا بما لا يتوازى مع النفوذ الكبير الذي تمتلكه عدد من الدول العربية والإسلامية بالهند، حيث سجَّلت الدول الإسلامية والعربية غيابا ملحوظًا تجاه قضايا اضطهاد المسلمين حول العالم، لا سيما ما يحدث في الهند ضدَّ أكبر تجمُّع للمسلمين في العالم، في موقف كان بمثابة تواطؤ ساهم في إطلاق يد حكومة ناريندرا مودي اليمينية، ولم تحرِّك هذه الدول ساكنا أمام العنف والقتل الذي يمارَس ضدَّ المسلمين من قبل مجموعات هندوسية متطرِّفة وبتشجيع من زعامات بارزة في الحزب الحاكم "بهاراتيا جاناتا"، ولم يصدر أي موقف إسلامي تجاه العنف ضدَّ المسلمين، إلا من تركيا، وإيران، ومنظمة التعاون الإسلامي والاتحاد العالمي للعلماء المسلمين ومؤسسة الأزهر فقط[٣٧].

ورغم أن دولًا إسلامية وعربية، تمتلك أوراق قوة للضغط على الحكومة في الهند خاصة دول مجلس التعاون الخليجي، أبرزها العلاقات الاقتصادية، إلا أن أيًّا من تلك الأوراق لم توظَّف لوقف نزيف المدِّ العنصري، والتطهير العرقي ضدَّ مسلمي الهند. ولكن تلك الاستجابات العربية والإسلامية على أزمة مسلمي الهند قد شهدت زخمًا من التفاعل العربي والإسلامي على إثر محاولة الإساءة الأخيرة للنبي محمد صلي الله

(٣٤) غارديان: كورونا في الهند... أخطاء مودي تفاقم أخطار الجائحة، الجزيرة نت، ٢٥ أبيل ٢٠٢١، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3Qxyqsr

(٣٥) مع تسجيل نسب إصابة قياسية بكورونا... مسلمو الهند يحولون مساجد ومدارس دينية لرعاية المرضى، الجزيرة نت، ٣٠ أبريل ٢٠٢١، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الابط التالي: https://bit.ly/3xDU0my

(٣٦) منظمة التعاون الإسلامي ترفض استهداف المسلمين من طرف بعض الأوساط في الهند في ظل ازمة جائحة كورونا، منظمة التعاون الإسلامي، ١٩ أبريل ٢٠٢٠، تاريخ الدخول: ١٧ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3O7LS4G

(٣٧) للمزيد، راجع:

- علاء أبو العينين، "علماء المسلمين" يطالب بتدخل أممي لوقف العنف بحق مسلمي الهند، الأناضول، ٢٨ سبتمبر ٢٠٢١، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3n55la5
- تصاعد محتمل للتوتر الراهن في العلاقات التركية-الهندية، مركز المستقبل للدراسات والأبحاث المتقدمة، ١٠ أكتوبر ٢٠٢١، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3xYl5lI
- محمود سعيد، الموقف العربي والإسلامي من الاشتباك الطائفي في الهند، رؤية الإخبارية، ٥ نوفمبر ٢٠٢١، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3xEq4Xc

عليه وسلم من قبل سياسيٍّ هنديٍّ مقرَّب من رئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي، وتوالت ردود فعل من عدد من الدول الإسلامية على الإساءة للرسول، حيث أعلنت كلٌّ من الخارجية السعودية، والإماراتية استنكارهما للتصريحات الهندية، ورفضهما المساس برموز الدين الإسلامي، فيما استدْعت كلٌّ من الكويت وقطر وإيران وإندونيسيا وماليزيا سفراء الهند لديها، وخرجتْ مظاهرات في عددٍ من العواصم الإسلامية منددِّة بتلك الإساءات، وأدان الأزهر الشريف ومنظمة التعاون الإسلامي التصريحات، وبدأت حملة لمقاطعة البضائع الهندية في الكويت.

أما على المستوى الدولي؛ فقد كشف تقرير أمريكي عن حرية الأديان في العالم، أن مسؤولين في الهند يدعمون هجمات على أفراد من الأقليات الدينية، إذ قال وزير الخارجية الأمريكي أنتوني بلينكن إن التقرير يظهر أن الحرية الدينية وحقوق الأقليات الدينية مهدَّدة في الهند[٣٨].

وسعت الحكومةُ الهندية، إلى تهدئة الأجواء في ظلِّ انتقادات داخلية ودولية، حيث، أعلن حزب بهاراتيا جاناتا، تعليق عمل المتحدثة باسم الحزب "نوبور شارما" وطرد زميلها "نافين كومار جيندال"، المسؤول عن وحدة الحزب الإعلامية، وسحبت شارما تصريحاتها دون قيد أو شرط، في اعتذار نشرته عبر حسابها على منصَّات التواصل الاجتماعي. واعتبر الحزب الهندي أن "آراءهما مخالفة لموقف الحزب". وقال حزب "مودي" الذي يُتَّهم باستمرار باستهداف الأقلية المسلمة في البلاد، إنه "يحترم جميع الأديان"، إلا أنها رفضت مطالبات من دول عربية وإسلامية عدَّة باعتذار هندي عن الإساءة للرسول صلى الله عليه وسلم، واستنكر المتحدث باسم الخارجية الهندية، أريندام باغشي، بيان منظمة التعاون الإسلامي الرافض للتصريحات.

ويُظهر رفض حكومة مودي للاعتذار عن الإساءة للرسول، أن هناك حدودًا لمحاولتها احتواء أزمة الإساءة للرسول، وأنها تتمسَّك بتوجُّهاتها المتطرفة، حيث يعدُّ استهداف الإسلام جزءًا متجذِّرًا في أيديولوجيتها، رغم حاجتها الاقتصادية الماسَّة لدول الخليج[٣٩].

أما على صعيد العلاقات الاقتصادية الخليجية الهندية، فنجد أن هناك نحو ٩ ملايين عامل هندي يقيمون في بلدان مجلس التعاون الخليجي التي تُعتبَر مصدرًا لـ٦٥٪ من تحويلات المغتربين المالية إلى الهند التي تقدَّر بنحو ٨٩ مليار دولار، وتعدُّ نيودلهي الأولى عالميًّا في تلقِّي تحويلات العاملين في الخارج. وفي الفترة من ٢٠٢١ إلى ٢٠٢٢ بلغ حجم التجارة الثنائية للهند مع دول مجلس التعاون الخليجي ما يقرب من ١٥٤ مليار دولار، حسب موقع India Today. و تُعَدُّ الإمارات العربية المتحدة هي الشريك التجاري الثالث للهند بعد الولايات المتحدة والصين، حيث تمثِّل التجارة معها نحو أكثر من سبعة في المائة من إجمالي تجارة الهند، إذ صدَّرت نيودلهي سلعًا وخدمات بقيمة ٢٨ مليار دولار للإمارات، واستوردتْ منها ما يقرب من ٤٥ مليار دولار، حسب آخر إحصاء.

وللهند أيضًا مصلحة قومية حقيقية في عبور السلع بأمان في مياه الخليج، فهي تستورد نحو ثلث إمداداتها من النفط الخام من دول مجلس التعاون الخليجي. أما المستثمرون في الدول الخليجية فيرون في النمو الاقتصادي الهندي فرصة لتنفيذ مشاريع جديدة، لا سيما مشاريع في مجال البنى التحتية تشارك فيها شركات خليجية على غرار جهاز أبوظبي للاستثمار أو موانئ دبي العالمية. ويساهم حافز أمني مهمٌّ أيضًا في الدفع نحو هذا التقارب في العلاقات. فلطالما رأت الهند في الخليج "ملاذًا آمنًا"

(٣٨) "إلا رسول الله يا مودي"... غضب بـ"تويتر" من تصريحات مسيئة للنبي محمد لمسؤول بحزب رئيس وزراء الهند، عربي بوست، ٤ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3OiHjUE

(٣٩) الهند ترفض تقديم اعتذار رسمي عن الإساءة للنبي محمد ﷺ، عربي ٢١، ٦ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3O8eSJI

للجريمة المنظَّمة الهندية، بما يدعم الحاجة لعلاقات وثيقة بين الجانبين للتصدِّي لها[٤٠].

كما أن هناك عاملًا جديدًا يحدُّ من تأثير دول الخليج على الهند، ويقلِّل مخاوف نيودلهي من عواقب سياستها، وهو تغير سياسات بعض دول الخليج وتحديدًا الإمارات والسعودية، اللتين كانتا تقليديًّا شديدتي الحساسية لأيِّ إساءةٍ للمسلمين، خاصَّةً السعودية التي كانت تعتبر نفسها حاملةَ لواءِ الإسلام؛ لكونها بلد الحرمين الشريفين، الذي يطبِّق الشريعة الإسلامية. ولكن الأمور تغيَّرت خلال السنوات الماضية، ولم تعد الهند تخشى غضب الرياض وأبو ظبي في هذه القضايا بنفس المستوى السابق. وعلى مستوى أعمق، يتشارك صنَّاع القرار في أبوظبي ودلهي آراء متطابقة عن الأولويات الأمنية، ففي ظلِّ قيادة محمد بن زايد، تعتبر أبو ظبي التيارات الإسلامية، خصوصًا الإخوان المسلمين، هي التهديد الأكبر لها، وربما يتقدَّم هذا التهديد على الأطماع الإقليمية الإيرانية. وتلتقي وجهة النظر هذه مباشرةً مع آراء مودي ومهندس سياسته الخارجية أجيت دوفال، الذي كان عميلًا سابقًا في الاستخبارات، ثم أصبح مستشار مودي لشؤون الأمن القومي عام ٢٠١٤. ويشنُّ دوفال، بصفته هذه، حملة ضارية ضدَّ التيارات الإسلامية، وتشمل هذه الحملة تنفيذ ضربات انتقامية داخل باكستان. وفي عام ٢٠٢١، بدأت الهند والإمارات العربية المتحدة التفاوض بشأن اتفاقية اقتصادية واسعة النطاق بموجب اتفاقية الشراكة الاقتصادية الشاملة للهند (CEPA)، والتي تمَّ الانتهاء منها هذا العام[٤١]، وذلك يضعف من إمكانية أن تشكِّل دولُ الخليج أداةَ ضغطٍ فعَّالة ضدَّ سياسات حكومة مودي والعصابات الهندوسية المتطرِّفة تجاه مسلمي الهند، إن عملية الضغط على حكومة مودي بسبب أزمة تصريحات المتحدِّثة باسم حزبه وحملة الشجْب الحالية من المرجَّح أن تكون مؤقَّتة وغير مبنيَّة على سياسة خارجية طويلة المدى في نصرة قضية مسلمي الهند، فالكثير من الدول الإسلامية والعربية لديها مصالح اقتصادية كبيرة مع الهند، ولا تريد إغضابها، رغم امتلاكها العديد من أوراق الضغط على حكومة مودي.

أما عن استجابات مسلمي الهند لتلك السياسات؛ فقد تنوَّعت ردود أفعال مسلمي الهند بين اللجوء للقضاء والمحاكم العليا وبين التظاهر والاحتجاج على تلك السياسات والمواقف والضغط على الحكومات الهندية للعدول عنها:

- فقد اندلعت احتجاجات ومظاهرات من قبل الهنود المسلمين رفضا وتنديدًا بـ"قانون الجنسية" الذي أقرَّته حكومة مودي في العاصمة نيودلهي، وبعد ذلك انتشرتْ في أرجاء البلاد، وقد شارك في المظاهرات "المسلمون وغير المسلمين"، كما أن بعض المظاهرات وصل عددُ المشاركين فيها أكثر من ٣ ملايين متظاهر، ويعارض "قانون الجنسية" نصف الولايات في الهند، فهناك ١٤ ولاية من أصل ٢٩ تعارض الحكومة المركزية في تطبيق هذا القرار، ويصرُّون على عدم تنفيذه، ومن الجهات المعارضة لـ"عنصرية حكومة مودي" نجد حزب المؤتمر الوطني وعددًا من الأحزاب المحلية، التي تريد أن يبقى الدستور الهندي على علمانيَّته، وأن تكون الفرص متساوية بين المواطنين الهنديِّين من غير فوارق على أساس ديني أو عرقي، وهم يرون أن هذا القرار ضدَّ روح الدستور الهندي[٤٢].

- كما تجدَّدت احتجاجات المسلمين -خاصة الفتيات والطالبات- في الهند في ولاية إقليم كرناتاكا على إثر قرار كلية فيها بحظر دخول الطالبات مرتديات الحجاب وعزَّزه صدور قرار المحكمة العليا في الولاية الطلاب بعدم ارتداء أي ملابس ذات دلالة دينية، سواء شالات الزعفران التي يرتديها عادة الهندوس أو الأوشحة أو الحجاب، داخل الفصول الدراسية حتى إشعار آخر بعد أن قدَّمت مجموعة من النساء المسلمات التماسًا ورد

(٤٠) أزمة الإساءة إلى النبي تطارد الهند... إليك حجم مصالحها مع دول الخليج، وهل تضطرها للاعتذار؟، عربي بوست، ٦ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3QsN58d

(٤١) المرجع السابق.

(٤٢) صلاح الدين كمال، هل يوقف الاحتجاج سياسة مودي العنصرية ضد مسلمي الهند؟، عربي ٢١، ٥ مارس ٢٠٢٠، تاريخ الدخول: ١٠ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3n5vENn

فيه أن الدستور الهندي يضمن لهن حق ارتداء الحجاب، ولتصدر بعدها حكومة الولاية قرارًا في ٨ فبراير ٢٠٢٢، بإغلاق المدارس الثانوية والجامعات لمدَّة ٣ أيام عقب تصاعد الأحداث احتجاجًا على قرار حظر ارتداء الحجاب داخل المدارس الثانوية. وقد تعاملت معها الشرطة الهندية بعنف، حيث أطلقت قنابل الغاز المسيل للدموع لتفريق المتظاهرات، كما انتشرت قوات الأمن بكثافة في كامل ضواحي الولاية، خشية من تصاعد التوتُّرات(٤٣).

- كما اندلعت مظاهرات من قبل مسلمي الهند في عدَّة ولايات هندية احتجاجًا على محاولات الإساءة للنبي صلى الله عليه وسلم من قبل قيادات بالحزب الحاكم، ووثَّقت العديدُ من المقاطع المصورة تعرُّضَ معتقلين مسلمين للتعذيب والضرب المبرح وإطلاق النار على يد الشرطة الهندية(٤٤)، كما اعتقلت الشرطة أكثر من ٣٠٠ شخص على إثر تلك التظاهرات في ولاية أوتار براديش شمالي الهند. وفي ولاية البنغال الغربية -الواقعة شرقي الهند- فرضت السلطات قانون طوارئ يحظر التجمُّعات العامة في منطقة هوراه الصناعية حتى ١٦ يونيو، كما قُتل اثنان من المحتجِّين الشبَّان بالرصاص في مدينة رانشي بولاية جهارخاند شرقي الهند(٤٥).

خاتمة:

كان صعود حزب الشعب الهندوسي الذراع السياسي لحركة (RSS) الهندوسية المتطرفة في الساحة السياسية الهندية حتي وصوله للحكم عام ٢٠١٤ بزعامة الهندوسي المتطرف نيراندرا مودي وهيمنته على المجال العام الهندي بأيديولوجية "الهندوتفا" وبأفكاره الشعبوية المتطرفة المعادية للإسلام والمسلمين، تدشينًا لعملية إنهاء ديمقراطية وعلمانية دولة لطالما كانت تعدُّ أكبر ديمقراطية في العالم من حيث التعداد السكاني وإنهاء للأيديولوجيا النهروية الغاندية، وتوسيعًا وترسيخًا لسياسات الاستهداف والإقْصاء والتصفية وجرائم العنف الطائفي للأقليات من المسلمين والمسيحيّين، إلَّا أن النصيب الأكبر من تلك السياسات كان بحقِّ المسلمين لكونهم أكبر الأقليات غير الهندوسية بالهند بالإضافة للنزاع التاريخي الناشئ عن انفصال باكستان الإسلامية.

وتستهدف تلك السياسات إنهاءَ الوجود الإسلامي بالهند بدرجات ومستويات مختلفة على المدى البعيد وتحويل الهند إلى دولة هندوسية خالصة وتحقيق مكاسب سياسية هائلة لحزب بهاراتيا جاناتا في توظيف هذا الاستقطاب العنيف والحادِّ؛ ما جعل المجتمع الإسلامي في الهند يُعاني من عدَّة معوِّقات خطيرة، منها: التحيُّز الهندوسي الشعبي بعنف وطائفية، والتشتُّت الجغرافي وحملات التغيير الديمغرافي، وانهيار عدالة ومصداقية المؤسسات الرسمية تجاه المسلمين، وقد جدَّدت أزمة كورونا بالهند تلك السياسات وأضافت تحديات جديدة أمام مسلمي الهند مع حكومة مودي الطائفية المتطرِّفة لتقدُّم المسلمين ككبش فداء للأزمة وعلى الرغم من ذلك فإن المؤسسات والجماعات الإسلامية قدَّمت العديد من الجهود للمساهمة في تجاوز الأزمة، وقد تجاوبت الأقليات الإسلامية في الهند مع سياسات حكومات مودي بالاحتجاج والتظاهر وباللجوء لمؤسسات القضاء ردًّا على قانون الجنسية ومنع الحجاب وأزمة تصريحات المتحدِّثة باسم حزب بهاراتيا جاناتا.

---

(٤٣) الحجاب في الهند: المحكمة العليا في إقليم كرناتاكا تؤكد حكما بحظره في المدارس والجامعات، بي بي سي عربي، ١٥ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٥ يونيو ٢٠٢٢، الساعة: ١٩:٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3ziXBZz

(٤٤) التنكيل والاعتقالات.. سلاح الشرطة الهندية ضد المتظاهرين المسلمين، الجزيرة نت، ١٢ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3HEtgXm

(٤٥) الهند.. الشرطة تعتقل المئات مع اتساع رقعة الاحتجاجات على التصريحات المعادية للإسلام، الجزيرة نت، ١٢ يونيو ٢٠٢٢، تاريخ الدخول: ١٦ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3Os4OuA

وعلى الرغم من أن الرؤية الإسلامية تفرض على جميع الفواعل في الأمة مجموعةً من الإجراءات والمبادئ التي يتعرَّض لها المستضعفين بالمطلق والمسلمين بالمقام الأول؛ من النصرة والإيواء ودعم مقاومتهم للظلم، إلا أن السياسات الصادرة عن دول عربية وإسلامية تبتعد كثيرًا عن تلك القيم والمبادئ، بل تشكِّل بعضُها تحالفات وصداقات وبناء شراكات استثمارية وتجارية كبيرة مع حكومة مودي المتطرِّفة، مثل: السعودية والإمارات، كما يحْظى مودي بصداقة كلٍّ من رئيس الوزراء الباكستاني الحالي "شهباز شريف" ورئيسة وزراء بنغلاديش "الشيخة حسينة".

ومع ذلك.. فتلك السياسات تصطدم بعدَّة عقبات، منها كثرة عدد المسلمين في الهند مع جوار إسلامي شرقًا وغربًا، وعدم استسلامهم للسلطة، فضلًا عن أنهم يشكلون الأغلبية في بعض الولايات خاصة في كشمير، بالإضافة لجهود الليبراليِّين والديمقراطيِّين من الأحزاب الهندوسية كحزب المؤتمر لتقويض حكومة حزب الشعب الهندوسي في الانتخابات العامة وحكومات الولايات، إلا أن ذلك ليس كافيًا لإنهاء أو إضعاف الانتهاكات الجسيمة بحقِّ المسلمين في الهند، وأن هناك حاجة كبيرة لمزيد من الضغط الدولي من الدول الكبرى ومن الدول الإسلامية والعربية وتوظيف الأدوات الاقتصادية والدبلوماسية للتأثير على سياسات الحزب الحاكم ورفع الانتهاكات أو تخفيف وطأتها بحقِّ المسلمين.

*****

مسلمو الروهينجا وعصر الانقلاب العسكري في ميانمار

محمود مؤمن(*)

مقدمة(**):

إن قراءة التاريخ ومتابعة أحداث الحاضر تشير بأن الأقلية المسلمة في ميانمار عانت -وما زالت تعاني- مأساة إنسانية وحضارية ربما لم تقارعها فيها أي أقلية أخرى، فمنذ القرن الثامن عشر يتعرض المسلمون في ميانمار إلى حملات اضطهاد وتهجير، تلك الحملات التي ما زالت مستمرة إلى وقتنا الحاضر. وقد جاء الانقلاب العسكري عام ٢٠٢١ ليسطر فصلًا جديدًا من رواية الاضطهاد ويزيد من شدة النبذ والعنف الممنهج ضد المسلمين، وذلك بتوجيه ورعاية مباشرة من الجيش الميانماري الذي استولى على السلطة في ١ فبراير ٢٠٢١ عقب إزاحة حزب "الرابطة الوطنية من أجل الديمقراطية" عن مقاليد الحكم بعد فوزه في انتخابات عام ٢٠٢٠.

مرَّت أزمة مسلمي الروهينجا(١) بعدة محطات تاريخية أبرزها: عام ١٩٦٢ عندما سيطر الشيوعيون على الحكم في ميانمار وأعلنوا الدولة الاشتراكية المعادية للإسلام والمسلمين، ثم عام ١٩٨٢ عندما أصدرت الحكومة الماركسية في ميانمار قانونًا يقضي بحرمان المسلمين من الجنسية وحقوق المواطنة، ليبدأ فصل جديد عام ٢٠٠١ بالتزامن مع تزايد وتيرة العنف ضد المسلمين في العالم على خلفية أحداث ١١ سبتمبر بالولايات المتحدة الأمريكية، ثم عام ٢٠١٢ عقب أحداث عنف أُتهم فيها مسلمون باغتصاب وقتل فتاة بوذية في إحدى القرى(٢). وقد توالت أحداث العنف عقب ذلك بوتيرة متصاعدة وصولًا للانقلاب العسكري عام ٢٠٢١، الذي يعد الحلقة الأحدث في حلقات أزمة مسلمي الروهينجا في ميانمار. والملاحظ من هذه المحطات التاريخية أن العنف والاضطهاد ضد المسلمين في ميانمار يتسم بالتصاعد المستمر، في ظل عدم وجود أي قنوات فاعلة لدعم القضية من دول المجتمع العربي أو الإسلامي.

يأتي هذا التقرير ليسلط الضوء على تلك الأزمة -أزمة مسلمي الروهينجا في ميانمار- المستمرة، تحديدًا في ظل الحكم العسكري عقب انقلاب فبراير ٢٠٢١. ويناقش التقرير، عقب نبذة تاريخية عن الأزمة ورصد أبرز مظاهر الانتهاكات، أوضاع المسلمين بعد ذلك الانقلاب، ويركز على استبانة أهم التحديات التي يواجهونها، كما يعرض التقرير في المقابل لأدوات تعامل المسلمين مع تلك التحديات، كما يستكشف قنوات وآليات الدعم العربي والإسلامي للقضية، ويخلص لأهم السبل لتفعيل دور عربي وإسلامي على كافة المستويات لتقرير أوضاع الأقلية المسلمة في ميانمار.

(*) باحث في العلوم السياسية.

(**) يتوجه الباحث بالشكر والتقدير للزميلين: أحمد سعيد الخليفة، وأحمد بسيوني، على ما قدماه من عونٍ ومساعدة في إعداد هذا التقرير.

(١) للمزيد حول تاريخ المسلمين في ميانمار، انظر: نور الإسلام بن جعفر، المسلمون في بورما: التاريخ والتحديات، مجلة دعوة الحق – رابطة العالم الإسلامي، العدد ١١٥، ١٩٩١.

(٢) للمزيد حول محطات الأزمة التاريخية، انظر:

- ميسون منصور عبيدات، الاعتداءات البورمية المتكررة على الأقلية المسلمة "الروهينجا في بورما" ١٩٤٨ – ٢٠١٢، حوليات آداب عين شمس، المجلد ٤٦، ٢٠١٨، ص ص ١٣٧ – ١٥٤.

- أزمة الروهينغا: محطات وتطورات - وثائق وأحداث، تقرير الجزيرة نت، تاريخ النشر: ١٢ سبتمبر٢٠١٧، تاريخ الاطلاع: ١٦ مايو٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3NGGd51

أولًا- نبذة تاريخية عن أقلية الروهينجا في ميانمار:

على الرغم من انتشار الأقليات المسلمة في العديد من بقاع العالم، أعلنت منظمة الأمم المتحدة أن أقلية الروهينجا في ميانمار أكثر الأقليات تعرضًا للانتهاكات التي اشتركت فيها الأغلبية البوذية البورمية وميليشياتها المسلحة من جهةٍ، والجيش الميانماري من جهةٍ أخرى. وقد بدأت معاناة أقلية الروهينجا -المرصودة- منذ ما قبل استقلال البلاد عن الاحتلال البريطاني بعد الحرب العالمية الثانية، إذ شهدت عدة موجات من التصعيد العنيف إزاءها. حتى شهد عام ٢٠٢١ انقلابًا عسكريًا أطاح بالحكومة المدنية المنتخبة، ما زاد من صعوبة وضع أقلية الروهينجا (وإن كان لا يعني ذلك أن تلك الحكومة كانت داعمة لحقوق الروهينجا، لكن لا شك أن السيطرة المباشرة للجيش أكثر خطورة). وهذا ما يركز عليه التقرير في صفحاته التالية.

تعد دولة ميانمار (بورما سابقًا) واحدة من أكثر الدول تنوعًا وتعددًا من حيث عدد العرقيات والثقافات الموجودة فيها، حيث تتشكل من أغلبية بوذية دينيًا وبورمية عرقيًا. وتبلغ نسبة مسلمي ميانمار حوالي ١٤٪ من إجمالي السكان البالغ عددهم ٦٠ مليون نسمة، نصف هؤلاء المسلمين في إقليم راخين (أراكان سابقًا) جنوب غرب ميانمار، وهم من عرقية الروهينجا[٣]. ويشكل مسلمو الروهينجا ما نسبته حوالي ٧٠٪ من سكان إقليم راخين[٤]. وتتحدث أقلية الروهينجا لغة خاصة بهم متميزة عن لغة الأكثرية البورمية، وهي لغة مرتبطة باللغة البنغالية المستخدمة في بنجلاديش[٥]، وتعود أصول الروهينجا إلى مسلمي الهند والصين وبنجلاديش[٦].

تعتبر حكومة نايبيداو الروهينجا مهاجرين غير شرعيين من بنجلاديش، ولهذا ترفض الاعتراف بهم أو إصدار أي وثائق رسمية لهم، على الرغم من أن الروهينجا من السكان الأصليين للإقليم منذ مئات السنوات[٧]. حيث وصل الإسلام إلى إقليم راخين في القرن السابع الميلادي، وقد أسس الروهينجا مملكة مسلمة دامت أكثر من ٣٥٠ عامًا، إلا أنها انهارت على أيدي البورمان (سكان بورما البوذيين) عام ١٧٨٤ عندما قاموا باحتلال الإقليم[٨].

غير أن الاختلاف الثقافي واللغوي والهوياتي والديني كان دائمًا ما يبرر أنشطة البوذيين في اضطهاد الروهينجا، خصوصًا في ظل مراودة أحلام الانفصال عن ميانمار أو الحكم الذاتي لأقلية الروهينجا، ما مثل تهديدًا وجوديًا للدولة القومية الوليدة، خصوصًا وأن تركز المسلمين في إقليم راخين يعني عمليًا -في حال الحكم الذاتي أو الانفصال عن ميانمار- حرمان دولة ميانمار من مطل بحري مهم على خليج البنغال[٩]. فضلًا عن اعتبار كهنة البوذيين الأقليتين المسلمة والمسيحية تهديدًا وجوديًا لهم ولديانتهم ولدولتهم[١٠].

ثانيًا- أوضاع مسلمي الروهينجا قبل الانقلاب: مؤشرات الانتهاك:

وهكذا اتحدت جملة من الأسباب السياسية والدينية والعرقية التي عززت من اضطهاد الأكثرية البوذية البورمية لأقلية مسلمي الروهينجا على مر العصور. ويمكن بدء التأريخ

(٣) ميسون منصور عبيدات، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٤) سعاد عبد الله محمد، وفيان أحمد محمد لاوند، الاضطهاد الديني لمسلمي الروهينجا في دولة ميانمار: دراسة في الجغرافيا السياسية، سر من رأى للدراسات الإنسانية، كلية التربية، جامعة سامراء، العراق، المجلد ١٦، العدد ٦٤، سبتمبر ٢٠٢٠، ص ٦٤٩.

(٥) ميسون منصور عبيدات، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(٦) سعاد عبد الله محمد، وفيان أحمد محمد لاوند، مرجع سابق، ص ٦٣٤.

(٧) المرجع السابق، ص ٦٤٩.

(٨) ميسون منصور عبيدات، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(٩) سعاد عبد الله محمد، وفيان أحمد محمد لاوند، مرجع سابق، ص ٦٣٤.

(١٠) أحمد دياب، الانقلاب العسكري في ميانمار: المحركات والتداعيات والمسارات، مجلة الديمقراطية، مؤسسة الأهرام، المجلد ٢١، العدد ٨٢، إبريل ٢٠٢١، ص ١٦٨.

المعاصر للاضطهاد الديني ضد الروهينجا منذ العام ١٩٦٢، عندما استولى الجيش بانقلابٍ عسكري على السلطة وأُعلنت الشيوعية. فمنذ ذلك الوقت، عُدَّ اعتناق الأفراد للبوذية دليلًا على أنهم مواطنون أصليون في الدولة البوذية آنذاك. ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٩٩١، هاجر نحو مليون ونصف مليون مسلم إلى بنجلاديش على عدة مراحل. ثم تجددت موجات العنف إزاء مسلمي الروهينجا مرة أخرى منذ عام ٢٠١١-على نحو ما أُشير. كما اندلعت موجة **اضطهاد مسلح** جديدة ضد مسلمي الروهينجا عام ٢٠١٢، راح ضحيتها حوالي ٢٠٠ قتيل، وأكثر من ١٤٠ ألف نازح ولاجئ. وشهد عاما ٢٠١٦ و٢٠١٧ موجة تطهير عرقي قام بها جيش ميانمار بحق مسلمي الروهينجا بدعوى أنهم ليسوا مواطنين أصليين، متذرعًا بهجوم على مناطق حدودية في إقليم راخين أودى بحياة ٦ ضباط من الشرطة. غير أن الرد على هذا الهجوم كان وحشيًا أكثر من اللازم؛ وأدى إلى مقتل أكثر من ألف روهينجي، وتدمير الكثير من القرى والمنازل وحرقها، فضلًا عن حملات التعذيب والاغتصاب والتصفية؛ ما أسفر في النهاية عن هروب الآلاف منهم إلى بنجلاديش في مخيمات ذات ظروف حياتية بالغة الصعوبة[١١].

وترقى تجاوزات حكومة ميانمار تجاه مسلمي الروهينجا في موجات عنف عامي ٢٠١٦ و٢٠١٧ إلى حد جريمة الإبادة الجماعية، حيث إن تلك التجاوزات متوافقة مع أركان الإبادة الجماعية حسب القانون الدولي، وذلك وفق ما خلصت إليه دراسة أسقطت عناصر الإبادة الجماعية على ممارسات حكومة ميانمار بحق أقلية الروهينجا[١٢]. وقد صنفت الولايات المتحدة جرائم الجيش الميانماري ضد الروهينجا خلال تلك الموجة من التصعيد على أنها إبادة جماعية بشكلٍ رسمي، وذلك على لسان وزير خارجيتها "أنتوني بلينكن" في مارس ٢٠٢٢.[١٣] هذا على الرغم من ادعاء الجيش المتكرر أنه يركز هجماته ضد مسلحي الروهينجا فقط.

تلك الموجة الأكثر ألمًا للاضطهاد البورمي ضد الروهينجا عام ٢٠١٦، كانت –كما ذُكر-بسبب أعمال عنف على طول الحدود بين بنجلاديش وميانمار، وقد أعلنت حركة مسلحة عرفت باسم "جيش أراكان لإنقاذ الروهينجا" كوّنها مجموعة من شباب الإقليم مسئوليتها عن تلك الأعمال[١٤]. وعلى الرغم من رغبة جماعات الروهينجا المسلحة في أن يُسهِم نشاطهم في رفع المعاناة عن تلك الأقلية، إلا أن تلك الأنشطة تزيد من سوء أوضاع مسلمي إقليم راخين؛ إذ من شأن تلك الأنشطة إعطاء المبررات للحكومة في زيادة وتيرة العنف ضد الروهينجا، وتبريرها أمام المجتمع الدولي، بحجة مكافحة الإرهاب والجماعات الإرهابية. كما أن تلك الجماعات تزيد من مخاوف دول الجوار، خصوصًا بنجلاديش، التي يمثل إقليم راخين حديقتها الخلفية، وتمثل هي الملجأ الأول للفارين واللاجئين من الإقليم[١٥].

وإلى جانب الاضطهاد المسلح، **يواجه مسلمو الروهينجا وضعًا قانونيًا متأزمًا**، حيث يحجب قانون الجنسية في ميانمار الجنسية عن مواطني الروهينجا، إلا بعد الإتيان بدليل على أن أسرة الشخص عاشت في ميانمار قبل عام ١٨٢٤، وهو تاريخ الحرب البورمية الإنجليزية الأولى[١٦]. كما أن الروهينجا في هذا الإطار يواجهون تحديات داخلية كبيرة تجعل الحياة شبه مستحيلة، إذ إن تلك الإجراءات المتشددة تفقدهم الحد الأدنى من ضمان حقوقهم الطبيعية. ومن أمثلة ذلك: حرمانهم من

(١١) سعاد عبد الله محمد، وفيان أحمد محمد لاوند، مرجع السابق، ص ص، ٦٥١-٦٥٢.

(١٢) انظر: سولاف سليم، وحياة حسين، أقلية الروهينجا في مواجهة جريمة الإبادة الجماعية، بحوث جامعة الجزائر، جامعة الجزائر، المجلد ١٥، العدد ١، يوليو ٢٠٢١.

(١٣) الولايات المتحدة تصنّف حملة القمع العسكري في ميانمار ضد مسلمي الروهينجا "إبادة جماعية"، إيرونيوز،٢١ مارس ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٢ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3NiVM2V

(١٤) ميسون منصور عبيدات، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(١٥) دعاء الجهيني، الخاسر الأكبر: مسلمي بورما بين الكفاح المسلح والجهاد المتطرف، آفاق سياسية، المركز العربي للبحوث والدراسات، العدد ٣١، ديسمبر ٢٠١٧، ص ٥٨-٥٩.

(١٦) المرجع السابق، ١٤١.

الجنسية حيث يُعتبروا وفق القانون مواطنين من الدرجة الثالثة، وفرض قيود على الحركة بإلزامهم استخراج تصاريح سفر ودفع مبلغ مالي في المقابل للوصول إلى مدينة سيتوي عاصمة إقليم راخين، وحرمانهم من التعليم الجامعي والوظائف الحكومية، وإلزامهم –دون غيرهم- باستخراج تصريح للزواج، وتقييد حرية التجارة والأنشطة الاقتصادية لهم، فضلًا عن عمليات التعذيب والاعتقال الممنهجة، وانتهاك حرمات المقدسات الإسلامية، وغيرها(١٧).

هذا كله ينتج **مأساة اللجوء**، فبسبب تلك الأوضاع المجحفة بحق أقلية الروهينجا في ميانمار، اضطر مئات الآلاف منهم للفرار واللجوء إلى البلدان المجاورة خصوصًا في إقليم كوكس بازار المتاخم للحدود بين ميانمار وبنجلاديش، غير أن الأوضاع في مخيمات اللاجئين لم تكن أفضل كثيرًا من الوضع في ميانمار. إذ يتم استغلال العديد من اللاجئين في مخيم كوكس بازار من قِبل المتاجرين بالبشر الذين يفترسون الأشخاص المستضعفين في المخيمات، مع عجز أهالي المختطفين عن الحصول على المساعدة التي يحتاجونها من السلطات البنجلاديشية بسبب عدم وجود موارد كافية في المخيم. وقد أدى ذلك إلى اختفاء العديد من اللاجئين، وإرسال العديد منهم إلى الهند ودول أخرى واستغلالهم هناك.

وإلى جانب الاتجار بالبشر، يعاني اللاجئون في المخيم من كوارث طبيعية شديدة؛ فالمنطقة هي واحدة من أكثر الأماكن التي تعرضت للفيضانات في العالم بسبب موسم الرياح الموسمية القاسية في بنجلاديش. أي أنه بعد مواجهة الصدمات والإبادة الجماعية، يعاني الروهينجا الآن الجوع والمرض والدمار بسبب الكوارث الطبيعية. ففي مارس ٢٠٢١، دمر حريق هائل مدينة كوكس بازار مما أسفر عن مقتل أكثر من ١٥ شخصًا وتشريد أكثر من ١٠٠٠٠ آخرين. تثبت هذه المآسي كذلك أن هؤلاء اللاجئين لا يزالون عرضة للخطر بينما هم عديمو الجنسية. وقد أنشأت المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بنية تحتية آمنة من الفيضانات في الملاجئ، ولكن لا يزال هناك الكثير الذي يتعين القيام به(١٨). ذلك خصوصًا في ظل خطة حكومة بنجلاديش لنقل اللائجين من كوكس بازار إلى جزيرة باسان شار التي تضربها العواصف والأعاصير(١٩).

كما تتصاعد التوترات الأمنية في إقليم كوكس بازار بسبب انتشار عمليات القتل والاغتيال. ففي أكتوبر ٢٠٢١، قُتل سبعة أشخاص على الأقل في هجوم على مدرسة دار العلوم ندوة العلماء الإسلامية في مخيم بالوخالي للروهينجا في كوكس بازار على الحدود الميانمارية البنغالية. فيما يتهم ناشطون "جيش أراكان لإنقاذ الروهينجا" بعمليات الاغتيال والقتل، بينما ينفي جيش الإنقاذ ضلوعه في تلك العمليات(٢٠).

أما البلدان التي يفر إليها لاجئو الروهينجا من أجل إيجاد ظروف معيشية أفضل من ظروف إقليم كوكس بازار في رحلات مميتة ومكلفة، فإنها تعتبر لاجئي الروهينجا مهاجرين غير شرعيين، بما في ذلك ماليزيا والهند. ففي ماليزيا، يتم مضايقة اللاجئين من قِبل الشرطة، ويتم إرسالهم إلى السجن بشكلٍ عشوائي. ويدفع العديد من اللاجئين مدخراتهم للمهربين، أملًا في إيجاد حياة أفضل في ماليزيا أو تايلاند مما هي عليه في بنجلاديش، فقط ليكتشفوا أن الظروف سيئة مثل تلك الموجودة في بنجلاديش(٢١).

---

(١٧) سعاد عبد الله محمد، وفيان أحمد محمد لاوند، مرجع سابق، ص ٦٥٢-٦٥٤.

(18) Hannah Miller, Justice For Rohingya People, Harvard Model Congress, Boston 2022, P. 5, available at: https://cutt.us/JtEgL

(١٩) بدء عملية مثيرة للجدل لنقل لاجئين روهينغا إلى جزيرة باسان شار في بنغلادش، فرانس ٢٤، ٣ ديسمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٥ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3GMLKEQ

(٢٠) مقتل سبعة أشخاص في إطلاق نار في مخيّم للاجئين الروهينجا في بنغلادش، فرانس ٢٤، ٢٢ أكتوبر ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٥ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3PYf13s

(21) Hannah Miller, Justice For Rohingya People, Op. cit., P.5.

ثالثًا- مسلمو الروهينجا وتحديات الانقلاب العسكري:

في الأول من فبراير ٢٠٢١، أعلن جيش ميانمار توليه السلطة واعتقال رئيس البلاد ومستشارة الدولة وسياسيين آخرين وفرض حالة الطوارئ لمدة عام، إثر انقلاب عسكري، وذلك بدعوى تزوير انتخابات البرلمان المنعقدة قبل ثلاثة أشهر من الانقلاب. وعلى الرغم من أن الجيش يحظى بمكانة متميزة في الحياة السياسية الميانمارية، وضمان الدستور له نسبة ٢٥٪ من مقاعد البرلمان، إلا أن فوز حزب "الرابطة الوطنية" التابع لمستشارة الدولة "أونج سان سو تشي" بنسبة ٨٥٪ من المقاعد، في مواجهة ٨,٣٪ من المقاعد لحزب "الاتحاد للتضامن والتنمية" التابع للجيش، هدد من سلطة الجيش في البلاد ونفوذه سياسيًا واقتصاديًا، خصوصًا بعد أن اقترح حزب "الرابطة الوطنية" عشرات التعديلات الدستورية في الدورة البرلمانية السابقة من أجل تقييد سلطات ونفوذ الجيش في الحياة السياسية. إضافة إلى ما سبق، فإن رغبة قائد الجيش، "مين أونج هلاينج"، في تولي رئاسة البلاد حفّزته على الانقلاب العسكري قبل خمسة أشهر فقط من بلوغه السن القانونية للتقاعد وترك منصبه في الجيش[٢٢]. وهو ما أدى إلى خروج الكثير من التظاهرات الشعبية المنددة بالانقلاب العسكري والمنادية بعودة الحياة النيابية والإفراج عن مستشارة الدولة، والتي أدت لمقتل وجرح واعتقال العديد من رافضي الانقلاب.

ويزيد تدهور الأوضاع الاقتصادية والاضطرابات السياسية التي خلفها الانقلاب العسكري من حالة التوتر التي يشهدها المجتمع في ميانمار، إذ تتميز تلك الدولة بالتعددية الثقافية والدينية والعرقية بين سكانها، ويمثل البرومان ٥٥٪-٦٠٪ من إجمالي السكان، وهم الفئة المسيطرة على السلطة في البلاد بجانب القوات المسلحة. كما تعتبر الأغلبية البوذية الأقليات المسلمة والمسيحية تهديدًا وجوديًا لكيان الدولة -كما سبقت الإشارة. وبالتالي كان من شأن الانقلاب أن يؤدي لاشتعال الأحداث مرةً أخرى بعد أن تفاوضت جماعات مسلحة مع الحكومة المركزية في ميانمار على وقف إطلاق النار[٢٣].

فبالنسبة لمسلمي الروهينجا، فقد ازداد الأمر بالنسبة لهم سوءً على سوء، حيث بعد أن كان الجيش يتولى عمليات الإبادة إزاءهم وحماية الحركات البوذية المسلحة في عملياتها ضد مسلمي الروهينجا في ظل حياد موقف مستشارة الدولة "سو تشي" والطبقة السياسية (وإن كان الوصف الأدق الصمت والتواطؤ إزاء جرائم الجيش)، أصبح قائدُ هذا الجيش نفسُه هو رئيس الدولة والمتحكم الفعلي في مقاليد الأمور؛ ما يتيح عمليًا زيادة وتيرة عمليات العنف ضد مسلمي الروهينجا، مع توفير الغطاء السياسي الكامل لتلك العمليات.

وهذا ما أكده "خين ماونغ"، رئيس "رابطة شباب الروهينجا" في مخيمات إقليم كوكس بازار، لوكالة "أسوشيتد برس": "قتلنا الجيش، واغتصب أخواتنا وأمهاتنا، وأحرق قرانا. كيف يمكن أن نكون آمنين تحت سيطرته؟ ... سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا لأن الوضع السياسي في ميانمار أسوأ الآن"[٢٤]. وهو ما يعني أن الانقلاب العسكري مثّل تهديدًا إضافيًا على أقلية الروهينجا، ولم يمثل انفراجةً بالنسبة لهم عن طريق تغيير النظام السياسي هناك.

وجدير بالذكر أنه بعد يوم من الانقلاب العسكري في ميانمار، وقبيل انعقاد جلسة مجلس الأمن الدولي لمناقشة الأوضاع في نايبيداو، أعرب المتحدث باسم الأمم المتحدة عن قلق المنظمة الدولية من أن يؤدي الانقلاب العسكري لزيادة معاناة الروهينجا، حيث قال: "هناك حوالي ٦٠٠ ألف من مسلمي الروهينجا الذين بقوا في إقليم راخين، بينهم ١٢٠ ألف محاصرون في مخيمات اللاجئين لا يستطيعون التنقل ولا

(٢٢) أحمد دياب، الانقلاب العسكري في ميانمار: المحركات والتداعيات والمسارات، مرجع سابق، ص ص، ١٦٥-١٦٦.

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢٤) انقلاب ميانمار.. كيف يؤثر على مسلمي الروهينجا؟، سكاي نيوز عربية، ٢ فبراير ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٧ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3zc7lVl

يحصلون على القليل من متطلبات الرعاية الصحية الأساسية، ونحن نخشى أن تزيد التطورات الأخيرة الوضع سوءً"[٢٥].

وقد تجاوزت سلطات الانقلاب العمليات العسكرية المسلحة تجاه مسلمي الروهينجا إلى حد العمل على إحداث تغيير ديموغرافي في إقليم راخين. فقد أدان قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة –في نوفمبر ٢٠٢١- إجراءات حكومة نايبيداو بتغيير التركيبة الديموغرافية في الإقليم تحت ستار التنمية الاقتصادية وإعادة الإعمار، ما اعُتبر مانعًا إضافيًا لعودة لاجئي الروهينجا إلى مساكنهم في الإقليم. كما أدان القرار الذي حمل عنوان "حقوق الإنسان لمسلمي الروهينجا وغيرهم من الأقليات في ميانمار": "عمليات الإعدام خارج القضاء أو بإجراءات موجزة أو تعسفًا، وأعمال القتل والاغتصاب المنهجي وغيره من أشكال العنف الجنسي، والاحتجاز التعسفي، والاختفاء القسري، والاستيلاء الحكومي على أراضي مسلمي الروهينجا وتدمير منازلهم"[٢٦].

إجمالًا، يواجه شعب الروهينجا وضعًا مدمرًا بشكلٍ خاص كأقلية مزدوجة -كمسلمين وكمجموعة عرقية مختلفة عن الأغلبية- إذ تعتبرهم السلطات العامة والعديد من المواطنين العاديين مهاجرين غير شرعيين يختلفون عن "الأعراق القومية" الأخرى في البلد وبالتالي لا يستحقون الجنسية، ومن ثم حرمانهم من أي أوراق ثبوتية –كما سلفت الإشارة. وعليه، تشكلت حدود اجتماعية قاسية بين الأغلبية البوذية والأقلية المسلمة بسبب البناء الاجتماعي المصوّر للأخيرة على أنها "مخيفة ومثيرة للاشمئزاز".

من خلال البناء الاجتماعي لشعب الروهينجا على أنهم "آخرون مخيفون"، فإن الإجراءات العنيفة التي تتخذها السلطات، رسميًا وغير رسميًا، ضد شعب الروهينجا مبررة في أعين غالبية شعب البورما البوذي في البلاد. حيث يتم رسم أربعة مستويات من الحدود ضد أقلية الروهينجا دون غيرهم من سكان إقليم راخين (ولا شك أن الانقلاب لن يزيدها إلا رسوخًا)، تتمثل في: ١) المستوى الوطني، من خلال الاضطهاد باستخدام عمليات التحقق من المواطنة القاسية وفق قانون المواطنة لعام ١٩٨٢، ٢) المستوى دون الوطني، من خلال قيود السفر والتنقل داخل الدولة وداخل البلدات، ٣) على مستوى الأسرة، من خلال عمليات تسجيل الأسرة ومراقبة المواليد والزيجات والعلاقات الأسرية الحميمة، ٤) على المستوى الفردي، من خلال الاعتقالات والاحتجاز وأعمال العنف[٢٧]. فضلًا عن استمرار المأساة التي يواجهها الروهينجا في علميات اللجوء.

وعليه، لم يمثل الانقلاب العسكري أي بارقة أمل لأقلية الروهينجا، بل العكس حيث أصبح قائد عمليات الإبادة ضدهم هو قائد الدولة ورئيسها، وأصبح الجيش مسيطرًا على الحياة السياسية بشكلٍ مباشر؛ ما يعني أن الجيش أصبحت يده طليقة في التنكيل بالروهينجا وإحراق قراهم، دون أدنى تهديد بالمساءلة.

رابعًا- كيف تعاملت الأقلية المسلمة في ميانمار مع الانقلاب العسكري؟

أدى الانقلاب العسكري في ميانمار إلى تزايد مخاوف الأقلية المسلمة، لما يحمله التاريخ من مأسٍ لحقت بهم، فقد شن الجيش حمالات دموية مروعة ضدهم خلال السنوات الماضية. وقد عبّر لاجئو الروهينجا في كثير من البلدان من بينهم بنجلاديش على معارضتهم لاستيلاء الجيش على السلطة في ميانمار، وأوضحت تقارير الأمم المتحدة أن هناك حوالي ٦٠٠

(٢٥) انقلاب ميانمار: الأمم المتحدة قلقة على وضع مسلمي الروهينجا داخل البلاد، بي بي سي عربي، ٢ فبراير ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع ٧ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3Mf7fPC

(٢٦) ميانمار.. تحذير أممي من تغييرات ديموغرافية لمنع عودة مسلمي الروهينجا، وكالة أنباء الأناضول،١٧ نوفمبر ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع ٨ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3alz3oi

(27) Nyana Yoni, Enacting Border Governance through Multi-scalar Violence: Exclusion and discrimination of Rohingya people in Rakhine state, Modern Asian Studies, Cambridge University Press, vol.56, no.2, 2022, P. 31-33.

ألف من مسلمي الروهينجا الذين بقوا في إقليم راخين، من بينهم ١٢٠ ألف محاصرون في مخيمات اللاجئين لا يستطيعون التنقل ولا يحصلون على القليل من متطلبات الرعاية الصحية الأساسية[٢٨].

وكانت أبرز أدوات مسلمي الروهينجا في التعامل مع الاضطهاد والعنف عقب انقلاب عام ٢٠٢١ على النحو التالي:

١-التظاهرات:

شكل سلاح التظاهر الأداة الأكثر استخدامًا للمسلمين في ميانمار على مدار التاريخ والتي يمكن رصد بدايتها عام ١٩٨٨م[٢٩]، عندما شاركوا مع جموع الشعب في بورما للمطالبة بحقهم في الديمقراطية، وكان الرد المقابل عليهم هو القمع الوحشي للجيش في جميع أنحاء البلاد، ثم استمرت الاحتجاجات مع ازياد وتيرة القمع والاضطها إلى أن وصلت ذورتها عام ٢٠١٧، حيث نُقلت أزمة مسلمي الروهينجا إلى مرحلة جديدة أكثر حدةً وخطورة، شن خلالها الجيش حملة وحشية دمرت مئات قرى الروهينجا وقُتل ما لا يقل عن ٦٧٠٠ ألف منهم، فضلا عن تهجير عدد كبير[٣٠]. وحتى مع ترك موطنهم والانتقال إلى المخيمات في بنجلاديش ودول مجاورة، حرصوا خلالها على استخدام أداة التظاهر في مقابل القمع[٣١].

مع تجدد التظاهرات في أكثر من منطقة نتيجة للانقلاب العسكري وشعور المسلمين بأن أوضاعهم ستزداد سوءً، عملوا على تأسيس هيئة سلمية تعرف بـ"هيئة تعزيز إسهام المسلمين" وهدفها هي مواجهة الحكم الدكتاتوري العسكري والوقوف مع مكونات المجتمع الميانماري متعدد الأعراق والأديان، والسعي لإصلاح سياسي وتحقيق العدالة لكل المسلمين في ميانمار، واستعادة الحقوق المدنية والسياسية لأقلية الروهينجا.

وجراء تلك الاحتجاجات لقي حوالي ٥٠ مسلمًا على الأقل مصرعهم، فضلا عن عدد غير محدد من المعتقلين وإن كانت هناك تقديرات بأن عددهم حوالي ٥٥٢٩ ألف شخصًا اعتقلهم الجيش[٣٢]، وقد لوحظ نتيجة تلك التظاهرات وجود تجاوب إيجابي من الفصائل السياسية تجاه المسلمين، وقد تجلى ذلك في تأكيد ضرورة تغيير الوضع الذي يعيشونه[٣٣].

٢- مزيد من النزوح:

كانت الأداة الأخرى المتاحة للمعالجة مع الأوضاع الجديدة عقب الانقلاب هي النزوح، سواء إن كان برغبة للفرار إلى مواقع آمنه، أو بالإجبار حيث أُجبر ما يقرب من ٧٠٠ ألف من الروهينجا على مغادرة ميانمار، بحسب منظمة "أطباء بلا حدود" الخيرية الطبية الدولية. ويُذكر أن قوات الأمن في ميانمار فتحت النار على المدنيين الفارين وزرعت ألغامًا أرضية بالقرب

(٢٨) حسن رفاعي، انقلاب ميانمار يعزز مخاوف اللاجئين من مسلمي الروهينغا من العودة إلى وطنهم، أيرو نيوز، ٢ فبراير ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ١٦ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3NNHXcS

(29) Burma's Path to Genocide، united states holocaust memorial museum, Accessed: 12 May 2022, 5:00, available at: https://bit.ly/3x2wFur

(30) Risk of Mass Atrocities against the Rohingya Post-coup، Policy Brief, united states holocaust memorial museum، Simon-Skjodt Center for the Prevention of Genocide, August 2021, pp 3, available at: https://cutt.us/7srL2

(31) Rohingya refugees protest against Myanmar crackdown anniversary, BBC News, 25 August 2018, Accessed: 15 May 2022, available at: https://cutt.us/DjOeB

(٣٢) صهيب جاسم، "مدفوعين بالانتهاكات الجسيمة بحقهم.. هكذا يشارك مسلمو ميانمار في الحراك الرافض للانقلاب"، الجزيرة، تاريخ الاطلاع: ١٦ مايو ٢٠٢٢، تاريخ النشر: ٢ يونيو ٢٠٢١، ، ٠٠:٤، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3t6qEfb

(33) Kenan Malik, Where were the protesters when the Rohingya were being murdered?, Guardian News, 21 Feb 2021, 8.00 Accessed: 16 May 2022, available at: https://bit.ly/3GD3baF

من المعابر الحدودية التي يستخدمها الروهينجا للفرار إلى بنجلاديش[٣٤].

ومع فترات ازدياد عدم الاستقرار في جميع أنحاء البلاد نتيجة للانقلاب والنزاع المسلح على أطراف ميانمار أدى الأمر إلى مزيد من النزوح، وكانت قد سجلت مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين ما يقرب من ١ مليون من الروهينجا كلاجئين وطالبي لجوء، وازداد الأمر سوءً جراء الانقلاب، حيث سجلت تقديرات بأنه قد فر ما يقرب من ١٦٠ ألف شخص ثم ازداد هذا العدد وصولا إلى ٢٠٠ ألف شخص خلال فترة قصيرة من الانقلاب[٣٥].

ولما كانت بنجلاديش تعتبر هي أكثر الدول من حيث تواجد طالبي اللجوء من المسلمين الروهينجا، فإنه وفقًا لآخر إحصائيات أجرتها مفوضية الأمم المتحدة للاجئين حتى ديسمبر ٢٠٢١، يوجد أكثر من ٩٠٠ ألف لاجئ من الروهينجا في البلاد، بجانب ١٠٠٠ من الروهينجا في ماليزيا، أما في الهند تم تسجيل ١٨ ألف لاجئ من الروهينجا، كما تعد تايلاند مركزًا لتهريب البشر على المستوى الإقليمي وتعمل كنقطة عبور مشتركة للروهينجا، هذا كما لجأ الروهينجا أيضًا إلى إندونيسيا[٣٦].

وتجدر الإشارة أنه في ظل حملات لإعادة اللاجئين الروهينجا، كان قد جرى تطهير قرى الروهينجا المهجورة والأراضي الزراعية لبناء منازل وقواعد أمنية وبنية تحتية. وكانت قد أعلنت الحكومة أن هذا التطوير يُعد استعدادًا لإعادة اللاجئين، ومحاربة ما أسمته الارهابيين[٣٧]، لكن هذه الجهود تعثرت بسبب الإنقلاب، وأصبح هناك شعور لدى الروهينجا إنهم لن يعودوا حتى يتم ضمان حقوق المواطنة الخاصة بهم، في ظل ظروف لا تزال غير آمنة[٣٨].

٣-استمرار المعارضة المسلحة:

مع تنامي العنف ضد الأقلية المسلمة كان لا بد من وجود جماعات مسلحة معارضة لسياسات القمع الممنهج، للمطالبة بمنطقة ذاتية الحكم شمال راخين. والجدير بالاهتمام هنا أن عمليات المقاومة لا يمكن وصفها على أنها جماعات إرهابية هدفها إرهاب المدنيين للمدافعة عن أنفسهم، لكن جميع العمليات كانت موجهة ضد الحكومة ردًا على الحملات القمعية التي تقوم بها.

تلك الجماعات هي بدائية التشكيل ومكونة من مجموعة من الشباب وبعض الفتيان، المسلحين بالسيوف وبعض البنادق، وذلك مثل "حركة الإيمان". كما تجدر الإشارة إلى أحد أهم وأشهر تلك الجماعات التي تحظى بدعم من الخارج وخصوصًا باكستان، فضلا عن دعم شعبي داخلي ألا وهي حركة "اليقين" أو "جيش إنقاذ أراكان" الذي كان وراء اندلاع الاشتباكات في راخين في أغسطس ٢٠١٧، علمًا أنه أعلن مسؤوليته عن الهجمات على مواقع للشرطة والجيش، مما تسبب في زيادة أعمال العنف والتهجير القصري ضد الروهينجا[٣٩].

ويجادل الكثيرون أن تنامي تلك الجماعات المسلحة المقاومة للحكومة في ميانمار عمل على جذب الكثير من الجماعات والحركات المتطرفة من الخارج مثل ظهور بيانات عن دعوة

(٣٤) "ألغام أرضية توقع إصابات خطيرة في صفوف الروهينجا الفارين من ميانمار"، BBC، ١٢ سبتمبر ٢٠١٧، تاريخ الاطلاع: ١٧ مايو ٢٠٢٢، ٨:٠٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/38T6Gh7

(35) Myanmar situation, UNHCR, 15 June 2021, Accessed: 17 May 2022, 5:00, available at: https://bit.ly/3m13kLO

(36) Ibid.

(٣٧) - منظمة: ميانمار تهدم قرى للروهينجا بعد حملة "تطهير"، وكالة رويترز، ٢٣ فبراير ٢٠١٨، تاريخ الاطلاع: ٨ يوليو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://reut.rs/3tpUhbm

(٣٨) أيمن الأمين، مستقبل مجهول... ما تأثير انقلاب بورما على الروهينجا؟، مصر العربية، ٢ فبراير ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع ٨ يونيو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3toDiWG

(٣٩) توفيق نجم الانباري، التنظيم الدولي الإسلامي المعاصر وانتهاك حقوق الاقليات المسلمة: الروهينغا دراسة حالة مجلة أبحاث العلوم السياسية، المجلد ٢٠١٩، العدد ٤١-٤٢، ٣١ ديسمبر ٢٠١٩، ص ٢٤٢.

تنظيم الدولة الإسلامية للجهاد، وتوعد حركات مثل طالبان، وحركة الشباب الصومالية، وخلال الفترة السابقة ظهرت جماعة جهادية هي "كتيبة المهدي في بلاد الأراكان"، وهي تستخدم العنف والكفاح المسلح لتحقيق أهدافها[٤٠]. كل هذا دفع الحكومة بميانمار بالرد عليهم وتبرير كل تصرفات العنف والاضطهاد أمام المجتمع الدولي –كما أوضحنا آنفًا- مؤكدة على أنها تقوم بحملة عسكرية ضد الروهينجا ردًا على الهجمات المسلحة[٤١].

ومع فترة الانقلاب العسكري لم تتوقف الأعمال التي تقوم بها الجماعات المسلحة وخاصة "جيش إنقاذ أراكان"، ضد العمليات العسكرية التي يقوم بها الجيش، مما دفع الحكومة في ميانمار إلى تحذير القرويين الروهينجا لقطع أي علاقات مع "جيش أراكان" ومع أي فصيل عسكري آخر[٤٢]، لتجنب مزيد من المجازر والعمليات ضد الإقليم وقاطنيه.

إلا أنه هناك علاقات وثيقة تربط بين تلك الجماعات والحركات النضالية بسكان أرخين، لأن معظم مكونات تلك الحركات من أبنائهم، وعلى الجانب الآخر لا سبيل لبقائهم إلا عن طريق استخدام القوة، في ظل تقييد من جميع الجهات عليهم لمنعهم من الوصول إلى منطقة آمنه.

لذا اتفقت المفوضية السامية لحقوق الإنسان على أن الصراع في ميانمار، يجب أن يوصف الآن بأنه حرب أهلية ودعت مجلس الأمن الدولي إلى اتخاذ "إجراءات أقوى" للضغط على الجيش لاستعادة الديمقراطية. وأكدت أن الاستجابة الدولية للأزمة "تفتقر إلى الاستعجال" ووصفت الوضع بأنه "كارثي" محذرة من أن الصراع الآن يهدد الاستقرار الإقليمي[٤٣].

خامسًا- آليات وقنوات الدعم العربي والإسلامي للأقلية المسلمة في ميانمار:

أخذ الدعم العربي والإسلامي للأقلية الإسلامية في ميانمار عدد من المسارات المختلفة للتعاطي مع أزمتهم، بدايةً من التصريحات الرافضة لأعمال العنف والتهجير القسري، ومناشدة المجتمع الدولي لحمايتهم، مرورًا بتقديم المساعدات الإنسانية.

١- مستوى التصريحات، وبعض التحركات الدبلوماسية:

تفاعلت الدول العربية والإسلامية مع الأزمة خلال فترة الانقلاب عبر التصريحات بالتنديد والشجب والرفض للأعمال العدائية تجاه مسلمي ميانمار، على سبيل المثال استنكرت تركيا بشدة العدوان منذ بداية الأحداث، وعبرت عن أملها في ألا يؤدي الانقلاب إلى تفاقم أوضاع مسلمي الروهينجا، الذين يعيشون في ظروف قاسية في ميانمار[٤٤]، في حين أعربت مصر عن شجبها وإدانتهما لأحداث العنف التي تشهدها البلاد، وأكدت المملكة العربية السعودية على موقفها الثابت في دعم شعب مسلمي الروهينجا[٤٥].

بينما على مستوى المؤسسات الإسلامية، نجد أن "منظمة التعاون الإسلامي" أدانت تجدد القمع وانتهاك حقوق الإنسان لمسلمي الروهينجا، وأكدت على موقف المنظمة المبدئي الثابت والداعم للحقوق المشروعة لمجتمع الروهينجا المسلم ودعوتها

(٤٠) دانيلي جاروفالو، التهديد الجهادي في ميانمار، عين أوروبية، ٧ يونيو ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ١٨ مايو ٢٠٢٢، ٨:٠٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3wZIaTh

(٤١) أحمد دياب، الانقلاب العسكري في ميانمار: المحركات والتداعيات والمسارات، مرجع سابق، ص ١٦٨.

(42) Kyaw Hsan Hlaing, Myanmar's military coup prolongs misery for Rohingya in Rakhine, Al Jazeera, 6 Jan 2022, Accessed: 19 May 2022, 8:00, avilable at: https://bit.ly/3x2qnfA

(43) Soe Win, The deadly battles that tipped Myanmar into civil war, BBC, 1 February 2021, Accessed: 21 May 2022, 5:00, available at: https://bbc.in/3t8Dnh7

(٤٤) تركيا تدين انقلاب ميانمار وتعرب عن قلقها بشأن الروهينجا، مصراوي، ١ فبراير ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٢١ مايو ٢٠٢٢، ١٠:٠٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3x6ACyf

(٤٥) ميسون منصور، الاعتداءات البورمية المتكررة على الأقلية المسلمة "الروهينجا" في بورما "ميانمار ١٩٤٨– ٢٠١٢، مرجع سابق، ص ١٤٩.

إلى ضمان سلامتهم وأمنهم والاعتراف بحقوقهم الأساسية بما فيها حق المواطنة[٤٦]، كما أصدرت "الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية" بيانًا نددت فيه بما يحدث ضد المسلمين هناك وأنهم أصبحوا هدفًا لحملة إبادة وحشية[٤٧].

وعلى النمط ذاته عبر "الأزهر الشريف" ومؤسساته عن إدانتهم لجميع أعمال العنف وإراقة الدماء والتأكيد على حرمتها سواء كانت دماء مسلمين أو غير مسلمين، كما دعا السكرتير العام لـ "مجلس الإسلامي الأوروبي" قادة الدول الإسلامية والسكرتير العام للأمم المتحدة للتدخل فورًا لوضع حد لمأساة المسلمين الدموية في بورما ووقف عمليات القتل مطالبًا بضمان سلامتهم وأمنهم والاعتراف بحقوقهم الأساسية.

وجاءت المطالب العربية والإسلامية بالدعم الدولي لحل الأزمة، ومطالبة حكومة ميانمار بوقف أعمال العنف، ففي كلمة السعودية لـ "مجلس حقوق الإنسان" المنعقد في جنيف دعت المجتمع الدولي إلى التحرك العاجل لوقف أعمال العنف وإعطاء أقلية الروهينجا المسلمة في ميانمار حقوقها دون تمييز أو تصنيف عرقي[٤٨]، كما طالبت الحكومة في ميانمار بالتوقف عن تهجير وقتل المسلمين. أيضًا حذرت حكومة إندونيسيا نظيرتها في ميانمار من اضطرابات ستقع في المنطقة بسبب الأعمال العدائية. وفي محاولة لتقييم معظم تلك التصريحات نجدها على المستوى الخطابي حققت بعضًا من النجاحات من حيث جذب الرأي العام العالمي حول الأزمة من خلالها.

وقد كان من أبرز التحركات: جهود مصر في "مجلس الأمن"، أو من خلال المنظمات الإنسانية مثل "الأمم المتحدة" و"محكمة العدل الدولية"، كما فعلت غامبيا نيابةً عن منظمة التعاون الإسلامي"، في رفع القضية أمام "محكمة العدل الدولية"، متهمة ميانمار بانتهاك اتفاقية "منع جريمة الإبادة الجماعية"[٤٩]. أيضًا جهود المملكة العربية السعودية في "الأمم المتحدة" وغيرها من المنظمات الدولية مثل "منظمة العفو الدولية" التي اتهمت القوات الحكومية والسكان البوذيين بشن هجمات على المسلمين، وقتلهم وتدمير ممتلكاتهم[٥٠].

غير أن التفاعلات في مجملها لا تتعدى سوى أنها تصريحات من جانب الدول أو المنظمات الدولية والإسلامية التي تأتي جميعها في صيغة توصيات أو أي من أشكال الشجب والإدانة فقط، ومن ثم تفتقر لأي عنصر من عناصر الإلزام. وذلك إما لكون هذه التصريحات تأتي **لأسباب سياسية** كرغبة تلك الدول في استيعاب ضغوطات محلية أو تظاهرات، أو نتيجة الإرث الثقافي والتاريخ الإسلامي الذي يُملي عليها إبداء تلك التصريحات، أو حتى التعبير عن موقف إنساني.

كما لعبت **المصالح الاقتصادية** أيضًا دورًا مهمًا، فلما كان للنفط والغاز أهمية مركزية لمعظم الدول، نجد أن المملكة العربية السعودية على سبيل المثال التي تحاول أن تحمي بقوة مكانتها كأكبر مورد للنفط الخام للصين، تعتمد على إرسال الغاز عن طريق الخط الذي يمر بميانمار إلى مقاطعة يونان الصينية. ولا شك أن ذلك يحول دون اتخاذ مواقف أكثر صلابة.

(٤٦) وفد من "التعاون الإسلامي" يزور بنغلاديش للاطلاع على أوضاع اللاجئين الروهينجيا والتنسيق في القضية المرفوعة ضد ميانمار، منظمة التعاون الإسلامي،٢٥ فبراير ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٢٢ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/38Y34KM

(٤٧) عبد الكامل جوبية، إنسانية المجتمع الدولي ومسلمو بورما: دراسة تاريخية نقدية، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، المجلد ٢٠١٨، العدد ٣٢، ديسمبر ٢٠١٨، ص ٢٤٠.

(٤٨) سوزان عاطف، السعودية تدعو لتكثيف الجهود لحل أزمة الروهينجا، المصري اليوم، ١٤ ستمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢١ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3PTcPdt

(٤٩) محكمة العدل الدولية تطالب ميانمار بحماية شعب الروهينجا من الإبادة الجماعية، أخبار الأمم المتحدة، ٢٣ يناير ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٢ مايو ٢٠٢٢، ٠٠:٤، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/B9lZ1

(٥٠) حميد فارس، مأساة أقلية الروهينجا المسلمة في ميانمار وموقف المنظمات الدولية، مجلة تكريت للعلوم السياسية، ع١٧، ٢٠١٩، ص ٢١٦.

الملاحظ أن معظم الدول العربية والإسلامية لم يكن لها بيانات رسمية حول الانقلاب العسكري في ميانمار، وإنما اقتصرت التصريحات على دول مثل تركيا وماليزيا وغيرها من الدول المحيطة جغرافيًا بالأزمة، أو من الدول الكبرى، في حين أنه آثر معظم الدول العربية والإسلامية عدم التدخل في الشؤون الداخلية لميانمار، والحديث فقط على تأكيد حماية حقوق الروهينجا وفي بيانات مقتضبة من بعض الدول مثل السعودية.

٢- مستوى المساعدات الإنسانية والدعم المادي:

تمثل الشق الآخر بالتعامل مع أزمة الروهينجا بتقديم مجموعة من المساعدات الإنسانية للمسلمين المتواجدين في مخيمات النازحين، حيث أشرفت تركيا على توزيع المساعدات ومعرفة ومتابعة تطور أوضاع المسلمين بالمنطقة، وفتحت حسابًا بنكيًا باسم رئاسة الوزراء لاستقبال المساعدات لصالح مسلمي أراكان، كما قدمت المملكة السعودية مساعدات قدرت بـ ٥٠ مليون دولارًا أمريكيًا، وعملت قطر وماليزيا وإندونيسيا على إرسال سفن بالمساعدات الضرورية، وصنعت الإمارات جسرًا جويًا لنقل المواد الغذائية ومساعدات الإنقاذ إلى لاجئي الروهينجا في بنجلاديش.

تم أيضًا افتتاح مستشفى ميداني وإنشاء وتجهيز وتفعيل ٢٢ منشأة صحية، بما في ذلك برامج التغذية العلاجية للمرضى الخارجيين وبرامج التغذية التكميلية الشاملة للأطفال دون سن خمس سنوات والنساء الحوامل والمرضعات[٥١]. وقد وقّع صندوق "قطر للتنمية" و"قطر الخيرية" و"المفوضية السامية لشؤون اللاجئين" على اتفاق تعاون ثلاثي يتعهد فيه كل من "صندوق قطر للتنمية" و"قطر الخيرية" بتقديم دعم مالي لل "مفوضية السامية لشؤون اللاجئين" بقيمة ٨,٨ مليون دولار من أجل توفير خدمات أساسية للاجئي الروهينجا في بنجلاديش[٥٢]، وخصصت مصر عن طريق "الأزهر" عدد من المنح للطلاب المسلمين للدراسة في "جامعة الأزهر"، وعدد من الدورات الثقافية لغير المسلمين لدراسة اللغة العربية وذلك للارتقاء بالمستوى الثقافي والعلمي لإقليم أراكان، الأمر الذي من شأنه الإسهام في إيجاد بيئة ملائمة تحقق العيش المشترك.

كل تلك المحاولات لتوفير الخدمات الأساسية، تمثل نوعًا من أنواع المسكنات المؤقتة للأزمة، غير أن حقيقة الأوضاع تزداد سوءً في المخيمات، حيث لا يزال الأفراد يواجهون تفشي الأمراض والأوبئة مثل كوفيد ١٩، ويواجه الأطفال على وجه الخصوص سوء التغذية وقلة فرص التعليم والمخاطر المتعلقة بالإهمال والاستغلال والعنف. كما تشكل الظروف الطبيعية، من الرياح الموسمية الشديدة والأعاصير مخاطر كبيرة لكل لاجئي الروهينجا، وظهرت كل تلك الأمور بوضوح في قيام عدة آلاف من الروهينجا بالاحتجاج على الظروف المعيشية في بنجلاديش نتيجة تردي أوضاعهم هناك[٥٣].

خاتمة: كيف يمكن تفعيل دور عربي وإسلامي لدعم مسلمي الروهينجا؟

يُبين لنا الرسول الكريم ﷺ منهجية تعاضد وتراحم الأمة الإسلامية، فلا ينبغي أن يكون هناك استضعاف واضطهاد لمجموعة من المسلمين في أي مكان دون أن تستنفر الأمة أجمع لنصرتهم، فعن النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٥٤]، فالأقلية المسلمة في ميانمار تمثل أحد أعضاء الأمة

(٥١) بدعم إماراتي.. مساعدات غذائية لـ ١٣٣ ألف لاجئ من الروهينجا، العين الإخبارية، ١٦ يوليو ٢٠١٩، تاريخ الاطلاع: ٢٢ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3ObssM3

(٥٢) دعم قطري بـ ٩ ملايين دولار للتكفل بلاجئي الروهينجا، الإمارات ٧١، ١٨ مايو ٢٠١٨، تاريخ الاطلاع: ٢٦ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3NSnqnd

(53) Thousands of Rohingya protest against conditions on Bangladesh island, France24, 31 May 2021, Accessed: 26 May 2022, available at: https://bit.ly/3x6hm42

(٥٤) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (٤/ ١٩٩٩)، برقم: (٢٥٨٦)، والبخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، (٨/ ١٠) برقم: (٦٠١١)، بلفظ: ترى

الإسلامية، وهم يتعرضون لأقسى أنواع العذاب في الأرض –كما استعرضنا آنفًا- دون إمكانيات أو موارد مادية تمكنهم من رد هذا العدوان والاضطهاد الممنهج، لذا يبقى التساؤل: كيف يمكن تفعيل دور عربي وإسلامي لدعم المسلمين في ميانمار؟ وما هي صور هذا الدعم وآلياته المطلوبة؟

في هذا الجزء من التقرير، نخلص إلى مجموعة من التصورات والتوصيات العملية التي يمكن وصفها بـ"استراتيجية عربية إسلامية لدعم مسلمي الروهينجا في ميانمار"، ويمكن تصوير هذه الاستراتيجية على عدة مستويات:

- **المستوى الرسمي: الحكومات – المنظمات – المصالح الاقتصادية:**

"إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"(٥٥)

هذا المستوى هو أهم مستويات التحرك العربي والإسلامي والأولى بالاهتمام، حيث يتمثل في التفاعلات الرسمية للدول والمنظمات العربية والإسلامية في تأييدهم ونصرتهم لقضية مسلمي الروهينجا، وما يجعله كذلك أنه يرتبط بشكلٍ رئيسي بالمحرك الأول لقرارات الدول بشكل عام في المجال الدولي، أي يرتبط بالمصالح القومية للدول، ولا شك أن بعض الدول العربية والإسلامية ترتابط مع الدول المؤثرة في مفاصل الأزمة بمصالح اقتصادية وجيوسياسية.

على الرغم من ذلك -كما سبق وعرضنا- لا نجد أي تحرك فعال من أي دولة عربية أو إسلامية ضد دولة ميانمار، ولعل ما يفسر ذلك: المصالح الاقتصادية التي تربط بعض تلك الدول بميانمار والدول الداعمة لها، حيث –على سبيل المثال- تمر أنابيب النفط الخليجي من داخل أراضي ميانمار إلى الصين(٥٦)، الأمر الذي يجعل دول الخليج لا تحرك ساكنًا أو تدين بشكل جدي الإجراءات التعسفية التي يقوم بها جيش ميانمار ضد المسلمين عقب انقلاب٢٠٢١، خشية تأثير ذلك على مصالحها الاقتصادية.

لكن إذا ما قُلبت الآية مثلًا، ووجدت الصين –وهي داعم رئيسي للجيش في ميانمار- موقف صلب من دول الخليج على خلفية الاعتداءات المتكررة على المسلمين في ميانمار، وتهديد بوقف إمدادات النفط والغاز إليها، ربما يمثل ذلك ورقة ضاغطة لتسوية القضية وتقرير أوضاع المسلمين المستضعفين هناك، أضف إلى ذلك جدوى المساعي الخارجية للدبلوماسيات العربية والإسلامية في المحافل الدولية لطرح القضية بشكل رئيسي أمام الدول القطبية ذات التأثير على الساحة الدولية كالولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا والصين.

يدعم هذا المسار، **تفعيل دور المنظمات العربية والإسلامية كجامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الإسلامي(٥٧)**، باعتبارهم أبرز المؤسسات التي تجتمع في ظلها المصالح العربية والإسلامية، ويمكن من خلال هذه المنظمات أن تنبثق قرارات وتحركات فعلية تعمل –بالأساس – على وقف العنف الموجه ضد المسلمين في أراكان بكل أشكاله، وتسعى لتقرير الأوضاع بما يضمن دمج مسلمي الروهينجا وباقي المجتمع في ميانمار.

- **المستوى الديني: الهيئات – الرموز– الدعاة:**

ينبغي أن نقرر بأهمية دور الوعي بالقضية وجذورها التاريخية إذا ما أردنا البحث عن آليات داعمة لها، فكيف يمكن

المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى

(٥٥) للمزيد حول هذا الأثر، انظر: أبو الحسن الماوردي، أدب الدين والدنيا، (بيروت: دار المنهاج، ٢٠١٣)، الطبعة الأولى، ص٢١٩ وما بعدها.

(٥٦) شيماء بهاء الدين، مسلمو الروهينجا: جذور الأزمة – التفاعلات الدولية – مقترحات الحل، موقع مركز الحضارة للدراسات والبحوث، ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3LV2vyJ

(٥٧) للمزيد حول ملامح الدور التاريخي للمنظمة في دعم الروهينجا، انظر: توفيق نجم الأنباري، التنظيم الدولي الإسلامي المعاصر وانتهاكات حقوق الأقليات المسلمة في الدول غير الإسلامية: الروهينجا دراسة حالة، مرجع سابق، ص ص، ٢٣٥ – ٢٣٨.

أن نتصور قنوات دعم وتأييد بقضية غائبة عن الوجدان العربي والإسلامي؟!

لكننا نجد أن شريحة واسعة من الشباب العربي لا تعرف عن قضية مسلمي الروهينجا إلا بعض المعلومات السطحية الواردة من مواقع التواصل الاجتماعي، بينما يقع عبء هذا الدور بشكلٍ رئيسي على الهيئات والرموز الدينية، حيث يُناط بهم التوجيه والإرشاد لما لهم من تأثير في عقل ووعي الفرد المسلم، لذا ينبغي أن يكون التعريف والوعي بالأزمة أول خطوات الدعم على المستوى الديني.

- **المستوى المدني: الحراك الشعبي - وسائل التواصل الاجتماعي - المراكز البحثية - مؤسسات الإغاثة:**

تأسيسًا على المستوى الديني وبناءً على تراكمات الوعي بالقضية وخطورتها وتداعياتها، ينبثق المستوى المدني المتمثل في الحراك الشعبي المنظم وفق أهداف محددة للضغط على الحكومات نحو إدانة الاعتداءات الممنهجة ضد المسلمين في ميانمار -أي تفعيل المستوى الأول- وينبغي أن يقوم على هذا الحراك قوى وأحزاب سياسية، حتى يكون الحراك في حدود معينة ووفق رؤية واضحة.

بجانب إدارة محتوى وسائل التواصل الاجتماعي لتكون بمثابة داعم حقيقي للقضية إدراكًا لتأثير هذه المنصات في إدارة الأزمة والتحكم فيها[٥٨]. ارتباطًا بذلك، يُذكر أن مجموعة نشطاء الروهينجا بالخارج قاموا في نهاية عام ٢٠٢١ برفع دعوة قضائية في الولايات المتحدة وبريطانيا ضد "فيسبوك" بسبب نشر محتوى بأغراض دعم العنف والاضطهاد الممارس ضد الأقلية المسلمة في ميانمار عقب انقلاب ٢٠٢١[٥٩]، الأمر الذي يدلل على أهمية النظر لما تقوم به منصات التواصل الاجتماعي من دور محرك للأزمات الكبرى، وإدراك ذلك يساعد في وضع آلية لإدارة وتوجيه هذا المحتوى بما يخدم قضية المسلمين في ميانمار.

تتضافر مع هذا المنحى، جهود المراكز والمؤسسات البحثية[٦٠]، في تناول القضية تناولًا علميًا، ووضع التصورات المختلفة عن الأزمة ومجرياتها، وتقديم التوصيات والتوجيهات للمؤسسات والقوى السياسية ذات الشأن. وكذلك من اللازم مساندة دور منظمات الإغاثة[٦١] في دعم اللاجئين والمتضررين من الحملات العسكرية التي تقع في إقليم راخين.

- **مستوى الإعلام العربي والإسلامي:**

لا شك أن للإعلام -المتمثل في القنوات الفضائية ووكالات الأنباء والمواقع والصحف الإخبارية– دور قوي في إدارة الأزمات وطرحها على الرأي العام، وفي هذا الإطار يُناط بالإعلام العربي والإسلامي طرح القضية بقوة وخلق رأي عام نشط حول الأزمة ومستوياتها، وبهذا الرأي الداعم للقضية ولحقوق المسلمين

---

(٥٨) للمزيد حول أهمية إدارة محتوى مواقع الانترنت والتواصل الاجتماعي بهدف دعم الأقليات المسلمة، انظر: محمد عجم، مواقع الإنترنت الإسلامية ضرورة دينية واجتماعية لخدمة الأقليات المسلمة، جريدة الشرق الأوسط، ٢٠١٠، تاريخ الاطلاع ٣٠ مايو ٢٠٢٢ متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3PSLVCQ

(٥٩) لاجئون من الروهينجا يطالبون فيسبوك بـ ١٥٠ مليار دولار، BBC، ٧ ديسمبر ٢٠٢١، تاريخ الاطلاع: ٣٠ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3PUTo44

(٦٠) نشير في هذا الصدد إلى وجود مجموعة من المراكز البحثية المتخصصة في تناول الشأن الروهينجي، مثل: مركز الدراسات والتنمية الروهينجية، لكن ما لمسناه أن هذه الجهود تحتاج إلى مزيد من التطوير المنظوم وفق رؤية شاملة لدعم شامل للقضية، حيث أن المركز المشار إليه مثلا لم نجد له موقعًا إلكترونيًا، وإنما صفحات على منصات التواصل الاجتماعي، وله بعض الدراسات والكتب المنشورة على مواقع أخرى.

(٦١) جدير بالإشارة أن هناك بعض الجهود الإغاثية للروهينجا الملموسة عقب انقلاب ٢٠٢١، فعلى سبيل المثال أطلقت جمعية الرحمة العالمية مبادرة لدعم اللاجئين في بنجلاديش بعد أحداث الإنقلاب، انظر: "الرحمة العالمية" تطلق الجمعة حملة إغاثة الروهينجا، مجلة المجتمع، أبريل ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٣٠ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3NPqOzw ، وكذلك جهود الهيئة العالمية للإغاثة والتنمية في تركيا لدعم الروهينجا، راجع: تقرير قناة الحرة عن أزمة الروهينجا، يناير ٢٠٢٢، تاريخ الاطلاع: ٣٠ مايو ٢٠٢٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3z9CzfL

المضطهدين في ميانمار، يمكن أن يلاقي أي تحرك على أي مستوى قبول عام من الحكومات والقوى السياسية والأحزاب والمنظمات ويجد السبيل نحو الواقع الفعلي.

وعليه، ومن خلال تكامل هذه المستويات، فإعلام حقيقي يعرض للقضية وأحداثها، بجانب مراكز بحثية تهتم بالتنظير والتأريخ للأزمة، ومنظمات إغاثية تقدم المساعدات، وهيئات دينية ذات دور توعوي توجيهي، ووسائل تواصل اجتماعي إيجابية تدعم القضية وتحرك الشارع نحو موقف فعلي لحث الحكومات والمؤسسات لاتخاذ موقف داعم جاد، هكذا يمكن الحديث عن تفعيل دور عربي وإسلامي داعم لقضية مسلمي الروهينجا، وتتجدد الآمال نحو إنهاء القمع والعنف ضدهم.

*****